المشروع النهضوي العربي

الكتاب: المشروع النهضوي العربي

الكاتب: د. برهان زريق

الطبعة الأولى: 2001

جميع الحقوق محفوظة لورثة المؤلف

الكتاب صدر بعد وفاة المؤلف يرحمه الله

لذا لم يحظ بالتدقيق من قبله

يرجى موافاتنا بملاحظاتكم واقتراحاتكم

على البريد الالكتروني:

Burhan_zraik@yahoo.com

موافقة وزارة الاعلام السورية على الطباعة

رقم/48184/تاريخ 2001/7/12

د. برهان زريق

المشروع النهضوي العربي

أعيش...لأكتب

المحامي الدكتور
مهران زريق

النهج المعاصر

«مسألة تجددنا الحضاري وموقعنا من حضارة الغرب»

يمكن التأكيد بيقين أن هذا القرن تمخض عن نتائج، وتفجر عن معطيات هائلة يصعب الإحاطة بها في هذه الرقعة المحددة من البحث.

ومرد ذلك ولا شك الثورة العلمية الجبارة التي ألهبت العقول وجيشت الخيال، وعبأت النفوس، وأطلقت الآمال في الصدور، ودغدغت الوعود والمطامح، وأشعلت الرغبة في التحرر، وكأننا أمام مارد جبار خرج من القمقم منطلقاً يملأ سمع الدنيا وبصرها وجوداً وحضوراً، مزلزلاً كل شيء، ومفجراً كل طاقة.

يمكن القول إن هذه الثورة العلمية والتكنولوجية أنتجت ما أنتجته بمقياس فلكي لا سيما إذا ما قورن بالثورة الصناعية التي استغرقت ثلاثة قرون، وبالثورة الزراعية التي استغرقت ما لا يقل عن عشرة آلاف سنة.

لقد بدأت هذه الثورة العلمية بتفتيت الذرة، والإطلال على نهائية الصغر، ثم استطاعت عبور الفضاء الخارجي وملامسة لا نهائية هذا الكون، مروراً بلا نهائية تداخل العلوم والفنون، وما فتئت هذه الثورة تطالعنا كل يوم بالجديد بما يبهر العقول والقلوب ويجعلنا في ذهول من أمرها.

ومن أبرز نتائج هذه الثورة أنها تمخضت عن ثورة المواصلات الساحرة التي وضعت الإنسان أمام مفهوم جديد للزمان والمكان، وجعلته أكثر قدرة على الإفادة من وقته، فقربت المسافات والشعوب، إلا أنها أقامت الصواريخ إلى جانب الطائرات النفاثة، وبلورت الصواريخ إلى صواريخ عابرة للقارات، ثم إلى صواريخ حاملة للرؤوس نووية، ثم إلى قاذفات استراتيجية نووية قادرة على تدمير العالم ولقد تمخضت الثورة العلمية والتكنولوجية عن ثورة الاتصالات التي استطاعت أن تحكم الأسوار بين الشعوب، وألغت العزلة، وزادت من معرفة الإنسان بما حوله في كل مكان.

وأصبح الناس أكثر تواصلاً وإلماماً بأحوال بعضهم ولغات غيرهم وثقافات سواهم، إلا أنها جعلت إمكانية نمو الثقافات القومية على قاعدة مستقلة أمراً مستحيلاً، كما جعلت الأقوياء والأغنياء أكثر قدرة على التدخل والعدوان على ثقافات الشعوب الضعيفة والفقيرة، حتى أصبحت الثقافة القومية من الغزو الخارجي أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

ومما تمخضت عنه الثورة العلمية «فيما تمخضت عنه من الشيء الكثير» ثورة المعلومات ورمزها وقوامها الكومبيوتر، تلك التي تثير الدهشة والخيال بسبب ما يمكن أن ينجزه الكومبيوتر من خزن ما لا يحصى من المعلومات ثم استعادتها بسرعة فائقة، إضافة إلى عمليات التحليل والتركيب بما يجاوز حدود العقل.

وفضلاً عن ذلك فهذه الثورة العملية كان لها دورها الباهر في حقل الإنتاج، فقد حطمت نظرية "مالتوس" المشهورة، حيث استطاعت الصين على سبيل المثال أن تطعم سدس سكان العالم بأراض مزروعة لا تزيد عن ثمن أراضيها الصالحة للزراعة.

وإذا كان بالإمكان إطلاق تعبير النهج العصري على هذا الوضع الحضاري[1]، إذا كان الأمر كذلك، فهذا النهج «وهو حضاري كما قلنا» شمولي يتناول الإنسان والعالم، ولا يمكن أن يفلت منه أمر من الأمور سياسياً كان أم اقتصادياً أم اجتماعياً أم فكرياً، وهذه العناصر جميعاً تتداخل في النهج العصري لتنتج صورة جديدة للعالم ومفهوماً جديداً للحياة.

ولعل جوهر هذا النهج هو العقل لسبب بسيط هو أن حياتنا وعالمنا قائمان ومحمولان على العلم والمعرفة ومجتمعنا وعصرنا هو عصر العلم والمعرفة وهذا الدور وتلك الأهمية للعلم والمعرفة جعلت النهج العصري أمراً محتماً لا تراجع عن معطياته، ولا نكوص عن عقلانيته، ولا عزله بعد اليوم لجماعة، ولا اكتفاء ذاتياً، ولا خروج عن الركب، اللهم إلا إذا أرادت الجماعة أن تكون على هامش التاريخ، ومن جهة أخرى فلا مجال للتحدي بالخصوصية الذاتية بل إن هذه الخصوصية يجب أن تدفع إلى المزيد من الانكباب على المعاصرة والإمساك بتلابيبها والعب من منهلها.

وإذا كانت مغامرة الروح البشرية قد توصلت إلى تلك الثورات العلمية في سياق تاريخي وحفراً في معين هو الغرب فمما لا شك فيه أن تلك الروح هي العقل الكلي الإنساني الذي ألهب ضياءه ونوره زيت البشرية، وكان بين الفترة والأخرى يمر على هذا الشعب أو ذاك فيصب في مشعله وقوداً، يحدد خطاه واستمراريته.

وبهذا المعنى فالمنهج العصري هو ثمرة عطاء البشرية جمعاء وإن كان قد أينع ونضج في سياق تاريخي محدد.

---

[1] – هذا التعبير للدكتور معن زيادة: مجلة الفكر العربي، عدد 66، لعام 1991، المقدمة.

ومن جهة أخرى فلهذا النهج محاسنه ومساوئه مثله في ذلك مثل أية ظاهرة إنسانية أو إبداع بشري، وإذا كنا قد تحدثنا عن إيجابيات هذا النهج «وهي كثيرة» فيجب علينا أن نعرض للوجه الآخر من رأس جالينوس ذي الوجهين، وبالتالي علينا أن نكمل الصورة فيما يتعلق بالتحديد الذهني للإنسان ونظرته إلى الحياة والوجود والكون والزمن.

وحقيقة الأمر أن هذه التحولات العميقة التي تولدت على يد العلم أنتجت نمطاً من الإنسان العصري مثقف بخصائص محددة، فهو إنسان أكثر استعداداً للأخذ الواعي والعميق بمبدأ الحرية والديمقراطية، وهو إنسان أكثر تسامياً واستعداداً لقبول تعدد الآراء، كما أنه أكثر استعداداً لقبول التغيير واعتناق تجارب جديدة، وهو إنسان يعرف قيمة الزمن ويعيش الحاضر، ويهتم بالمستقبل أكثر من الماضي، بل إنه يمتلك رؤية ديناميكية للزمان والمكان، وهو فاعل في هذا الزمان والمكان يعرف أن التطور والتقدم لا يحددان بذاتهما دون تخطيط وتنظيم[1].

وإذا كان هذا الوجه المنير للنهج العصري، فهذا النهج «لا محال» لجالينوس يحمل وجهاً آخر تعلوه بعض مظاهر القتر والكآبة، وهو أمر منطقي، وإن كانت مغامرة الروح الإنسانية، ودراما العقل الكلي البشري يحاولان أن يطفح الوجه المنير لجالينوس بالضياء وأن تنكمش معالم الكآبة عن الوجه الآخر.

ما هي الكآبة على الوجه الآخر لجالينوس النهج العصري؟.
أولى هذه السلبيات وأهمها أن حرية الفرد والمجتمع تتعرض لمحنة كبرى بسبب طغيان الآلة والتكنولوجيا على الحياة، وبسبب تسارع إنتاج الآلات المتطورة وازدياد شعور الإنسان بالعجز.

---

[1] - مداخلة د. معن زيادة: مجلة الفكر العربي، عدد 66، ص16.

أما ثانية هذه السلبيات، فهي خطر الحروب المتزايدة بسبب تزايد الأسلحة الفتاكة بأشكالها المختلفة ناهيك عن أن هذه الأسلحة تفسح المجال لإنتاج الهيمنة على يد الدول القوية دون إنتاج المعنى والقيمة.

ولعل الأثر السلبي الثالث يظهر في المجال الاقتصادي، وما يجره على الدول الضعيفة من استغلال وامتصاص لدمائها وهدر لطاقاتها ودفعها إلى الحروب والامتثال من أجل شراء الأسلحة من الدول القوية، ويكفي أن تلقي نظرة عابرة على ميزانيات دول الجنوب لترى أن قسماً كبيراً من أموالها ينفق على التسلح الذي لا طائل منه.

وفضلاً عن ذلك فقد اتسعت الهوة الاقتصادية بين الشعوب والدول حتى باتت إمكانية لحاق أهل الجنوب بأهل الشمال مستحيلة.

ويرتبط بذلك سلبية خاصة هي اختلال النظام الاقتصادي العالمي، وازدياد الأزمات الاقتصادية وتوترها، وحل الدول الكبرى هذه الأزمات على حساب الدول الصغرى، حيث اختلت معدلات النمو، وتفشت البطالة، وعرف العالم ظاهرة التضخم وارتفاع الأسعار، وكثر الديون، وتلون البيئة، والشره الاستهلاكي الذي ظهر في القرن، وتفجر الأزمات الاجتماعية وبروز ظاهرة العنف، واستغلال الدراسات السلوكية للتحكم بالإنسان وغسل دماغه، بل لقد بلغ التحكم بالإنسان أن هدد بالتدخل في صنعه عن طريق ما يسمى بهندسة الجينات.

ونتيجة لهذه السلبيات، فقد ارتفعت في الغرب بعض الأصوات التي تطالب بالإمساك بشكيمة هذه المعاصرة التي أثقلت كاهل الإنسان وأبهظته بالأعياء، مما أدى إلى هذا الانحراف الآنف الذكر في بوصلة حياته وإلى هذا الاضطراب في توازنه، وحقيقة الأمر أن الإشكالية ليست في العلم أو التكنولوجيا، بل في الثقافة

الغربية التي أزاغت بوصلة التكنولوجيا عن وجهتها وطريقها السليم تلك الثقافة التي تزداد علواً وغلواء واستكباراً في الأرض وتغليباً لإنجاز الهيمنة على إنجاز المعنى والقيمة، فهنا تكمن أزمة الحضارة الغربية، وهذا هو سبب تلك الوحشية البالغة التي تنفجر بها تحولات العالم، أن يصمم على إعطائها الحل المناسب لا سيما أنه قادر على ذلك.

ومركبته تستطيع أن تقود قطار الإنسانية إلى شاطئ الأمن والأمان والرفاه، وعلى هذا فإذا كان صحيحاً أن هذا النظام الجديد جديداً، فعليه أن يواجه هذه المسائل العويصة والمشتركة، ومن هذه المسائل مسألة البيئة ثم الهجر، ومكافحة المخدرات ومقاومة الإرهاب والقضاء على مرض نقص المناعة والذي يبدو أن دول الشمال تضفي على هذه المسائل من المدلول ما يتفق مع مصالحها، فحماية البيئة له معنى واحد هو منع دول الجنوب من التصنيع.

ويؤكد "الدكتور سمير أمين" أن من مظاهر التناقض الذاتي في الرأسمالية، تعارض قواعد الحساب الاقتصادي مع مقتضيات ضمان الحياة على الكرة الأرضية، إذ تقوم هذه القواعد على منطق قصير الأجل، ولا تمتد آفاق حساب الرعية إلى أكثر من عشرة أو خمسة عشر عاماً، وهذا ما يتطلب مواجهة المشاكل المترتبة على تدهور ظروف البيئة أخذ الأجل الطويل في الاعتبار اعتباراً حقيقياً[1]، أما بشأن العجرة فخطرها يتفاقم بسبب الفقر والجوع والحروب ومع ذلك فالغرب لا يزال سادراً في إشعال الحروب في دول الجنوب، وأما مكافحة المخدرات فقد أعطت دول الشمال المبرر للتدخل في شؤون الدول الفقيرة.

[1] – د . سمير أمين: مقاله الموسوم بعنوان: مقتضيات برنامج تحرري إنساني، مجلة النهج، لعام 1997، ص6.

وأما مرض الإيدز فالغرب يعزو مصدره إلى زائير وغيرها من الدول الإفريقية متناسياً أسباب انتشاره المتجددة في الغرب خاصة والعالم عامة.

وبرنامج الأولويات هذا يعني باختصار أن دول الشمال ماضية في غيها لإحكام هيمنتها على دول الجنوب ومنعها من الانخراط في التنمية والتصنيع، بل إن هذه الدول تزداد في غيها كلما اشتدت الأزمات عليها وبدلاً من أن تواجه الحقائق بصورة إنسانية وجذرية فإنها تجيرها إلى كاهل الدول الفقيرة.

ونظرة بسيطة إلى ما يحدث في الولايات المتحدة كنموذج لهذا الغرب، نجد أن هذه الدول تسرف في الإمساك بخناق العالم الثالث بالآليات الآتية: الدولار- المعادن- البترول- الأسلحة.

فقد خفضت هذه الدول قيمته لا سيما تجاه الين الياباني والمارك الألماني والعملات الأوروبية، وزادت في حجم تداوله الأمر الذي جعل حملته خارج الولايات المتحدة يخسرون الشيء الكثير، وكذلك الأمر بالنسبة لقيمة المعادن الثمينة، فقد انخفضت قيمتها مما سبب خسائر كبيرة على منتجي ومصدري تلك المعادن، والمستفيد في ذلك هو الاقتصاد الأمريكي.

وإذا انتقلنا إلى مجال النفط، فإننا نجد أن الولايات المتحدة تمسك بتلابيب النفط وناصيته لا سيما في دول الخليج العربي، وهذا الأمر ليس غريباً عن الولايات المتحدة ومن ورائها العنصرية الغربية التي حولت عالمنا إلى وحش تسوده شريعة الغاب، كيف لا وهذه العنصرية تعتقد أنها مركز التاريخ والحياة وما عدا ذلك فولكلور وهامش.

بعد هذه الصورة يصبح التساؤل ما هو طريق الخلاص؟.

هذا الطريق على لسان الدكتور "شاكر مصطفى" هو تلك المشاريع المستغلة التي أخذت تراود أحلام دول الجنوب، بعد أن استيقظت هذه الدول من غفوتها على صوت تلك المطرقة التي انهالت على رأسها من قبل دول الشمال، وبعد أن عادت دول الجنوب إلى نفسها وتراثها وقيمها مجددة ثقتها بذاتها، مدركة عيوب المشروع الغربي وفي نظر "الدكتور معن زيادة" أن ظفر هذه المشاريع يتوقف على ما يلي:

1- النهج العصري أو المعاصرة، وما تشمله من تحولات وتحديات، وما أفرزته من ثورات ومتغيرات وتفاعلات واكتشافات واختراعات وتصورات تكامل بعضها، وما زال البعض الآخر في طريقه إلى التكامل.

هذه المقدمة تعني بالجانب المادي من المشروع، جانب المعطيات والوقائع المادية العلمية والتكنولوجية، بل والقوى الاجتماعية والاقتصادية والبشرية والطاقات البشرية التي تحرك تلك الوقائع وتتفاعل معها .

2- الإبداع الثقافي الذاتي المتمثل لمعطيات الفكر والمدرك لطبيعة العالم المتطلع إلى المستقبل والمستلهم التراث والهوية القومية والحضارية الخاصة بكل أمة، وهذه المقدمة تتناول الجانب الإبداعي المندفع إلى تحقيق صيغ لتمجيد الإنسان وتعزيزه وتكريمه، وترسيخ الشرط البشري والعدل الإنساني، ذلك العدل الذي لا نرتضي فيه أن نكون برابرة الحضارة والهنود الحمر الذين يعيشون على هامش الحياة.

هاتان المقدمتان الضروريتان لأي مشروع حضاري عربي جديد لا رجوع إلى الوراء ولا تخل عن الهوية الذاتية[1] .

[1] - د . معن زيادة، المداخلة السابقة، ص21.

ويتابع "الدكتور زيادة" القول: ((نطالب بنظرة مستقبلية شاملة بانبثاق رؤية حضارية كاملة للغد لا بالمعنى الميتافيزيقي، ولكن بالمعنى الجدلي، ومن خلال المعاناة والصراع العتيق والجهد الإبداعي والتغيير الجذري في البنى الإنتاجية والاجتماعية والثقافية، نطالب بثورة ثقافية كيانية تضع المشروع المستقبلي لنا ولبني الإنسان)).

إن الدخول في آفاق المعاصرة لا يمكن أن يؤتي أكله يانعة إلا إذا امتلك المواطن العربي أقداره وصنع زمانيته وحياته ومصائره، وخرج من دائرة عطالته، وكان صانعاً للتاريخ لا موضوعاً له.

وهنا نضع أنفسنا أمام جدلية الحرية والحقوق العامة في مواجهة السلطة، حيث لا يمكن أن يتم الإبداع التاريخي إلا بتحققات هذه الجدلية.

هذه الجدلية ترقى بنا إلى التطابق بين الهوية الثقافية لأمتنا وبين هويتها السياسية، حيث تكون السلطة «سلطة المجتمع والشعب» "روحه، عقله" انطلاقه، أهدافه، وأمانيه، مركز اتضاح القرارات المتعلقة به، المشروع العقلي الذي يحيط بمبادراته، والوسيلة الفذة لتحقيق قدراته في دولة الأمة، ولتحقيق إندراجنا في الصيرورة العالمية، وفي التنمية الحضارية، وفي فتح الآفاق واسعة أمام بلورة الإرادات الاجتماعية، وليس العكس كما يتجلى في إلحاق المجتمع بالسلطة، وذوبانها في إرادتها، وتقزيم المواطن في وعيه وحريته وضميره.

وتجدر الملاحظة إلى نقطة أساسية هي ضرورة الالتحام بين العلم والثقافة، فهذا الالتحام هو عنوان هذا العصر وناهضه ورافعته، العلم يرشد العقل، يحدد علاقته مع الطبيعة وأسرارها، والثقافة تقدم له منظومة القيم والقول بغير ذلك يضعنا

أمام التحديث لا الحداثة، حيال حضارة شيئية، أمام موت الإنسان، وهذا هو مغزى خيبة الأمل في الحضارة الغربية التي تكلم عنها الكثير من مفكري الغرب.

ومن جهة أخرى فالحديث عن المعاصرة لا يتم إلا من خلال الذات والهوية والشخصية القومية[1]، وإلا كنا أمام انغماس في الغير انغماساً يفقدنا وجودنا ويجعلنا إمّعات غير قادرين على إنتاج وإنجاز المعنى والقيمة وممارسة الحق التاريخي في ذلك، وهذه هي جدلية الهوية والمعاصرة التي تعني عدم الانغماس في الآخر أو الانكماش عنه في كهوف الذات، بل الاستجابة الخلاقة لظروف العصر وإنجازاته الفذة.

وبالطبع فمحصلة الحضارات الإنسانية أن تتعامل معنا كذوات فاعلة وإن استراتيجية التجديد الثقافي هي الإشكالية الأساسية في مجال الثقافة العربية المعاصرة، ومن جهة أخرى فإن قبول المغامرة الغربية في المجال الثقافي ليست هي حصيلة تمييز جغرافي أو امتياز عرقي، ولا عقيدة ومعتقدات جامدة، ولكن باعتبارها أولاً وأخيراً تركيباً حضارياً، يرفد ذاتيتنا بما يمنحها من القوة اللازمة للوجود والتقدم.

هنا تبرز ضرورة المقاربة التاريخية والنقدية للمجهود الثقافي الغربي، هذه المقاربة التي تؤدي ممارستها إلى إخصاب فكر وإخصاب مقدرتنا ووعينا على العطاء.

ومن هنا فإن ممارسة المعاصرة والتمرس بروح الوجودية الدافعة للابتكار الحضاري، هذه الأمور لا تعني التبعية أو الغزو، بقدر ما تعني ممارسة حق تاريخي

---

[1] – د. جدعان وقد أطلق تسمية "النوابت" على أولئك الذين لا ينطلقون في بناء الحضارة من الذات، كتابه أسس التقدم عند علماء المسلمين، بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ص8.

يؤهلنا لتدعيم ثقافة إنسانية بلا حدود، وتهبنا القدرة آجلاً أو عاجلاً على احتلال مكانة ممتازة في مجال الإنجاز والتجديد، كمنشئين، وعلى قاعدة الندّيّة (دع الزهور تتفتح) في معركة العطاء الإنساني أو كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ **المطففين/26.**

إن معركة الذات هي بداية كل معرفة صحيحة، ومن خلال هذه الذات لمنطلق أعلى العالم، ومن لم يدرك ذاته تختلط عليه الأمور ولا يدرك شيئاً، والنفس الإنسانية تعانق الأشياء بعد أن تصب عليها عصارتها الهاضمة وتتمثلها، ولا تنقلها نقلاً، ذلك أن الحقائق الإنسانية نسبية، ولا تعرف الإطلاقات، والقول بقوة المعاصرة ضرب من المبالغة، وبالتالي «وكأية حقيقة إنسانية» يجب أن تواجه بقوة أخرى تحد من غلوائها، وهذه القوة هي قوة الذات.

وبمعنى أوضح فإن نظرة بسيطة على حقائق الحياة ترينا أنها عبارة عن مجموعة من الموازنات حيث كل حقيقة تتوازن بحقيقة أخرىContradictories استناداً إلى قانون نسبية الحقائق الإنسانية الذي كشف عنه "مونتسيكو" ودعا إلى موازنتها Contrepartie مع الحقائق الأخرى، وعلى سبيل المثال فلو ألقينا نظرة إلى النظام القانوني لوجدناه «حسب تعبير هوريو» عبارة عن لوحة كلاسيكية كل مبدأ فيه يتوازن مع مبدأ آخر.

فالدستور مثلاً وهو يتسم قمة النظام يوازي بقواعد القانون الدولي أو المواثيق الدولية، والقانون الصادر عن مجلس الشعب يطعن به أمام المحكمة الدستورية، والحكم الصادر عن القاضي «ومع أنه عنوان الحقيقة» قابل للطعن فيه بدعوى مخاصمة القاضي أو إعادة المحاكمة وغير ذلك.

إذن لا يجوز المبالغة بقوة المعاصرة، ومن جهة أخرى لا يجوز التعامل مع حقائقها إلا من خلال الهوية التي هي البوصلة أو المصفاة التي تحدد مدى العلاقة مع المعاصرة، وإلا كنا كالغريق في اليم تتقاذفه الأمواج هنا وهناك.

إن الاستثمار الخلاق لا يتم بواسطة التقليد بل بمحاورة الآخر، وحوار الآخر لا يتم إلا بالتكافؤ، والتكافؤ لا يتم بمجرد استعمال الذاكرة، ولن يكون بدغدغات الذات، أو الاعتقاد بأن خصوبتها العتيقة والبالية قادرة على مواجهة الدينامية القوية لثقافة نهاية القرن العشرين.

إن حواراً ثقافياً يسلم بتوجيه كوني للثقافة دون نفي الاختلافات ويسلم بوحدة التاريخ الإنساني دون رفع التناقضات والصراعات هو واحد من الطرق التي تتيح لنا إمكانية المساهمة في الإبداع الثقافي والتجديد الثقافي الذي تسعى إلى تحقيقه وامتلاكه من أجل إغناء ذاتنا التاريخية.

المشروع النقيض

المعرفة الحقة للذات «ولا شك» هي أساس كل معرفة، ولكن أليس الآخر توأم الذات، ومن المتعذر معرفة الذات دون معرفة الغير.

على هذا الأساس فالحديث الكثير في أدبياتنا الاجتماعية والسياسية عن النفس يعفينا من الكلام على المشروع الآخر وهو المشروع النقيض...ما هو هذا المشروع؟؟

ما هو جدير بالتنويه أن هذا الجهاز المفاهيمي ليس عربياً، إذ الغرب هو الذي أسس علم الاستشراف من أجل الحصول على النتائج العلمية تمهيداً لامتلاك قدرات بلادنا .

وفضلاً عن ذلك فنحن لم نسير الجيوش ونحتل الأراضي ونستنزف الثروات، كما حصل في الحروب الصليبية، ومثلها معها في الاستعمار الحديث.

ومع ذلك علينا أن نحذر الغلاء في الإضافة إلى أحداث التاريخ وما رسبته من عوامل نفسية، بل يجب أن يكون جهدنا ووكدنا صنع المستقبل والالتجاء إليه، بعيداً عن الهوس القومي والشعار الذاتي، وسبيلنا إلى ذلك أن لا يتعامل مع العالم الغربي ككتلة صماء، بل يجب التعامل معه جدلياً وواقعياً كعالم ملئ بالتيارات

والتضاريس والتفعيلات فيها الظلامي، وفيها الإنساني[1]، فيها القمح وفيها الذؤان، كل ذلك سعياً وراء تعزيز الشأن الإنساني العام، ودفع المركبة الدولية نحو تحقيق الشرط البشري ونسج عوامل التوليد والجمع وصنع ما هو مشترك ورفع ما يفرق ويمزق.

هذا من حيث المنشأ، لكن هذا المنشأ المتسامح يجب أن يقترن بالقوة وعدم الغفلة، وبالعكس فإن التسامح المقترن بالغفلة والعته القومي والاستكانة ليس مآله إلا الفوت والموت.

ويظهر أن الرياح تجري عكس ما يرتضيه التسامح والشأن الإنساني العام، والغرب بصورة عامة لا يزال مصراً على مشروعه النقيض على أن نمضي بالفكر الولايات المتحدة وانكلترة أو من يؤيدهما.

ولكن الأحداث الأخيرة المرتبطة بالمسألة العراقية لا تترك مجالاً للتردد بقيام هذا المشروع النقيض، ولعل الأحداث الخطيرة التي ترتبت على أحداث العراق لا تترك مجالاً للتردد بقيام هذا المشروع النقيض.

ويمكن القول إن المسكونة زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها وقال الإنسان ما لها... أجل زلزلت الأرض زلزالها، وأصابتها الرجفة الكبرى، وتشققت الأرض عن أدبيات وآراء وتصريحات وألوان مفكرين وصحفيين ما لم يحدث حول أي حدث تاريخي.

والسؤال المطروح هو ما سبب هذا الموقف من الولايات المتحدة وانكلترة؟؟.

---

[1] – انظر في الحديث عن هذه العوامل النفسية تجاه الغرب، ثناء فؤاد عبد الله: إشكاليات التفاعل والحوار الحضاري بين العرب والحضارة الغربية، مجلة المستقبل العربي، عدد 167، لعام 1993، ص45.

أجاب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق بأن العرق لها من الأهمية ما يفوق أهمية الاتحاد السوفيتي...لكن لماذا ذلك؟.

الجواب بسيط لأن أرضنا تحتضن أضخم ثروات العالم...إذن الأمور واضحة، بل إن الولايات المتحدة صرحت لأكثر من مرة بأن نفط الخليج جزء من مصالحها العليا.

لقد تفرعت هذه الدولة بأن العراق يهدد أمن الخليج، لكن الأحداث تؤكد أن دور هذه المنطقة أجمعت على عدم ضرب العراق.

زد على ذلك فقد جرى إحصاء في السعودية أكد أن 90بالمائة من السكان يرفضون بقوة ضرب الشقيقة العراق.

ونعتقد أن هذا الموقف لا يختلف في أي قطر عربي عما هو في الشقيقة السعودية، إذ «على سبيل المثال» حصل تحرك جماهيري استهدف الحصول على مليون للتوضيح، فكانت المفاجأة أن تلك الحملة استطاعت أن تحصل على/18/مليون توقيع[1].

[1] - كرامة الأمة لعام 1997 المقدمة إلى المؤتمر القومي الثامن المنعقد في القاهرة، المدة من 27- 1998/4/30، ص2، وقد سمعت بنفسي مداخلة قدمت للمؤتمر من أحد البارزين في حملة الحصول على التواقيع.

لا بل وأبعد من ذلك فإذا بدت الولايات المتحدة[1] عام 1996 بأنها الأعلى صوتاً في مواجهة أربعة عشر صوتاً دولياً في أزمنة الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة، فإنها عجزت عن أن تؤمن لنفسها وضعاً مماثلاً في أزمتها الأخيرة مع العراق عام1997 ، علماً أنها كانت قد عمدت إلى السلوك نفسه (ضرب العراق ضد الارادة الدولية) مرتين متتاليتين منذ انتهاء حرب الخليج الثانية.

أكثر من ذلك، فقد ظهرت الولايات المتحدة عاجزة عن أن تؤمن لسياستها حيال العراق تأييداً حتى على المستوى الأمريكي، وقد مثلت ولاية أوهايو –التي كانت نقطة الانطلاق في الحركة المناهضة للحرب الفيتنامية- نقطة جديدة لانطلاق الحركة الرافضة لضرب العراق، بعد أن قارن ممثلوها بين موقف أمريكي وآخر، وبين رد فعل أمريكي وآخر، وبين سياسة أمريكية وأخرى رغم تشابه المحرك للموقف ورد الفعل والسياسة الأمريكيين.

إذن ما هو مبرر هذه الخطة العسكرية الجبارة التي عبأتها أمريكا؟.

تجيب أمريكا بأن العراق حالفت قرارات مجلس الأمن، لكن هل المخالفة «على فرض صحتها» تقتضي ذلك، ألا يجب ان ينبري مجلس الأمن للدفاع عن قراراته ويقول ثمة اختراق، وإن هذا الاختراق يستوجب كذا... عقوبة، وبالتالي فهل ان أي اختراق يؤدي إلى شن حرب، ثم إذا كان الأمر كذلك ألا يجب أن يصدر قرار عن مجلس الأمن يتضمن مدة الحرب وموضوعها وغاياتها وآلية تنفيذ هذه الحرب والدول التي تشترك لذلك، وغير ذلك من الأمور.

---

[1] - كراسة (حال الأمة) لعام 1997 المقدمة إلى المؤتمر القومي الثامن المنعقد في القاهرة للمدة من 27-1998/4/30، ص2، وقد سمعت بنفسي مداخلة قدمت للمؤتمر من أحد البارزين في حملة الحصول على التواقيع.

إن التجاء مجلس الأمن إلى القتال لا يتم حسب الميثاق إلا في حالتين:

أولاً : أن تشن دولة الحرب.

ثانياً : أن تهدد دولة ما الأمن الدولي.

والسؤال المطروح هو أين هذان الشرطان...

لقد أعلن "كوفي عنان" مساء 1998/2/22 -والكل محبوس الأنفاس ينتظر مباحثاته مع العراق- أنه توصل إلى اتفاق مع بغداد، لكن وزيرة الخارجية الأمريكية صرحت بوقاحة أن الولايات المتحدة ستفحص هذا الاتفاق، وترفضه إذا تعارض مع المصالح العليا لدولتها، مع التنويه استطراداً بأن معهد يروكنغ الأمريكي أعلن نتائج احصاءاته لهذا اليوم بأن الشارع الأمريكي غير راض عن شن تلك الحرب.

لماذا نتعب أنفسنا بالحفر والتنقيب عن ترهات وأراجيف الولايات المتحدة، ومثلها معها ربيبتها انكلترا وحسبنا رداً على ذلك موقف الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن: فرنسا – روسيا- الصين.

ويمكن القول أن هنالك اسباباً متعددة إيجابية وإنسانية حدت هذه الدول لتحمل مسؤولياتها التاريخية على هذا الكوكب، لكن من هذه الأسباب الدافعة لهذا الموقف دفاع تلك الدول عن نفسها من الفيل الأمريكي الذي يتخيل أن العالم غرفة من زجاج، وأن عليه أن يكسر فيه ما يشاء.

إن بلوغ الولايات المتحدة المرحلة العليا للرأسمالية، ثم تغلبها على عدوها التقليدي التاريخي الاتحاد السوفيتي، يضاف إلى ذلك ضعف مجلس الأمن، ثم ضعف البنية الداخلي للوطن العربي، كل هذه الأسباب تعزز بربرية الولايات المتحددة

ووحشيتها واستئسادها، والسماح لنا بالحديث عن هذا المشروع المقيت، وعن تلك المؤامرة العالمية الامبريالية[1] الكبرى التي اجهضت مشاريعنا القومية (محمد علي وعبد الناصر) وغيرها من المشاريع، والمشروع الغربي يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة يشد السير في محاولات الغزو والاختراق والاستيطان والاستنزاف.

إن قراءة بسيطة للتاريخ البعيد والقريب تؤكد أن العالم الغربي لا يني يقيم المشروع الاحتوائي الواحد تلو الآخر لأمتنا فهو «وعلى سبيل المثال» وقف أمام المد القومي العربي الكاسح ذي المضمون والبعد العربي والإنساني بقيادة عبد الناصر وأخذ يضم هذا المد بالشوفينية والاستعلاء مناصباً إياه مطلق العداء، في حين أن هذا التيار كان أبعد ما يكون عن الشوفينية، وقد التفت حوله الجماهير الشعبية، بل جماهير دول العالم الثالث.

وفضلاً عن ذلك فقد عبأ العالم الغربي بعض القوى العربية في الداخل كالرجعية والانتهازية واليمين الديني.

وهكذا وجدنا حليف الماضي يصبح عدو الحاضر قاصدين من ذلك موقف الغرب من القوى الدينية التي حالفها عندما كانت رجعية، لكنه أخذ يناصبها العداء عندما أصبحت وطنية (ثورة إيران وتركيا أربكان وبعض القوى الدينية المستنيرة) وأحسب بخطر الغرب على الهوية والذات العربية.

على هذا الأساس سنبحث الجذور التاريخية للعداء التقليدي مع الغرب ودوره في تأجيج هذا العداء، وفي اعتبار أمتنا عدوة تاريخية، ثم نعرج على موقفه العدائي من القومية العربية، ومن حركتها التاريخية في تحقيق الوحدة، ثم نعرض أخيراً للموقف الغربي الراهن من أمتنا، على أن نعرض لموضوع تسليم القيادة للولايات

---

[1] – دون المبالغة بدور هذه المؤامرة ودون التطفيف من أهمية الفاعل الداخلي لبنائنا القومي.

ودورها المعادي المتجبر من قضايانا وتقدمنا وحياتنا (خطاب النظام العالمي الجديد خطاب كوني أم خطاب غزو واختراق).

الجذور التاريخية لعداء العالم الغربي لأمتنا

لا يمكننا في هذا المقام أن نغض الطرف عن الحملات الصليبية التي جسمت على صدر أمتنا من سنة 1096- 1291م، وكم ساهمت في الدمار واستنزاف قدرات الأمة، وإيقاعها في نفق الفقر والخمول «عصر الانحطاط» كما لا نستطيع أن نغض الطرف عما حدث في الأندلس والفاتورة البشرية والحضارية التي دفعتها أمتنا في ذلك.

لا ريب أن هاتين الغاشيتين الحاقتين بأمتنا بفعل الغرب كأننا الخانق الذي منع أمتنا من أن تتنفس الصعداء، وهكذا فقد أخذ الغرب يستروح مستجمعاً قواه لتبدأ المنازلة الأخيرة التي خرج بها بارعاً معلناً شن حرب شعواء على أمتنا لاقتلاعها من جذورها، والغرب ماضٍ في عملية سحق الأمة ومحق ومحو حضارتها وهويتها ووجودها، وليست هذه المنازلة «التي انتهت بانتصار الغرب الكاسح» متوقفة على الأمة العربية، بل تعدى الأمر ظهير أمتنا ودائرتها الحضارية وعمقها الاستراتيجي ألا وهي الأمة الإسلامية ويمكن القول إنه عندما شب الغرب، وهبّ في حملته الاستعمارية الجديدة التي ابتدأت في القرن السابع عشر، عندما فعل ذلك، كان عليه أن يواجه الدول العثمانية، فالدولة المملوكية في مصر، فالدولة الصفوية في فارس، فممالك الزنوج الإسلامية في إفريقيا، فالدولة المغولية في الهند، أي كان عليه أن يواجه الأمة الإسلامية، وقلبها العالم العربي أو الأمة العربي وأضلاعها وعمودها الفقري الأمة الإسلامية.

والصراع لا يزال قائماً في المواقع ذاتها، فإيران الجمهورية الإسلامية عدو لدود للغرب، وفي المقابل فالولايات المتحدة الشيطان الأكبر في ناظري إيران، وهنالك أسباب وأسباب من أهمها:

الموقف المشرف للجمهورية الإسلامية من ربيبة الغرب- الصهيونية- وما يحدث في تركيا جزء من الغارة التي يشنها الغرب على هذه الدولة، بل جزء من تصميم الغرب لاحتواء العالم التركي "بما في ذلك الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي"، والموقف من أربكان واضح، والأسباب جليّة من ذلك الموقف الجريء لهذا الزعيم في الدائرة الإسلامية موقفاً يذكرنا بموقف عبد الناصر، وبالي فالعداء "لأربكان" لا يقل عن العداء لعبد الناصر، أما الفاعلون الاجتماعيون الذين وقفوا في وجه الصحوة الإسلامية في تركيا، فلا يختلفون عن الفاعلين الاجتماعيين وقفوا في وجه عبد الناصر، والموقف من السودان واضح، كل ذلك لأن هذا البلد يريد أن تكون له إرادة مستقلة، ويتعامل مع الغرب على أساس الندية والكرامة.

وإذا عرجنا على المسألة الفلسطينية، فهنا المأساة، حيث وضعت كل الحلول في يد الولايات المتحدة، واتخذ منها حكماً أميناً عليها، بل لقد التف قسم كبير من الدول العربية كحلفاء للولايات المتحدة ضد العراق، وكان على الولايات المتحدة أن تكون صادقة مع أمتنا فيما يتعلق بالوعود التي قطعتها على نفسها في أوسلو ومدريد وغيرهما وللموقف من الجزائر مشين، فهذا البلد العربي الشقيق المجاهد يتمزق من الداخل، والغرب ماضٍ في تفجير الأزمة دون أن يتحرك له ضمير.

ولنعد إلى المرحلة الاستعمارية معرجين بسرعة واختصار إلى ما فعله الغرب في تلك الحقبة[1]، لقد ركز على الغزو الفكري تمهيداً لاحتلال العقل العربي والإسلامي ليظل هو القبلة الحضارية لأمتنا، ولتتأكد تبعيتنا ومباشر الغزو الثقافي متعددة، وقد ابتدأها الغرب بالاستشراف، وهو الآن يتابع ضخ الأفكار ونماذج الثقافة التي تطمس ثقافتنا وتشوهها.

1- إيجاد أقلية دينية أو أكثر تعيش في محيط العروبة والإسلام وتقبل مع الغرب في هذا المشروع الاستعماري الحديث من أجل أن يمثل ثغرة اختراق الغربي للشرق.

وفي هذا الصدد نفكر بأن نابليون بونابرت أصدر نداء إلى يهود العالم أثناء حصاره عكا عام 1799، دعاهم فيها إلى إقامة الإمبراطورية الفرنسية مقابل أن يعيد لهم ملك بني إسرائيل، ومنذ ذلك التاريخ ابتدأت خيوط ومراحل الشراكة الصهيونية مع الغرب في مشروع إقامة قاعدة غربية صهيونية في أرض فلسطين في اختراق الوطن العربي.

وفيما يلي «على سبيل المثال والتدليل» بعض هذه المواقف الشائنة التي أوقعها الغرب على أمتنا:

تقرير لجنة "كامبل باترمان" حيث كان المذكور رئيساً للوزارة البريطانية وقد شكل لجنة من مجموعة من الأساتذة والخبراء في التاريخ والعلوم السياسية والاقتصادية كلفها الجواب عن السؤال الآتي: كيف يمكن أن يطول عمر الاستعمار الغربي؟.

كان جواب اللجنة: ((إن أخطر المناطق على الاستعمار الغربي تلك المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي والخليج، لأن هذه المنطقة يسكنها شعب واحد يتكلم لغة

---

[1] - مقال الدكتورة ثناء فؤاد عبد الله: إشكاليات التفاعل والحوار الحضاري بين العرب والحضارة الغربية، ص48.

واحدة، وتدين غالبيته العظمى بدين واحد، وشعب هذه المنطقة تتوافر فيه خصائص الأمة الواحدة والخطر أن يدرك شعب هذه المنطقة تلك الحقيقة وأن يسعى إلى إقامة دولة متحدة تعيش في تلك المنطقة الحيوية من العالم)).

ولقد أوصى واضعوا التقرير بتقسيم المنطقة إلى دول صغيرة فقيرة، وأن تؤجج فيما بينها البغضاء وأن يحال بينها وبين العلم، وأكد هؤلاء أن آخر سهم يحول دون تقدم المنطقة، وهو أن يقوم حاجز بشري غريب في المنطقة الواقعة شرق السويس، بحيث يفصل ذلك الجسم بين شرق هذه الأمة وغربها، وبحيث يتخذ كلياً لاستنزاف ثروات المنطقة والحيلولة دون تقدمها[1].

وإذا تذكرنا أن المؤتمر الصهيوني انعقد عام 1904 وأن تقرير هذه اللجنة قدم عام 1907 وأن وعد بلفور صدر عام 1917 أدركنا خط الارتباط بين هذه الأحداث الثلاثة.

إجهاض تجربة محمد علي باشا: وتؤكد لنا الموارد التاريخية أن المذكور انطلق في نهضة متكاملة ومستقلة استهدفت إقامة الصناعات الحديثة وإصلاح وتوسيع نظام الري، وإصلاح النظام الضريبي، وفرض احترام لقانون وضع كل ذلك فقد اجتمع الغرب بقضه وقضيضه على إجهاض، حتى الصديقة التقليدية فرنسا لم تتوان عن الانضمام إلى الحلف الغربي من أجل هذه الغاية وتجدر الملاحظة إلى أن النهضة لم تحدث في مصر فحسب، بل امتدت إلى كافة الأقطار العربية ولقد بدأت هذه النهضة الشاملة في بعض الدول العربية قبل حملة نابليون[2]، ولكن هذه

---

[1] - د. ثناء فؤاد عبد الله، المرجع السابق، ص51.

[2] - مقال د. ثناء فؤاد عبد الله السابق الإشارة إليه، ص52.

النهضة الشاملة أجهضت في مواقع مختلفة نذكر منها الحركة السنوسية في ليبيا على يد الطلبان والمهدية في السودان على يد الانكليز.

ولم يقتصر الأمر على الجوانب السياسية، فقد امتد إلى الثقافة، حيث امتدت حركة التغريب في النصف الثاني من القرن الماضي إلى مختلف العادات والقيم الاجتماعية، بل هب دعاة التغريب بتبيئة (جعل بيئتها) قيمنا الثقافية الأصيلة، بما يتفق مع القيم الغربية، هكذا فهمت المصلحة في الإسلام بما يعني المنفعة وليس مبدأ الشورى بأنه الديمقراطية الغربية، ولسان حال الغرب ما نطق به "كرومر": ((إن إسلاماً جرت عليه محاولات الإسلام لا يعود بعد ذلك إسلامياً))[1].

ولقد بلغ بأحد دعاة التغريب وهو "سلامة موسى" قوله: ((إنه كلما تقدمت به الأيام زاد حبه للحضارة الغربية، وفي الوقت نفسه تأكدت كراهيته للشرق))، ودعوة د. طه حسين إلى أن نسير سيرة الأوروبيين، نسلك طريقهم، وأن نقبل من الحضارة الغربية خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يجب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب[2].

---

[1] – د. طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة، مطبعة المعارف، 1993، ص45.

[2] – نشرة منتدى الفكر العربي، المجلد 6، العدد 72، لعام 1991، ص7.

بعض نماذج الخطاب الغربي عن الوحدة العربية

في عام 1975 كتب أستاذ أمريكي في العلوم السياسية يصف ما وصل إليه هدف الوحدة السياسية العربية بعد وفاة جمال عبد الناصر بقوله: ((لم يعد هناك مفر أمام أكثر الرومانيين إمعاناً في الوهم من أن يطرحوا جانباً لأجل غير محدود آمالهم في تحقيق أو بعث الوحدة العربية، وبكلمة واحدة، لقد تعددت أسطورة بروسيا العربية، إذ بينت حرب الأيام الستة بوضوح أن مصر ليست بروسيا، وجاءت وفاة عبد الناصر فأزالت بدورها بسمارك العرب))[1].

وفي عام 1974 كتب أستاذ أمريكي في العلوم السياسية ما يلي:

((إننا نأمل أن يؤدي زوال تلك الخرافة الناصرية عن الوحدة العربية، إلى أن يكون كل من الحكومات العربية أفكار أكثر تواضعاً وواقعية، أقل اندفاعاً عما يمكن أن تلعبه من دور، فلا يقتصر الأمر على أن تكف الحكومة المصرية من الطموح إلى السيطرة على دولة عربية عظمى، بل نرجو أيضاً أن تصمد النظم العربية الأخرى ذات الاتجاه اليساري)).

وأن يظل إلى الاقتناع بأن من الأفضل لها ألا تجدد محاولة ما فشل في تحقيقه، وأن تشعر النظم المحافظة كالسعودية والأردن التي دأبت في الماضي على الشعور بالخوف من عبد الناصر وشركائه وعلى معارضته والتي زادت الوضع سوءاً في بعض الحيان بالقيام ببعض العمال الاستفزازية، أن تشعر بالراحة والاطمئنان،

---

[1] – مقال د. ثناء فؤاد عبد الله، السابق الإشارة إليه، ص53.

وإن أحداث خريف 1972 من شأنها أن تزيد قوة هذا الأمل فاهتمام الناس بقضية الوحدة العربية الذي استهلك الكثير من تواهم دون جدوى بالنظر إلى ضآلة ما يحقق في هذا المجال سوف يذهب دون أن يأسف عليه أحد، وسيجعل ذلك من الأسهل على كل دولة عربية أن تمارس سياستها الداخلية والاقتصادية الخاصة، وأن تتخذ الموقف الذي يلائمها تجاه إسرائيل[1].

وهكذا يتضح مما سبق الخوف الذي ينتاب الغرب جراء الوحدة، وهذا ما يتضح من تصريح "رولان دومان" وزير خارجية فرنسا، قال المذكور: ((لا وجود لأمة عربية واحدة وإن ديغول اخطأ عندما تعامل مع العرب كافة))، ومن المعلوم أن اشتراكي فرنسا سبق لهم التحالف مع إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر: فليس غريباً إذن أن يعادي "رولان دوما"- وهو اشتراكي- فكرة العروبة، وينتهز الظروف الراهنة لمحاولة الإجهاز على مفهوم الوحدة العربية[2].

وهكذا كثر الحديث عن خرافة الوحدة، ومن ذلك قول أحد الكتاب الغربيين: ((إن ما يجمع هذه البلدان اللغة والدين، وهما عنصران يجمعان بعض الشعوب الناطقة بالإنكليزية، ولم يخلق منها ذلك أمة واحدة، وهناك تيار عربي يعترف بوجود القومية العربية، ولكن يفصل بينها وبين الدعوة إلى الوحدة العربية))[3].

---

[1] - مقال د. ثناء فؤاد عبد الله، السابق الإشارة إليه، ص54.

[2] - نشرة منتدى الفكر العربي، المجلد 7، العدد 79.

[3] - Raderic M.Dariction: where is the Middle east, London- prentice, Mall New york Atherton press, 1993.

وفي تصور الغرب أن المنطقة خليط من القوميات والشعوب واللغات، وقيام وحدة بينها ضرب من المحال، والنتيجة المنطقية أن يكون لكل قومية من هذه القوميات دولتها الخاصة بها، وفي هذا الإطار تكتب إسرائيل شرعيتها باعتبارها إحدى دول المنطقة ويمكن القول إن آخر منازلة تشهدها الأمة العربية مع العالم الغربي هي المعركة القيمية[1].

ذلك أن العالم يشهد ثورة قومية تتمثل في صحوة دينية تلتف حول محوره المقدس في المجتمعات الغربية وغيرها.

وهكذا يؤكد بعضهم أن الثورة القيمية أدّت إلى تغيير أو تحول ثقافي وفتحت آفاق جديدة أمام الإنسانية، كما أثارت تساؤلات حول نوعية الحياة ومشاكل البيئة والإحياء الديني[2].

حقيقة أن الصحوة الإسلامية طرحت صيغاً إسلامية، ولكن الغرب انتهز الفرصة ليحارب الوضع الإسلامي في الحالة الإسلامية باسم ضرب الصيغة السياسية، ذلك أن الثقافة الإسلامية تشكل جدولاً رئيسياً في الثقافة العربية، ومن الصعب جداً سلخ هذه الثقافة عن تلك تماماً كفصل الصورة عن الإطار أو السيف عن غمده أو الجسد عن روحه، والغرب يدرك ذلك الارتباط ويدرك أن النتائج البالغة على هذا الفصل التي تتعدى السياسي إلى ضرب القضاء الإسلامي.

استناداً إلى ما تقدم، فقد أكثر الغرب الكلام عن الأصولية الإسلامية، في حين أنه غير بريء من ذلك، وأن بنيته الاستعمارية، واستكباره وجبروته في المجتمع الذي

---

[1] - هذا التعبير للدكتورة، ثناء فؤاد عبد الله في السابق الإشارة إليه، ص50.

[2] - المرجع السابق، ص50.

ينتج الكثير من الأصوليات بما في ذلك الأصولية المسيحية الكثيرة الانتشار في أمريكا والتي تجهد نفسها لدعم واندفاع عن إسرائيل[1].

على هذا الأساس يرى بعض المفكرين الغربيين أن الإسلام الأصولي هو حتى الآن أكبر منافس للديمقراطية أو هو البديل الأكثر حيوية للديمقراطية في أي مكان في العالم[2].

ما هو سبب موقف الغرب من الأمة العربية ووحدتها وأهدافها لنسمع هذا السبب من صوت عربي: يخطئ كثيرون منا الظن بأن مشكلتنا كأمة عربية مع الغرب الأمريكي والأوروبي هي مشكلة سوء التفاهم وأن الغرب لم يفهمنا جيداً، ولم يطلع على حقيقتنا القومية والحضارية، وأهدافنا السياسية والاقتصادية ومن يلومون تقصير الإسلام العربي لأنه لم يبذل الجهد الكافي للتوضيح، ولم يستطيع بالتالي كسب الغرب إلى جانب قضايانا العادلة، هنالك شواهد تدل أن الحقيقة قد تكون خلاف ذلك على طول الخط.

إن مشكلتنا كأمة عربية مع الغرب هي أنه يفهمنا جيداً، ويرى أن مصالحه الاقتصادية وأمنه الوطني وقيمه الحضارية والسياسية مهددة بالخطر فيما إذا حقق العرب أهدافهم وأصبحوا دولة قومية واحدة ذات وزن استراتيجي واقتصادي وسياسي وحضاري متفاعل مع الغرب على أساس متكافئ[3].

---

[1] - مقال الدكتورة ثناء عبد الله السابق الإشارة إليه، ص59.

[2] - مقال الدكتورة ثناء عبد الله السابق الإشارة إليه، ص 60.

[3] - المرجع السابق، ص 57.

ويقول د. برهان غليون: ((إن عداء الغرب للعرب وإصراره على قتل فكرة الوحدة العربية سواء أتمت بالديمقراطية أم بالحوار أم بالضغط له أربعة أسباب موضوعية:

أولها: الموقع الاستراتيجي الحساس والخطير الذي يحتله الوطن العربي على مقربة من أوروبا.

وثانيهما: النفط وهو ثروة استراتيجية كبرى يعتقد الغرب أن من حقه الحصول عليه بالثمن الذي يناسبه والكمية التي يحتاجها.

وثالثهما: إسرائيل التي تخدم المصالح الغربية، وتريح ضمير الغرب تجاه خطاياه ضد اليهود بتعويضهم ومساعدتهم على حساب طرف ثالث.

ورابعها: الحسابات التاريخية الحضارية المعلقة منذ القدم والتي لم تنجح حقبة الاستعمار والانتقام الذي تميزت به من تصفيتها من وعي الغرب والعنصر الحساس في هذا الحساب هو الإسلام))[1].

والخلاصة إن قبول الغرب للعرب مشروط بالشروط الآتية:

1- أن يؤمن العرب ويتصرفوا على أساس أنهم ليسوا أمة ولا كتلة ولا جماعة، بل أقواماً وأقليات متناحرة ومتناقضة.

2- الإقرار للغرب بحق السيطرة على النفط العربي كمية وسعراً.

3- الاعتراف بإسرائيل، والتسليم لها بكل فلسطين، والتفوق الاستراتيجي على قوى العرب مجتمعين.

---

[1] – د. برهان غليون: حرب الخليج والمواجهة الاستراتيجية في المنطقة العربية، المستقبل العربي، السنة 14، العدد 148، لعام 1991.

4- التخلي عن الإسلام واعتباره ديناً متخلفاً وهمجياً وداعياً إلى العنف والإرهاب[1].

وتؤكد الدكتورة "ثناء فؤاد عبد الله" أن أسباب عداء الغرب للعرب هي أسباب محسوبة جيداً وليست مجرد نزوة أو خضوع لدعاية معادية أو صهيونية، وليست ناشئة عن نقص في معلومات الغرب عن العرب، ومن ثم فإن المشكلة ليست إعلامية بل قومية استراتيجية وجيوسياسية[2].

والمعروف أن الغربيين يعتبرون الإسلام عدواً للديمقراطية وفي هذا الصدد يؤكد "صاموئيل هنتنجتون" في مقاله الموسوم بعنوان **الموجة الثالثة التحول الديمقراطي في أواخر القرن العشرين** أن المفاهيم السياسية في الإسلام تختلف وتتناقض مع المقولات المنطقية لسياسات الديمقراطية من حيث الشرعية الحكومية والسياسية تنبع من العقيدة الدينية والخبراء الدينيين، وهكذا فإن التعاليم الإسلامية تتضمن عناصر ربما تنسق مع الديمقراطية، أو لا تنسق، غير أنه من الواضح في الواقع العملي نجد أن تركيا هي البلد الإسلامي الوحيد الذي احتفظ طويلاً بنظام سياسي ديموقراطي[3].

---

[1] - نشرة منتدى الفكر العربي، المجلد 6، العدد 72، لعام 1991.

[2] - مقال الدكتورة ثناء عبد الله السابق الإشارة إليه، ص58.

[3] - صامويل هنتنجتون: الموجة الثالثة التحول الديمقراطي في أواخر القرن العشرين، مركز دراسات التنمية السياسية والدولية، شباط 1992، ص44.

أما أكثر النماذج معاداة للإسلام، في إطار الخطاب العربي الحالي فنجده في كتاب نيكسون الفرصة السانحة، حيث حذر فيه من خطر الإسلام الذي ينبغي أن تتفرغ له أمريكا بعد أن فرغت من العدو الشيوعي.

لقد عقدت في واشنطن بتاريخ 29 نيسان 1992 ندوة لبحث خطر الإسلام في التسعينيات ولقد نظم هذه الندوة المعهد الأمريكي لدراسات الشرق الأوسط[1].

---

[1] – مقال الدكتورة: ثناء فؤاد عبد الله السابق الإشارة إليه، ص 60.

الغزو الثقافي في محيط الثقافة العربية الاسلامية

يشن الغرب على أمتنا اختراقاً وتطويقاً وغزواً متعدد الجوانب والسمات الفكرية والنفسية والخلقية وغيرها، ونحن بدورنا سننبري لدراسة معلم واحد من معالم هذا الغزو، ألا وهو الغزو الموجه ضد ثقافتنا.

ولا مراء بأن هذه الظاهرة الثقافية كثيرة الالتباس والاختلاط والاشتباه بغيرها من الأجهزة المفاهيمية الأخرى، إذ أنها «على حدّ رأي الأستاذ كمال عبد اللطيف» تخفي مضمرات متعددة، وتكتنفها دلالات صراعية وهمية لا سيما على مستوى توصيفات الجدل السياسي والإعلامي، وعلى مستوى التحليل السياسي الظرفي، وهكذا تنهض الحاجة الماسة للكشف عن مضمون تلك الظاهرة، وتشريح جثتها، والحفر على مكنوناتها وطبقاتها كشفاً يظهر ماهيتها، وطبيعتها الذاتية.

ومن الطبيعي بمكان أنه لا بد من منهج معتمد للوصول إلى تلك الغاية، على اعتبار أن لكل رؤية وظاهرة منهجها الخاص والمحدد النابع من طبيعتها، إذ الرؤية تطرح المنهج، وبالمقابل فالمنهج يبلور الرؤية والعلاقة بينها جدلية تفاعلية متبادلة الأثر والتأثير، تبادل تأثير الروح والجسد والعكس، أنهما ظاهرتان متميزتان يتمفصلان، وإن كانتا غير منفصلتين، لا الرؤية تسبق المنهج، ولا المنهج يسبق الرؤية، وكل في فلك يسبحون.

هكذا فهذا المنهج الخاص يفرض علينا التعامل «كمدخل وإرهاص» مع محل الغزو ووعائه، ألا وهو الثقافة كظاهرة إنسانية لها سماتها المميزة وما يتفرع على ذلك

من أمور مثل طبيعة الظاهرة الثقافية، آلية عملها، تكوينها، مضمونها، أهميتها، وغير ذلك من الأمور[1].

ومن جهة أخرى، فالمنهج المتبع يدفعنا للتعامل مع الظاهرة الثقافية كظاهرة حضارية إنشائية تاريخية بعيداً عن أوهام الإيديولوجيا وتشنجها وهوسها، مع التدليل بأن إقصائنا الظاهرة الثقافية عن هوة الإيديولوجيا لا يعني أنها لا تتأثر وتنفعل بالظاهرة السياسية، وتتأثر بها.

وفي نظرنا إن معالجة الغزو الثقافي يجب ألا تخفي الإشكالية الكبرى التي هي الظاهرة الثقافية كإشكالية فلسفية وحضارية وتاريخية نفهم من منظور ضرورة رنو وتشوف وطموح الإنسان العربي«من خلال مشروع نهضوي كبير» للقبض على حقوقه الإنسانية- وممارسة دوره الوجودي وفعله التاريخي الخلاق.

من هذا المنطلق، فإن الإشكالية الكبرى للثقافة، ترتب بعين الاعتبار العاملين التاليين:

- التخلف الثقافي العربي.
- الحضارة العربية كتركيب ثقافي بشري تاريخي.

وفضلاً عن ذلك فتركيب هذين العاملين يقودنا بالضرورة المنطقية إلى المواقع التالية:

---

[1] - مقاله الموسوم بعنوان: في التجديد الثقافي، ملاحظات أولية حول مفهوم الغزو الثقافي، مركز دراسات الوحدة العربية، مجموعة مقالات بعنوان الثقافة والمثقف في الوطن العربي 1992، ص139.

- لا للانغماس الثقافي الذي يهدد الهوية ويطمسها.
- لا للانكماش الذي يسورنا وراء فعل الذات ويجعلنا نختبئ في كهوفنا المظلمة.
- نعم للاستجابة الخلاقة لكل ما حولنا، استجابة تقوم على التفتح لا الانفتاح.

ولا شك أن استراتيجية التجديد الثقافي هي الاشكالية الأساسية في مجال الثقافة العربية المعاصرة، ومن ثم فالتفكير في تلك الاشكالية يجنبنا الكثير من المفاهيم المضللة والملتبسة.

وبصورة اوضح، فامتلاك حقب التاريخ وممارسة هذا الحق، والتمرس بروح المغامرة الوجودية الدافعة للابتكار الحضاري، هذا الامتلاك يؤهلنا لتدعيم وترسيخ ثقافة إنشائية بلا حدود، وفي الوقت نفسه يعطينا القدرة على احتلال مكانة بارزة ممتازة في مجال الثقافة والتجديد الثقافي، وهذا بدوره يحصن ذاتنا، ويملأ الخواء في وجودنا، ذلك الخواء الذي هو المدخل لكل غزو فكري، مع التنويه بأن تحصين الذات وترصينها، لا يمنعنا من التفتح على إبداعات الحياة الانسانية وإنجازاتها الكثيرة.

واستناداً لما تقدم، فسنرهص لبحثا بفصل يتعامل مع الظاهرة الثقافية باعتبارها كمت قلنا موضوع الغزو ومناط أمره.

فصل تمهيدي

في الظاهرة الثقافية

«مقدمة عامة»

يثير الحديث عن الظاهرة الثقافية أموراً لا حصر لها، ومع ذلك فهذا السياق، لا يسمح لنا بالتعامل لا مع بعض متعلقات الثقافة ومظاهرها، مثل التعريف بالثقافة، أهميتها، التغير الثقافي، الاتساق الثقافي، المقصود من المجتمعية، التكامل الثقافي، الاتصال الثقافي.

وبالطبع فالذي حدانا لتلمس تلك المواضيع، هو أن بعضها(الانتشار والتواصل الثقافي) قد يختلط بظاهرة الغزو الثقافي، وهو الأمر الذي يدفعنا لمعانقة الحدود التي تتصل بتلك الظواهر، وتميزها عن الغزو الثقافي.

المطلب الأول

التعريف بالثقافة وتحديد ماهيتها ووظيفتها الذاتية

يمكن القول إن الثقافة من الظواهر الإنسانية الكبرى العويصة والأكثر تعقيداً واختلاطاً وتشابكاً بغيرها من الظواهر الإنسانية الأخرى، ومع ذلك فقد انبرى العلم لتشريح جثة تلك الظواهر والحفر على طبقاتها العميقة، وهكذا فقد كثرت التعاريف حولها تبعاً لاختلاف المنظورات الإيديولوجية والفكرية، وهو الأمر الذي طالعنا بتعاريف وصفية تقوم على تعداد محتوى الثقافة ومظاهرها، وبتعاريف معيارية تهتم بالثقافة كقيمة ونموذج محتذى، وفضلاً على ذلك فقد نهضت تعاريف تاريخية تهتم بالظاهر، كإرث اجتماعي، كل ذلك إلى جانب تعاريف سيكولوجية ينظر إليها كأداة لحل المشكلات، وأخيراً فقد ظهرت تعريفات تطورية تهتم بتاريخية الظاهرة وتطورها، منوهين بأن التعريف كما أثر عن الرومان بأمر خطير –حسب رأي المناطقة العرب– الحدّ التام لظاهرة وكنهها وجوهرها.

ويبدو أن أكثر التعاريف والمفاهيم المتعلقة بالظاهرة المذكورة تحددت وانحصرت في الاتجاهات الآتية[1]:

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، دار ألف باء الأديبة، دمشق، 1997، ط1، ص32.

- الثقافة كحال عامة للعقل مع تصور خاص لفكرة الكمال الإنساني.
- الثقافة كحال عامة للفكر والتطور الأخلاقي في المجتمع ككل.
- الثقافة هي المضمون العام للفن والممارسة الفكرية.
- الثقافة هي السبيل العام للحياة الفكرية والمادية والروحية للمجتمع، ولقد استعمل علماء الأنثروبولوجيا هذا الجهاز المفاهيمي للدلالة على الإنتاج الفكري والمادي من مصنوعات يدوية ونظم اجتماعية، وأدوات تقنية وأساليب عيادة، ودور للتقيد، وغير ذلك من مظاهر صنع الإنسان لعالمه الذي يعيش فيه، فهي بذلك تشمل مجموعة التراث الاجتماعي وأسلوب حياة المجتمع[1].

ولقد عرّف "تايلور"[2]/1832- 1917/الثقافة بأنّها: ((ذلك المركب الكلي الذي يشمل المعرفة والمعتقد والفن والدب والأخلاق والقانون والعادات التي يكتبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع))[3].

ولقد بقي هذا التعريف معتمداً لأكثر من نصف قرن، ولكن لو حظر عليه عدم حركيته واقتصاره على التصوير الوصفي للظاهرة، ثمّ إهماله توضيح العلاقة بين الثقافة والمجتمع البشري الحامل لتلك الثقافة من جهة والبيئة أو المحيط الخاص بتلك الثقافة من جهة أخرى.

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات.

[2] – ادوارد بيرنت تايلور: أنثروبولوجي إنكليزي، ساعدت دراساته على تحديد مجال الأنثروبولوجية وتطور الاهتمام بذلك العلم. كان أستاذاً للأنثروبولوجية بجامعة أكسفورد.

[3] – محي الدين صابر: التغيير الحضاري وتنمية المجتمع، مركز تنمية المجتمع العربي، 1962، ص40.

وبعد ذلك جاء تعريف "رايت" المتضمن أنّ: ((الثقافة هي النمو التراكمي للتقنيات والعادات والمعتقدات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفراده، وينتقل هذا النمو التراكمي إلى الجيل الثاني عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية))[1].

والتعريف الأخير لم ينتج أيضاً من الطابع الوصفي، كما أنه اقتصر على توضيح الدور الذي تلعبه الثقافة في توجيه السلوك الإنساني.

حيال هذا الارتباك في تلك التعاريف، فقد عقدت سنة 1970م، منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتربية، ندوة لمناقشة موضوع الحقوق الثقافية، حيث استخدمت كلمة الثقافة بمعاني واسعة تضم كل ما يتصل بالإنسان فكراً وخلقاً وبدناً، بما في ذلك التدريب النفسي، أي كل ما يجعل الإنسان مخالفاً للكائنات الأخرى[2].

وفضلاً عن ذلك فقد استخدمت الندوة كلمة الثقافة بمعنى ضيق وتحدد يقارب كلمة الحضارة.

وعلى ضوء ما تقدم جاء إعلان مكسيكو ليحدد مفهوم الثقافة في إطار عام واسع على النحو التالي: ((الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع السمات المادية الروحية الفكرية العاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة

---

[1] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص32.

[2] - المرجع السابق، ص35.

اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان وتنظيم القيم والتقاليد والمعتقدات))[1].

وقريب من التعريف الأخير، التعريف الذي قدمه المفكر العربي الإسلامي مالك بن نبي، فقد عرف الثقافة بأنّها الدستور الأخلاقي والفكري والجمالي والذوقي والمادي لأمة من الأمم.

إذن فالثقافة بالمعنيين الأخيرين هي السمات الروحية والأخلاقية والقيمية والعقلية والمنطقية لمجتمع ما، فهي الروح الجماعي وصور حياة المجتمع المشكّلة لشخصيته وهويته القومية، فهي وجوده وذاته وسماته[2].

---

[1] – المؤتمر العالمي بشأن السياسات الثقافية إعلان مكسيكو بشأن الثقافة، المجلة العربية للثقافة، السنة/2/العدد الثاني.

[2] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص84.

أهمية الثقافة

ومسألة تدرج مبادئها ومفاهيمها

لا بدّ من التأكيد بادئ ذي بدء بأن الإنسان كائن ثقافي بالطبع[1]، فهو قد فتح عينيه على هذه الحياة وهو يحاول فهمها وعلى مكنوناتها وغيتها وإعطاءها معنى ثم إدراك جوهرها .

فالثقافة هي قوام وجود الإنسان، وهي مساوية له، وإن وضعه على هذا الكوكب لم يتحدد إلا بها، فهي فاصل نوعي بين الإنسان وبين سائر الأحياء، وهي فاصل درجي بين المجتمعات والأفراد[2].

وعلى هذا الأساس فإن أكثر ما يميز الإنسان عن سائر الأحياء وعن اختراعات الذكاء الاصطناعي تقدماً، مثل الحاسوب (الكمبيوتر) والإنسان الآلي (الربوت) هو المستوى الرفيع من حيث النوعية التي يتفرد به الإنسان في عالم الرموز[3].

---

[1] - د . محمود الذوادي: الرموز الثقافية، مفهوم عالم الرموز، مجلة المستقبل العربي، العدد/156- 2/1992/ص22 .

[2] - د . محي الدين صابر: نحو استراتيجية للثقافة العربية، مجلة الشؤون العربية، العدد/15/لعام 1982، ص16 .

[3] - د . محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، عدد/82/لعام 1995، ص184 .

وبيان ذلك أن محاولة تغيير عالم الرموز الثقافية بهذا الغزو، أو ذاك تعني أنها عملية تمسّ عمق ذات الغزو، وباطن الأشياء منه لا سطحها أو ظاهرها، فلا غرابة إذن أن تظهر الرموز الثقافية مقاومة عنيدة في غالب الأحيان إزاء عوامل التغيير[1].

ويصف علماء الاجتماع الرموز الثقافية بأنّها تتسم بالدلالات المتعالية، تدليلاً بقدرتها على تجاوز الواقع المحسوس والآني لحياة الإنسان، ففكر ابن خلدون أو أرسطو لم يندثر بوقا صاحبه وبالتالي فعمر الرموز الثقافية يتسم بالامتداد الذي قد يصل إلى الأزلية، حيث تتشابه الرموز الثقافية بظاهرة الروح عند الكثير من الديانات وفلسفات المفكرين، وإن اتصافها بطول العطاء عبر الزمان والمكان، يجعل من محاولة تغييرها عملية صعبة وبطيئة، إذا ما قورن الأمر بتغيير العناصر المادية[2].

لكن لماذا يصعب تغيير هذه الرموز...يجيب عن ذلك "الدكتور االذوادي" بأنها تمثل صلب جوهر كينونة الإنسان، وتحتل موقعاً مركزياً ومتجذراً في بنية شخصية الفرد، وعمق كينونته وروحه[3].

ويمكننا أن نضرب مثلاً على ذلك في بقاء اللغة الفرنسية وثقافتها مهيمنة في المغرب العربي على بعد أكثر من ثلث قرن على استقلالها.

ويؤكد "الدكتور الذوادي" أن عناصر العقيدة قد تقاوم التغيير أكثر من مقاومة اللغة، ومجتمعات المغرب العربي المعاصر أكبر مثال على ذلك، ضمن جهة لا تزال

---

[1] - د. محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص183.

[2] - المرجع السابق، ص183.

[3] - د. محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص183.

اللغة الفرنسية وثقافتها مهيمنة إلى حدّ كبير على ساحات المجتمعات المغاربية، وبالمقابل فقد فشل الاستعمار الفرنسي فشلاً كاملاً في التأثير في الخريطة الدينية الإسلامية[1].

وهذا الدور الذي لعبته العقيدة الإسلامية بين ظهراني الشعب العربي في المغرب يؤكد وصلابتها ودورها كامل وصائغ للقيم العربية وصونها والذود عنها.

وحقيقة الأمر أن التاريخ لما يطلق عليه اليوم بالوطن العربي، لا يمكن إلا أن يرجع إلى الدور الحاسم للرموز الثقافية، وبالطبع فقد جاء انتشار تلك الرموز مع ما يسمى بالفتوحات العربية الإسلامية، حيث عمد الفاتحون إلى نشر العقيدة الجديدة في البلاد المفتوحة، الأمر الذي أدى إلى تعريب ثقافتها، وكانت النتيجة تبلور قضاء ثقافي متجانس إلى حدّ كبير من المحيط إلى الخليج، ومن ثمّ فتجذر الرموز الدينية الإسلامية ورموز اللغة العربية وثقافتها على الشخصية القاعدة لإنسان ما بين الخليج والمحيط هو الشرط الأساس لإمكانية تحقق عملية الانصهار الثقافي الكامل أو شبه الكامل بين المجتمع العربي الإسلامي الأم في الجزيرة العربية من ناحية والمجتمعات الأخرى المحيطة أو البعيدة عنه من ناحية أخرى والتي أسلمت وعرب لسانها وثقافتها[2].

وليس من المبالغة القول إن الوطن العربي كظاهرة ثقافية متجانسة فريدة من نوعها في القديم والحديث لجهة العوامل التي أدّت إلى تجسيمها، فالدعوة المسيحية مثلاً نشرت رموز رسالتها، وهي اليوم أكثر الديانات انتشاراً في العالم، ومجتمعات أوروبا هي مجتمعات مسيحية في أغلبيتها، ولكن وحدتها الثقافية تبقى

[1] - المرجع السابق، ص184.

[2] - د. محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص186.

بعيدة عن متانة وحدة التضامن الثقافي الموجود في المجتمعات العربية، والسبب في ذلك واضح، إذ أنه بينما انتشر الإسلام كرموز دينية ولغوية وثقافية، وأنشأ فضاء ثقافياً متجانساً، وأصبحت لغة التعامل اليومي ولغة الثقافة، وهكذا تمّ تجذر الرموز الدينية ورموز اللغة العربية وثقافتها الشخصية العربية في حين أن المسيحية خرجت كدعوة دينية فقط، فقد اعتنقت أوروبا المسيحية مبقية على لغاتها ولهجاتها وثقافاتها المختلفة، إذ لم تكن للمسيحية لغة وحي، وبتعبير العلوم الاجتماعية الحديثة يعتبر نشر الإسلام للغة الضاد متغيراً variable عاملاً حاسماً في فهم وتفسير الفرق بين درجة قوة التضامن الثقافي العضوي بين أقطار الوطن العربي من ناحية، وتنوع وانقسامات الفضاءات الثقافية الأوروبية من ناحية ثانية.

ففي الأول وفر شرط الرموز الدينية والرموز اللغوية الثقافية حصول ما يمكن أن نطلق عليه بالتطابق الكامل على مستوى الخريطة الثقافية العامة.

أمّا في حال أوروبا فلا يوجد إلا شرط يتيم يتمثل في اعتناق رموز الديانة المسيحية، وهذه الرموز الأخيرة تسمح بالحديث عن التشابه الثقافي بين المجتمعات الأوروبية أكثر من الحديث عن التطابق الثقافي الكامل وشبه الكامل.

وهكذا توصف التجربة الثقافية الشاملة للعرب المسلمين بأنّها فريدة من نوعها في تاريخ التلاقحات الثقافية بين الشعوب، فقد تمكن العرب المسلمون في تحقيق عملية انصهار ثقافي كامل، أو شبه كامل للآخر في الحضارة العربية الإسلامية.

لقد تصارح الحكام العرب لأسباب سياسية واقتصادية وحدوية في الماضي والحاضر، ووصل الأمر بأن تصارعت الجيوش العربية فوق الأرض العربية، ورغم ذلك فإن الروابط الثقافية منطقها الخاص، فهي لا تعبأ كثيراً بمثل تلك الأحداث

العارضة بين نبي البشر، أنها ذات قدرة شبه ميتافيزيقية في تجاوز الأحداث مهما كانت ذات طبيعية مأساوية، والروابط الثقافية العربية الإسلامية المتجانسة (الرموز الدينية الإسلامية والرموز اللغوية والثقافية العربية)، مكنت العرب والمسلمين من التواصل والتضامن شعوراً وممارسة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وإن وشائج الرموز الثقافية الرابطة بين الشعوب تتمتع هي الأخرى بما اسميناه باللمسات الميتافيزيقية، ومن ثمّ فهي أكثر ترسخاً من غيرها لضمان استمرارية اللحمة، حيث إن عواهن الدهر لا تكاد تؤثر في خفقات ونبضات روحها، ومن ثمّ فالروابط الثقافية بين الأفراد والجماعات تطبع حتى التواصل بطابع الأزلية التي لا تعرفها الأحلاف العسكرية، ولا التجمعات الاقتصادية.

ويؤكد "الدكتور محمد شيحا" أنه ما من نزعة تكاملت فيها مقومات الأمة بالقدر الذي تكاملت فيه بالنسبة للأمة العربية، ذلك بأنه إذا اعتبرنا القومي بأنه مجموع المادي والروحي والماضي والحاضر مشدوداً إلى المستقبل، ثم قارنا التجارب القومية من منظور تلك العوامل لاتضح لنا فرادة أمتنا[1].

[1] – د. محمد شيحا: مقاله المنشور في مجلة شؤون عربية، بعنوان الثقافة العربية والتحولات العالمية، عدد 75، عام 1993، ص90.

ظاهرة العزلتين في المجتمع الكندي

من المعلوم أن المجتمع الكندي يتكون من عشر مقاطعات، وتعد مقاطعة "كيبك" المقاطعة الوحيدة في الفيدارالية الكندية التي تستعمل فيها أغلبية سكانها اللغة الفرنسية بينما تستعمل بقية المقاطعات التسع الأخرى اللغة الإنكليزية.

إن تاريخ الفيدرالية الكندية يؤكد بأن عملية دمج "كيبك" في المجتمع الكندي ليست بالأمر الهين، والمجتمع الكندي الكبير يتكون من هويتين ثقافيتين منعزلتين، ووسائل الإعلام الكندي المكتوبة تحفل بالمعاملات التي تثبت أن المجموعتين الفرنسية والإنكليزية والمقيمتين في مدينة مونتريال يشكون مما أصبح يطلق عليه ظاهرة العزلتين، إذ أن هاتين المجموعتين لا تقرأ الصحف ولا المجلات نفسها ولا يستمع معظم هاتين الفئتين إلى المحطات الإذاعية نفسها، ومظاهر انعزال المجموعتين لا تنتهي عند هذا الحد، والبحوث الاجتماعية تدلّ على أنّ زبائن المطاعم من الجانبين لا يقصدون المطاعم نفسها، وكأن المجموعتين تنتميان إلى مرجعيتين مختلفتين وإلى خريطتين معرفيتين (وهويتين) وبالتالي فليس لها الروح الثقافية المركزية نفسها وحقيقة الانعزال بين المجموعتين الكنديتين الرئيسيتين موحدة على(عرض وطول) المجتمع الكندي الكبير[1].

إن الرموز الثقافية cultural symbols تمثل «كما قلنا» جوهر كينونة الإنسان، لذلك، فلا عجب أن تبرز في كندا روحان ثقافيتان رمزيتان في مجتمع واحد تسود فيه لغتان وثقافتان رئيسيتان، فالكنديون الإنكليز والفرنسيون قد يسكنون القارّة

---

[1] – محاضرة بعنوان:

Rocher: les deux solitudes les sociologies consdions.

ألقيت في الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الجمعية الكندية لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا بتاريخ 1990/5/27، بجامعة فكتوريا بمقاطعة Britich colomia بكندا.

نفسـها، ومـع ذلـك يظلـون في ظـاهـرة العـزلتين فيمـا بينـهم، وهكـذا الصـعوبة في التخاطب والتفاهم، وهنالك قطيعة كاملة بين روحين ثقافيتين رمزيتين[1].

وينتهي "الدكتور الذوادي" للتأكيد بأن غزو الثقافات أخطر من غزو الجيوش[2].

على هذا الأساس ينتقد "الدكتور االذوادي " العبارات الآتية:

- الاستلاب الثقافي.
- الغزو الثقافي الصهيوني.
- الإمبريالية الثقافية.

فهذه التسميات تقتصر على تسجيل وجود ظاهرة تفشـي الرموز الثقافيـة للآخر، دون أن تكشف عن تلك التأثيرات العميقة والمديدة وعن تفشي ثقافة الغير وبالتالي فإن انتشار لغة الغير لا يمثل فقط افتقاراً لتلك اللغات بل أن الجهاد من أجل الحصول على الاستقلال اللغوي والثقافي ليس هيناً التخلص منه لا سيما إذا تجذرت ثقافة الغير.

إن نشر اللغة والقيم والعقائد الدينية في مجتمعات وحضارات أخرى أهم تخطيط محكم يمكن أن يقوم به أي مجتمع من المجتمعات لتأمين إقامة علاقات دائمة مع الأمم الأخرى.

إن التبعية الثقافية تعني تبعية الروح لآخر، وقد يكون هو العدو، وتمثل هذه التبعية بأهم عناصر تكوين هوية الفرد والجماعة، ومن هذه الحقيقة تتجلى مصداقية القول بأن غزو الثقافات أخطر من غزو العسكر.

---

[1] – Jerome G. Manis: symbolic interaction, Publisher: Allyn & Bacon; 3rd edition (January 1, 1978).

[2] – د. محمود الذوادي: الرموز الثقافية وتطبيعها على الوطن العربي، ص189.

المطلب الثاني

التغيير الثقافي

كل شيء في هذا الوجود آيل للتغيير والتطور والفناء، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن/27.

وقال "هيراقليط": ((إنك لا تستطيع أن تستحم في مياه النهر مرتين، فماء النهر يتغير))، وأنت تتغير والثقافة سنّة من سنن الحياة فهي تخضع لهذه السنن تمدداً وتقلصاً وانتكاساً، وحقيقة الأمر فالتغيير الثقافي وحقيقته وجوهره هو تغيير في الإنسان نفسه، إذ التغيير سمة من سمات الثقافة وخصيصة من خصائصها يستهدف تغيير الإنسان بتغيير ثقافته والتغيير الثقافي مرتبط بالنمو الثقافي أي بالتغيير في مظهره الكمي، وعن هذا النمو الذي هو تراكم وتجمع تتأتى الحركة والاستمرار اللذان يؤديان بدورهما إلى تصفية وتنقية وتأليف العناصر الثقافية المتراكمة باتجاه الخلق والابتكار.

وغني عن البيان أن الثقافة قائمة على عناصر مادية وروحية ولكنّ السؤال المطروح هو: أن العناصر أكثر تأثيراً بالآخر، ما هو خارج عن نطاق الجدل أن العوامل الروحية هي الأكثر جذرية وحسماً في مجال التأثير والتغيير في حياة المجتمع وكيانه.

ومع ذلك فنحن لا نستهين أو نضعف من أهمية المصلحة في حياة الجماعات الإنسانية، بل لا نخجل منها كرابط قوي يضاف إلى بقية الروابط.

والتغيير الثقافي مرتبط بالنمو الثقافي، أي بالمظهر الكمي له، وعن هذا النمو الذي هو تراكم وتجمع تتأتى الحركة والاستمرار اللذان يؤديان بدورهما إلى تصفية وتنقية وتأليف العناصر الثقافية المتراكمة باتجاه الخلق والابتكار.

وغني عن البيان أن الثقافة قائمة على عناصر مادية وأخرى وروحية، وإن كانت العناصر الأخيرة الأكثر جذرية وحسماً في حياة المجتمع وكيانه، ومع ذلك فنحن لا نستهين أو نضعف من شأنه وأهمية المصلحة في حياة الجماعات الإنسانية، بل لا على أحد أن يخجل من لأهميتها كرابطة قوية إلى جانب الروابط الأخرى، وهو الأمر الذي يحدونا لتأييد حديث الدكتور غسان سلامة عن عروبة المصلحة[1]، وإن كان ذلك ينسينا أن مقومات الأمة الروحية ودستورها الأخلاقي والقيمي والنفسي هي القلعة الحصينة للدفاع عنها، ونرى وجود مجتمعات متعددة قامت على المصلحة «كالاتحاد السوفيتي»، ولكنها سرعان ما انهارت بسبب زوال تلك المصلحة.

---

1 – د. غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص99.

التكامل الثقافي

لا حاجة للتدليل بأن الثقافة الواحدة تقوم على اتساق وعلى منظومات متميزة متحدة مترابطة متكاملة ومتوازية في عناصرها ووحدتها، وبذلك فإذا انتقلت كما ذكرنا- مفردة من هذه المفردات إلى ثقافة أخرى، فهذه المفردة تحاول -لتحافظ على نقائها وقوتها- أن تنقل معها عناصر منظومتها التي تنتسب إليها .

ومن جهة أخرى فالثقافة لا تقتبس عنصراً ثقافياً معيناً بصورة ميكانيكية، وإنما يتم ذلك بعد أن تتمثلها وتصب عليه عصارتها الهاضمة وإلا كان عليها أن تبذل مجهوداً كبيراً لإعادة التوازن إلى قوامه المفقود[1] .

ذلك أن كل خاصية ثقافية حتى وإن كانت شيئاً بسيطاً للغاية، هي في الحقيقة مركب من عدد من العناصر والأفكار والارتباطات والقيم المختلفة، ولا يمكن للمجتمع المستعير أن يعي إلا ذلك القدر من المركب الذي يمكن تزويده به عن طريق الأعمال المحسوسة أو التعبيرات الكلامية، حتى في هذه الحال يحتمل ألا يقتبس المجتمع إلا تلك الأجزاء التي تكون واقعية ومحسوسة والتي يسهل على المجتمع تقليدها، بحيث تصبح النواة المقتبسة في البيئة الثقافية الجديدة مركزاً

---

[1] – رالف لينتون: دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1964، ص457.

لمركب جديد من الارتباطات والاستعمالات وبعبارة أخرى، فالمجتمع المستعير يطور تأملات جديدة، ويكيفها لتخدم غايات جديدة[1].

وكما قلنا سابقاً فإن أية استعارة لعنصر ثقافي إنما تؤدي إلى سلسلة من التعديلات في التوازن المنظومي والنسقي للثقافة المستعرة، وهذا ما يطلق عليه التكامل الثقافي[2].

وبالطبع فلا يقصد من هذا التوازن جانبه الاستاتيكي الساكن، بل جوهره المتحرك، أي ذلك التطور التقدمي لتحقيق المزيد من الكمال في التكييفات بين مختلف العناصر التي يتألف منها جملة الثقافة، أما درجة التكامل فلا يقصد منها إلا المدى الذي تلعبه هذه التكيفات من الكمال في نقطة معينة من المحيط الثقافي المتصل الأجزاء.

هكذا يصبح التكامل أمراً نسبياً لأنه ما من ثقافة تستطيع أن تحقق التكامل التام في أية لحظة من تاريخها.

وإذا ما توقف التكامل عند نقطة معينة، فهو يشل الثقافة، ويؤدي إلى دمار المجتمع ككيان وظيفي، وإن كان يندر أن يقف التكامل الثقافي عند هذه اللحظة إذ الثقافات جميعها تملك قابلية مدهشة للتغيير والتكييف، وبالتالي فهي قادرة في النهاية على دمج أي عنصر ثقافي جديد، أو مجموعة من العناصر، إذا كانت هذه العناصر لا تتعارض تعارضاً مباشراً وكليّاً مع النسق الثقافي العام[3].

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص56.

[2] – المرجع السابق، ص57.

[3] – رالف لينتون: دراسة الإنسان، ص458.

ومما لاشك فيه أن الثقافة ظاهرة اجتماعية، لا طبيعية، ودرجة التكامل اللازمة لأداء الثقافة لوظيفتها أداءً ناجحاً لا يشبه بأيّة حال ذلك التكامل اللازم لنجاح الحي في أداء وظيفته[1]..والتي تجدر الإشارة إليه أن الثقافات كالأشخاص قادرة على ضم عناصر متعارضة، وتناقضات منطقية إلا أنّه وإن كان لا يوجد في النسق العام للثقافة بأسرها إلا نقطتان يمكن أن يكون لها أثر يخل الثقافة وهاتان النقطتان هما :

النقطة الأولى : هي سلب الثقافة وكيانها، ويقصد من ذلك تلك المجموعة من القيم التي تدخل على الأعم الأغلب في نطاق الحي الباطن والعلاقات والاستجابات العاطفية التي تزود الثقافة بحيويتها، والفرد بدوافعه الشخصية لممارسة نماذجها والتقيد بها .

النقطة الثانية : وهذه تقع في مجال أكثر قطاعات الثقافة سطحية وهي تتناول النماذج العادية للسلوك الظاهر، فأما سوء التكيف في الحال الأولى، فيؤدي إلى صراع عاطفي مستمر داخل الفرد وإلى صراع بين الأطراف الذين اختاروا لأنفسهم قيماً مختلفة مما يؤدي إلى تبديل روح التعاون لدى الجماعة، وأما سوء التكيف في الحال الثانية، فيؤدي إلى تداخلات مستمرة وإلى تعطيل الحرية، هذا بالإضافة إلى نشوء حالات انفعالية مزمنة ومما لا شك فيه أن صلب الثقافة يتمتع بمناعة قوية ضد أي ارتباط مباشر يحدثه إدخال عناصر جديدة في الثقافة التي اكتمل تطورها[2].

---

[1] – المرجع السابق، ص57.

[2] – رالف لينتون: دراسة الإنسان، ص472.

وهنالك ملاحظة جديرة بالتنويه هي أن أية ثقافة تتمتع في أغلي الأحيان بحصانة ضد أي ارتباك مباشر قد يحدثه إقحام عناصر جديدة من الثقافة التي اكتمل بناؤها[1].

والتغييرات في القيم الأساسية لجماعة ما تكاد تأتي من الداخل، وبالتالي فهي غير ناتجة عن المنافسة بين العناصر الجديدة والعناصر القائمة بقدر ما هي ناتجة عن الصراع بين العناصر القائمة والوضع الخارجي الذي يعجز كل من المجتمع والثقافة عن تعديله[2].

ولما كان التغيير بطيئاً في لباب الثقافة لذلك فقلما يوقع هذا التغيير المجتمع في تعارض خطير، إذ العناصر القديمة تهجر رويداً رويداً، ويجري تطوير عناصر ذات علاقة وثيقة ومستمرة بالنسق الثقافي القائم، وإذا تعارضت العناصر المتطورة تعارضاً خطيراً مع أجزاء قوية وطيدة من هذا النسق، فغن ذلك سيحد من استمرار نموها، وهكذا يتمكن لباب الثقافة من الاحتفاظ بدرجة عالية من التماسك خلال أية عملية تنطوي على تغيير ثقافي عادي، فهو يستطيع أن يكيف نفسه بإطّراد مع الظروف الجديدة، وأن يحافظ في الوقت نفسه على وحدته، وذلك باستقلال العناصر التي تم قبولها على الصعيد السطحي من الثقافة في توطيد القيم القديمة[3].

والخلاصة فالمجتمع يستطيع أن يحتفظ بتماسكه بفعل لباب ثقافته الذي يفلت من خطر التفكك الناجم عن دخول عناصر جديدة بصورة مفاجئة، وإن كان من الممكن لهذا التفكك أن يحدث عندما تندمج مجتمعات فيما بينهما.

---

[1] - المرجع السابق، ص472.

[2] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص58.

[3] - رالف لينتون: دراسة الإنسان، ص472.

ومن المؤكد في مثل هذه الحالات أن تمر فترة يتعرض خلالها الأفراد ممن هم في طور النمو إلى مجموعتين من القيم قد تكونان منسجمتين، وكثيراً ما ينعكس مثل هذا التعارض في الصراع الذي ينشأ داخل شخصيات الأفراد الذين شاء سوء طالعهم أن يعانوا من هذا الوضع، كما ينعكس في ازدياد شعور اللامبالاة بالقيم الاجتماعية، ومهما يكن من أمر، فأن القيم المشتركة تنزع إلى البقاء حتى في مثل هذه الحالات وتشكل بالتالي أساساً لتطوير لباب جديد يقيم عناصر تكيفت بعضها مع بعض تكيفاً متعادلاً، ويتفرع عن فكرة التكامل الثقافي الظاهرتان الآتيتان:

المجتمعية

هي مجموع عمليات دمج الفرد في مجتمعه، وتحدث عندما يتعلم الفرد طرق التفكير والعمل التي تؤلف ثقافة أمّته المميزة لها من غيرها من المجتمعات الإنسانية.

على هذا الأساس، فالمسألة الأولى والأخيرة في مشروعنا النهضوي هو خلق هذه المجتمعية، أي ذلك الضمير الجمعي والروح العامة للأمة العربية، وذلك بآلية مد الشرايين وعروق الاتصال بين أمتنا، وذلك من خلال توطين الإنسان العربي وتوطيده، وتعميق جذوره في الحياة، وتأصيل شخصيته وترصين حقوقه، وخلقه كمواطن حر أساساً للمجتمع العربي الحر استناداً لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ المائدة/ **32**.

التثقيف

يمكن تبسيط التعريف بالتثقيف بأنّه أحد مظاهر المجمعية، فكما أن هذه المجتمعية تنزع إلى عملية صهر الفرد في الجماعة، كذلك فالتثقيف هو آلية صهر الفرد بثقافة أمته، وذلك بغرس الأنظمة التثقيفية الضرورية في الفرد لكي يقوم بوظيفته كعضو يساهم في استقرار المجتمع، وفي ديمومة الثقافة، ويصبح هذا التشريط الباكر مع تقدم الإنسان في العمر حصيناً منيعاً حتى أنه ينظم سير الحياة اليومية، أمّا التشريط المستمر الذي يخضع له فيما بعد، فهو تشريط جديد يتم على مستوى الشعوب يفرض على كل من الرجل والمرأة طرق السلوك التي يتقبلها جماعته، وهو يتقن ذلك إلى درجة يندر فيها أن تصطدم أفكاره وقيمه وأعماله بأفكار وقيم وأعمال الأعضاء الآخرين في مجتمعه، وبالتالي يمكن تحسين حياة الجماعة الإنسانية من خلال مجموعة من النظم يمكن وصفها وصفاً موضوعياً كما لو كانت توجد مستقلة عن الناس الذين يعيشون طبقاً لها[1].

هكذا ينزع الفرد إلى تبني الشخصية النموذجية التي ترغب فيها جماعته خلال عملية التثقيف، ولا يتحقق النجاح الكامل في ذلك أبداً، لأن بعض الأشخاص أكثر مرونة من غيرهم في حين أن البعض الآخر أكثر صلابة في مواجهة ذلك ولكن بوجه عام يصبح الجميع متشابهين إلى حدّ يكفي لأن يجد المرء إذا ما طاف في حول الأرض أن الناس يختلفون بعضهم عن بعض من مجتمع إلى آخر باختلافات الثقافة الواحدة عن الأخرى[2].

---

[1] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص61.

[2] - المرجع السابق، ص61.

وهكذا ومن خلال الكشف عن ظاهرة المجتمعية والتثقيف نكون قد وضعنا يدنا على الفكرة المفتاح la notion cley في مقاومة الغزو، وبذلك يخلق المواطن العربي وعياً وسياسة وثقافة.

التكيف الثقافي

ويمكن القول إن هنالك عاملين أساسيين يلعبان دوراً هاماً في عملية التكييف الثقافي ألا وهما العامل التعليمي، ثمّ الديناميات الشخصية[1].

وبيان ذلك أنه إذا كان الطفل يخضع لاستجابات عملية ورمزية وعقلية من المجتمع، فالفرد الكبير التي له رصيده الثقافي الخاص يخضع لتجربة جديدة في عملية الاتصال الثقافي، وهنا يظهر دور الشخصية وديناميا تها وفعاليتها.

ومما لا شك فيه إن هنالك اتساقاً في أشخاص يخضعون لثقافة واحدة، لسبب بسيط هو أن الشخصية تنظيم داخلي للمواقف والاتجاهات والعواطف وأنماط الأفكار والميول.

وهنالك ملاحظة هامة هي أن شخصية الإنسان تتكون في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل وعلى أساس هذه المقومات تتطور الشخصية فيما بعد، وأن خبرات الطفل تقوم على مناشط وسلوك أبويه أولاً، ثمّ المحيطين به[2].

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص74.

[2] – المرجع السابق، ص76.

وبطبيعة الحال فإن الكلام عن تغيير الثقافة يعني الكلام عن تغيير الشخصية، لأن هذه الشخصية مجموعة من الأنماط الفكرية والاتجاهات والميول التي يتلقاها الفرد عن ثقافة مجتمعية.

وجدير بالذكر أن الثقافة قد تتغير في جيل واحد إذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية قد تغيرت بسرعة تغيراً جوهرياً وهذا الأمر ممكن في مجتمع في حال الحرب، كما حدث في تنشئة الانكشارية.

وبصورة عامّة فالتغيير الثقافي لا يتم في جيل واحد لأن كثيراً من الجوانب الأساسية في الشخصية يتكون في وقت مبكر وإن التغيير الشامل لها أمر صعب التحقق.

ومن جهة أخرى فعندما يحتك عنصر ثقافي في منظومة ثقافية أخرى، تأتي عملية القبول أو الرفض، وفي حال الرفض يحدث صراع قد ينتهي بالهروب أو يتخذ صورة الثورة المفتوحة الواضحة، ومن جهة أخرى ففي استعمال المصطلحات التي لا تخلو أحياناً من الغموض تحدث عمليات التعديل والتكامل في المنظومة الثقافية المنقول إليها.

حيث عن طريق ذلك يتم التعايش بين العنصر الجديد والعناصر القديمة، وقد تبدأ عملية التخلص من العنصر أو العناصر القديمة حيث ترث العناصر الجديدة وظيفتها، وبالطبع فهذا التخلص لا يتم دفعة واحدة إذ قد يصعب على العنصر الجديد تحمل كافة مسؤوليات العناصر القديمة.

وفي مرحلة التعديل والتلاؤم يتم تفسير السمات الجديدة على أساس منطق الثقافات القديمة، إذ على ضوء ذلك يمكن للعناصر الجديدة أن تتلاءم وتتعايش

مع الثقافات القديمة، والمثال على ذلك يظهر في التفسيرات الدينية، إذ أن قسماً كبيراً من الثقافة القديمة ومفاهيمها يدخل في تكوين المفهوم الجديد للدين[1].

ودخول العنصر الثقافي إلى منظومة ثقافية يتم أولاً عن طريق شكله الخارجي، بمعنى أن المجتمع المستقبل يستقبله على أساس فهمه وتأويله الخارجي، وليس كما هي مضامينها في الثقافة الأولى، أي أن النقل يتم أولاً في مستوى موضوعي للشكل الخارجي للعنصر الثقافي ثم يتعضدون بعد ذلك في الثقافة المستقبلية منفصلاً عن معظم ارتباطاته ومعانيه التي كان يحملها مضمونه الأصلي، ذلك أن تلك المعاني والارتباطات إنما تستمد مميزاتها وخصائصها من النسق الثقافي العام، ومن النمط الفريد لنوع العلاقات القائمة بين عناصر الثقافة وطريقة عملها، ومعنى هذا أنه لا يوجد هنالك مطابقة كاملة في معنى سمة ثقافية معينة من ثقافتين مختلفتين، فإن معناها إنما يتحدد من خلال الإطار العام والمنطق الكلي للثقافة[2].

وتحدث من حالة التلاؤم والتوافق ظاهرة التهجين والمشاركة بين ثقافتين، فتنشأ ثقافة هجينة فتعادل قيمها العناصر الثقافية المختلفة، ويعمل مع وجود طابعي الثقافتين[3].

والمرحلة الأخيرة هي مرحلة التمثل، ويحدث هذا عندما تذوب إحدى الثقافتين وتختفي وتحلّ محلها الثقافة الغالبة، ولا يتحقق هذا في كل جوانب الثقافة، فكثير من عناصرها يستمر عبر صور وأشكال مختلفة[4]، بيد أن نكسة ثقافية يمكن أن

---

[1] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص78.

[2] - المرجع السابق، ص79.

[3] - المرجع السابق، ص79.

[4] - المرجع السابق، ص79.

تقع حين لا يتم التوافق، أو يبدو مؤلماً في جانب من الجوانب، وحينئذ يعود لأنساق الثقافة القديمة، تحت مسميات متعددة، منها نقض التكيف أو العودة إلى إحياء التراث، أو البحث في الأصالة[1].

الانتشار الثقافي

والانتشار الثقافي أيضاً ظاهرة حيّة وحتمية ولا يمكن تصور الثبات إلا في الجهاد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك/**15**.

فالانتشار في أعماق الأرض ضارباً ظهورها مستخلصاً خيراتها ناقلاً تصوراته وأفكاره وقيمه ورؤاه، هذا الأمر سنة من سنن الله في الاجتماع والحياة.

ويمكن التأكيد بأن المجتمعات الإنسانية على اختلاف أطوارها ودرجة تطورها ونضجها، ما فتئت عبر التاريخ تحتك وتتفاعل، تلتقي، تتواصل، تأخذ وتعطي، تتبادل التأثير والتأثر الثقافي وغيره.

وتبسيطاً للأمور، فلنسم هذا التفاعل الطبيعي، وما يتبعه من نقل الثقافة، نسمي ذلك بالانتشار الثقافي تمييزاً له من الغزو الذي هو ظاهرة قسرية لنقل الثقافة، وبهذا الوصف فالانتشار الثقافي ظاهرة اجتماعية سليمة وصحيحة خلافاً لظاهرة الغزو.

وحقيقة الأمر أن الانتشار الثقافي أساس جوهري من أسس التقدم الثقافي فبواسطته وآليته تتمكن المجتمعات الإنسانية من استقطاب قدراتها الإبداعية،

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص79.

والنهل من المعين المشترك، وعن طريقه يمكن لإبداع ظهر في مجتمع ما أن ينتقل إلى مجموعة من الثقافات وقد يعم هذا الإبداع ليس في كافة أرجاء المعمورة.

ونظرة بسيطة إلى حقائق التاريخ ترينا أن كافة الحضارات الرائعة إنما بزغت نتيجة استقطاب coalition، فالحضارة اليونانية مثلاً استقطبت ثقافات الشرق القديم، والثقافة العربية الإسلامية استقطبت الحضارات اليونانية والهندوسية والفارسية وغيرها وبهذا الوصف فللانتشار الثقافي فضل مزدوج على تقدم المجتمعات البشرية، فقد ساعدت الثقافة على النمو ككل، وأغنى في الوقت نفسه الثقافات الفردية، ودفع المجتمعات التي حملتها في طريقها نحو الرقي والتقدم[1].

وبالطبع فالثقافات تنتقل وتنتشر بآليات ومظاهر متعددة تبعاً لطبيعة الاحتكاك بين الشعوب فقد يكون الانتقال على شكل علاقات وثيقة بين ثقافتين وأكثر، وقد يقتصر الأمر على علاقات تجارية متباعدة أو متقاربة.

ومن الثابت أن الاحتكاك الدائم نادر الوقوع إلا في الحالات التي تستبد فيها فئات قائمة وسط فئات مغلوبة، أو بالنسبة للجماعات المهاجرة.

ولا حاجة للتدليل بأن تلك الظاهرة تتم بين المجتمعات المتقاربة أو المجتمعات التي يكون احتكاكها المباشر بالمجتمع الأصلي[2].

---

[1] – رالف لينتون: دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1964، ص428.

[2] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص63.

وهنالك قاعدة أخرى تقول بالبقاء الهامشي للثقافة، ولتوضيح ذلك يفترض أن مجتمعاً ما ابتكر جهازاً ما، ثمّ أحدث هذا المجتمع بعض التحسينات عليه، فالجهاز المحسن يحلّ محل الجهاز الأصلي في المجتمع الأول والمجتمعات المجاورة، لكن الجهاز القديم يستمر استعماله في الأطراف المحيطة بمنطقة الانتشار.

ومن جهة أخرى فالتردد في قبول عناصر ثقافية جديدة يخفض من معدل سرعة انتشارها، وإن كان لا يحول دون تعميمها في جهات معينة، والجماعات التي تتردد في تبني خاصية جديدة تشكل حاجزاً معترضاً بين منبعها الأصلي وبين الجماعات التي ترغب في اقتنائها إذا سنحت الفرصة بذلك.

وتجدر الإشارة إلى أنه بسبب تغير معامل القبول، فالعناصر الثقافية تنتشر دائماً من منابعها الأصلية بصورة غير منتظمة فقد تنتشر بعضها بسرعة فائقة، بينما ينتشر بعضها الآخر ببطء وهنالك احتمال قوي أن تنتشر الثقافة على شكل مجموعات من العناصر التي يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وظيفياً، وإن كان ذلك لا يحول دون انتشار كل عنصر على حدته.

وتتطلب عملية الانتشار الثقافي وجود مستقبل للعناصر الثقافية إضافة إلى وجود مصدر لها، ومن المؤكد أن دور المستقبل أكثر أهمية من دور المصدر، وهذا يعني أن استعمالنا للثقافة الغربية أمر ذاتي يتعلق بجوهر ثقافتنا واستعدادها للتقبل، أي أن مرد الأمور العنصر الداخلي في الثقافة.

وهنالك عناصر يمكن نقلها بشكل أو بآخر كالمفاهيم الدينية والفلسفية، لكن دون تحقيق نجاح كلي في نقلها بصورة كاملة، ومثلها في ذلك نقل نماذج السلوك الاجتماعي.

ويمكن القول إن الأساليب المادية ومنتجاتها أكثر قبولاً ونقلاً كاملاً لا يختلف عما هو عليه في البلد المصدر، هذا فضلاً عن أن للمجتمعات حرية مطلقة في قبول هذه العناصر أو رفضها، اللهمّ إلا إذا فرضت عليها بالقوة، ويندر أن توجد فئة من الفئات المسيطرة تستطيع فرض كامل ثقافتها، بل تختار فرض بعض العناصر[1].

ومن الواضح أنه مهما تفننت الفئة المسيطرة في استخدام أساليب القسر، فلن تستطيع إدخال أي عنصر لا يمكن التعبير عنه من قبل الثقافة الأخرى بصورة دائمة ومباشرة وبسلوك علني وطوعي، إذ من البداهة أنه لا توجد قوة تستطيع أن ترغم جماعة أخرى على قبول ثقافتها، هذا فضلاً عن أن اللجوء إلى القوة من شأنه أن يحول العناصر الملحوظة من ثقافة السكان الأصليين إلى رموز تستقطب الاتجاهات الثورية.

ويعتمد قبول العناصر من الدرجة الأولى على صفتين هما:

1- تقع هذه العناصر، ثم قابليتها للانسجام مع النسق الثقافي للجماعة المنقول إليها، وكما أكد ابن خلدون إن إعجاب جماعة معينة بأخرى يسهل نقل ثقافة الجماعة المعجب بها، حيث يتم التقليد من الأسفل إلى الأعلى.
والاتصال قد يكون مباشراً بوساطة عنصر عضوي، وبالمقابل فقد يكون غير مباشر في صورة رموز وأفكار وسوى ذلك، وقد يكون عن طريق البر أو البحر، وقد يكون عن طريق الحروب أو قد يكون عن طريق أفراد ممثلين لثقافات معينة كالمبشرين والتجار...إلخ.

---

[1] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص65.

وقد يتم الاتصال في البلاد المغلوبة، كما هو الحال في المستعمرات أو العكس قد يكون عن طريق انتقال بعض سكان البلاد المغلوبة إلى البلد الغالبة وغالباً ما يتم الاتصال لأغراض اقتصادية أو دينية، إذ في الدول القومية التي تنهض بالتزامات اجتماعية وخدمات علمية، ترى من واجبها الاتصال الخارجي كجزء من واجباتها.

ومن جهة أخرى، فالتماس الثقافي قد يولد مقاومة، وبالعكس فقد يخلق الثقة والألفة والتفاعل.

والعداء الثقافي يأخذ أشكالاً متنوعة، من ذلك الإفتاء الجماعي لأشخاص الثقافة بالوسائل الحربية إفتاءً تامّاً أو جزئياً، كما حدث في تجارة الرقيق، وقد يأخذ مظهر الإفقار السكاني بالعزل أو الاستيلاء على الأراضي والتشريد، كما حدث للهنود الحمر في أمريكا أو لسكان استراليا الأصليين، أو ما تحاوله الحركة الصهيونية في فلسطين.

وقد يأخذ العداء مظهراً أخلاقياً، كما فعل الإنكليز في نشر الأفيون في الصين والهند أو في نشر الأمراض أو في تفكيك الحياة العاطفية، وإنهاء التنظيمات التقليدية وإباحة الحروب والاستهانة بالمقدسات.

وقد يكون الاتصال اقتصادياً أو علمياً أو فنياً أو سياسياً، أو قد يعتمد الإقناع القانوني أو الدبلوماسي، أو يستهدف تكوين رأي عام أو منطق جمعي أو بلورة اتجاه حول سلطة معينة أو نشاط انتخابي.

ويبقى الاحتكاك الذي يجعل تمثل الثقافات ممكناً، فينشأ من طريق الفتح واستيطان الغالبين بين الجماعات المغلوبة، وهنا يقابل تفوق الفاتحين بالقوة التفوق العددي للمغلوبين أو تقوقعهم الثقافي مع ملاحظة أن انصهار ثقافتين يظهر في صيغ أقرب إلى المزيج الكيميائي منه إلى الخلط الآلي الفيزيائي.

ومما لا ريب فيه أن الانتشار يعتبر ظاهرة سليمة إذا ما بقي في حدود التفاعل والتلاقح الطبيعي للأمور دون أن يقترن بمظهر متسري أو مرضي يخرج الأمور عن طبيعتها، ويتعارض مع النسب المركوزة فيها.

وبهذا المعنى فنحن نميز الانفتاح من التفتح، فالتفتح يقوم على الندية والاعتماد المتبادل والمساواة خلافاً للانفتاح الذي يعطل حركة الجدل ويعبر عن ظاهرة خطية غير متبادلة الأثر والتأثير.

على هذا الأساس، فنحن مع "الأستاذ علي حرب" في مقولته المدللة بأن الحقيقة هي حقيقة الكائن عينه إنها فاعلية الكينونة، وكينونة الشيء هي قوته ومداه الوجودي إنها قدرته على الانفتاح والتوسع والانتشار[1].

ومع ذلك فلسنا مع الأستاذ حرب إذا كان المقصود «وهو كذلك» تبرير الغزو الثقافي وتأكيده على علوية سؤال الوجود على سؤال العروبة والإسلام[2].

وقوله إنه لا يجوز الاحتجاج على غواية المرأة الجميلة أو تدليله بأن للثقافة وجهها السلطوي مقابل وجهها التنويري.

وبيان ذلك أنه لا يجوز قياس الظواهر الإنسانية على الظواهر الطبيعية، وبذلك «من وجهة نظر العلوم الإنسانية» لا يكفي القول إن المرأة الجميلة لها غوايتها، بل يجب وضع القانون التقويمي على تلك الغواية، حيث إن العلوم الاجتماعية والطبيعية تقرر فقط وجود الظاهرة دون أن يقومها تقويماً على أساس المعيار

---

[1] – علي حرب: مقاله الموسوم بعنوان غزو ثقافي أم فتوحات فكرية، مجلة الفكر العربي العدد 74 لعام 1993، ص66، ص 78.

[2] – المرجع السابق، ص78.

المختار، ومن ثمّ لا يكفي وصف كينونة الفكر ومداه بأنهما فتوحات فكرية، بل يجب تلمس ومعانقة القانون الثاني للفكر من الوجهة المعيارية التقويمية، ألا وهو الغزو الفكري.

ثمّ لنا أن نطرح السؤال التالي على الأستاذ حرب:
ما هو قيمة هذا السؤال للوجود الذي هو موضع أرجحية على سؤال العروبة والإسلام.
إن العروبة والإسلام هما بالنسبة لنا شعار أخضر، فهما الحي والبيت والأهل والأقرباء والوطن والاقتصاد والحياة والوجود الحقيقي الذي أعيشه والهواء الذي أتنفسه والنسغ الذي يسري في عروقي.

لكن هل إن سؤال الوجود له مضمون محدد، وما هو هذا المضمون والنطاق والمحددات؟.

إن المبدأ يجب أن يكون واضحاً حتى يصبح محلاً للالتزام والالتزام وإلا فهو مجرد شعار فضفاض لا يصلح محلاً للتجذر حوله والتأسيس عليه.

والخلاصة أن نظرية الانتشار الطبيعي تتفق مع الواقع المعاش ولا تصلح معياراً لأية نظرية ثقافية إنسانية تقوم على الاعتماد المتبادل والثقافة الحيّة بين الشعوب.

ولعلنا نجد مصداقاً لقولنا في الإعلام الغربي، فهذا الإعلام يصل بالموجات الضوئية والصوتية إلى 90 بالمائة من أصقاع العالم، وهو الآن نفسه يتناول

مختلف الشؤون السياسية والثقافية والاقتصادية والرياضية والتاريخية، ويحوّلها إلى معلومات مختصرة ومكثفة، وتحمل ووجهة نظره الخاصة[1].

هكذا اختار "الأستاذ بسام ضو" «على سبيل المثال والتدليل» مصطلح الإرهاب ومصطلح العرب واليهود وكشف النقاب عن الخلفيات الثقافية والسياسية والاقتصادية وراء هذين الجهازين، فمصطلح الإرهاب واضح في الفكر الغربي ويستخدم بوسائل الإعلام المرتبطة بالدول الرأسمالية الكبرى ضد كل من يعترض سياستها الخارجية ومخططاتها الاستعمارية الحديثة[2].

والأمر نفسه لمادة عرب ويهود «على سبيل المثال» وكالة رويتر البريطانية ووكالة الصحافة الفرنسية، إذ أن كل خبر يتعلق بالعرب يقدم على مرتبط بدول وشعوب وثقافات لا جذور لها، ولا خلفية حضارية وثقافية واحدة، فالعرب في المفهوم الخبري لدى الوكالتين هم مجموعة شعوب لا ينتمون إلى أمّة واحدة، ولهذا فالخبر العربي العام غائب، ويحلّ محلّه الخبر اللبناني والخبر السوري، والخبر المصري، والخبر العراقي...إلخ[3].

والخلاصة فالوكالتان الآنفتا الذكر يسعيان لخلق رأي عام تغيب عنه الخصائص القومية والحضارية، ويكرس واقع التجزئة الاستعمارية بين العرب، ويضرب

---

[1] - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، مجلة الفكر العربي، عدد 74، لعام 1993، ص21 وما بعدها.

[2] - المرجع السابق، ص25.

[3] - المرجع السابق، ص26.

مفهوم الأمة وشخصيتها الحضارية المتكونة تاريخياً، وبالطبع فالكارثة أشد عندما لا نجد وكالة عربية رسمية تبلغ مستوى الوكالتين السالفتي الذكر[1].

وتركز الحملة الإعلامية الغربية الرأسمالية على إعطاء بُعد تاريخي، المسألة الديمقراطية والحريّة لدى دول العالم الثالث، وهكذا، فهذه الحملة لا تعني تركز على أن مرد غياب ذلك إلى كون العرب وغيرهم من شعوب الدول النامية لا يتلاءمون بطبيعتهم وتكوينهم التاريخي مع الحياة الديمقراطية المعاصرة[2].

هكذا فالحديقة الإعلامية التي ينفذها الإعلام الغربي الرأسمالي تقوم على إعطاء الصفة المطلقة لما هو نسبي، وتصف الناس والتاريخ والحضارة بما كان يجب أن تصف به أنظمة السلطة فقد، وذلك بقصد تضليل الرأي العام والإيحاء بأنّه تاريخياً في موقع الدونية[3].

هكذا يؤكد "الأستاذ ضو" بأنّ الساحة أصبحت مفتوحة تماماً أمام الدول الرأسمالية الغربية كي تكون لنفسها الإمبريالية المتممة أي الإمبريالية الإعلامية التي ستقع على عاتقها تنفيذ الغزو الإعلامي الممهد للغزو الرأسمالي الحديث[4].

ويؤكد "الأستاذ ضو" على حقيقة حرص الغرب على إدخال الإعلام كعنصر عضوي أساسي في إستراتيجية الصراع في الساحة الدولية وقد وضع له الأهداف التالية:

---

[1] - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص26.

[2] - المرجع السابق، ص27.

[3] - المرجع السابق، ص27.

[4] - المرجع السابق، ص28.

- الترويج للاقتصاد الحر.
- كبح الاشتراكية.
- كبح حركات التحرر في العالم[1].

وإذا كانت الدول النامية تتلقى 90 بالمائة من إعلام الغرب فهي لا تستطيع أن ترسل إلا الغزو اليسير الذي لا تأثير له في الرأي العام لدى الدول الرأسمالية[2].

ولقد أثير هذا الخلل الإعلامي أكثر من مرّة في المؤسسات والهيئات الدولية، ولكن تلك الاحتجاجات لم ترَ النور، كما حصل في المؤتمر العام الذي عقدته منظمة الأونيسكو في بلغراد عام 1980، أو كما حصل عام 1986 عندما انسحبت الولايات المتحدة من منظمة الأونيسكو، وامتنعت عن المساهمة المالية في نشاطاتها بسبب ما واجهته من معارضة شديدة لسياسة التدفق الحر للمعلومات وفقاً للمصطلح الأمريكي الذي يعكس ويبرر التدفق الحر للمراسيل إلى البنوك والمؤسسات الاقتصادية الأمريكية.

وتؤكد الإحصاءات أن أربع وكالات في العالم تحتكر 80 بالمائة من التدفق الإخباري وهي:

أسوشيتد برس، واليونايتد برس، ورويتر، ووكالة الصحافة الفرنسية، وهي تخضع جميعها لسياسات دولها المعادية للدول النامية، وحركات التحرر في العالم، وإذا أضفنا إليها القدرة العالمية في الالتقاط والتوجيه بواسطة الأقمار الصناعية

---

[1] - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص28.

[2] - المرجع السابق، ص28.

ظهرت أكثر فأكثر الصفة الاحتكارية للإمبريالية الإعلامية والتي هي الموازي الدعائي للاحتكارية الرأسمالية[1].

هذه صورة مبسطة تدحض بقوة مقولة الانتشار الثقافي الطبيعي وتؤكد ظاهرة الابتسار والهيمنة والقسر وعدم التثاقف الحر بين الشعوب لصالح الغربة وهذا ما يحتم علينا بحث ظاهرة الغزو الثقافي واعتبارها حالة قائمة وجديرة بالبحث والتنقيب على قاعدة أنه لا يمكن تجنب الخير إلا في حدود سيره ومعرفة أسبابه[2].

[1] - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص29.

[2] - المرجع السابق، ص31.

الغزو الثقافي

إذا ألقينا نظرة سريعة على العمليات الثقافية الآنفة الذكر، اتضح لنا أن تلك العمليات أقرب ما تكون إلى القوانين البيولوجية، حيث تمتلك كل ثقافة عناصر حية تتفاعل من خلالها أو تتصادم أو تتضاضد، وما يترتب على ذلك من نتائج هامة على مستوى القبول والرفض وغير ذلك.

وأمامنا الان على صعيد الثقافة ظاهرة جديدة هي ظاهرة الغزو، إذ وكما يتضح من هذا اللفظ أن تلك الظاهرة قسرية اختراقية، حيث تحاول ثقافة ما أن تخنق وتسحق ثقافة أخرى وتلوي عنقها وتفرض عليها ارادتها وقيمها، ولهذا السبب فالغزو الثقافي كثيراً ما يقترن بالغزو العسكري.

وإذا كان الاستعمار القديم قد غير سجيته وجلده، فقد ظهر هذا التغيير جليّاً من خلال القسر الثقافي، وهكذا فقد طالعنا الأدب الفكري بجهاز مفاهيمي جديد يتفق مع هذه الظاهرة، هذا الجهاز هو الإزاحة أو الإبدال displacement الثقافي الذي لا يختلف عن الغزو الثقافي إلا في المظهر دون الجوهر، بسبب ارتباطه بمفاهيم التطور والتمدن والرمز بل والتمرد من خلال الاعجاب بصورة البطل[1].

وهكذا يتضح أن هذا المصطلح مدمج بالتقنية الحديثة المعقدة من سمعية وبصرية، غايته تقديم ثقافة جديدة لتحل محل ثقافة محلية تظهر ذاتها في صور وأشكال

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص81.

جديدة غير مألوفة ومتعددة متغلغلة في نسيج الحياة اليومية لتلك المجتمعات المتلقية، كما هو ملاحظ في وسائل الإعلان وأساليبه مسموعاً أو مقروءاً مستخدماً مصطلحات المجتمع المنتج وكيفية استخدامه استهلاكاً وتشغيلاً[1].

وليس بعيداً القول إن الدول الأكثر تقدماً تسعى راهنياً وعن طريق امتلاك وسائل الاتصال المتقدم إلى تعميم ثقافة عالمية تتخطى وتجبُ الثقافات المحليّة، أو حتى ثقافات المحليّة، أو حتى ثقافات ذات بعد عالمي لا تمتلك شعوبها مثل هذه التقنية.

ولقد اتضح لنا سابقاً أن الغرب يملك 90بالمائة من قوة الإعلام العالمي، ومع ذلك يرى بعضهم أن هذا الغزو غير مخطط له ولا وجود لمجتمع يخطط لغزو مجتمع آخر ثقافياً، أو لإبدال ثقافته، لأن مثل هذه الخطط يتكلف تنفيذها مبالغ طائلة لا تستطيع أغنى الدول تحمل نفقته[2].

وهكذا يتضح أن الرأي الأخير نفى وجود غزو ثقافي مخطط له في حين يؤكد الأستاذ ضو «كما سبق توضيحه» ذلك التخطيط، وبذلك تصبح الضرورة ماسة لتلمس تلك الظاهرة ومعانقة جوانبها، وذلك –بالطبع– من الجانب المتصل بالثقافة العربية.

وإذا رجعنا إلى نظرية الأستاذ حرب في الكينونة ومدى الشيء وقوة الوجود، أمكننا القول إن الغزو الثقافي يقوم على الحقيقتين الآتيتين:

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص81.

[2] – المرجع السابق، ص82.

- خواء ثقافي.
- ملاء ثقافي.

فهل يتحقق الشرطان على صعيد واقع ثقافتنا؟.

الغزو الثقافي الممارس على الثقافة العربية

لقد خرجت الأمة العربية من مخاض العصر المظلم الصعب في نهاية القرن الماضي، وهي أشبه ما تكون سفينة مضعضعة تكاد تقوى على الإمساك بأجزائها الرئيسية، ولكن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما كانت عليه أحوال الأمم المستلبة الأخرى.

وعلى الرغم من ذلك فثمة خصوصية عربية تتلخص بأن هذه السفينة تطفو على محيط يصعب أن تحتويه الحسابات التقليدية[1].

ولقد لعب الاستيلاء على النقط دور كبير في هذا المضمار، إذ أن هذا السيف الاقتصادي الاستراتيجي جعل الأمة العربية المركز الأول للغزو والتسلل والعدوان الثقافي العالمي[2].

والسبب الثاني في موضوع غزو أمتنا ثقافياً هو أن هذه الأمة تقبع على تراث ثقافي في عميق وفي غاية من القدم، مما يجعلها غير سهلة الانصياع والانقياد للبدائل الثقافية الدخيلة، وبتعبير أدق فأمتنا أمة لا ترتكن إلى تراث ثقافي هش أو

---

[1] – د. الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، مجلة شؤون عربية عدد/80/لعام 1994، ص169.

[2] – د. عزيز الحاج: الغزو الثقافي ومقاومته، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لعام 9821، ص11.

رخو غير قادر على النهوض بتأملاتها وآفاقها المستقبلية، لذلك كانت ثقافتها القديمة المتراكمة التي كانت تحتل حضارة متفوقة لقرون عدة كانت تنطوي على عناصر مقاومة وضوابط حواسية تتحسس الطارئ برغم بهرجته وجاذبيته[1]، ومما لا شك فيه أن وعي المثقف العربي المعاصر بوجود غزو ثقافي هو شكل من أشكال المقاومة.

إن هذا الوعي درجة من الذكاء والدّقة التي يستحق بها المراجعة، ذلك أن إلقاء الضوء على جوانب هذا الوعي المتنوعة يخدمنا في إعادة تركيبه في صورة الغزو الثقافي، كما نتحسسها نحن، وكما نتكهن بأبعادها الكاملة، ومن جهة ثانية، فهي تساعدنا على الاضطلاع بمهمة المقارنة بتأملات الثقافة المقابلة، وهي هنا الثقافة الغربية، وبالتالي إذا أردنا أن ندرس إشكالية الغزو الثقافي لا ينبغي علينا أن نكتفي بآراء المثقفين العرب فحسب، بل علينا أن نرصد أفكار الثقافة الغربية، أي علينا أن نتحسس من ما قلنا حافاته كما تطل علينا، إضافة إلى النظر إليها من موقع آخر على هذا الأساس سنعرض لوجهة النظر العربية في شقيها المؤكد لوجود الغزو، ثم نعقب على ذلك بوجهة النظر المعاكسة.

---

[1] – د. الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص170.

وجهة النظر العربية المؤكدة لوجود الغزو الثقافي

في كتابه **الغزو الثقافي** تحدث الدكتور "عزيز الحاج" عن حرب ثقافية مضادة للعرب ميدانها الصحف والإعلام بجميع أشكاله، أنماط التفكير وأساليب التصرف والحياة، والقيم والمثل والتعليم، أي كل ما يكون التراث والتكوين الفكري والروحي والنفسي للشعب وسلوكه وتقاليده، وطراز حياته، أي كل ما[1] يتعلق بالشخصية الثقافية الوطنية والقومية والهوية الذاتية للمواطن، والغاية من ذلك سلخ المواطن عن عروبته وطمس قوميته وفرض الغربة والشعور باقتلاع الأصول والجذور[2].

على هذا الأساس تكلم أحد الباحثين القوميين عما أسماه باستراتيجية الإجهاض العربي[3].

ويتعمق مخطط الغزو التركيز على حقول هامّة هي: انتحال الفولكلور تشجيع اللغة الأجنبية حجرة الأدمغة العربية، الأخذ بنمط السلوك الغربي، نسيان الممتلكات الثقافية المنهوبة، تغليب المصالح الفطرية على القومية وتشجيع الأميّة، التسامح في التغريب[4].

---

1 – د. عزيز الحاج: الغزو الثقافي، ص12.

2 – المرجع السابق، ص12.

3 – مجلة الفكر العربي عدد/70/لعام 1992، مقال بعنوان الشباب العربي وغزو الحضارات، ص64.

4 – د. عزيز الحاج: الغزو الثقافي، ص21.

أمّا "الأستاذ علي فهمي" فقد تناول بعض آثار الغزو المتمثلة في التبعية والتغريب من خلال استقراء أزمة التنشئة الثقافية في الوطن العربي باعتبارها واحدة من أهم أبعاد أشكال الغزو الثقافي[1].

ولقد نوّه "علم الدين دياب" بالدراسات الاجتماعية الأمريكية ومخاطرها على الأمن الثقافي العربي، فهذه الدراسات لم تترك صغيرة ولا كبيرة في الحياة الاجتماعية العربية، إلا وقامت بدراستها وتحليلها ومعرفة جوانبها المباشرة وغير المباشرة الآنية والمستقبلية، ثم تعمد إلى برمجة نتائجها على شكل آراء ونصائح للمخابرات الأمريكية لتقديمها كوصفات جاهزة وسريعة للحكومات الوطنية لتقوم هذه الأخيرة بالتعامل معها[2].

وفي هذا الإطار قال العالم الأمريكي "ألفريد دي جراز" رئيس تحرير مجلة العلم السلوكي الأمريكي: من حقّ أمريكا التي ترسل جيشها إلى فيتنام ولبنان وكوريا وغيرها من البلدان، مما يؤدي إلى قتل أبنائها، أن تجمع البيانات اللازمة من هذه البلاد التي تدخل إليها أمريكا لقمع التوترات فيها[3].

---

[1] - مقاله الموسوم بعنوان الجامعة العربية وإعادة التنمية، شؤون عربية عدد/37/لعام 1984، ص168.

[2] - مقاله الموسوم بعنوان: الدراسات الاجتماعية الأمريكية ومخاطرها على الأمن الثقافي العربي، مجلة الفكر العربي، عدد/70/لعام 1992، ص59.

[3] - المرجع السابق، ص59.

ويشير الأستاذ علم الدين دياب إلى مشروع "فولبرايت" الرئيس الأسبق للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ وغايته إعداد علماء عرب للقيام بالدراسات اللازمة لصالح الولايات المتحدة[1].

ولقد ألقى "الدكتور عبد العزيز شرف" الضوء على دور الضخ الإعلامي بقنواته المتعددة في تحقيق أغراض الغزو الثقافي[2].

وركز الدكتور "عبد العزيز محمد" على مستقبل الشباب العربي وأظهر مخاطر استقباله للغريب المستورد، ثم تغريبه، وذلك من خلال رصده لأزمة الشبيبة العربية، ومعاناتهم في عصر التغييرات الاجتماعية الجذرية[3].

وحاول "الأستاذ أحمد صادق سعيد بلورة" أبعاد جدل الغزو الثقافي مركزاً على ما شهدته الساحة العربية من تصاعد الوعي إزاء الهجوم الثقافي الغربي إبان السبعينات نتيجة التمادي في الانفتاح[4].

---

[1] - المرجع السابق، ص61.

[2] - مقاله الموسوم بعنوان: وسائل الإعلام والغزو الفكري في ضوء وثائق الجامعة، مجلة شؤون عربية عدد/37/لعام، 1984، ص179.

[3] - مقاله الموسوم بعنوان: جامعة الدول العربية ومستقبل الشباب العربي، مجلة شؤون عربية عدد/37/لعام 1984، ص210.

[4] - مقاله الموسوم بعنوان: وسائل الإعلام والغزو الفكري في ضوء وثائق الجامعة، مجلة شؤون عربية عدد/37/لعام، 1984، ص179.

ولقد تناول "د. نواف عدوان" إمكانيات تحسين وتطوير طبيعة الفخ والاستلاب الإعلامي العربي على سبيل الاعتزاز بالهوية والثقافة القومية، ومن أجل التصدي للتشويه المضاد لتراثنا[1].

ولقد أكد "د. محمد جلوب فرحان" على أن الاحتكاك الثقافي مع الغرب كان من طرف واحد، حيث العرب مستمعون والغرب هو المتكلم، زد على ذلك فقد تحدث عن مخطط غزو ثقافي يهدف إلى إلغاء وجود الأمة العربية وتخريب ثقافتها، وإلى توجيه أقلام عربية للكلام عن كل ما هو سلبي في ثقافتنا والغاية من كل ذلك تهشيم الشخصية العربية[2].

بيد أن هنالك من يؤكد أن هذا الغزو إن لم يكن مدبراً فهو نتيجة إفراز تلقائي للغزو الثقافي الغربي، إنه نتاج عفوي غير مدروس لارتطام حضارة مع حضارة لم تعد تتفوق[3].

هذه الهشاشة والرخاوة في حياتنا حدت البعض إلى إلقاء اللوم على تلك الهشاشة، والغزو الثقافي عند بعضهم نتيجة طبيعية للتشبث بالثقافة الغربية، وبالتالي فالسعي إلى مواكبة العصر بنقل أفخم ناطحات السحاب ليس سوى إقرار بالانتماء إلى عصور متخلفة، وفي الوقت نفسه فهو تعبير عن عقد النقص

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: الثقافة المضادة ودور المثقف العربي في الدفاع الوطني العدد/2/لعام 1984، ص192.

[2] د. أبو عمشة: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص174.

[3] – الإعلام العربي دوره في التصدي لمخططات المعادية لقضايا القومية، شؤون عربية، عدد/3/لعام 1984، ص121.

والانبهار بمظاهر حضارية عقيمة لا يفهم علاقتها العضوية بأرضها وتراثها، ولعلنا نجد في تركيا المثل الحي لهذه الاستكانة السوداوية[1].

ويؤكد الرئيس الجزائري الأسبق "أحمد بن بله" على النتائج الوخيمة للاستيراد والاستلاب الثقافي والقضية لديه ليست في امتلاك السيارة، وإنما في صنعها، وإن الإنتاج الاقتصادي هو بالضرورة نتاج ثقافي.

ولا يمكننا أن نتصور عملاً معزولاً عن المحيط الثقافي، وعن فلسفة وتاريخ تطوره، وتبعاً لذلك فالتكنولوجيا تنقل معها تقاليدها الثقافية الأصلية[2].

ويؤكد "الأستاذ علم الدين دياب" أنه ابتداءً من عام 1948 أصبح علم الدعاية واغتصاب العقول علماً معترفاً به، وذا أصول وفروع، وهو العلم الذي اكتمل فيه علم السوبر نطيقاً (التأثير غير المباشر) وهي السنة التي تحول فيها الاستعمار القديم إلى استعمار جديد حيث تحولت الدعاية إلى استعمار خفي لتدمير العقول بالمخدرات وغيرها، وفي هذا الصدد يقول "فيكتور بالدربيرج" عالم الاجتماع الأمريكي: ((إن غزو الإمبراطوريات الأوروبية للهند وأفريقيا وجنوب شرق آسيا، كان يستند لستر شفاف من البواعث المعقولة، ولكنه في الحقيقة لم يكن إلا اغتصاباً اقتصادياً وقحاً واسع النطاق))[3].

---

[1] - د. فكتور سحاب: التراث وأزمة الحضارة العربية، مجلة قضايا عربية عدد/2/، لعام 1983، ص171.

[2] - مذكرات أحمد بن بله، جريدة السفير، 1982/2/8، ص11.

[3] - مقاله السابق، ص77.

ويؤكد "الأستاذ عبد الله العروي" بأن الغرب لا يفرض ثقافته وقوانينه بل آلهته[1].

ويشير "الأستاذ بسام ضو " إلى أن الإمبريالية الإعلامية (الأميركية- الفرنسية- البريطانية) حددت أهداف غزوها الثقافي بما يلي[2]:

- ✓ القضاء على نقطة الاتصال الجغرافي الاستراتيجي (فكرة التجزئة).
- ✓ المداخل والامتدادات البحرية يجب أن تكون خطراً على العرب لا نقاط انطلاق وتقدم.
- ✓ الثروة العربية يجب أن تنتزع من أيدي العرب.
- ✓ القضاء على فكرة الوحدة وعلى جذورها، وتصوير العرب بأنهم شعوباً وليسوا أمة، وتعزيز الكيانية القطرية.

والأساليب التي تستند إليها الإعلامية الغربية –وهي متأثرة بنظرية يوزف غوبلز النازي- هذه الأساليب هي[3]:

1- التأثير التراكمي اليومي وهو يقسم إلى قسمين:

أ- **الدعاية الموجهة إلى الداخل العربي** : وتقوم بها وكالات الأنباء وشركات التلفزيون والإذاعات الموجهة للعرب وذلك على مدى أربع وعشرين ساعة، وإذا علمنا أن العالم العربي محاصر بثلاث إذاعات رئيسية متكاملة الأدوار هي:

---

[1] - كتابه أزمة الفكر العربي، لوس أنجلس، 971.

[2] مقاله: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص32.

[3] - مقاله: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص32 وما بعدها.

الإذاعة البريطانية- إذاعة صوت أمريكا المرتبطة مباشرة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، إذاعة إسرائيل، ندرك مدى خطورة المادة الإعلامية الموجهة ضد الوطن العربي.

ب- **الدعاية الموجهة إلى الخارج ضد العرب** : وهي مكملة للأولى، وتهدف إلى تشويه صورة أمتنا وتصنيفها في قائمة التخلف، وإذا علمنا أن حوالي ستين مليون أمريكي يقرؤون الصحف في اليوم وبصورة منتظمة، أدركنا مدى خطورة هذه الصحف التي لا تفتأ تنشر الأخبار ضد حياتنا وقيمنا.

2- التأثير الآني والتأثير التكويني:

يختار دور الإعلام الغربي إثارة القضايا الاجتماعية والسياسية في المجتمع العربي (المرأة- الزواج- الأسرة- الحرية- الجنس- المرض) وذلك بقصد زرع الوهم كأن المجتمع العربي بتكوينه لا يستطيع الخروج من التخلف وبقصد إبقاء الغرب مثالاً حياً في نظرنا، وبذلك فالإعلام الغربي يقوم على ما يلي:

- التأثير الآني لصناعة رأي عام من خلال قضية معينة.
- والتأثير التكويني في السلوك والذهنية من أجل تحويل هذا الرأي العام إلى عجينة طيعة بيد الغرب والصهيونية[1].

ويطرح "الدكتور محمد عابد الجابري" مسألة الغزو الثقافي من خلال ظاهرة العولمة، وفي هذا الصدد يميز بين العولمة والعالمية، فالعالمية تفتح على العالم، على الثقافات الأخرى، مع الاحتفاظ بالخلافات الإيديولوجية، أما العولمة فهي نفي للآخر، وإحلال للاختلاف الثقافي محل الصراع الإيديولوجي.

---

[1] - بسام ضو: قوة الإعلام- الغزو المقنع، ص33.

العولمة globalization إرادة للهيمنة، إنها قمع وإقصاء، أما العالمية universality، فهي الطموح إلى ارتقاء بالخصوصية إلى مستوى عالمي، العولمة احتواء للعالم، والعالمية نضج على ما هو عالمي وكوني[1].

نشدان العالمية في المجال الثقافي في طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء في التعاون والحوار والتلاقح، إنها طريق الآن للتعامل مع الآخر بوصفه "أنانية" طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة، إما العولمة من إرادة اختراق للآخر وسلبه خصوصيته وبالتالي نفيه من العالم[2].

وقريب من ذلك رأي الدكتور "عبد الإله بلقزيز"، فالعولمة لديه ليست انتقالاً من حقبة الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عالمية جديدة، بل إنها تظل "اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي" وهنا يجب التمييز بين المثاقفة التي تعني الحوار بين الثقافات والاعتراف المتبادل بحق الاختلاف، باعتباره من أقدس حقوق الإنسان من ناحية، والعنف الثقافي الذي ينطوي على الإنكار والإقصاء لثقافة الغير وعلى الاستعلاء والمركزية الذاتية في رؤية ثقافته[3].

وفي مقالها الموسوم بعنوان: **الوطن العربي وأجنحة الغزو الإعلامي الجديد**[4]، تحدثت "ماجدة موريس" عما يسعى بحرية الإعلام أو حرية التدفق الإعلامي بين

---

[1] – د. محمد عابد الجابري مقاله الموسوم بعنوان: العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، عدد/228/لعام 1998، ص170.

[2] – مقاله الموسوم بعنوان: العولمة والهوية الثقافية، ص170.

[3] – عرض لهذا الرأي: مجدي حماد في مقاله الموسوم بعنوان: ندوة العرب والعولمة، مجلة المستقبل العربي، العدد/228/لعام 998، ص175.

[4] – مجلة قضايا عربية، أيار، 1980، ص142.

دول العالم لتؤكد أن تلك الحرية خرافة وأن ترك الأمور على اعتقها بالنسبة للحرية الإعلامية هو نوع من الانتحار البطيء في أعزّ ما نملك من رصيد القيم الأصيلة والتراث والمقومات الحضارية.

وكشفت عن نقطة هامة هي أنه اتضح للأمم المتحدة الأخطار الفاحشة الناجمة عن تطبيق مبدأ حرية التدفق الإعلامي في العالم، حيث تراجعت عن موقعها من ذلك المبدأ.

لكن لماذا سقط مبدأ حرية التدفق الإعلامي، ومن ثم انعدام العدالة الإعلامية؟؟

تجيب عن ذلك "ماجدة موريس" بتأكيدها الحقائق الآتية:

1- سيطرة الدول المتقدمة على 80بالمائة من حجم الأنباء المتداولة في العالم.

2- سيطرة تلك الدول المتقدمة على وكالات الأنباء العالمية الكبرى.

3- سيطرة الدول المتقدمة على أقمار الاتصالات الفضائية.

4- سيطرتها على 90بالمائة من الترددات الإذاعية.

على هذا الأساس فقد قرر الاجتماع الذي عقدته اليونسكو عام 1968 لخبراء استخدام الاتصالات الفضائية للأغراض الإذاعية: فقد قرر ما يلي:

الحاجة إلى حماية حقوق المشاهدين سواء على المستوى الفردي، أم على المستوى الجماعي، ومراعاة تراثهم الثقافي[1].

---

[1] – مجلة قضايا عربية، أيار، 1980، ص144.

وفي عام 1972 أصدرت الجمعية العامة المبدأ الآتي: يجب على الدول التي تأخذ في اعتبارها حرية تدفق الإعلام أن تعمل على توقيع اتفاقيات تهتم بالإذاعة عبر الأقمار الصناعية لسكان دول أخرى عبر الدول التي تبث الإرسال المباشر[1].

ولقد أوضح رئيس اتحاد الإذاعات العربية عام 1972 حاجة العالم العربي إلى هذه المعرفة، وهي الحاجة التي تستدعي بالضرورة استعمال الأقمار الصناعية، ولكن هذه الأقمار ملك الدول المتقدمة وهذا ما يحول دون معرفة العالم العربي لنفسه[2].

ولقد حذر رئيس الاتحاد المذكور من أمركة العالم ويتساءل قائلاً: ((لماذا يقف العالم العربي صامتاً إزاء ما هو موجود في الحاضر من غزو إعلامي؟ إننا بالفعل قلقون تماماً من أن يؤدي التهافت على الإذاعة عبر الأقمار الصناعية إلى طغيان أفلام رعاة البقر، وبرامج مثل أحب لوسي، إننا لو نظرنا إلى الحاضر نظرة متأنية لروعنا من مظاهر الغزو الإعلامي المتدفق على شاشاتنا كل ساعة))[3].

وكنموذج تفصيلي حول تدفق البرامج الأجنبية بالتلفزيون العربي فإن مصر تستورد سنوياً 2500 ساعة من البرامج تلقتها من الولايات المتحدة، وتتابع "ماجدة موريس" حديثها عن الجناح الأول للغزو الإعلامي المتمثل في الغزو الإخباري وآليات التي يقوم عليها، من ذلك على سبيل المثال تجاهل الأحداث

---

[1] - المرجع السابق، ص145.

[2] - المرجع السابق، ص 142.

[3] - مجلة قضايا عربية، أيار، 1980، ص 148.

الإيجابية المؤثرة في حياة الشعوب والعكس بالنسبة للأحداث المتعلقة بالدول المتقدمة[1].

وتكشف "ماجدة موريس" عن المادة الدرامية التي يبثها الغرب متمثلة في الإنسان الغربي الخارق (سوبر مان) أو خلق حالة الانبهار والإثارة في الإنسان العربي البسيط[2].

وفي إحصاء لعدد المسلسلات التي عرضت بالتلفزيون المصري لعام 1979 اتضح أن هذه المسلسلات تدول حول الدراما ورعاة البقر والخوارق والأعمال البوليسية[3].

وتنهي "ماجدة موريس" حديثها بالتأكيد على أن هذا الغزو الإعلامي يهدد بتحول خطير يرسخ أفكار التخلف عن العالم النامي في هذا العالم نفسه، كما يصل إلى درجة التشيع التام لأفكار الغزو الإعلامي لدرجة التأثير على الكتّاب المحليين في أفكار البرامج وأشكالها في بلدانهم، ومن هنا يتضح السيطرة الثقافية مباشرة من خلال الحلقات المصدرة إلى العالم النامي وغير مباشرة من خلال الحلقات المصنوعة بأيدي أبناء العالم النامي[4].

ولقد أدلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو العربي) دلوها في هذا الموضوع، فأصدرت عدّة قرارات وتوصيات بشأن الغزو الفكري، حيث أكّدت

---

[1] - المرجع السابق، ص 149.

[2] - المرجع السابق، ص 150.

[3] - المرجع السابق، ص 150.

[4] - مجلة قضايا عربية، أيار، 1980، ص 154.

على لسان رئيسها الدكتور "محي الدين ضياء" ما يلي: ((الغزو الفكري عن طريق الحلقات التلفزيونية موضوع ليس عاجلاً واتخذنا عدّة قرارات وتوصيات بشأنه بشكل عام، ولكن الموضوع متوقف على التنفيذ، وهي في اعتقادي مسألة إمكانياته، ودولة فقيرة لا تسمح إمكانياتها بالإنتاج، ولكن الرجل السوبر مان أو الخارق هذا لا يتم سوبرنته «جعله سوبرمان»، ولكنها مع ذلك مشكلة بلا حل، نوع من قصور الإدراك لمدى خطورتها، وهي عملية معقدة وتحتاج إلى ترشيد))[1].

ولقد كشف "الأستاذ محمد سعيد" القناع عن وثائق العقد الدولي للتنمية الثقافية/1988- 1997/وربط هذه الوثائق عن الغزو الثقافي بعوامل استيراد الخدمات والسلع المادية والأنماط الاستهلاكية[2].

ولقد تحدث "الأستاذ مضية" كثيراً عن ثقافة الإمبريالية وحرصها على نشر قيم الاستهلاك والقيم المبتذلة والساقطة، وتسفيه الأذواق والقيم الاجتماعية من أجل بلورة شرائح طفيلية تابعة، ثم السعي الدؤوب لخلخلة عناصر الكتاب القومي من خلال تصدير الأذواق والعادات الاستهلاكية[3].

ويشير "الدكتور عبد الرحمن منيف" إلى النتائج المترتبة على تزايد الاتصال في العالم، وذلك في تزايد واتساع التعامل مع الإعلام والثقافة من منظور يعزز السيطرة والفرض وخلق النموذج الذي يجب أن يسود، وبالتالي فإن الطرف

---

[1] - المرجع السابق، ص155.

[2] - مقاله الموسوم بعنوان: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، مجلة الطريق، عدد/4/لعام 993، ص45.

[3] - المرجع السابق، ص54.

المتقدم والمسيطر اقتصادياً وسياسياً يمارس هيمنة في الجانب الإعلامي إلى حدٍّ كبير في الجانب الثاني، إذ منه تضخ الأخبار والأفكار والنماذج في شتى المجالات، ويتحول الطرف المتخلف مجرد متلق ومستهلك، الأمر الذي يجد له يوماً بعد يوم امتداداً ووعاء لما يريده الطرف المتقدم وبالتالي نجد أن الاتجاه نحو إلغاء التعددية وفرض النموذج الأمريكي وإلغاء كل ما عداه[1].

ويحاول الدكتور "حامد خليل" إبراز أهم الاتجاهات السائدة بين بعض المفكرين السياسيين في المجتمع السوري فيحددها فيما يلي:

1- **اتجاه شكلاني**: وقد تنكر المتأثرين به لعاداتنا وتقاليدنا المتوراثة وانجرف في تقليد الغرب في أنماط السلوك اليومية ذات الصلة بحياة الفرد الشخصية، وكذلك تعامله الشكلاني مع الآخرين.

2- **اتجاه إيديولوجي** : وقد تمحور الغزو عند أصحاب هذا الاتجاه في نقطة أساسية هي استيراد الأفكار تحديداً الأفكار الاشتراكية، وما تحمله من منظومة قيمية جديدة تمس بقيم العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في الصميم.

3- **اتجاه ديني** : يرى أن ثمّة غزواً ثقافياً يخطط له بإتقان، وهو يهدف إلى تدمير الإسلام[2].

---

[1] - صحيفة البعث السورية، تاريخ 28/5/1996، عدد/10033/.

[2] - المرجع السابق.

وفي نظر الدكتور "مصطفى عمر التير" أن الثقافة العربية تقف أمام تحدّ كبير هو في حد ذاته صراع وجود متأت من غزو ثقافي كاسح تشنه الثقافة الغربية[1].

أما الأستاذ "جلال أمين" فيتعامل مع هذا الغزو من زاوية العولمة حيث يصفها بأنها ظاهرة تفكيكية تهدف إلى انتزاع الفرد من وطنه وأسرته وبيئته ناظرة إليه كمقولة اقتصادية Momo– économique ليس إلا، وفي الوقت نفسه يؤكد الأستاذ جلال أمين بأن مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تطرحه إسرائيل ما هو إلا عولمة مصغرة[2].

ضرورات التعامل من منظور الأمر

«الرأي المنكر لوجود الغزو»

السؤال المطروح هو: هل هنالك غزو ثقافي مخطط ومدروس، أم أنه مجرد ابتكار وادعاء ثقافة تريد أن تبرر تدينها، وتراجعها أمام متغيرات العصر؟

هل إن هذا الغزو ناتج عرضي وتلقائي متأت من الضخ الثقافي والحضاري والتجاري المرافق لآليات هيمنة كيان غربي سبقنا علمياً وحضارياً؟

إذا استثنينا عدداً قليلاً من الكتابات العربية ومنها كتاب "إدوار سعيد **الاستشراق- تغطية الإسلام** لا يجد المرء بحثاً عربياً كافياً يلامس موضوع الغزو من حافته الغربية، كما هي موجودة في قعر الذهن العربي، وليس من المبالغة

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: الثقافة العربية والغزو الثقافي في صراع وجود، مجلة شؤون عربية، عدد/15/لعام 1996، ص46.

[2] – مقاله العولمة والدولة: مجلة المستقبل، العدد/228/لعام 1998، ص35 و36.

القول إن الموضوع أشبه ما يكون بجبل الجليد الطافي في المحيط، إذ لا يظهر أمام الناظر إلا الجزء الصغير منه، بينما يكون الجزء المغمور أكبر بكثير جداً من المرئي، ولهذا نحتاج إلى من قادر على أن يغوص في أعماق الثقافة الغربية للتنقيب فيها، ومن ثم فإذا ما تكهنا بوجود غزو ثقافي مدبر في مؤسسات غربية ذات مصالح معينة، فهذا يعني أن هنالك عملية غزو يتم تخطيطها في الكتمان وفي مختبرات سريّة، وهي تحتاج إلى نفس طويل وعمل شاق، ومتابعة مرضية[1].

وبالطبع فنحن لا نقدم وجود أكثر من رأي، ويبقى التخطيط لمسألة هذا الوعي، ونحن سنكتفي في مواجهة هذه الكثرة الكاثرة من الآراء بعرض رأينا الخاص.

موقف الغرب من الثقافة العربية

وحقيقة الأمر أن أي فهم للغزو الثقافي يجب أن لا يغفل الأوليات التي ظهرت أثناء العصر الذهبي لحركة الاستعمار وبالتالي فالغزو الثقافي والتجاري هما البوابة الرئيسية للغزو الثقافي، ذلك أن الغاية التي اضطلعت بها الثقافة الغربية أدركت العلاقة بين العروبة والإسلام، والمسألة التي شغلت بال بناة الإمبراطوريات الغربية هي محاولة نسف الإسلام باعتباره عمود الثقافة العربية ومرتكز فاعليتها[2].

هكذا دار الجدل في الغرب حول ما إذا كان الغزو يجب أن يقتصر على مظهره العسكري، أم يجب أن يسبقه تبشير ديني[3].

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص176.

[2] – د. الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص176.

[3] – المرجع السابق، ص 177.

على هذا الأساس ذهب المبشرون إلى ضرورة استثمار الاحتلال على سبيل نشر دين أوروبي لا يحل محل الإسلام ويلغي دوره الحضاري للاحتلال الأجنبي فحسب، بل يضمن للمحتل أجواء فكرية ومعتقدات روحية تجعل من عملية ضم المستعمرات عملية مرتكزة إلى ضرورة تاريخية لا مناص منها[1].

وفي نظر الكثير من الغرب أن العقل العربي تأسس على الشعوذة والخرافة والغيبيات وهو عقل ينزع إلى اللا علمية وإلى أفكار النصب والتنجيم والقدرية، وبعبارة أخرى فهو غير قادر على العقلنة والتمنطق الجدلي[2].

وهذا هو رأي المستشرق "رينان" و"الكونت غوبينو" وغيرهما من أتباع الأسطورة الآرية كما يتضح من قول "غوتة": ((إن ممتلكات العرب الخاصة هي الخيمة والعمامة والكيف، ولقد اقتبس الكاتب الانكليزي "ميو" هذه المقولة مضيفاً إلى ذلك ثالوث غوتة (الحكاية) كنوع من الكرم والإسداء))[3].

ولا يبتعد أبو الاستشراق الأمريكي "رالف أوستون" عن هذه الأفكار بقوله: ((إن الدين والشعر هما حضارة العرب))[4].

وذهب "ميو" إلى أن الخرافات والخيال حولت أرض العرب إلى جنسيتان (أرض الجن)[1].

---

[1] - د. الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص 179.

[2] - المرجع السابق، ص 179.

[3] - المرجع السابق، ص179.

[4] - المرجع السابق، ص 179.

لقد تمادى الغرب في تشويه التراث العربي الإسلامي، وتبعه الاستعمار الاقتصادي في ذلك، كما هبّ تلامذة هؤلاء وهم من العرب إلى ذلك، وهذا ما أكده رجل الأدب المفكر البريطاني اللورد ماكوللي في خطابه الافتتاحي في كلية غلاسكو، قال المذكور: ((لقد تمّ تأسيس مجتمعكم قبيل اضمحلال إمبراطورية الشرق «بالخلافة العربية» تلك الإمبراطورية التي ربطت بين عصري الاستنارة العظمى، فقد حافظت وسط البربرية على تلك الأعمال العظمى للعنصرية الأوروبية، تلك الأعمال التي لم تزل موقع تأمل أسمى العقول))[2].

وتأخذ عملية الغزو على التراث العربي معالجتها في خطاب "اللورد ماكوللي" التي كان موظفاً في الإدارة الإمبراطورية في الهند، وبالطبع فغاية هؤلاء الذين يعملون في الإدارة الإمبراطورية هي مخاطبة أبناء الأمم المغلوبة لتثبيط هممهم، وفك ارتباطهم بثقافة أمتهم بإيجاد بديل ثقافي.

ولا يقتصر الأمر على إضعاف الثقة بلغتنا، بل يتعداه إلى إلغائها، وذلك بإعداد وتنمية من سكان البلاد تعتنق الثقافة الغربية ويتضح مما سبق أن هذه الآلية في التفكير ترنو إلى نقض ثقافتنا عروة عروة، وهدمها لبنة لبنة، وهي آلية لا تزال قائمة وقابعة في قعر الضمير الغربي.

---

[1] - المرجع السابق، ص180.

[2] - د. الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص180.

في كتابه الذائع الصيت **التاريخ مستنكراً مستعاداً مخترعاً** يقدم "برنارد لويس" البينة على استمرار الفكر الغربي الاستعلائي، وهكذا فهو لا يكتفي بتسفيه تراثنا، بل التأكيد على أننا لا نملك ثقافة قومية ذات أصول ثابتة تؤهلنا لامتلاك هوية[1].

وأبعد من ذلك فالمذكور يذهب إلى أن الأمم الآسيوية والإفريقية لا يملكون أي وعي بوجودهم وبالتالي فأوروبا فقط بين القارات الثلاث هي التي تمتلك نوعاً من كيان تاريخي، وهو كيان يقوم على ثقافة مشتركة مستقاة من جذور إغريقية رومانية يهودية، وهذه الثقافة تقوم على كيان في شعور مشترك يهودية متفردة وتختلف عن هويات بقية العالم[2].

وهكذا «والقول لـ "برنارد لويس"» فأوروبا ذات الهوية الثقافية هي الكيان الذي يمتلك عقلاً..إذن فالطريق سالكة لغزو الثقافة الغربية لثقافتنا.

وهكذا فهنالك «فالرأي للدكتور الدغمي» غزو ثقافي محسوس من ناحية ثقافتنا، ونصف مدبر ونصف تلقائي من ناحية ثقافة الغرب التي تحيا أوج تأثيرها بسبب التقدم التقني والمادي، وإن كان يجب عدم التمادي في كيل الاتهامات جزافاً للثقافة الغربية، بل الأرجح أن تدبير الغزو الثقافي وتخطيطه حقيقة موجودة، ولكنها من ناحية أخرى ليست بهذه الدرجة التآمرية التي يصورها بعض الكتاب العرب[3].

---

[1] _ Bernard Lewis: History remembered, recovered, invented, Princeton University Press, 1973, p1100.

[2] – د. الدغمي: الثقافة العربية وجدل الغزو الثقافي، ص182.

[3] – المرجع السابق، ص182.

وقريب من الرأي السابق، رأي "الدكتور عدنان أبو عمشة" بأن الدول المتقدمة تعمم ثقافتها عبر وسائل الاتصال الهائلة التي تمتلكها، وهذا التعميم يحدث بصورة تلقائية وبإفراز طبيعي لتقدمها وليس إعمالاً لتخطيط مسبق مصمم عليه ومدبر له[1].

وفي إطار هذا السياق ينتقد "الدكتور أبو عمشة رأي الدكتور عبد الرحمن منيف" السابق الإشارة إليه مؤكداً:

((إن الدكتور منيف يتعامل مع عناصر الثقافة التي تكتسب عن طريق التعلم الحاصل بالوسائل السمعية والبصرية، لا سيما الجماهيرية منها، وهي بعض مظاهر الثقافة، وليس المهم فيها، والتي هي روح الجماعة وصورة حياة المجتمع المشكلة لشخصيته وهويته القومية التي يصعب إعادة بنائها من بعيد وعلى نحو مقصور ومخطط له))[2].

ويضيف "الدكتور أبو عمشة" أن نسبة حصة حالتي السمع والبصر لا تبلغ الخمسين بالمائة عند المهتمين بموضوع التعليم، وهؤلاء يشكلون نسبة قليلة من مجموع السكان.

وفي نظر "الدكتور كمال عبد اللطيف" إن هنالك تهويلاً في أمر الغزو الثقافي وأنه كلما قرأ الدراسات العربية حول ذلك كلما ازداد تصوره أن هنالك مؤامرة كبرى، وغالباً لا نستطيع تبين ضد من تحاك تلك المؤامرة[3].

---

[1] – كتابه: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص182.

[2] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص84.

[3] – مقاله المنشور في كتاب الثقافة والمثقف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لعام 1992، ص139.

ويتابع "الدكتور عبد اللطيف" إننا عندما نستعمل مفهوم الغزو في هذا المستوى نحوّل الموضوع من قضية تتعلق بجبروت إرادة تاريخية مادية إلى شعار فارغ...لنبحث بدل هذا الشعار عن شروط وملابسات هذا الفعل التاريخي، لنفكر في الضمانات وفي الغزو وفي موضوع الغزو، وقبل ذلك لنقول إن مفهوم الغزو الثقافي هنا بالذات لا يعبر عن حرب داخل دائرة صراع السياسي الثقافي العالمي، إننا عندما نتحدث عن هذا الغزو الثقافي تعلق المشاكل الثقافية فوق مشجب الآخر، ويعرض "الدكتور عبد اللطيف" إلى مغالطات الذين ينددون بالغزو فهؤلاء يقبلون من القضية نصفها، ويرفضون النصف الآخر فلا للغزو ونعم للتعاون الثقافي بين الشعوب والحضارات، لا للغزو الثقافي ونعم بصورة غير مباشرة للاستهلاك الثقافي المستورد الرخيص.

وفي نظر المذكور إن التحليل السياسي الظرفي يضخم الأمور دون تحليل، ويضرب مثلاً على ذلك قيام لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مصر برفع شعار المقاطعة الشاملة لجميع عمليات التبادل الثقافي والعلمي والتربوي والفني مع المؤسسات الصهيونية، وذلك بعد أيام من توقيع معاهدة كامب ديفيد، إلا أنه سرعان ما عمم الشعار هنا وهناك، فأصبح يتعلق بالغزو الثقافي الإمبريالي، ثمّ الغزو الثقافي دون حصر، فغامت ملامح الشعار، وتحوّل من شعار محدد ومرتبط بحدث سياسي، ثقافي إلى أحاديث تناسب ظرفية الموقف والمناسبة.

وحقيقة الأمر فهذا الغزو يشبه إلى حدّ بعيد الحركة الشعوبية التي برزت إبان العصر الذهبي، ولكن الشعوبية رغم أساليبها لم تتمكن من نسف ثقافتنا وقدرتها التوليدية والإنتاجية، وبالمقابل فثقافتنا قادرة على الصمود والمواجهة للصعاب، وإن مسببات الغزو الثقافي هي إلى حدّ بعيد تنتهي إلى الأساليب الاستهلاكية والأنماط السلوكية التي يضخها الغرب، إضافة إلى إهمال توعية شبابنا بالجوانب المشرقة من ثقافتنا إن تيار الشخصية الثقافية رهين بتحصين المناعة الأخلاقية

والروحية والسلوكية لدى شبابنا وترصين الذات يقتضي حمايتها من الأخطار الخارجية، ومن هنا نشأ مفهوم جديد قديم هو الأمن الثقافي كما ذكرنا سابقاً.

الأمن الثقافي

إن أية حماية للمجتمع في أساسياته الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، إنما تقتضي الحديث عن مقومه الثقافي الذي هو النظام العام الثقافي، وإن حماية هذا النظام العام هو موضوع الأمن الثقافي مع التنويه بأنه ما من جماعة اجتماعية إلا ولها أساسيات ومقومات، وبالتالي عليها أن تقبض على المضادات الحيوية (الأنتيوبيك) وتضع الاستراتيجية الثقافية العليا لمواجهة أية صورة من صور العداء[1].

وبالطبع فظاهرة الأمن الثقافي تقود إلى ظاهرة القسر الثقافي لأن الطرف الآخر يملك القوة بشتى ضروبها، كل ذلك من أجل نشر قيمه وأفكاره، هذا فضلاً عن أن الثقافة أصبحت سلطة أو صناعة تستدعي الربح[2].

ويرى أحد المفكرين أن الأمن الثقافي العربي يقوم على عدة مطالب تتمحور كلها حول الإنسان العربي، باعتباره المبتدأ والمنتهي وقاعدة كل عمل ثقافي[3].

ومع ذلك فهنالك أمور تتعلق بالظروف الموضوعية الملائمة لتجسيد هذا الأمن، على ضوء ذلك تتحدد مفردات ومقومات الأمن الثقافي في الأمور الآتية:

---

[1] – لهذه المهمة على صعيد الوطن المجزّأ تضطلع بها جامعة الدول العربية، وأبرز ما حققه في هذا المضمار.

[2] – الخطة الشاملة للثقافة العربية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ط2، 1990، ص140.

[3] – – المرجع السابق، ط2، 1990، ص140.

مطالب الأمن الثقافي: هذه المطالب تدور حول الإنسان العربي باعتباره المفتاح وقاعدة الأساس لأي هدف.

والغزو الثقافي شل فاعلية الإنسان العربي وقدرته على المقاومة: بوساطة القيم الاستهلاكية وغيرها التي استجيب لرغباته وحواسه ومتعه البهيمية والآلية والسطحية، مبعدة إياه عن هويته وإبداعه وقدراته الذاتية، ولهذا السبب كان الإنسان العربي هدفاً رئيسياً للأمن الثقافي بحيث يتجه هذا الأمن للحفاظ على هويته وجعله يعتز بها، ويحافظ عليها وينطلق، كما يعني إعداده للانسجام في الإنسانية، والمحاور التي تتعلق بعملقة الإنسان وتجذيره هي[1]:

أ- **منظومة الحقوق**: الوطن الحر يقوم على المواطن الحر، ومن ثمّ فإحياء الغزو هو إحياء الأمة وقتله يعني قتلها، قال تعالى: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ المائدة/**32**.

وهكذا فالإنسان العربي لا يمكن أن يتعملق ويتجوهر إلا إذا تمتع بمنظومة الحقوق والحريات العامة التي تجعله آمناً في سرية وحياته متحلياً بأنساق الحقوق قاصدين من منظومة الحقوق كافة الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها على هذا الأساس فإن أي حديث عن التنمية الاقتصادية لا يمكن أن يتم إلا من خلال تنمية كافة مواهب الإنسان بما في ذلك البناء الحقوقي.

---

[1] – سمير روحي الفيصل: العمل الثقافي العربي المشترك، شؤون عربية، عدد/82/لعام 1995، ص46.

وهذا الحديث عن مقومات الإنسان يقودنا إلى مقومه الثقافي، وهذا المقوم لا يمكن أن يونع ويؤتي أكله إلا بترشيد المواطن وعقلنته، ومنحه كافة حقوقه العقلية بما في ذلك حق النقد وإعطاء الرأي بكل صراحة ووضوح وجرأة، مبعدة إياه عن الاستلاب والاغتراب والتبعية والمديح.

والشيء المؤسف له أن هنالك فراغاً كبيراً في مقومات الإنسان العربي وروحه وعقله الذي لا يملأه إلا الخواء والفراغ، فهو مهزوم من الداخل، فكيف نطالبه إذن أن يهزم ذلك الغزو الثقافي الذي يحيط به كقطع الظلام[1].

والمطلب العاجل الملح لمعالجة هذا الخواء هو الملاء، أي توفير الحقوق المعنوية له من أجل إحيائه وربطه بأمّته، وهذا الأمر يتم من خلال بناء رأي عام مستنير حول أخطار الغزو الثقافي.

ب- **تأهيل الإنسان العربي**: والمقصود من ذلك إعداده لمواجهة متغيرات العصر التقني من خلال هويته وخياره وتجدده الحضاري، ولقد حددت الخطة الشاملة للثقافة العربية المعدة من قبل الجامعة العربية، هذه المهمة بقولها: استيفاء القدرة الذاتية، وإبراز الخصائص الحضارية والاستعانة على ذلك بقومية المعرفة وتكاملها بين الأقطار العربية[2].

ولا يمكن استيفاء القدرة الذاتية، وإبراز الخصوصية الحضارية إذا لم تنجح التربية في تحديث مناهجها بحيث تضع لنفسها هدفين: تربية التفكير العقلاني والمبادرة الذاتية[3].

---

[1] - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط2، لعام 1980، ص116.

[2] - الخطة الشاملة للثقافة العربية، ص142.

[3] - د. سمير روحي الفيصل: العمل الثقافي العربي المشترك، ص49.

ولا شك أن القهر سبب رئيس في دفع الإنسان العربي إلى التشبث بالتفكير اللاعقلاني بغية المحافظة على آمنه وسيطرته على حاضره[1].

ولا شك أن هنالك أموراً كامنة وراء التخطيط للقهر هي الرغبة المدروسة في القضاء على الإنسان العربي من خلال إبعاده عن التعامل العقلاني في أموره وأمور الآخرين في مجتمعه.

وحيال هذه السلوكيات اللاعقلانية، فالإنسان العربي لا يمكن أن يواجه روح العصر الحديث بآفاقه الفنية إلا بالعقلانية، وآلية تحقيق ذلك بالتربية السليمة، إذن الواجب أن تقترن الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أعدتها الجامعة العربية باستراتيجية تربوية عربية يكون عمادها إعداد العقل وترشيده وترصينه لمواجهة النهج العصري، أي دخول العصر الحديث من أوسع الأبواب.

ج- **إرادة التغيير**: المطلب الثالث للأمن الثقافي هو إرادة التغيير لدى الإنسان العربي، من أجل الانخراط بآفاق العصر الحديث وصدى الإرادة لا يتمثل بالتصرفات التي تذاع أو بالقرارات التي تتخذ وتنشر، وإنما بالصدق والالتزام والعزم على التنفيذ، وهذه الإرادة جزء أساسي من الشخصية العربية الجديدة لأنها صادقة في النهوض من التردي وحافز على العمل والسلوك الحضاري، وتوق للخلاص من القهر والذل والحياة على هامش العصر والإحساس بالخطر الذي يهدد الذات العربية، والوعي بمصدر هذا الخطر داخلياً وخارجياً والتصميم على مواجهته.

---

[1] - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور، ص143، وقد قدم تحليلاً جيداً لمحاولات الإنسان العربي السيطرة على حاضره.

وإرادة التغيير ليست أمنية ولا شعاراً ولا قراراً ينتظر من السلطة أن تتخذه بل هو موقف ذاتي جماعي قد لا ترضى عنه السلطة، وكيف ترضى عنه والموقف الذاتي الفردي قد يتحول بسرعة إلى موقف جماعي.

ولقد انطوت الخطة الشاملة الصادرة عن الجامعة العربية على هذا الموقف من إرادة التغيير بقولها: إغناء شخصية المواطن العربي لتأكيد وعيه بعقيدته وبذاته وبحريته وكرامته وقدرته على مواكبة التطور الإنساني المعاصر والمشاركة الفعالة فيه[1].

الظروف الموضوعية للأمن الثقافي

هناك معايير متعددة توفر الظروف الموضوعية للأمن الثقافي، ولكن هذه المعايير هي: الإبداع –تخليص المواطن من التبعية والغزو والعمل على تماسك وعيه بهويته وعقيدته وحريته على تنمية الثقافة العربية[2].

وتتحقق هذه الغايات بالآليات الآتية:

1- **الأجهزة الثقافية الاختصاصية:** يمكن القول إن الأمن الثقافي العربي يحتاج إلى بنوك للمعلومات يتوافر فيها المعارف، بحيث تجلب المعرفة وتخزنها ثمّ توزعها على المحتاجين إليها من أفراد ومؤسسات، ومن هذه الأجهزة على سبيل التعداد: المركز القومي للمعاجم- المركز القومي للتراث- المركز القومي للتحديث الثقافي- المركز القومي للإبداعية العملية- المركز القومي للصناعات الثقافية[3].

---

[1] – د. قسطنطين زريق: مطالب المستقبل العربي، ص11.

[2] – سمير روحي الفيصل: العمل الثقافي العربي المشترك، ص5.

[3] – الخطة الشاملة للثقافة العربية، ص73.

2- **الصناعات الثقافية:** يقصد من ذلك الصناعات الخاصة بوسائل نشر الثقافة وإنتاجها كالإذاعة والتلفاز وآلات الصناعة والورق والحبر وآلات الموسيقى والأدوات الهندسية، وغير ذلك.

ذلك أن هذه الصناعات الثقافية أصبحت «وستصبح في المستقبل القريب» أداة فعالة من أدوات الحصار الثقافي لأمتنا، وسلاحاً جديداً فعالاً لإخضاعها لمآرب الدول الكبرى وهيمنتها الثقافية، إذ أن هذه الدول –كما هو معلوم- تنتج ورق الصحف والكتب وآلات التنفيذ، وفي إمكانها رفع أثمانها، وحجب بيعها عنا، والأمر نفسه بالنسبة إلى أجهزة الإذاعة والتلفاز والموسيقى والهندسة وغير ذلك، إذ التبعية تقاس بمقدار ما تستورده من الأجهزة التي تنشر الثقافة وتنتجها.

3- **الحوار الثقافي:** وبالطبع فالأمن الثقافي لا يعني أن تنعزل ثقافتنا عن العالم، وأن تتخلى عن مضمونها الإنساني النبيل، بل –وانطلاقاً من الهوية- يجب الإسهام في الحضارة العالمية وتحويلها من اتجاهها المادي إلى اتجاهها الإنساني السامي.

ومن البديهي أن تتجه أنظار العرب إلى الحوار الثقافي مع إفريقيا وآسيا ودراسة استيعاب تجاربهما الغنية كالتجربة الصينية واليابانية وغيرهما، وأن نخص بالاهتمام الدول التي ترتبط معنا بروابط إنسانية، ولقد أسهمت جامعة الدول العربية إسهاماً واضحاً في الحوار الثقافي مع إفريقيا، وهكذا فقد أنشأت معهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام 1974 بغية إعداد الاختصاصيين في تعليم اللغة العربية، كما أنشأت صندوق تنمية الثقافة العربية في الخارج عام 1970.

وحقيقة الأمر أن الحوار الثقافي العربي الإفريقي ضرورة ملحة لتكوين قاعدة متينة للأمن الثقافي ذلك أن الثقافة العربية لا تهدف إلى السيطرة على الثقافة

الإفريقية لسبب بسيط هو نزوع ثقافتنا الإنساني، وهذا ما يهيب بالمثقفين الحوار والتماسك أمام الزحف الثقافي المتدفق من الغرب.

تقديرنا لموضوع الغزو الثقافي

إن انكشاف الجذور وانهيارها أمام ثورة الاتصالات ووسائل الإعلام والمعلوماتية، دعم هيمنة الدراسات الأمنية، وسع مدى استثمارها، وأصبح التعلق المرافق للخوف من الهيمنة والاستلاب والتهجين وحتى الاضمحلال تزداد حدة بقدر ما تزداد هيمنة الأنماط مجددة من السلوك والقيم، تتسم بالعالمية، ولكنها تشير في نهاية المطاف إلى غلبة نموذج محدد هو نمط الحياة الذي أنتجته الثقافة الغربية.

وعلى ضوء ذلك يغدو التعامل مع مفهوم الهيمنة يتجاوز الصراع الإيديولوجي، إذا الهيمنة «باعتبارها مؤسسة على جملة من الشروط الموضوعية والوقائع المادية» ليست مفهوماً فوقياً، بل هي ممارسة فعلية للنتائج التي ترسبها مسارات الصراع السياسي والعسكري والثقافي.

أما الرفض الذي تمارسه الجماعات لمفهوم الهيمنة، فهو موقف أولي دفاعي يستطيع أن يستفز أوليات الذات وفاعلياتها، ولكنه يحتاج إلى العقلانية والموضوعية ليؤسس على هذه الأوليات مواقف فاعلة تتجاوز حدود ردود الفعل نحو إنجاز الفعل، وتتيح للذات أن تتعامل مع الآخر من موقع يعي جيداً التطور اللا متكافئ ما بين الذات

والآخرة ولكنه يستتير هذا الوعي لإيجاد تقاطع مستمر ما بين الذات والآخرة على قاعدة الثبات والحركة التي تتصف بها عناصر الثقافة المحلية[1].

وفي زمن عربي يتسم بالتراجع الحاد أمام الهجوم الساحق للنظام العالمي بكل أبنيته السياسية والاجتماعية والثقافية يبدو الارتباط العضوي ما بين البناء الوطني ومفهوم الأمن بمعناه الواسع أشد وأعمق مما يجعل الثاني شرطاً للأول بكلّ المعايير، إذ لا يمكن للبناء الوطني والقومي أن يستقر ويتمتع بالاستقلال والسيادة الحقيقية إلا بتوفير شروط الاستقلال العسكري والسياسي والغذائي والاجتماعي والثقافي كعناصر ضرورية ولازمة لجعل الشعوب حرّة[2].

لقد بدأت هذه الشروط متوفرة بعد الحرب العالمية الثانية، وتولي الموقف الإيديولوجي الذي انبنى في سياق الاستغلالات السياسية الشكلية إلى إشاعة الاسترخاء الثقافي المتعامل مع مفهوم الاستلاب وكأنه خطر ينتمي إلى الماضي، ولم يلحظ تغلغل هذا المفهوم عبر الأفكار والقيم التي أهملت كليّاً الحدود التاريخية للشخصية العربية، وعندما ابتدأ العد التنازلي للانكسار، تفككت أوهام الإيديولوجيا وانكشفت الأخطار الحقيقية التي تتهدد الشخصية العربية، إذ الاستلاب والتهجين وحتى الاضمحلال هي تحديات حقيقية تتزايد أخطارها بتزايد الهزائم في المستويات الأمنية كافة[3].

---

[1] – د . فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، مجلة الفكر العربي، عدد/70/لعام 1992، ص8.

[2] – المرجع السابق، ص9.

[3] – المرجع السابق، ص 9.

وإذا كانت الذات العربية تندفع إلى داخل بنائها التاريخي تستجير بالثوابت لمقاومة الهجوم، فإن هذا الاندماج نحو الذات لا يتعامل مع مفهوم الزمن بشكل إيجابي، إذ لا يعير أهمية للتغييرات البنيوية التي طرأت على المجتمع العربي، فبدلت الشروط التاريخية وأنماط الحياة فيه، وبالتالي فإن ما نعتبره ثوابت ليس في حقيقة الأمر ثوابت في الزمن والتاريخ، ومن ثمّ فإن إهمال المتغيرات في العلوم الطبيعية والإنسانية التي جعلت من العالم مدنية مفتوحة، هذا الإهمال يحول دون الفهم السليم لمفهوم الخصوصية ولعلاقة الذات بالآخر، إن اللجوء إلى التاريخ كموقع دفاعي يجب أن يترافق مع رؤية متحركة له تستطيع توظيف الثوابت بشكل ديالكتيكي، ضمن معايير تسمح للشخصية العربية بإنماء كيانها الخاص المحدد بالتاريخ، ولكن ليس فقط بما هو ماضٍ جاهز لاستعادة ضمن حركة دائرية لا تسمح بالتعديل والإلغاء والإضافة، بل بما هو أيضاً حاضر يؤسس للمستقبل ضمن أفق التقدم يحمل قسمه العصر ومؤسساته[1]، ومن ثمّ فالمعمول عليه هو الموقف الاختياري الانتقائي الذي يستخدم بشكل إيجابي عناصر الثبات والخصوصية في علاقة فعلية مع سمات العصر ومميزاته.

ما هي هذه السمات والمميزات للعصر، وكيف بنى راهنياً أفق العالمية؟ وما هي عناصر الثبات والحركة؟ وكيف تبنى أفق الخصوصية؟.

تجيب عن ذلك الدكتورة شرف الدين مؤكدة أن تأصيل ثقافة عربية مواجهة يعتمد بالدرجة الأولى على محاولة فهم وإضاءة هذه الزوايا لإيجاد معادلات رياضية تسمح ببناء شخصية مواجهة، تتعامل مع الرفض والقبول على أساس عقلاني وواقعي وإيجابي[2].

---

[1] - د . فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، ص9.

[2] - المرجع السابق، ص9.

ولعل الملاحظة التجريبية الأولية تشير إلى وجود هيمنة عالمية على جميع المستويات:

على المستوى العسكري: حيث يرتدي النظام العام بزة الشرطي الأميركي الذي يراقب من ثقب الإبرة جميع زوايا الكون، معتبراً المساس بالتوازن العسكري القائم عملاً عدائياً "حرب الثالثة".

على المستوى الاقتصادي: تتخذ مسائل المساعدات والديون ودوارة الاقتصاد العالمي تسميات مختلفة للمؤسسات العالمية، ولكنها تؤكد على وحدانية الرجعية الاقتصادية التي تجعل من مفهوم السوق الذي يرجاه النظام الرأسمالي العالمي مفهوماً جوهرياً لتحديد المسافة من الازدهار والتقدم ولا يتأكد الدور السابق إذا لم تتوج بوحدانية النمط الثقافي، حيث يستخدم من أجل ذلك كل الوسائل التي أنتجتها ثورة الاتصالات التي تضخم بآلية الأقمار الصناعية نمط الحياة الأميركية الرغيدة في التنافس على السلطة والمال، وحيث يسوغ مفهوم الاستغلال ويصبح متكافئاً مع النجاح.

فالعلاقات الاجتماعية التي يعززها هذا النظام ودرجة العدوانية التي تنساب بين الأطراف المتنازعة المتناظرة على الدوام، تقررها مفاهيم النجاح والفشل في ثنائية أبدية ترتكز على مفهوم الاصطفاء الطبيعي الذي عدل من غلوائه التراث الإنساني منذ عصر الأنوار، هذا وتبنى من زاوية العالمية مجموعة من الأوهام والهجوم الذي يخترق حصون الخصوصية في محاولة لإقامة تجانس قومي يؤمن هيمنة كاملة للنمط الثقافي الواحد، فلا يظهر من هذه الصورة وجه العملة الآخر الذي يشير إلى المهمشين والفقراء بوصفهم النتاج الطبيعي للاصطفاء والناتج الحقيقي للاستقلال ويغيب التنافس بين المستغلين والمستغلين والحكام والمحكومين[1].

[1] – د. فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، ص10.

هذه العلاقة غير المتكافئة بين عالم مزدهر وآخر لا يبنى يجتر تخلفه منذ قرنين من الزمان تتجلى في جميع مستويات الحياة، وتستنفر المطلوب في اتجاه رفض الواقع باعتبار الرفض نقطة بدء أولية لتحس المشكلة ملاحظتها ومحاولة فهمها وتفكيكها، وإن كان هذا الرفض يجب أن يكون باتجاه إيجابي يحول دون انتقاله إلى المجال الإيديولوجي المهووس الأعمى بين الذات والآخر، ذلك أنه ليس الغرض إقامة السجال بين الذات والطرف الآخر، لأن صفحات كثيرة امتلأت بالدفاع والتحرير واستخدمت في كل مقومات التراث وجميع الحجج الإيديولوجية، وإن الهدف الأساسي يجب أن يتجلى في تفكيك عناصر المشكلة مع الآخر وعزل العناصر الإيديولوجية الوافدة والصاعدة في محاولة لإفراد مساحة للعقل والعقلانية في إعادة صياغة وتأصيل حدود للثقافة العربية تساعد على التعامل الإيجابي مع الثقافة العالمية وعلى أن تقيم هامشاً للنظر في العلاقة ما بين الوافد والخاص على أسس موضوعية[1].

ذلك أنه إذا كانت العالمية تحاول أن تسطح تضاريس الخصوصيات المحلية، وتنزع عنها الصفات المميزة للشخصية القومية، فإن الخصوصية بدورها تحاول أن تنغلق على ذاتها في موقف دفاعي لا يلبث أن يدفع بها خارج التاريخ.

هذه الصورة مؤسسة على منهج الواقعية السياسية، التي لا تريد الدخول في رهان إيديولوجي حول ما يجب أن يكون انطلاقاً مما كان قائماً في الماضي، ولكنها لا تريد الاستسلام إلى الأمر الواقع المخزي والمهين.

إن قراءة الواقع والتسليم به كنقطة انطلاق للتحليل لا يعني اعتباره واقعاً لا يتغير، إذ أن قراءة التاريخ تؤكد سيادة مفهوم التغيير، وبالتالي فإن قراءة الواقع كما هو يعني محاولة التعرف عليه من داخله لاستنفار العناصر الإيجابية التي يمكن

---

[1] – د. فهمية شرف الدين: الأمن الثقافي للوطن العربي، ص11.

تركيبها لبناء بديل نظري آخر يستطيع أن يستلهم الشخصية التاريخية العربية وخصوصيات الوطن العربي من أجل المساهمة في رفع سيف التخلف وإعادة التقدم إلى الدوران ليأخذ الوطن العربي مكانته الطبيعية في الحضارة العالمية.

أما المنهج المستخدم من أجل ذلك فيتأسس على تلك القراءة الواقعية عبر آلية (التفكيك والتركيب) التفكيك في محاولة تفهم عناصر المشكلة فهماً حقيقياً بالدرجة الأولى، ثمّ إعادة تركيب هذه العناصر بشكل آخر يخرجها من إطار المشكلة ويوظفها في صورة أخرى تصلح لأن يكون إطاراً للتفاعل الإيجابي إذ ليس المطلوب إقامة سور منيع حول الثقافة العربية للحول دون اختراقها وتفتيتها، بل المطلوب تحسين تلك الثقافة بالتركيز على العناصر الأساسية والإيجابية فيها والتي تسمح بأن يكون لها دور في ثقافة العصر، وإذا كانت العناصر السياسية والعسكرية قد عمقت مفهوم الإحباط لدى الشعب العربي، فغن قوة العامل الروحي وثقله في الثقافة العربية يمكن أن يكون نقطة الانطلاق الوثابة.

ومما لا شك فيه أن خطر الاستلاب والتهجين يزداد ويتعمق في ظل التقوقع والانغلاق لأنه يتوقف عند حدود الرفض بينما تتضاءل الأخطار إذا تجاوزنا الرفض باتجاه تأصيل ثقافة عربية ديموقراطية تتعامل مع الرفض والقبول بشكل ديالكتيكي يعي المخاطر الحقيقية في إطار عالمية ووحدانية القطب وهذا ما يدفع موضوع الأمن الثقافي إلى حيز الصدارة، ويكسبه صفة الضرورة وسط هيمنة الصورة الحالية للثقافة العالمية الطابع، ويزداد إلحاح الضرورة هذه بقدر ما تتضاءل صورة الذات في مواجهة الانكسارات والإحباطات العسكرية والسياسية والتنموية في الوطن العربي، وهو الأمر الذي يطرح ثقافة عربية مواجهة تأخذ بعين الاعتبار الخصوصية كمفهوم تاريخي دون الانغلاق على الذات في عملية دورانية أو حلزونية.

وحقيقة الأمر فالثقافة العربية تشكل العنصر الأساسي الجوهري في هويتنا الوطنية والقومية، وإلا كيف يمكن الحديث عن ثقافة عربية، وهو الأمر الذي

يظهر عنصر استقلال هذه الثقافة وتميزها وعدم تبعيتها، وإن كان هذا الاستقلال هذه الثقافة وتميزها وعدم تبعيتها، وإن كان هذا الاستقلال لا يعني الإطلاق في الوصف إذ النسبية هي حقيقة وجوهر الحياة الإنسانية، وبالتالي فلنا أن نتساءل: كيف يمكن الحديث عن استقلال مطلق للثقافة بالنسبة لثقافة عربية حية متطورة وقادرة على مواكبة التقدم[1].

والاستغلال الثقافي بهذا الوصف يشبه إلى حدّ بعيد الاستغلال السياسي والاقتصادي، إذ كما يمكن الحديث عن الاستغلال في هذين المجالين، يمكن بالمقابل الحديث عن الاستغلال الثقافي، ومن جهة أخرى فكما أن الاستقلال السياسي والاقتصادي يعني التبادل والتواصل دون التبعية فالأمر نفسه بالنسبة للمجال الثقافي. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو ما المقصود من التبعية النفسية ومتى تكون خطرة؟.

أول ما يجب تقريره، انه لا مجال للقول بالتبعية بالنسبة لاستيراد العلم والتكنولوجيا، فهذان الفاعلان لا وطن لهما، وبالتالي فهما لا يدخلان في الهوية الوطنية والقومية، اللهم إلا عندما يوظفان في عملية اختراق أو غزو، وهذا هو عين ما يحصل الآن بالنسبة للغرب الذي لا يسمح بنقل التكنولوجيا إلى الشعوب الأخرى إلا بما يتفق مع سياساته وأيديولوجيته.

وهذا ما هو حاصل فعلاً في عالم اليوم إذ الهيمنة الثقافية أصبحت استراتيجية ضرورية لتكريس وتعميق الهيمنة الاقتصادية والسياسية وبالتالي فالاختراق الثقافي ليس خطراً على الهوية فحسب بل إنه يستهدف أيضاً فرض التبعية

---

[1] – د. محمد عابد الجابري: الثقافة العربية اليوم، مسألة الانتقال الثقافي، مجلة المستقبل العربي، عدد/172/لعام 1993، ص4.

الاقتصادية والسياسية، وهذا ما نجده فيما تتعرض له دول الجنوب من قبل دول الشمال.

وأبعد من ذلك فدول الشمال لم تنج هي نفسها من الاختراق الأمريكي من خلال الأفلام والوسائل السمعية والبصرية الأخرى التي تغزو الأذواق والسلوك، تكرس أنماط من القيم الاستهلاكية والحضارية.

وفي هذا الصدد أصدر السيد "كارلو بيادي مينا" الكومسير الأوروبي في الثقافة (وزير الثقافة في المجموعة الأوروبية) تحذيراً شديد اللهجة ضد الغزو الثقافي الأمريكي للثقافات الأوروبية[1].

زد على ذلك فالقضاء على الاتحاد السوفياتي حوّل الصراع من صراع إيديولوجي اقتصادي إلى صراع ثقافي تقوده الدول القوية ضد الثقافات الوطنية، وهذا ما يضعف هذه الثقافات كما أنه بدوره يؤدي إلى انبعاث الثقافات الفرعية[2].

وهناك ملاحظة هامة هي أن الإسلام مرشح حالياً من قبل الغرب ليكون الآخر الخطر على الثقافة الغربية، وهذا الاتجاه الذي يزداد انتشاراً في الغرب بفضل ما تروجه الصهيونية العالمية والدوائر الإمبريالية المرتبطة بها.

ذلك لأن الإمبريالية لا تستطيع أن تنمي شرهها واستكبارها وابتزازها إلا بوجود خطر، وقد قضي على الاتحاد السوفياتي، وهكذا فقد رشحت تلك الإمبريالية

---

[1] - Barry Buzan; New pattern of global security in the Twenty-first century; intentional Affairs, vol 67, No 3, 1991.

[2] - د. الجابري: الثقافة العربية اليوم أو مسألة الاستقلال الثقافي، ص7.

أكثر من خطر: الخطر الأصفر الذي يرمز إلى النهضة الاقتصادية في شرق آسيا، الإرهاب الموجه ضد المصالح الأمريكية، انتشار الأسلحة النووية في عالم الجنوب.

والشرير الأكبر هو الإسلام أو الخطر الأخضر الذي هو الشيطان الأكبر لأنه «في نظرهم» ضخم ومخيف ومعادٍ للغرب ويتغذى مع الفقر والسخط، وهو ينتشر في بقاع عديدة في العالم، مما يسمح بإظهار خطر العالم الإسلامي على شاشة التلفزيون باللون الأخضر، كما كانت الدول الشيوعية تظهر باللون الأحمر، ويبدو أن هنالك أكثر من سبب للتعارض بين الإمبريالية والإسلام من ذلك التناقض بين القيم العلمانية والقيم الدينية وبسبب التنافس التاريخي بين المسيحية والإسلام وبسبب المرارة والمهانة الناشئين من المقارنة بين إنجاز الحضارتين الإسلامية والغربية، إضافة إلى الجوار الجغرافي والعداء التاريخي، وكذلك الدور السياسي الصريح الذي يلعبه الإسلام في حياة أتباعه، وكونه ما زال هوية جماعية قوية آخذة في الانتشار، وهكذا إذا اجتمع خطر الهجرة العربية إلى أوروبا وخطر تصادم الثقافات يصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف لا سيما بين الغرب والإسلام[1].

وليست العوامل الآنفة الذكر وحدها السبب في هذا الصراع، بل إن ذلك الصراع، مرغوباً فيه عربياً كتوظيف إيديولوجي، إذ أن من شأن حرب باردة اجتماعية مع الإسلام أن تعزز الهوية الأوروبية في جميع نواصيها في هذا الوقت الحاسم في عملية الوحدة الأوروبية[2].

---

[1] – د. محمد عابد الجابري: الثقافة العربية اليوم أو مسألة الاستقلال الثقافي، ص8.

[2] – Barry Buzan; New pattern of global security in the Twenty–first century; intentional Affairs, vol 67, No 3, 1991.

يرى الدكتور "الجابري" أن هذه الحرب الحضارية الباردة مع الإسلام قد بدأت بالفعل ومن مظاهر ذلك تلك الحملة الإعلامية الواسعة النطاق على الإسلام، وتلك الصورة الحاقدة التي ترسمها تلك الوسائل الإعلامية الغربية لذلك العربي مالك النفط، وفي ربط الإرهاب الدولي بالإسلام والعرب، وما يترتب على ذلك من نتائج أهمها : عدم نقل التكنولوجيا إلينا واستنزاف موارد أمتنا، ومنعنا من امتلاك الأسلحة المتطورة، وتكييف أذواقنا بواسطة الغزو الإعلامي الإجباري وإغراقنا بالسلع الاستهلاكية[1].

ولا يخفى عل كل ذي عينين أن تلك الحرب التي تشن على الإسلام هي في جوهرها حرب على الثقافة العربية التي يحتل الإسلام مكانة مرموقة، وهذا ما يؤدي إلى ردود فعل تنتهي بانكماش وتسور الذات بكهوفها المظلمة دفاعاً عن النفس.

ما هو الحل للنجاة من هذا الخانق؟

يجب على ذلك الدكتور الجابري بالاتفاق حول استراتيجية ثقافية عربية إسلامية قوامها الأبعاد الآتية:

1- **بعد سياسي**: يتحرر فيه الثقافي من السياسي بآلية الحرمة التي هي الحامل للإبداع الثقافي.

2- **بعد اقتصادي اجتماعي**: قوامه تنمية وطنية مستقلة تقوم على إستراتيجية للتحديث في كافة المجالات لتلبي الحاجات الضرورية للمواطن، وأخيراً التفتح لا

[1] -المرجع السابق، ص8.

الانفتاح باعتبار هذا الأخير يقوم على الانفعال أو الانغماس لا الفعل (الاستجابة الخلاقة الفاعلة)[1].

3- **بعد ثقافي**: قوامه بناء بيداغوجية التعليم بكافة مستوياته وتخصصاته، مع إقصاء الإيديولوجيا من عالم المعرفة واتسامه بالروح النقدية وتعزيز الوحدة الثقافية وذلك برفع القيود عن السيولة الثقافية بين الأقطار العربية[2].

وإذا كان الدكتور "كمال عبد اللطيف" لا يسلم بوجود ثقافي إلا أنه يعيش هاجس وهم الإنهاض العربي أو يرسم أفقه ويحدد نواهضه، هكذا يرى المذكور أننا لا نزال نستهلك في أعمالنا الثقافية، لأننا نساكن أمواتنا وننطلق بأفكارهم دون أن نجتهد، وبذلك فمفكرنا يدلل بمغامرة إبداع ثقافي عربي متفتح بعيد عن حضور ثقافي عربي إسلامي، وهذا الحضور لا يكون بالتهليل بأمجاد الماضي، بل بملء فراغات المعرفة العلمية، ومن ثم لا يجوز باسم موقف سياسي ظرفي الحديث عن غزو ثقافي دون أن نفكر في ابتكار المفاهيم المناسبة للمشاكل المستجدة في صراعاتنا الثقافية والسياسية والاقتصادية، وعلى منطق العقل أن يعلمنا مراعاة العلاقة بين التاريخ والمصلحة قبل صياغة المفاهيم، كما أن منطق التاريخ يعطينا الرؤية البعيدة التي تهبنا التمييز بين مستلزمات الاختيار الثقافي الاستراتيجي والمواقف

---

[1] – د. الجابري: الثقافة العربية اليوم أو مسألة الاستقلال الثقافي، ص 13.

[2] – المرجع السابق، ص 13.

الثقافية العارضة والمؤقتة هذا فضلاً عن أنه ليس من حق الغرب أن ينعم وحده بمكتسبات دروس المعاصرة وبخاصة في المستويات المعرفية الثقافية[1].

وينتهي "الدكتور عبد اللطيف" للدعوة إلى رسم حدود الذات وحدود الآخر وبالمقابل التخلي عن الحديث عن الهوية المضادة والكلام عن هوية متفتحة ومفتوحة ضمن دائرة التاريخ الشامل.

ومن هنا يجب البحث عن استراتيجية التجديد الثقافي العربي، ولكن ليس ضمن دائرة ردود الفعل وجدلية غاز ومغزو، وليس ضمن دائرة الاقتداء الثقافي الأعمى، إذ لم يعد أحد يتصور أن معارف الآخر كونية شاملة في ذاتها، ولم يعد الغرب أنموذجاً مطلقاً صالحاً للاقتداء، إننا نحن الذين نضفي على معارفه الشمولية، وذلك بامتحانها والمشاركة في إعادة إنتاجها، بتشريحها ونقدها، ثمّ إعادة إنتاجها من جديد، وبشكل مستقل، ومتكامل مع ما يجري في محيطنا التاريخي، كل ذلك ضمن دائرة وعي الإنسان بالوجود وبالتاريخ وبصراع الإنسان المتواصل في الوجود وفي التاريخ...الاقتداء الثقافي الأعمى لم ينجز ثقافة مبدعة بقدر ما أنجزه نسيج ثقافة بلا أرواح أو أجساد[2].

إن الإبداع، النقد، الابتكار، التجديد، الاستقلال الفكري، هي بالحوار، بالامتحان الخلاق دون نقص أو استعلاء، بمحاورة الذات ومحاورة الآخر، ثم تركيب ما يسمح بتطعيم وتدعيم الكونية الثقافية، وهذه الأمور مطالبة كونية بلا حدود للعرب كما للبشرية...لا جدال بأن الحضارة الغربية ما زالت تملك زمام المبادرة في مجال الكشوف العلمية والحدوس الثقافية، وبناء النماذج المعرفية إلا أن الأوروبيين بدأوا

---

[1] – مقاله المنشور في كتاب الثقافة والمثقف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لعام 1992، ص139، ص144.

[2] – مقاله الآنف الذكر، ص144.

اليوم أكثر من أي وقت مضى يمارسون توسيع الكونية الغربية، وذلك عن طريق التمثل النقدي لخلاصات هذه الحضارة، ومحاولة مواصلة الابتكار الثقافي داخل دائرتها.

يقول "د. هشام جعيط": ((وما هو مطلوب من الإنسانية العربية اليوم ليس بعث أنموذج للثورة العالمية يمنحها موقع الصدارة في عصرنا، كما فعلته سابقاً، فهذا النوع من المعجزات التاريخية لا يتكرر، بل إنه لن يتكرر...إن المطلوب منها هو أن تجمع تجربتها، وتجربة البشرية، وأن تبقى كما هي...إن النهضة الحق هي أخلد لبعض اللحظات من الماضي واندفاع نحو المجهول في الآن نفسه يفرض علينا نسيان جزء من كياننا))[1].

أجل لا مانع في تقييد الذات في سبيل التفاعل الحر الخلاق مع الآخر، لأن كل تفاعل مع الغير ينطوي ضمنياً على هذا التقييد في سبيل تحقيق ما هو أفضل، لكن هل نستطيع نسيان الواقع الفعلي لهذا الاختراق الأمريكي من طرف واحد.

وإذا كان المجال لا يتسع لتوضيح وتحديد هذه المظلة الأمريكية للاختراق الثقافي في الوطن العربي، فيكفينا أن نحدد مظهر هذه المظلة الاختراقية في مصر بعد كامب ديفيد وذلك باستعراض المؤسسات الأمريكية في مصر: مؤسسة راند- المركز الثقافي الأمريكي- مركز البحوث الأمريكي- مؤسسة فورد- هيئة المعونة الأمريكية- معهد ماساشوستس- معهد التربية الدولية في منح السلام- معهد بروكنجر- معهد المشروع الأمريكي- الأكاديمية الدولية لبحوث السلام- مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة جورج تاون- مشروع ترابط الجامعات

[1] - د. هشام جعيط: الشخصية العربية الإسلامية- المصير العربي، ص133.

المصرية الأمريكية- معهد موريس فولك للبحوث الاقتصادية- مؤسسة بوزنكر نانسكي للاستثمار- معهد هاري ترومان للبحوث من أجل التقدم والسلام.

ويؤكد "الدكتور جعيط" أن الجهات الآنفة الذكر تترابط من خلال أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية بالمراكز البحثية الإسرائيلية مكونة شبكة منسقة الأداء.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل إن الشبكة المنسقة من المؤسسات ظهرت على وجه الحياة المصرية مصادفة وبصورة عرضية أم أن وراءها إن لم نقل تخطيط فهو إرادة وهدف؟.

أجل فما حدثت هيمنة إلا وراء حق مضيع...والسؤال المطروح هو: أليس وراء تلك الهيمنة الأمريكية حق مضيع لأمتنا وثقافتنا.

ومن جهة أخرى فالواجب يحدونا لأن نستشرف الموضوع من الأفق الذي أطل عليه "الأستاذ محمود أمين العالم" أي هل نقيم الثقافة الأمريكية من أجل تحقيق الإنسان العربي من فكر ووجدان وذوق ومعرفة وعمل وإنتاج وتنظيم اجتماعي وأخلاقي وقيمي[1].

ويسقط "الأستاذ أمين" القناع عن مظاهر المجلوبات الاستيرادية في الوطن العربي وأنها مشتراة للاستهلاك والاستمتاع لا للإنتاج والإبداع، وهي مظاهر وأدوات تمدينية لا تمس ولا تحرك جوهر البنية العقلية أو المجتمعية بل تكريسها، ولهذا فهي تفضي إلى مزيد من التمزيق في بنية الشخصية العربية.

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: ملاحظات أولية حول الثقافة العربية والتحديث، مجلة الوحدة، العدد/101/لعام 1997.

لهذه المفارق الصارخة بين التحديث الاستهلاكي المظهري والتخلف الإنتاجي، بين التحديث الذاتي والتخلف الفكري، بين التحديث البذخي الاستمتاعي والتخلف والابتذال القيمي، بين التحديث في المظهر والتحديث الحقيقي الذي يقودنا إلى تجدر الحياة وتجدد الإنسان وتجدد الرؤية واتساعها وتعمقها ومضاعفة القدرة المعرفية والوجدانية والإنسانية.

126

التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني

شاعت في الآونة الأخيرة «لا سيما بعد حرب الخليج ونهاية الحرب الباردة» مفردات انطلقت من داخل مقولة النظام الدولي الجديد، وبالتلازم الحدثي والظرفي مع التداعيات والنتائج العالمية والإقليمية التي ترتبت على ذلك.

ومن هذه النتائج عربياً دخول الصراع العربي الإسرائيلي مرحلة جديدة هامة، هي مرحلة جديدة هامة، هي مرحلة الإعداد والتمهيد لحل سلمي عبر مفاوضات بدأت في مدريد، واستؤنفت في اتفاقات ثنائية في هذا السياق استخدمت منظومة من أجهزة مفاهيمية متعددة[1]:

الشرق الأوسط الجديد- النظام الشرق أوسطي- النظام المتوسطي- السوق الشرق أوسطية- التطبيع.

إضافة إلى هذا القاموس الكريه من الألفاظ، ظهر تعبير التطبيع الثقافي في صدد إثارة الصحف العربية لقضية "أدونيس"، أثر تجميد عضويته في اتحاد الكتاب العرب بسبب حواره مع بعض المثقفين الإسرائيليين، وقد تردد التعبير المذكور على لسان المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب حيث، قرر المكتب المذكور بتاريخ 19/18 أيار 1993، تشكيل لجنة الدفاع عن الثقافة العربية في فلسطين

---

[1] – محمد سعيد قصبة: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، مجلة الطريق، العدد/4/، لعام 1993، ص45.

المحتلة تم إنشاء جبهة ثقافية عربية لمقاومة التطبيع الثقافي مع الكيان الصهيوني[1].

هكذا يكون هذا الجهاز المفاهيمي قد طرح في مجال التداول المعرفي، واندراج في الأدبيات السياسية، وأصبح له وزنه وثقله على أرض الواقع.

إذن فالجهاز المذكور قد ولد وترعرع في مناخ سياسي وثقافي معين، وبالتالي، فإن ما واكب القضاء من متغيرات في الخطاب الفكري السياسي هو الذي من شأنه أن يعطي لتلك المفردة الحديثة أبعادها الاستراتيجية والسياسية والثقافية.

على ضوء ما تقدم، يرى الدكتور وجيه الكوثراني أن هنالك ثلاثة، خطابات نموذجية عالمية واستراتيجية تلازمت مع الحدث الدولي/حرب الخليج/وواكبت التداعيات الإقليمية الناجمة عنه، وحاولت أن تضفي على تفسير الحدث ودلالاته نظرات فكرية شاملة:

1- خطاب فوكوياما : نهاية التاريخ.

2- خطاب هنتنجتون: صدام الحضارات.

3- خطاب شمعون بيريز: الشرق الأوسط الجديد .

فهذه الخطابات الفكرية الاستراتيجية هي المفاتيح الكبرى لتفسير ظاهرة التطبيع الثقافي، أو لتظل هي المدخل العريض الذي يرهص لدخولنا آفاق هذا الحدث – القارة الكبرى[1].

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان الشرق الأوسط والتطبيع الثقافي مع إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد/2/، لعام 1995، ص4.

وأبعد من ذلك يمكننا أن نعطي لهذا الجهاز «المنحدر من صلب المشروع الشرق الأوسطي» بعداً تاريخياً أعمق، إذ تذكرنا أن المشروع المذكور من صنع الدوائر الاستعمارية الغربية العنصرية، حيث أول ما ظهر تعبير الشرق الأدنى The near east في سياق المسألة الشرقية كآلية سياسية ابتدعها الغرب لتصفية الدول العثمانية، ثم أعقبه ظهور تعبير الشرق الأقصى The far east كآلية سياسية للاستيلاء على الهند، وأخيراً ظهر تعبير الشرق الأوسط في إطار السيطرة على الشرق برمته على اعتبار أن الشرق الأوسط هو قلب العالم من الوجهة الحضارية والتاريخية والجغرافية، ويحتضن أعظم مخزون استراتيجي للنفط، وهو الأمر الذي حد أحد المفكرين الاستراتيجيين، لأن يطلق تعبير مربع الأزمات –بسبب الأهمية البازخة– للمنطقة الجغرافية.

وبالطبع فقد كان حرص الدوائر الاستعمارية الغربية كبيراً بعدم إعطاء هذا التعبير مفهوماً جغرافياً أو ثقافياً أو حضارياً محدداً ليبقى مفهوماً مطاطاً يتجاوب، وبتكيف مع مطامع تلك الدوائر ونزواتها، أو يكون أقرب ما يكون إلى فكرة المجال الحيوي منه إلى فكرة المفهوم العلمي أو الواقعي.

بعد هذه الجولة الطويلة نسبياً يمكننا أن نضع أيدينا على الفكرة المفتاح la notion cley لتعبير التطبيع الثقافي وخلفياته التاريخية، حيث ظهر هذا التعبير في إطار منظومة نسقية محددة تتويجاً للمشروع الاستعماري الغربي

---

[1] – د. عبد الله عبد الدائم: فهو يصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها عريقة لكنها لم تستطيع صنع حداثتها، أو تشرك الجماهير في بنائها، وأنها لم تبن من داخلها، وأخيراً فهي خاضعة لتحدي النظام العالمي، مقاله الموسوم بعنوان: العالم ومستقبل الثقافة العربية، مجلة المستقبل العربي، عدد 222، 1997، ص30.

الكبير، هذا المشروع الذي قضى على الدولة العثمانية مردفاً ذلك باستنزاف ثروات آسيا وإفريقيا لينتهي به المطاف إلى مجاله الحيوي الجديد –مثلثا الأزمات، حيث ركز مخططاته وأولياته وأجهزته وعلمائه ومستشرقيه كآليات لتمزيق جسد أمتنا، وحيث زرع العدو الألد الصهيوني كإسفين كبير في جسد هذه الأمة.

ويمكن القول، ونحن لا نزال في إطار نسق متواشج العرى- أنه، كان لهذا المشروع الاستعماري الخطير، وبعد الانتصار على الاتحاد السوفيتي، أن يعيد حساباته ومخططاته، ثم يجري هيكلية جديدة لوطننا العربي بآلية ضرب الشعب الشقيق في العراق ضربة قاسية لا تقاس بمقياس إشكالية عراق/كويت، وإنما بمقياس مصالحه الاستراتيجية، كما صرح بذلك بوش نفسه بأن نفط الخليج جزء من الأمن الاقتصادي للولايات المتحدة.

وبالطبع فقد كان لا بدّ لهذا الترتيب السياسي من تنظير فكري، وهكذا ظهر عام 1991، كتاب فوكوياما **نهاية التاريخ** ولسان حاله يقول لقد انحسم أمر الحدث التاريخي لصالح الكوكبة الإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

وتعاملاً مع الفكرة السابقة رشح الإسلام والعروبة عدوين للغرب ذريعة لضربهما واستنزاف شعوبهما، وهذا هو مغزى كتاب صراع الحضارات لمؤلفه المفكر الأمريكي الذائع الصيت "هنتنجتون"، ومغزى كتاب "شمعون بيريز" كآلية إجرائية، تحدد حلقة جديدة من حلقات الصراع مع العدو.

لكن ما هو هذا البعد الاستراتيجي لنتائج التطبيع الثقافي مع العدو؟

يمكننا في هذا الصدد أن نسجل المرتكزات الآتية:

1- **المرتكز الأول**: التطبيع «لغة ومفهوماً» يقيد خلق نواميس طبيعية للحياة والمجتمع والاقتصاد تتأبى أية شائبة أو تقييد أو تحول دون التفاعل على مستوى كافة الفعاليات الإنسانية، ونحن نستطيع أن نؤكد أن هذا المفهوم «بخصوصية العلاقة مع العدو» ميكانيكي تبسيطي اختزالي يلوي عنق الحقيقة لسبب بسيط هو أنه يقوم على الهيمنة السياسية لإسرائيل التي يعضدها الغرب ضارباً الذكر صفحاً عن كافة ثوابت أمتنا، وما توطن وتوطد وترسخ كالجبال الرواسي عبر الصيرورة التاريخية العريقة والعميقة.

وبيان ذلك أن هذا المفهوم الميكانيكي للتطبيع يصطدم بصخرة الهوية العاتية، أي بالثقافة العربية الإسلامية الحية ذات الحساسية الخاصة ضد الدخيل ثم مقاومته، لذلك اقترن هذا المفهوم التطبيعي المخادع بمفهوم آخر استقطابي هو القضاء على ثقافتنا، وهكذا فقد ابتكر الغرب آلية جديدة لتلك الغاية هي الأصولية الإسلامية، وما الهدف من ذلك إلا استئصال الحالة الإسلامية[1]، على أساس «والغرب يدرك ذلك» تماهي العروبة بالإسلام والعكس، وعلى أساس أن سيف العروبة الذي يستل من غمد الإسلام هو من أهم الفعاليات للوقوف في وجه مطامح عنصرية الغرب، وعلى أن الغرب يستل سيفه ليطعننا به.

[1] -هذا هو رأي فهمي هويدي في مقاله الموسوم بعنوان ليست مسألة تثقيف ولكنها دعوة لاقتلاع جذور الأمة والمنشور في مجلة المجلة عدد/817/لعام 1995.
وأضاف بأن المحاولة تتجاوز استئصال الحال الإسلامية إلى محاولة استئصال الإسلام ذاته ومحو الذاكرة الإسلامية، أي ليس الهدف مجرد التصدي للمد الإسلامي أو القضاء عليه، لكن تقويض ثوابت الأمة لا سيما أن الإسلام ليس عقيدة، بل ثقافة وهوية وحضارة.

ولا أدل على ذلك أن الغرب لا يهمه الأصولية، وكل ما يهمه ثروات أمتنا وتاريخها وحضارتها، وهذا ما يتضح من تأييده الأصولية الفعلية «وليس الحالة الإسلامية» ضد أهم ظاهرة صحية في تاريخ أمتنا الحديث ألا وهي قيادة الراحل جمال عبد الناصر.

إذاً فالغرب يفصل مدلول الأصولية على قياس مصالحه وأهوائه وغرائزه ومطامحه، وليس من أجل الشأن الإنساني أو المصير العالمي أو تعزيز كرامة الإنسان كما يدعيه ويتقوله.

ولعلنا نجد مصداق ما نقول في مقال الكاتب الأميركي الاستراتيجي الشهير "و. س. ليتد" الموسوم بعنوان **الدفاع عن الحضارة الغربية** والذي نشر في مجلة السياسة الخارجية الأمريكية/عدد 84/فقد أكد المذكور بأن حرب الخليج ستكون هي الحلقة الأولى في سلسلة الحروب الثقافية المقبلة التي ستوجه ضد الحضارة الإسلامية[1].

واستطرداً فلسنا مع الأخ "معن بشور" لجهة أن التطبيع من مفاهيم القانون الدولي لسبب بسيط هو أن هذا القانون يعني فقط بتحديد مدلول (العدوان) وضبط مقوماته وحدوده ونظامه[2].

---

[1] - أشار إلى هذا المقال السيد ياسين رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام في مقاله المنشور في جريدة الاتحاد الصادرة في 1994/2/21.

[2] - د. عائشة راتب: بعض الجوانب القانونية للنزاع العربي الإسرائيلي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1969، ص63.

2- **المرتكز الثاني** : إننا مع عالم الاجتماع الكبير "الدكتور محمد االذوادي" لجهة الدور الحاسم للرموز الثقافية في الحياة الإنسانية وقيمتها المتعالية المتأبية الصامدة أمام تقلبات المكان والزمان، ففي نظره إن الثقافة تمثل صلب جوهر كينونة الإنسان، وهي البعد العميق في ذاته، الأمر الذي حدا هذا العالم إلى مقارنة هذه القيمية بروابط الاقتصاد، وتأكيده على التفوق الكبير للروابط الثقافية، وقد دلل للبرهنة على مقولته بمثلين حيين أولهما ظاهرة العزلتين في كندا (يقصد من ذلك إشكالية "كيبك") ثمّ الاستعمار الفرنسي لشعبنا الجزائري، وفشل هذا الاستعمار أمام صخرة الرموز الثقافية الإسلامية والعربية.

وفي نظر المذكور إن الأمة العربية أمة فريدة في نوعها لجهة المفهوم الثقافي لسبب بسيط، هو أن هذا الفرن الأكبر الذي صهر هذه الأمة في مرحلة الثقافي قام على الرموز الإسلامية مقترنة بالرموز العربية خلافاً لانتشار المسيحية في أوروبا، الذي اعتمد القيم الروحية ليس إلاّ[1].

وقريب من ذلك هذا التقسيم الذي أجراه "الدكتور محمد الشيحا" للقوميات، فقد حمل هذا التقسيم على المادي والروحي، ثم الماضي والحاضر، وفي النهاية فقد أعطى الأمة العربية قصب السبق في تكوينها لجمعها بين المادي والروحي، الماضي والحاضر، المشروع نحو المستقبل.

ويذهب "الدكتور جمال الدين الخضور" إلى أبعد من ذلك إلى ذلك التأسيس المعرفي القائم على الحفر والتشييد والتنقيب في بنائها الأساسي الأنثروبولوجي الثقافي المتين، والذي يمتاز بصفتين أساسيتين في القراءة ونتائجها بين العامل

---

[1] -مقاله الموسوم بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، المنشور في مجلة المستقبل العربي، العدد/209/لعام 1996، ص5.

الذاتي والعامل الموضوعي، بين الخاص والعام، بين القومي والوطني، وبالتالي لا بد من إعادة القراءة بما تمليه فعاليات الفكر العربي النشيطة العقلانية المؤسسة تاريخياً عبر منهج ديمقراطي يحدد الخطوط الأولى لفعاليات الخلق والإبداع في ثقافة مواجهة جادة قادرة على كشف عناصر الصراع في الجبهة النقضية، وهذا ما يقضي بدوره إلى كشف وتجديد ملامح طرائق الخروج من غيبوبة التبعية عبر خوض الصراع ضد الثقافة التطبيعية المتمثلة بثقافة النظام العربي الأوسلوي (نسبة لأوسلو) السائد كطرف أول وضد ثقافة المركزة والعولمة الإمبريالية كطرف ثاني وممثليها ثقافة المشروع الصهيوني المتمثلة بالأيديولوجية العنصرية الصهيونية اليهودية بتعبيراتها المتعددة، وما ترتب على تلك العلاقة القائمة بين المراكز الإمبريالية والهرم الطفيلي في الطرف العربي من تمركز نمط ما قيادي يفتقر لأي توازن في العلاقات الإنتاجية الاجتماعية بحيث تبدو المهمة الأولى لهذا الهرم في تعزيز طرفية الوطن العربي مقابل تسليمه الكامل بآلية المركزة الإمبريالية الصهيونية عبر ممثلها التنفيذي الكيان الصهيوني، وهذا ما بدا واضحاً، وعلينا في مقولات الشرق أوسطية وغيرها من مقولات التطبيع بحيث تظهر الحركية العامة التطبيعية بتوازٍ موضوعي مع الاختراق الصهيوني للجغرافية العربية ومن ثم، فإذا كانت هذه الأخيرة تستند إلى تأسيس اختراق المكان للزمان والتاريخ، فالتطبيع الثقافي مستند إلى الاختراق الكامل بالسطو اليهودي على التاريخ العربي، بأنه حقّ مشروع، ويرتكز على أن السطو على الجغرافية العربية حق صهيوني مشروع أيضاً، وقد تتأسس مشروعيته على قدرة العولمة الصهيونية[1].

3- **المرتكز الثالث** : إذا كانت هذه هي ثقافتنا، فالسؤال يثور حول ثقافة العدو، طبيعتها، آلية عملها، أهدافها ..

---

[1] - د. جمال الدين خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص119.

يجيب عن ذلك الدكتور "وجيه كوثراني" : ((بأن إسرائيل لا تملك ثقافة بالمعنى الإنساني والعالمي تصدرها إلى العرب وتخترق بها الثقافة العربية، إذ أن السياسة الإسرائيلية يتوفر لها نموذجان أو اتجاهان))[1].

1- ثقافة تقليدية وتلمودية تتجه نحو أصولية يهودية متعصبة وغير قابلة للنقاش مع الآخر، وهي متواصلة في أصولها المرجعية ومصالحها الراهنة مع الحركات الإنجيلية الأصولية الأمريكية التي انتعشت منذ عهد ريغان.

2- ثقافة صهيونية علمانية مأزومة تحاول أن تكيف أو تفسر التراث اليهودي الديني منذ انتشار عصر القوميات في أوروبا حتى الآن في فكر سياسي علماني معاصر مبرر لنشأة دولة إسرائيل ومواكب لتطورها ويستجيب لحاجاتها في التوفيق بين العلمانية واليهودية وبين السياسي والديني، وبين حداثتها وتراثها[2].

ويتابع الدكتور كوثراني القول: ((اعتقد أنه لا هذه ولا تلك ثقافة مؤهلية لاقتحام الثقافة بتراكيبها الفنية العميقة والمؤلفة من عناصر إسلامية ومسيحية عربية وعناصر بيئة إقليمية تضرب بجذورها في عمق الحضارات القديمة من مصرية

---

[1] – د . وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، مجلة الطريق، العدد الأول، 1997، ص12، وانظر:

Colloque des Intellectuels: Juifs Politique et Religion, Paris, 1981.

هو كتاب غني في دلالته على الجهد التوفيقي الذي يبذله مثقفون صهيونيون في هذا الاتجاه.

[2] – يؤكد المطران جورج خضر في حديثه بتاريخ 1988/1/16 مع التلفزيون اللبناني بأنه يصعب الحوار مع الثقافة الإسرائيلية المتعصبة الاستعلائية التي تدلل بطرد العرب إلى الصحراء لاصطياد العقارب والأفاعي.

وبابلية وآمورية وآشورية وآرامية وكنعانية- فينيقية ناهيك عن الحضارة العربية الإسلامية التي استوعبت خلال قرون كل تلك المتنوعات)).

وتأسيساً على نظرة التاريخ الشاملة «والكلام للدكتور كوثراني» بمنطقتنا العربية بدوائرها الإقليمية، الجزيرة- الهلال الخصيب (أو المشرق) المغرب العربي، ضمن هذه المنطقة بتموضع التراث اليهودي القديم.

داخل هذا الإطار الحضاري الواحد المتنوع لا خارجه، بل إن هذا التراث يصبح وكما تثبت جل الدراسات الحضارية المتخصصة مجرد اقتباس عن حضارات المنطقة بدوائرها الثلاث: مصر، وبلاد كنعان، وبلاد ما بين النهرين.

وعليه كان إعادة النظر في المقولة- الأسطورة التي سادت الفكر الأوروبي الحديث والتي تنسب مرجعية الحضارة الغربية الحديثة إلى الجذور- اليهودية واليونانية، مهمة ثقافية وعلمية تحتمها لا ضرورات البحث العلمي فحسب، بل أيضاً حاجات المشروع الحضاري العربي المعاصر، وقد سبق لباحثين ودارسين غربيين أن تنتبهوا إلى الأسطورة إغفال الغربية السائدة لدور المرجعيات الأخرى المكونة للحضارة الغربية الحديثة، وهي مرجعيات حضارات شرقي المتوسط ووادي النيل، والتي يرى البعض أنها كانت مرجعيات للحضارة اليونانية نفسها، ناهيك عن إغفال دور المرجعية الحضارية العربية الإسلامية التي قامت بدور التوليف والنهضة والأصالة والإبدال والتوصيل إلى أوروبا والتأثير فيها عبر أقنية وجسور المتوسط لا سيما عبر صقلية وإسبانيا.

أما الثقافة الصهيونية، فإنها الثقافة الإسرائيلية المعاصرة ذات المنهجية البراغماتية الغربية، لا سيما الأمريكية ذات الموضوع التراثي اليهودي الشهير، كل استثمار إيديولوجي سياسي وبالتماثل المعكوس مع قوميات أوروبا السوفيتية

والعنصرية (الوجه الآخر للإسلامية) ومن الطبيعة العنصرية نفسها، أي أنها والنازية عنصران متكاملان.

4- **المرتكز الرابع** : إن مصدر تفوق الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة الصهيونية العنصرية، هو ذلك البعد التاريخي التراكمي العميق الجذور لثقافتنا إضافة إلى مقوماتها ومضامينها الإنسانية، وبالتالي فتعاملنا مع الموقف الثقافي ليس من الوجهة الميتافيزيقية المجردة، بل من الوجهة الجدلية التي تتلمس المشكلة في أجزائها الصغيرة وأشكالها المعينة، لا مفرداتها الكبرى كالتطبيع والمصير والرفض والثورة، إذا تمّ التعامل الجدلي يستحسن بنا أن نقرأ تجربة مجتمعنا المصري في الممانعة الثقافية كما يستحسن أن نقرأ عناد شعبنا في الأردن ضد التطبيع ورفضه له وتحصنه بقلاع ثقافة الأمة وحضارتها الحيّة، لا بل لا يذهب بنا الأمر بعيداً إذ نذكر بأن شعبنا العربي في الأرض المغتصبة في فلسطين عام 1948، هذا الشعب استطاع أن يحتفظ بتمام هويته وأصالته.

5- **المرتكز الخامس** : لا يتجزأ العدو على منازلة الثقافة العربية الإسلامية بإنسانيتها وعقلانيتها وإبداعها وعالميتها، أي لا يتجزأ الدخول معها في عملية مثاقفة، لذلك فالتطبيع الثقافي لديه يعني التدجين والتشريط conditionally، وفقاً لمصطلح المدرسة السلوكية الأمريكية behaviorism، بل التعليل والمسخ والتفريغ والتطويق والإقصاء والاستئصال[1].

(وهذا التشريط المراهن عليه ليس تطبيعاً ثقافياً بالمعنى الذي يؤديه تعبير التطبيع normalization أي جعل الأمور طبيعية وعادية...إن العقل الاستراتيجي

---

[1] – د. وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، ص12.

الإسرائيلي الحاكم يراهن على نشر نوع من حالة ذهنية –انقلاب سيكولوجي لدى العرب تكون بلا مضمون تاريخي ولا بعد وطني أو قومي أو حالة لا ثقافة، حالة نفسية بيولوجية، تحول كل عربي إلى فرد معزول وتحوّل كل جماعة إلى أقلية مستفردة، وكل دولة إلى سلطة قامعة، وكل مجتمع إلى مشروع حرب أهلية والواقع يشير إلى أن إسرائيل هي التي ستقوم بهذه المهمة بل واقع حال العرب، ودور إسرائيل هو الدفع بذلك الاتجاه، واستثمار معطياته إلى الحدّ الأقصى ودروس التجربة اللبنانية ملأ بدلالات هذا الاستثمار ومخاطره)[1].

وقريب من ذلك ما أكده الأستاذ جلال أمين بأن العولمة «ومشروع الشرق الوسط الجديد عولمة مصغرة» تتعامل مع الإنسان كمقولة اقتصادية ليس إلا اتساق اقتصاديuoma economique وهكذا فهي تفككه وتنتزعه من وطنه وبيئته وأسرته[2].

6- **المرتكز السادس** : إن الثقافة السياسية الصهيونية تحاول أن تتكيف مع التحولات والمفاهيم العلمية المستجدة للتجاوز أزمتها المفاهيمية القديمة المتمثلة في فكرة أرض الميعاد، ومأزق الاستيطان والتوسع الجغرافي دون حدوده، وذلك من خلال تبني مفهوم صهيوني أكثر تلاؤماً مع مفاهيم السلطة العالمية السائدة اليوم...النظام العالمي والسوق وما يتبعها من شعارات ليبرالية مزعومة وخطاب

---

[1] – د. وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، ص13.

[2] – جلال أمين: العولمة والدولة، مجلة المستقبل العربي، العدد/228/، لعام 1998، ص35 و36.

علموي مرتكز على ما تشكله سلطته المعروفة وعصر المعلومات والاتصال من قوة تأثير ونفوذ وقدرة في المبادرة[1].

ولعل في هذه النقطة «والكلام للدكتور كوثراني» يكمن ما يسمى الخطر الثقافي الإسرائيلي الجديد، فهو ليس تطبيعاً ثقافياً كما يحلو للبعض أن يقوم ويتوهم ويندد ويحذر إنه المنديل الأحمر الذي يلوح به أمام الثور الهائج، كما كان "مالك بن نبي" يقول عندما درس العلاقة الملتبسة القائمة بين ثقافة المستعمر وثقافة المستعمر، حيث أكد أن الكثير من الشعارات والمناهج التي انزلق إليها بعض مثقفي حركات التحرر الوطني في إفريقيا وآسيا بوعي أو بغير وعي هو من نوع ما سماه بالقابليات للاستعمار.

7- **المرتكز السابع** : تكثر إسرائيل الحديث عن الحوار الثقافي، وهي العدوة الأولى لأي حوار، بل هي التي قطعت الحوار بين أمتنا وبين اليهود، عندما أقامت الكيان الصهيوني، ذلك الحوار الذي أينع وأتى أكله في إطار التجربة التاريخية للحضارة العربية الإسلامية وبالذات في الأندلس وما فتئ يتجدد (ويتعمق) حتى قام الكيان الصهيوني الذي اعتبر جريمة العصر بسبب الاقتلاع المزدوج للفلسطينيين من أزمتهم ولليهود من أوطانهم[2].

والتطبيع المزعوم ليس مجرد انفتاح على الثقافة اليهودية بل انفتاح على المؤسسة الثقافية الصهيونية، وبالتالي يجب التفريق هنا بين أمرين، النظام الرمزي الذي يعبر اليهود من خلاله عن الهوية الدينية الخاصة بهم، فهذه الهوية مغلقة شأنها في

---

[1] – د. وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، ص14.

[2] – تراجع ورقة المقدمة من الدكتور عبد الإله بلقزيز إلى حلقة النقاش التي جرت تحت عنوان: التطبيع الثقافي، مجلة المستقبل العربي، عدد/200/، لعام 1995، ص46.

ذلك شأن كل هوية دينية، ثمّ النظام الرمزي للتعبير عن خبرتهم التاريخية والاجتماعية داخل أوطانهم وقومياتهم كمواطنين إسوة بغيرهم من المواطنين، على ضوء ما تقدم يمكننا أن نفهم من عبارة الثقافة الصهيونية ذلك الخليط من الأفكار الاستعمارية التي انصت على تبني إيديولوجيا الإنكار، فسوغت للمؤسسة العسكرية منذ "شتيرن والهافانا إلى تساحال والشين بيت" محو شعب من التاريخ، وتحميله خطيئة الهولوكست النازي[1].

ومع ذلك فإذا كان هنالك مثقفون يهود اعترضوا على المحرقة الصهيونية للشعب الفلسطيني، فقد وجدوا دائماً مثقفاً عربياً محاوراً يبادلهم بشكل حضاري تداول القيم الإنسانية الكبرى ذاتها.

وعلى هذا الأساس فإذا جاء الرجل السياسة أن يبرر حال الاستكانة لديه فيعزوها إلى أحكام توازن القوى وموجبات العمل بقاعدة المرحلية والواقعية السياسية، إذ أجاز له الاعتراف «ولو على بعض» بتواضع جغرافية، فالمثقف على ما يفترض- جغرافياً- له الذاكرة والتاريخ والرموز، وهو لهذا السبب-وخلافاً للسياسي- غير قادر على التخلي عنها، والمساومة عليها وترويض نفسه على ممارسة نسيان الهوية أو تزوير التاريخ.

ذلك لأن السياسي يتعامل مع الممكن في حين أن المثقف حارس الهوية والتاريخ والذاكرة، وهو المنتصر للحقيقة والمتصرف في ملكوت المعرفة، والتاريخ، فهو معنى يما ينبغي أن يكون، السياسي يلجأ إلى المساومة للوصول إلى الممكن، في حين أن المثقف إذا كان واقعياً فقد جوهره وماهيته.

---

[1] - د. عبد الإله بلقزيز: التطبيع الثقافي، ص46.

ونحن مع "الأستاذ مصطفى المسناوي" بأن إسرائيل لم تستطع أن تخلق ثقافة موحدة متميزة لشعب معين، وبالعكس فكل جماعة مهاجرة لها ثقافتها ومصالحها، وإذا كان هنالك إبداع فهو إبداع يهودي حصل خارج فلسطين وضد الصهيونية[1].

8- **المرتكز الثامن** : ليس التطبيع فعلاً أو قراراً سياسياً، والقانون بكافة فروعه لا يلزمني أن تعامل مع هذه الأغنية، أو ذلك الفن أو الدب أو يفرض عليّ حساً جمالياً معيناً أو ذوقاً محدداً، بمعنى أن القانون لا يستطيع أن ينفذ إلى مملكة الضمير والوجدان وعلى صعيد العلاقات بين الدول فالاعتراف الدولي يلزم بعدم الاعتداء على هذه الدولة أو تلك، وبالمقابل لا يلزم أية دولة بأن تبرم العقود والاتفاقات، وتدخل في عمليات تجارية أو ثقافية محددة.

وعلى هذا الأساس فالتطبيع بالمعنى السلطوي العسكري يحول دون قيام المجتمع المدني كمجتمع مفتوح، محكوم بنواميس الحياة وسنن الله في المجتمع والاقتصاد والأخلاق، وهو بهذه المثابة يتعارض مع ماهية المجتمع المدني كإطار لخيار الإرادات، ويتعارض مع فكرة المواطنة كوصف موضوعي عقلي عام ومجرد.

وبيان ذلك أن الدولة لا تستطيع أن تذيب الفرد، ولا يجوز لها أن تمتد بسلطاتها إلى تلافيف الضمير، وحركة العقل وقديماً قيل: لقد أراد "روبسيير" أن يقيم الفضيلة، فأقام الرعب.

والدولة ليست فعلاً سلطوياً معلقاً في الهواء، بل حقيقة موضوعية تنبع من الجماعة وروحها وتعبر عن تطلعاتها وآدابها وقيمها، وهذه هي الشرعية الحضارية

---

[1] - قد أخلته في مناقشة ورقة العمل السابقة، مجلة المستقبل، عدد/200/لعام 1995.

التي تترسمها الشرعية القانونية، وفي ذلك يقول "ريمون بولان": ((الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسة))[1].

والحكومة ليست إلا جهاز في خدمة فكرة من نتاج الأمة، والأمة لا الحكومة هي التي تمتلك الصفات الأساسية والحياة العميقة الجذور التي يمتاز بها الشعب، وكل ما تفعله الحكومة صيانة هذه الخصائص والادعاء بتملكها.

وتظل ثقافة الشعب فوق الحكومة، وإن كانت السلطة تحاول أن تكيف هذه الثقافة على هواها فتشوهها وتحرف معناها... ذلك أن ثقافة الشعب المعبرة عن روح الجماعة تظل في انطلاقها وحريتها إلى أن يفسدها حكم المستبدين أو حكم المتزمتين، وهذه الثقافة وليدة التجاوب مع صور الحياة ومع حبّ الأرض والسماء ومع قيم الحب والرفعة ومع نداء الضمير ومع المسرات والأفراح ومع الشوق اللامتناهي لتحقيق الرغبات ومع الصراع مع تلك التجربة التي تستعصي على الفهم، إنها تجربة الإيمان.

(وقد تتعرض الجماعة لخطر شديد، ولكن الخطر الأشد أن تغتصب السلطة ثقافة الأمّة وتسيطر على حياة الجماعة، وتكتم أنفاس الناس وتعيد حرياتهم بأن يختلفوا لمعتقداتهم وآرائهم وطرق تفكيرهم وأساليب حياتهم)[2].

والسؤال المطروح هو: هل إن التطبيع يراعي هذه الأصول، أم أنه سيعطل حركة المجتمع، ويتطاول إلى التحديد القسري لمساراته نجد الجواب على ذلك في المعاهدة الأردنية الإسرائيلية التي لم تكتفي بتقنين منع الاعتداء على إسرائيل، بل

---

[1] – ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، دار طلاس، 1986، ص301.

[2] – روبرت م. ماكيفر: تكوين الدولة، ترجمة د. حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ص245.

سارت شوطاً واسعاً في إطار السياسة على حساب القانون لتتغلغل في تلافيف الوجدان، وتتدخل في مسائل هي من متعلقات الرأي والفكر والثقافة.

لا أدلّ على ذلك ما نصت عليه المادة الرابعة من الاتفاقية إذ بمقتضى هذه المادة يقع تحت طائلة العقاب كل من يعبر عن رفضه للاتفاقية سواء بالمشاركة في ندوة أم بالكتابة أم بالصحف بل بمجرد المشاركة الجماعية أو الثنائية)[1].

9- **المرتكز التاسع** : إذا كان هكذا الموقف التخاذلي للسلطة العربية في التطبيع، فإننا لا نعدم وجود تخاذل من قبل بعض المثقفين مروجي التطبيع، فهؤلاء لا يكتفون برفعه شعاراً سياسياً، بل لا يتوانون عن تشويه الارتكازات المعرفية الثقافية لأمتنا، وفي سبيل ذلك يعملون ما يلي:

أ- يندفعون إلى خلق حال ما من التوضع اليهودي التاريخي على أنه فعل مستقل قائم في البنية الإحداثية للمنطقة العربية، وهكذا يتكلمون عن هوية يهودية وأسطورة يهودية وميثولوجيا يهودية في الوقت الذي لا يتوفر فيه نقطة تأسيس واحدة لمفهوم الهوية لدى اليهود، أو ليس المخيال الاجتماعي، ولا الذاكرة الجمعية، ولا اللغة ولا التاريخ الجغرافي، ولا الجغرافيا التاريخية واحدة لدى اليهود ...حتى المفاهيم الثيولوجية المبثوثة في أسفار العهد القديم هي نتائج سرقة سطو مكشوف ميثولوجيا من أساطير المنطقة العربية، ومن ثم فإن طرح مفهوم الهوية اليهودية، على أنه فعل متكون قائم في التاريخ هو نقطة الانطلاق[2].

---

[1] – هذا القول للمفكر العربي الوحدوي حمد الفرحان/الأردن/صحيفة العربي، القاهرة، العدد/75/لعام 1996، ص9.

[2] – مقال الدكتور جمال الدين خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص 119.

الانطلاق باتجاه تشوبه الحدود الدنيا لقراءة المنظومة الثقافية المعرفية كبنية تكوينية لأية أمة من الأمم.

ب- إضفاء سمة المجتمعات المتماسكة والمتكاملة تاريخياً على بنية الكيان الصهيوني بهدف إعطاء مشروعية الاستمرار لتكوين قائم في آلية النتاج الاجتماعي الطبيعي، هذا الرأي بعيد جداً عن تكوين الكيان الصهيوني الذي يشكل بنية عسكرية بعيدة عن صفات المجتمعات التاريخية.

إن التركيب الديمقراطي لذلك الكيان عسكري وجملة العلاقات الناظمة عسكرية بحيث يتعذر اجتماعه لمقولات الصراع الاجتماعي من ناحية كما يتعذر نتيجة ذلك إيجاد خطوط فصل بين سلطته السياسية وبين تكوينه الاجتماعي ومثقفيه وبالتالي فالكل يتماهى في تكوين عسكري عنصري يصعب اختراقه بشروخ أفقية بينة، يضاف إلى ذلك ارتباطه العضوي بالمركزة الامبريالية، بحيث يتحول ضمن علاقة الاختراق بالمركز إلى تكوين مركزي يتمحور حول أطراف تدور حوله باتجاه مركزيه، وهذا ما يقصد به من منظومة الشرق الأوسط المتممة للعولمة الأمريكية.

ج- نشوء مفهوم الهوية القومية العربية كمنجر تاريخي قائم على الزمان وتشويه الهوية الوطنية العربية كسيرورة قيد الانجاز وكركيزة لدولة عربية واحدة تشكل الطموح الأرقى للمشروع النهضوي العربي، وذلك بإهدار المقومات التكوينية الصلبة للهويتين واستبدالها بالمكونات الميثولوجية أو الدينية أو المذهبية لتصبح متقاربة تكوينياً مع الهوية اليهودية الصهيونية.

وليس صعباً على المتتبع لاكتشاف السطو الذي قام به هؤلاء الغرباء على المنطقة: على أساطيرها، لغتها وتاريخها، وهذا ما يؤكده الدكتور سيد القمني، بأن هؤلاء لم يسرقوا قيمنا وأخلاقنا وأساطيرنا بل جغرافيتنا[1].

وهذا هو "جيمس هنري برستد" في كتابه **فجر الضمير** يؤكد أن الكنعانيين كانوا قد اجتازوا مرحلة النمو المتحضر لمرحلة زمنية تبلغ من ألف سنة قبل أن يغزو العبرانيون البلاد، وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية أن سلسلة السطو على ميثولوجيا وأساطير ومعارف المنطقة العربية من التوراة لا حدود لها، يقول المذكور: ((نصائح إلى "مارى مارع" من الميثولوجيا المصرية هي نفسها سفر صموئيل وسفر الأمثال، والأمر نفسه بالنسبة لمفهوم العدالة الفرعونية المبثوث في سفر ملاحي، واليهود كانوا على علم بأنشودة اخناتون العظيمة لإله الشمس، وهي قريبة من سفر المزامير، ولذلك كانوا على علم بحكم الحكيم المصري "آمن موبي" القريبة من سفر أرميا والمزامير والأمثال بصورة تكاد تكون حرفية))[2].

وقريب من ذلك ما أكده الباحث اليهودي المتميز إيغار لستر، لجهة سطو اليهود على تاريخ وميثولوجيا المنطقة العربية[3].

انطلاقاً مما تقدم ينبري الدكتور الخضور للتصنيف لضروب المثقفين العرب الذين أيدوا التطبيع ثم المسوغات التي اعتمدوها[1].

---

[1] - مقال الدكتور جمال الدين خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص12.

[2] - جيمس هنري برستد : فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، ص372.

[3] - إيغار لستر: الماضي الحي، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد، إصدار الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1954، ص142.

الواقعية : وذلك بتكريس الهزيمة وفلسفتها، ومن ثم فهذه الفئة تحمل وعياً غير مطابق لواقع أمتنا، وعياً زائفاً مبعثراً متعثراً بعيد كل البعد عن ضمير أمتنا، أمة التحدي، والمجابهة ونحمل النكبات، لذلك فالأفضل تسمية هذه الواقعية بالوقوعية والتزوير.

اكتشاف الآخر : وهذا يعني أن هؤلاء المثقفين يعتبرون الصهاينة/آخر/بعد أن احتل ما احتل، واعتدى ما اعتدى وبعد أن امتلأ رأسه عنصرية وعتواً واستكباراً في الأرض.

التيار الرمادي: تيار الانتظار، ويضم هذا التيار المثقفين الذين لم يحددوا موقفاً معيناً[2].

تيار الاصطفاف الكامل في نسق العدو : ويتزعم هذا التيار القاضي "سليم تقلا والشاعر نبيه سرحان ومخرج مسرحية روميو وجولييت فؤاد عواد والشاعر الفلسطيني كريم شتور" صاحب فيلم المرضعة ومخرج الفيلم "علي نصار والشاعر أدونيس والروائي أميل حبيبي".

بناء الاحتكار : ويمثله يوسف السباعي الذي رافق أنور السادات إلى القدس، وثروت أباظة الذي اجتمع بشكل شخصي ومغلق مع إسحاق نافون[3].

تيار العولمة: ويتمسك بأن العالم أصبح قرية صغيرة، ويتمثل هذا التيار "لطفي الخولي"، ومجموعة من السينمائيين في المغرب العربي ومصر وأمثال "بلقزيز،

---

[1] - د. خضور: السلام والتطبيع الثقافي، ص12.

[2] - المرجع السابق، ص7 و8 و9.

[3] - المرجع السابق، ص123.

ومحمد عبد العزيز، ومحمد أولاده مهند وحسام الدين ومصطفى وشريف المصري".

10- **المرتكز العاشر** : يتساءل الأستاذ "معن بشور" قائلاً: ((إذا كانت مصر مستهدفة بالتهميش والتفكيك الثقافي، فكيف حول الحل بالنسبة للدول العربية الصغيرة، هكذا يصف الأستاذ بشور هذا التطبيع بالعدواني، التفكيكي وليس بالسلمي، وهو تطبيع يبتدئ بالمدخل السياسي كغطاء لينتهي مطافه بالثقافي في صيغة الاختراق)).

والرد عند "الأستاذ بشور" يتجلى في ثقافة الانطلاق كبديل لثقافة القهر، وقوام تلك الثقافة التنمية البشرية بكافة أبعادها ومظاهرها، لسبب بسيط هو أن القوة في الجامعات، وليس في الثكنات.

ويلقي "الأستاذ بشور" الضوء على الدور الذي تلعبه قضية القدس في مواجهة التطبيع، يلقي الضوء على المغالطة الكبرى، ألا وهي ازدواج الثقافة المسيحية واليهودية، وبالعكس يدلل بأن جذر الثقافة الأوروبية، يمتد إلى حضارة أمتنا، وأن بإمكان المسيحيين الشرقيين أن يلعبوا هذا الدور المعاكس للعلاقة المسيحية – اليهودية[1].

وإذا كان "الأستاذ بشور" يذكرنا بالدور الذي تسعى أن تمثله إسرائيل في منطقتنا، ألا وهو أنها عقل المنطقة.

فهو الآن نفسه، يدلل بأهمية الثقافة العربية وقتها الذاتية وفرادتها، ويضرب المثل على ذلك في فشل إسرائيل بتدمير الثقافة الذاتية لأهلنا في فلسطين المغتصبة.

---

[1] – معن بشور: بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، ص7 و8.

11- **المرتكز الحادي عشر** : يجب ألا نخجل من الحقيقة والواقع، أي من وجود بعض الثغرات في بنيتنا التحتية كنقاط ضعف قابلة للاختراق، وهذه النقاط كما حددها الأستاذ حسن إبراهيم حسن هي:

أ- **القطاع الذي يرى خلاصه في اللحاق بركب الغرب**، حتى لو قاده إلى الجحيم، فقد شهد هذا القطاع عصر تدشينه على يد السادات وكامب ديفيد، وأمثال السادات كثر في أمتنا من ذلك حاشية السلاطين من مطبلين ومزمرين.

إذن فالمنتمون إلى هذا القطاع هم جميع أولئك الذين انتهجوا نهج السادات وقد سقطت البراقع عن وجوههم بعد أن أعمى السادات عيونهم بريق الصهيونية والغرب.

ب- **القطاع الثاني**: وهو الذي يقف بشراسة في وجه المشروع الصهيوني، وقد أثبت أنه لا أحد يستطيع قهره، وبرهة أن المشروع الصهيوني لا يمكن تمريره على أمتنا بعد أن وصلت المواجهة إلى ذروتها، وبعد أن رأى المواطنون في مصر انهيار أحلامهم في الوعد الأمريكي، أن خيبة الأمل التي جناها كل من أمل في المشروع الأمريكي خيراً، تنعكس في تصرفات الشارع المصري، فها هي مجلة روز اليوسف «على سبيل المثال» تنشر في عددها 3472 تاريخ 1995/1/2 مقالاً بعنوان **سقوط الحلم الأمريكي في مصر**، الأمر الذي حدا الرئيس الأمريكي أن يطلب من سفارة بلاده في القاهرة تقريراً مفصلاً عن مسرحية (ماما أمريكا) التي رأى إعلانات الدعاية لها أثناء زيارته لمصر، ولقد أشارت مجلة روز اليوسف إلى تحقيق بقلم وائل الأبرش يوحي عنوانه التالي بمضمونه: جرائم على جواز سفر أمريكي-حوادث الأميركان بين الأيدز.

ج- **القطاع الثالث**: وهو القطاع الذي يضم من لا يمثلون رأياً له اتجاه واحد وثابت وشامل، وبالتالي فهذا القطاع من الميوعة بحيث يصعب تصنيفه والحكم عليه، وفي إطار هذا القطاع نجد ضعف الثقافة والقدرة على التحليل، كما نجد من يرغب في تمييع الأمور وحصرها في التسلية، وتمضية الوقت وهناك من ينتظر النتائج هناك، المحيط في حياته المتردي في ظروف معيشته، وهنالك المنتظر للنتائج... إلخ، وبالطبع لا يمكن السيطرة على هذا الحكم الجماهيري الضخم في هذا القطاع الأخير مشروع قومي حضاري يعيد إليه ما فقد من الثقة وفقدان البوصلة والتوازن.

12- **المرتكز الثاني عشر** : لا علينا أن نخاف من التطبيع فحسب، بل أن نخاف من الفقر والجور والجهل والأمر وسياسات التفرد والانقسام والفردية وحب السلطان وسياسات التجهيل وامتهان الإنسان، والفكر والثقافة ودفع العلماء إلى الهجرة والباحثين إلى البطالة والجمود والتسبيح بحمد السلطان.

13- **المرتكز الثالث عشر** : إن سبيلنا إلى مقاومة التطبيع هو الدرع الواقي والمضاد الحيوي (انتيبوتيك) لكل غزو ثقافي.

لقد أثبتت كافة العلوم، لا سيما علم البيولوجيا، أن العدو لا يستطيع أن يخترق الحمى إلا من خلال بنيته الداخلية الهشة، وأسلوب عمله وتركيبه.

وهكذا دلل أحد المفكرين بقوله: دعني أدون عادات الأمة، ولا يهمني بعدئذ ما تفعله السياسة.

وهذا ما أكده مفكر آخر بقوله: ((السياسة إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي مبادئ الحياة)).

وقريب من ذلك قول "بوتول": ((إن سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد)).

وقول آخر: ((السياسة هي تقنية الواقع، أو هي محمولة على فيزيائه كما أن علم الاجتماع هو فيزياء الظواهر الاجتماعية)).

إن المواطن العربي العادي هو صانع العروبة وحارسها وحاميها إلى التقدم وعملقته هو عملقة هذه الأمة، وهو بالتالي العجلة التي تدور عليها أحداث أمتنا ونهوضها وانتكاسها، وأن قتل المواطن هو قتل الأمة وأحياؤها هو إحياؤها.

وعلى هذا الأساس فامن أمتنا في تنمية حياتنا ونموها، وفي ذلك يقول ماكنامارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق: ((أن الأمن القومي يقوم على التنمية وإن أمة غير نامية لا يمكن أن تكون آمنة))، هذا الربط بين الأمن والتنمية يؤكده القرآن الكريم بقوله: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ البقرة/**127**.

وقوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قريش/**4**.

والخلاصة أن التحصن السيوسيولوجي (الاجتماعي) الثقافي لأمتنا عبر العض بالنواجز على منطقنا الشعبي وموقع حماسنا واعتزازنا الروحي وتمسكنا بأدبنا وفولكلورنا، وموسوعتنا الثقافية ورأسمالنا الرمزي وجمالياتنا ومحوريتنا الأخلاقية، وبحبنا الرفيع للحياة والأرض، بأهازيجنا وأفراحنا، فهذه النواهض والفعاليات والديناميات هي القلاع الحصينة، والروافع الأساسية للتقدم، وبالتالي لمقاومة التطبيع.

وإذا تمسكنا بهذا النهج استطعنا القول مع الدكتور خليل أحمد خليل بأن التطبيع مجرد أسطورة لأن المواطن في أمتنا يملك سلاحين: سلاح الإيمان الإسلامي،

وسلاح اللسان العربي، وبهذين السلاحين أخفق التطبيع الصليبي، عندما استل السيف العربي من غمده الإسلامي.

14- **المرتكز الرابع عشر** : ما هي مساحة التفاؤل والتشاؤم في راهننا ومستقبلنا؟

يجيب عن ذلك الأستاذ "حسن إبراهيم أحمد" من خلال دراسة قيمة تُجتزئ منها الأسس الآتية[1] :

أ- **الأساس الأول**: ويكمن في الثقة في الاتجاه الذي يواجه المشروع الصهيوني من منطلق رؤية قومية تقدمية، فقد أثبت جدارته في تحليل الواقع والتضحية في سبيل المواقف، وهو الأمر الذي تجده في شهادات مجموعة من الأدباء، والمفكرين المصريين قدمتها مجلة الكفاح العربي في عددها/851/تاريخ 1994/12/26، حيث تفسح تلك الشهادات الإصرار المتخذ على عدم بناء علاقاته مع إسرائيل، ورفض ما يسمى التطبيع، والمطالبة بطرد أي أديب مصري يتصل بإسرائيل، ويتعامل معها من اتحاد الكتاب المصريين وفرض القيود على التعامل مع العدو.

وهناك منظمات عربية يقودها مفكرون لهم حضورهم الكثيف في المجتمع، وقد شُكلت لمواجهة التطبيع للجنة الدفاع عن الثقافة القومية التي تترأسها الدكتورة لطيفة الزيان من مصر ولجنة المقاومة الغزو الثقافي الصهيوني التي شُكلت في لبنان.

ب- **الأساس الثاني**: وينطلق من الثقة بالحس الجماهيري العفوي الذي صاغته التربية والتوجيه وأثبت أنه عصي على التدجين والاختراق.

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: حول أدوار التحولات الثقافية العربية، مجلة الفكر العربي، عدد/78/لعام 1995، ص4.

ج- **الأساس الثالث**: وتقوم على الثقة بأن الاقتصاد العربي سيصعد إلى مستوى المواجهة لدى احتكاكه باقتصاد يريد ابتلاعه.

ث- **الأساس الرابع**: المجتمع الإسرائيلي يقوم على الحاخامات والجنرالات، فهو مجتمع عسكري في مناطه وتكوينه وأهدافه، وبالتالي فالسؤال يثور عن هذا المجتمع في ظلّ السلام المفترض، أي ما هو مصير الذئب فيما لو قلمنا أنيابه وأظافره.

ت- **الأساس الخامس**: إن الفكر التقدمي العالمي –وبعد زوال الاتحاد السوفيتي- لا يزال يتوهج تحت الرماد، وإن إشعاعاته تبعث الفنية بعد الأخرى على أسس أكثر عقلانية وديمقراطية.

15- **المرتكز الخامس عشر** : هذا التفاؤل الذي يوطن النفوس، ويصوب حركة حياتنا لا بد له من مشروطية اجتماعية، أو حامل اجتماعي عقلي وقيمي وروحي، وهذا الحامل هو الجماهير العربية المتسلحة بمشروع نهضوي أساسه الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات العامة، وبنا نجدد الخيار الحضاري ومؤسسات الدولة والمجتمع، ومناط أمره القيم الروحية النابعة من الأديان وميثاق حياته المرأة المثقفة المؤمنة العاملة البعيدة عن التقليد والابتذال وذات الحياء، والوقار باعتبارها واهبة الحياة.

المسألة الأولى والأخيرة: أن يكون لنا وعي ورسالة ومشروع يدرجنا في التاريخ، ويدفعنا لامتلاك ناصيته، وبالمقابل فالخطر الكبير أن تسير وراء أذناب البقر (حديث شريف[1]) أي أن نبقى في حالة خواء وموت، حالة بيولوجيا، جسد من لحم ودم له خوار يأكل كما تأكل الأنعام، وشر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون.

[1] - قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ﴾.

هذا ما أدركه "المغيرة بن شعبه" في حواره مع رستم القائد الفارسي في معركة القادسية، حيث انتصب المذكور مدللاً بكل ثقة قائلاً: ((لقد أصبحنا أصحاب دعوة ورسالة)).

وهكذا استمر انطلاقنا عندما استمررنا في تمثل هذا الوعي المنطلق نحو الأمام، نحو اقتحام التاريخ وامتلاك ناصيته وتحويل اتجاهاته.

على هذا الأساس غفرت الجماهير للراحل الكبير عبد الناصر بعض أخطائه على أساس أنه يعبر عن ضمير أمتنا في جهده لإدراجها في حركة التاريخ الصاعد، وعلى أنه كان يقود سفينة حياتنا إلى شاطئ الأمن والرفاه والتقدم الإنساني.

16- **المرتكز السادس عشر** : ويتعلق بتصور الإسرائيلي للسلام، وما هو نطاق هذا السلام الإسرائيلي وحدوده، وهل يدخل في ذلك أمر التطبيع.

تظهر استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي بأن الكتلة الأهم من الإسرائيليين، تبلغ 35بالمائة من مجموع السكان تعرف السلام المقبول على أنه اللا حرب وتوقيع معاهدة توفير ضمانات أمنية.

ولقد فضل 18بالمائة من الإسرائيليين سلاماً يتضمن بالإضافة إلى مكونات الفئة السابقة تبادل السفراء مع البلدان العربية.

أما الإسرائيليون الذين اشترطوا إضافة إلى ما سبق اشتراطات تتعلق بالتطبيع مثل التبادل التجاري والسياحي أو أكثر من ذلك أب التقارب العاطفي مع شعوب المنطقة الأخرى، كان نسبتهم لم تزد على 38بالمائة ومصدر الغرابة في هذه

البيانات هو أنها توضح إن الإسرائيليين ليسوا متحمسين للتطبيع مع العرب بأكثر من تحمس العرب له[1].

وهنالك استثناء على ذلك، ويتمثل في السلام مع مصر، إذ الكتلة الأكبر من الإسرائيليين ترى أن الحدّ الأدنى للسلام مع مصر يجب أن يتضمن علاقات التبادل التجاري والتعاون السياحي وعلى الرغم من أن السلام الذي يريده الإسرائيليون ليس بالضرورة من نوع السلام الدافئ الذي تتحدث عنه إسرائيل الرسمية، إلا أن القسم الأكبر من الإسرائيليون يعتقد أن نوع السلام الذي يريده العرب يقتصر على الحدود الدنيا جداً من الالتزامات والعلاقات مع إسرائيل، وأنهم «أي الإسرائيليون» يريدون سلاماً أكثر دفئاً من ذلك الذي يريده العرب[2].

واستناداً إلى ما تقدم يكون من الخطأ التعامل مع التطبيع باعتباره أمراً له أهميته القصوى لدى الإسرائيليين[3].

ولا أدلّ على ذلك أن التحولات والتفاعلات التاريخية والاجتماعية والثقافية تتجه في إسرائيل نحو التعصب والانغلاق والانكفاء حول الذات والاستعلاء، وكل هذه

---

[1] - جمال عبد الجواد في تعليقه على كتاب Asher Aria حول اتجاهات الرأي العام الإسرائيلي تجاه الحرب والسلام، مجلة المستقبل العربي، عدد/218/، لعام 1997، ص144.

[2] - المرجع السابق، ص144.

[3] - المرجع السابق، ص144.

الأمور تتعارض مع أدب الحوار وأخلاقيته وروحه، تلك الروح التي تعني التواصل واحترام الآخر والاعتراف به[1].

وكي تدلل بهذه الفكرة الأخيرة (انغلاق الشعب الإسرائيلي) وجدنا من المناسب تقديم عرض للتاريخ الاجتماعي والسياسي والفكري لمجتمع اسرائيل، عرض يقوم على الحفر التكويني والتركيبي لهذا المجتمع وما يجوز فيه من اتجاهات وما يتخلله من قوى وفاعليات.

---

[1] - أكد الدكتور بشارة عزمي (نائب في البرلمان الإسرائيلي ورئيس الحزب الديمقراطي) في المقابلة التي أجراها معه التلفزيون العربي في 1997/12/31، إذ هنالك حدثنا عن التطبيع في الشارع الإسرائيلي، لكن هذا الحديث لما يتأطر سياسياً.

نظرة موجزة عن تاريخ الفكر

السياسي والاجتماعي والديني في إسرائيل

لا حاجة للتأكيد بأن حزب العمل –إبان نشوء دولة إسرائيل– هو الذي أعطى التفسير للصهيونية والدولة والمجتمع.

ومع ذلك لم يعد هذا التفسير هو السائد بسبب بروز عدة إيديولوجيات أهمها إيديولوجيا "جابوتنسكي"، فقد استقطبت تلك الإيديولوجيا الشمولية المتحمسة عبر الفترات التي صعد فيها حزب الليكود الحكم/1977- 1981 و1988 و1996/، ولقد حدث ذلك نتيجة العديد من السقطات التي وقع فيها حزب العمل أثناء حكمه لإسرائيل في ظل مبتغاه مثل هيمنة الحزب، بحيث أصبحت هناك حالة من الاستقطاب الإيديولوجي الحاد داخل إسرائيل، تبدو في الظاهر وكأنها تتمحور حول خلافات بشأن قضايا الأمن والكفاح من أجل أرض إسرائيل الكبرى والاستيطان اليهودي في الضفة الغربية، والوضع المستقبلي للأراضي المحتلة في حرب 1967 والسلام مع الدول العربية[1].

لكنها تدور حول تجديد هوية الدولة، وتعكس خيبة الأمل، لأن المجتمع الإسرائيلي عجز حتى الآن عن تحقيق الرؤية الشمولية التي أدعى تحقيقها لتكون مثلاً للعالم.

---

[1] – د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، عالم المعرفة، عدد/224/لعام 1997، ص14.

ويعبر عضو الكنيست "شلومو بن عامى" (حزب العمل) والأستاذ بجامعة تل أبيب عن هذه الظاهرة التي تعم المجتمع الإسرائيلي بقوله: ((إن هذا المجتمع الذي أنشأه الآباء والمؤسسون من الصهاينة على أن يكون بوتقة جديدة يمتزج فيها مختلف الثقافات واللغات، تحول إلى مجتمع متعدد الأعراف والثقافات والطوائف)).

لقد تغيرت وتفتت الصورة الأسطورة المأمولة ليحل محلها صور أخرى جديدة لكل منها شرعيته..بين اليهودي والعربي والمتشردين دينياً (الحربوي) والقوميين الدينيين وغيرهم ممن تمتد جذورهم إلى أصول عرقية مختلفة، مثل السفارديم والأشكيناز والمهاجرين الروس والأثيوبيين وغيرهم، وقد أدى هذا التفتيت إلى تشرذم المجتمع بين ثقافات وطوائف مختلفة، ومهمات متباينة، وبين مواقف متضارعة تجاه صورة الدولة اليهودية[1]، وهذه الانشقاقات –على حد رأي ابن عمي- توصل لحدوث انفجارات عنيفة داخل المجتمع.

وإذا كنا بصدد مناقشة أبعاد الطرح اليهودي للهوية في إسرائيل على ضوء الثقافة السياسية، فإننا ندلل بادئ ذي بدء بأن هذا الطرح ينقسم إلى عدد من الهويات الفرعية اثنتان منها متضافرتان متشابكتان ومثقفتان.

في العديد من الرؤى والتوجهات والهداف، والثالثة هوية فرعية تعبر عن تيار أصبح قائماً بذاته داخل المجتمع الإسرائيلي، وهي الهوية الطائفية السفارادية، والرابعة

---

[1] – شلومو بن عمي: الشعب ضد الدولة، صحيفة معاريف 1996/1/22، ص24.

هـي هويـة قائمـة أيضـاً بـذاتها تعبر عـن التيـار الـدين داخـل إسـرائيل، وفيمـا يلـي تعريف مبسط بهذه الهويات[1].

1- **الهوية اليهودية الإسرائيلية العلمانية**: وتعبر عنها الصهيونية القومية التي تجسدها قوى اليمين الصهيوني التطرف في إسرائيل.

2- **الهوية اليهودية الدينية القومية**: وتعبر عنها الصهيونية الدينية القومية المتطرفة وتجسدها حركة جوهر أيمونيم، وقوى الاستيطان اليهودي في المناطق المختلفة.

3- **الهوية اليهودية الطائفية السفارادية**: ويجسدها السفارديم داخل إسرائيل كقطاع يبحث عن دور فاعل داخل المجتمع الإسرائيلي.

4- **الهوية اليهودية الدينية**: وتعبر عنها الأحزاب الدينية السياسية والقوى الدينية غير الحزبية التي تقف موقفاً معادياً من الصهيونية العلمانية، ومن دولة إسرائيل، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه عن التضافر بين الهويتين الفرعيتين الأولى والثانية فغنه ينبغي الإشارة إلى الطرح الفرعي اليهودي الإسرائيلي العلماني للهوية، ليس هوية إسرائيلية خالصة، كما أنه ليس هوية يهودية خالصة، بل هو خليط من العنصرين اليهودي والإسرائيلي حيث يمكن أن يغلب عليه أحد العنصرين على الآخر[2].

---

[1] - د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص211.

[2] - المرجع السابق، ص 211.

كذلك فإن الهوية اليهودية القومية ليست دينية خالصة وليست قومية صهيونية أوقف منظورها الجديد للصهيونية، إذ يمتزج فيها العنصرين، وقد يغلب أحدهما على الآخر، وفي بعض الأحيان، أما الهويتان اليهودية والسفارادية واليهودية الدينية فهما هويتان يهوديتان الأولى منها تجسد تيار التقليدية الدينية، والثانية يهودية خالصة لا تتداخل معها أي من العناصر الصهيونية أو القومية[1].

هذا التخطي داخل المجتمع الإسرائيلي حدا بعضهم للقول بأن هنالك حرب ثقافية، بين الجمهور الديني والجمهور العلماني، بل دلل بوجود شعبين لا شعب واحد، الشعب الأول يؤمن بالديمقراطية والاتجاه العلماني، والشعب الثاني يمثله المعسكر الديني الذي بدأ يقتحم أسوار المعاقل العلمانية، ولا يؤمن بالديمقراطية باعتبارها مستوردة من الغرب الكافر، وتجدر الإشارة إلى أن الانتظار السابق الذكر بالتساوي لأن نتنياهو لم يفز على شمعون بيريز إلا بنسبة بسيطة لا تتجاوز 1بالمائة، ويؤكد "بوعز عفرون" أن الصهيونية المسيحانية التي سيطرت على الدولة منذ حرب/1967/تتآمر على أسس الأخلاقية وأن ذلك شبتائية جديدة نسبة إلى آخر المسحاء الكاذبين "شبتابن نسقي"[2].

وفي نظره كان لحرب/1967 و1973/أبرز النتائج في إشكالية الهوية، ليس بالنسبة لوجهة نظر تاريخ الدولة والإيديولوجيا الصهيونية، بل أيضاً بالنسبة لمغزاها لا بالنسبة لليهود في العالم، وكان أبرز نتائج هاتين الحربية غروب الصبار الأسطوري، وفقدان الإسرائيلي لثقته في قوته، وفقدان الثقة في النفس وبداية

---

1 - د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 211.

2 - المرجع السابق، ص 221.

أزمة الهوية الإسرائيلية، لقد فقد ابن الشمس (اصطلاح كان يطلقه الشعراء الإسرائيليون على الصبار) الآفاق الآمنة، وعاش الحرب باعتبارها كابوساً وجودياً دون أن يعرف ما إذا كانت هناك حرب أخرى، ومتى ستقع، وأصبح الشاب الإسرائيلي ينظر إلى الحروب باعتبارها أحداثاً حاسمة، سواء بالنسبة لمصير اليهود ككل، أم بالنسبة لمصير حياته هو[1].

وكان من أهم النتائج الحاسمة لحرب/1967/شيوع الإحساس العام بأن هذا الانتصار تم بمساعدة معجزة وعناية إلهية، وكانت بداية لظاهرة جديدة طفت على سطح الحياة السياسية في إسرائيل، هي ظاهرة استخدام المبررات الدينية، وبروز نزعة دينية من نوع معين هي الدينية القومية أو القومية الدينية[2].

ولقد شمل هذا الإحساس الجمهور المتدين وقطاعات عريضة من العلمانيين، وبصفة خاصة من الصباريم (اليهود من مواليد إسرائيل) الذين شاركوا في الحرب، انفعلوا بمشهد رفاقهم لدى بكائهم أمام حائط المبكى بعد احتلال القدس.

ويعبر "أورون باثير" عن هذا التحول بقوله: ((بينما كان الإحساس الشائع لدى الإسرائيلي، بأنه إسرائيلي وبعد ذلك يهودي فإنه التوجه الجديد أصبح في اتجاه يهودي أولاً وبعد ذلك إسرائيلي)).

وإذا كان مسعى الصهيونية الرسغية هو الاندماج والسعي نحو التطبيع مع العالم، وتحويل اليهود في دولة إسرائيل إلى شعب مثل سائر الشعوب، فإن قطاعات

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 222.

[2] - المرجع السابق، ص 222.

واسعة من المجتمع الإسرائيلي بعد حرب 1967، أصبحوا يبرزون التوجه القائل: العالم كله ضدنا، من خلال تفسيراً لنا عقلانية، أو أحياناً مثالية لمقولة الشعب يقيم بمفرده، ولن يحسب بين الأمم عبر اليهودية سواء على المغزى الديني أم غير الديني.

وكان المصدر الرئيسي الذي يرتكز عليه أصحاب هذه المقولة هو الصراع المتواصل مع العالم العربي، والذي أصبح عنصراً مركزياً من عناصر تحديد الهوية، فقد تمسك قطاع كبير من المجتمع الإسرائيلي بمبدأ أن هذا الصراع غير قابل للحل، وأن العداء العربي لن يتوقف، وقد بدأ الناس في إسرائيل ينظرون إلى الدولة باعتبارها الوريثة لليهودي المكروه والمضطهد، ورفعت شعار (عيسى يكره يعقوب)[1].

ومقابل ذلك فقد انكشفت بعد حرب 1967، تخبطاً من اليهودية العلمانية بعنصريتها حركة العمل الإسرائيلية، ثم الصهيونية الليبرالية، وبذلك فقدت حركة العمل القوة على الحسم والمبادرة وثقتها بنفسها، وبدلاً من أن تصبح عنصراً حاسماً قادراً على إعادة التشكيل، أصبحت عنصراً ينساق وراء التطورات والأحداث، إلى أن حدث الانقلاب السياسي الأول عام 1977، الذي نقل دفة السيطرة إلى اليمين الصهيوني، ثم الانقلاب الثاني عام 1996، الذي أعاد 1996 إليه تلك الدفة.

لقد حاولت حركة العمل الوصول إلى سلام مع العرب مظهره قدراً من الانفتاح ورفع شعارات القيم العالمية، ولكن نبوءة أرض إسرائيل تغلغلت إلى داخل قطاعات كبيرة من الصهيونية العلمانية في حركة العمل، وفي الصهيونية الليبرالية.

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 223.

وبعد حرب 1973، ازدادت قوة التوجه القومي ذي الملامح المتطرفة الكازانوفية التي ترفض الآخر وترفض حقوقه والحوار معه، وكثيرة هي ملامح هذه الكازانوفية الصهيونية الجديدة، من ذلك على سبيل المثال إبراز عنصرا الاختلاف بين إسرائيل والعالم، والحاجة المتزايدة للكراهية ومعاداة السامية باعتبارها رئيسية في الإيديولوجيا الصهيونية القائمة على مقولة العالم ضدنا، ومن ملامح هذه النزعة المتطرفة المزيد من الكراهية ضد العرب بعامة والفلسطيني بخاصة، حيث أبدت استعدادها من خلال الغير، على (أرض إسرائيل الكاملة) لاتخاذ جميع التدابير الممكنة (الطرد –الترحيل) لحل المشكلة الفلسطينية، ولم تعد المناطق المحتلة مرد وسيلة من أجل الدفاع عن الدولة، وفق النظريات الأمنية، بل أصبحت وفق هذه الإيديولوجية، هدفاً مقدساً وتحولت صيغة الوعد الإلهي إلى برنامج سياسي ملزم.

هكذا ازدادت قوة التوجه المسيحاني في كل من اليهودية والصهيونية وهو الأمر الذي تجلى في ظهور وازدياد النفوذ المتواصل لحركة مثل (غوش إمونيم) التي تفجرت مع اندلاع حرب 1967، وما تبعها من سيطرة المشاعر الدينية والصهيونية داخل دوائر كانت تعتبر من العلمانيين حتى ذلك الوقت.

لقد اعتبرت هذه الحركة انتصار 1967، علامة على الخلاص الآخذ في الاقتراب، والتطلع إلى وراء حائط المبكى حيث خلاص شعب إسرائيل، وهو الشعب الذي اختاره الرّب ليكون شعباً مختاراً وشعباً يقيم بمفرده، وهكذا وضع رجال (غوش إيمونيم) أنفسهم، وفقاً للنظرة الخاصة بهم، في بؤرة التاريخ اليهودي.

ونظراً لأن اليهودية هي المغزى الرئيسي للعالم، ومجيء المسيح الخالص هو مفتاح التاريخ العالمي، فإنهم مسؤولون عن تنفيذ المسيرة الرئيسية للتاريخ العالمي.

ومن السمات الإيديولوجية (لغوش إيمونيم) المقت والكراهية لكل من ليس يهودياً، وليس لديهم في هذا الأمر فرق جوهري في النظر إلى سائر الأغيار، وهدف (لغوش إيمونيم) إقامة إمبراطورية يهودية خاضعة لسلطان الشريعة يستعبد فيها الأغيار على أيدي اليهود.

ولقد أصبحت هذه الحركة المعبر الأصيل عن الصهيونية بعد أن فقدت الأخيرة دواعي وجودها وتحولت إلى مارد أعمى لعنفوان القوة، وهكذا تحدثت (لغوش إيمونيم) عن الوهم الكامن في فكرة السلام إسرائيلي العربي، ومن الكراهية كذريعة للحرب والتوسع وفي نظرنا إن سطع الكلام تتحرك لتملأ قضاء الدولة العدو، وإن هذا النظام سيزداد حكمه يوماً بعد يوم، ودليلنا على ذلك الحوار الذي جرى بين "بن جوريون" والحاخام "أفراهام يشعب" الزعيم الروحي لأحورات إسرائيل، فهذا الحوار يكشف عن إرهاصات الصدام المبكر في دولة إسرائيل بين الدينيين والعلمانيين.

سأل "بن جوريون" الحاخام: ((كيف يعيش اليهود المتدينون وغير المتدينين معاً في هذه البلاد)).

إن علينا أن نتوصل إلى كل ما هو مشترك بين أجزاء الشعب، لأن هناك خطراً عظيماً ينذر بحدوث انفجار من الداخل[1]، أجابه الحاخام قائلاً: ((لقد جاء في الشريعة ما يلي: عندما يتقابل جملان وجهاً لوجه في طريق ضيق لا يتسع إلا لجمل واحد، فإن الأولية للجمل الذي يحمل أثقالاً، وعلى الجمل الآخر الذي لا يحمل أثقالاً أن يخلي له الطريق، ونحن المتدينين نحمل ثقلاً كبيراً في تعليم التوراة

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص226.

وفي الحفاظ على الواجبات الدينية، والحفاظ على يوم السبت، وعلى الطعام الذي ينفق والشريعة، وكذلك وجب على الآخرين أن يفسحوا لنا الطريق[1].

ورد عليه "بن جوريون" قائلاً: وهل اليهود غير المتدينين لا يحملون أثقالاً ...أليس استيطان البلاد ثقلاً كبيراً ...إن اليهود غير المتدينين نهائياً يحملون في استيطان البلاد، وفي الدفاع عنكم))[2].

لقد عرضنا سابقاً للرأي القائل: بان هنالك حرباً ثقافية في إسرائيل، وأن هذه الدولة انقسمت عمودياً إلى شعبين، وهذا هو عين الرؤية التي أفصح عنها الحوار بين الحاخام و"بن جوريون"، والذي يبدو أن الجمل الذي يحمل التوراة استطاع أن يزحزح عن طريق الجمل الآخر، وهذا ما أكدته تداعيات الأحداث في إسرائيل، لا سيما وصول "بيجن" إلى السلطة وتتوج ذلك بانتخابات 1996، وهذا يعني أن الخط التاريخي الصاعد للمجتمع الإسرائيلي آخذ في التوجه نحو الفتنة بالمعنى الذي حدده الرسول محمدﷺ للمقت بأنه هبوط الإنسان عمودياً وترديه في مستنقع الضلال.

وليس عجباً أن يصور المفكر الصهيوني: "حرشوم شالوم" هذا المقت أصدق تصوير القول المذكور: إنني اعتقد أن كارثة عظمى ستحدث إذا ما قام الصهيونيون أو الحركة الصهيونية باستبدال أو طمس معالم الحدود بين المسار الديني المسيحاني، وبين الواقع السياسي- التاريخي.

أجل لقد اتضح لنا حزب العمل بسبب قصور الرؤية لديه حول الديمقراطية والعلمانية.

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص226.

[2] - المرجع السابق، ص226.

وأخيراً حول الفضيحة الفلسطينية، الأمر الذي حدا اليهودي العادي بالرجوع إلى ذاته الداكنة يستنفزها ويستنفرها، بما استقر فيها من كراهية وحقد خلال التاريخ المظلم لليهود[1].

ولقد اتضح لنا أيضاً غروب الصبار والكنعانية كاتجاهات تستوحي الأرض، وتميل لخلق علاقات مع العرب، ويبدو أن سبب كل ذلك تلك الثقافة الداكنة التي يتحلى بها الشخص اليهودي العادي القاعدي والذي تربى وتنشأ على هذا الأساس، لا سيما بالنسبة لليهود والشرقيين.

ولا أدلّ على أهمية هذا العنصر الشرقي في إعادة ترتيب وتكوين الهوية اليهودية، أن عدد المهاجرين الذين نزحوا من الاتحاد السوفيتي للمدة من 1988- 1996 بلغ حوالي ثمانمائة ألف نسمة، فهذه الجرعة من التعصب لعبت دوراً كبيراً في ترجيح الكفة لصالح الليكود في انتخابات عام 1996[2].

ولعل النمو الديموغرافي لإسرائيل هو العنصر الحاسم في تفسير وجهة الحياة في إسرائيل لصالح التعصب والمقت، إذ أن عدد اليهود الشرقيين كان حوالي 15بالمائة عند قيام الدولة، إلا أنه بلغ 55بالمائة من السكان عام 1996.

وإذا كانت الصهيونية الدينية حتى حزيران 1967 تتسم بالاعتدال في السياسات الداخلية كالمطالبة بتطبيق تعاليم/الهالافاه/في قوانين وتشريعات إسرائيل، أو فيما يتصل بالسياسة الخارجية، وكانت مرتبطة دوماً سياسياً بالصهيونية السياسية

---

1 - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص226.

2 - المرجع السابق، ص 224.

في إطار من التحالف التاريخي، فإن هذا الوضع تغير بصورة راديكالية بعد أحداث/1967/العاصفة، مما أدى في نهاية الأمر إلى حدوث تغييرات هائلة في الصهيونية الدينية، ثم إلى تغيير مواقفها ولجوئها إلى الائتلاف مع أنصار فكر جابوتنسكي- بيجن الذي يمثل اليمين الصهيوني، ومن هنا فقد أخفت الصلة بين الصهيونية الدينية والدولة في التغيير، وأضفى هؤلاء المتزمتون وزناً لاهوتياً على دعاوى التصحيحيين فيما يتعلق بالأراضي العربية المحتلة[1].

ويرى "يهو شافاط هوكابي" أن اليهودية التقليدية في السنوات التالية لحرب/1967/أخفت تغير من موقعها داخل إسرائيل، فبدلاً من الاكتفاء بالتبعية أخذت تطالب بدور قيادي، وتصر على أن تتبع السياسات الداخلية والخارجية من التشريعات الدينية، ومن ثمّ أصبحت القومية اليهودية المناضلة عاملاً مهماً للوصول إلى الهدف النهائي لليهودية، وهو الخلاص، وأصبحت العلاقة بين الدين والسياسة أكثر تآلفاً، فالدين لخدمة السياسة القومية والسياسة القومية لتنفيذ الوصايا الدينية[2].

وهكذا أصبحت الأحزاب اليمينية المتطرفة، وخاصة لليكود هي أقرب القوى السياسية إلى القوة الدينية التي يجمعها مبدأ التوسع الإقليمي...فالأحزاب اليمينية تسيطر عليها مفاهيم "جابوتنسكي" والرغبة في التوسع والمعاصرة، والأحزاب الدينية تتغلغل في مفاهيمها فكرة الوعد المقدس وإسرائيل الكبرى، والقيادة العسكرية تسيطر عليها مفاهيم الرغبة في الغزو وتخفيف استمرارية الصورة التي خلفتها حرب 1967.

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص227.

[2] - المرجع السابق، ص227.

ولـذلك لم يكـن غريبـاً أن التقـت الأحـزاب الدينيـة مـع اليمـين الإسـرائيلي المتطرف الفاشيني وأن ترتبط بهما المؤسسة العسكرية في إسرائيل، وهـو مـا شـكل انقلاباً في النظام الإسـرائيلي منـذ عـام 1977 انتقـل مـن الصـورة الديمقراطيـة المعتادة إلى الصورة الفاشينية الواضحة وهذا التحالف يعود إلى الاتفاق في أهداف الحركة الذي يرتفع فيجب جميع العناصر ومستويات التعلعل النفسـي ليترابط حول مفاهيم الولاء للدولة العبرية[1].

ومعنـى هـذا أن ائتلافـاً حاكمـاً مكونـاً مـن اليمـين العنصـري الفاشـيني والأحـزاب الدينية الصهيونية، المدعومة من القوى الدينية غير الحزبية، مثل "غوش أيمونيم وكاخ" وغيرهما وعلى غرار ما حدث إثر انتخابات 1996، من شأنه أن يزيد من اتجاهـات التوسـع الصـهيوني والسـعي نحـو تحقيـق إسـرائيل الكـبرى عـن طريـق الحـروب وتنميـة النزعـة العدوانيـة المرتكـزة إلى أصـول دينيـة، تـدعمها المؤسسـة العسكرية التي حلت محل المسيح المخلص في الفكر الإسرائيلي باستعدادها لتغتني به النعرة التأليهية للإسـرائيلي الـذي لا يقهـر، ومحاولـة فـرض الإرادة الإسـرائيلية على الوطن العربي[2].

كل ذلـك أدّى «علـى الصـعيد التشـريعي» إلى ازديـاد التوجـه الحربـوي (التشـدد في فرض أحكام الشريعة اليهودية) منذ نهاية السبعينيات.

ففي السنوات الأولى بعد أحداث النازية وقيام الدولة كان يبدو، وكأن هنـاك دفعـاً لهذا التيار الحربوي، إلى هامش المجتمع اليهودي في إسـرائيل، وكذلك في الشتات

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 228.

[2] - المرجع السابق، ص 228.

اليهودي، لأن المخزن البشري له تلقى ضربة مؤلمة، وكان من الصعوبة بمكان بالنسبة لوجهة النظر الحربوية التعامل مع المغزى الديني والعقيدي لأحداث النازية.

وقد تثبت المعسكر الحربوي من انتصار عدوه اللدود-الحركة الصهيونية التي نجحت في إقامة دولة يهودية ذات سيادة، حيث كانوا يرون أن إقامة دولة علمانية في الأراضي المقدسة هو بمنزلة انتصار للكفر أو تصديق فاجع لفشل الدين[1].

ويرى بعضهم أنه في يوم 1995/11/4 (مقتل رابين) عاشت إسرائيل صدمة مماثلة لتلك التي أحدثتها حرب 1973، حيث تحطمت أسطورة الدولة الصهيونية، وتهاوت وحدة الشعب الإسرائيلي التي كانت ثمرة ما يسمونه الوعي اليهودي بشأن دروس الأحداث النازية، وثمرة للدروس التاريخية للحصار والعداء العربي، وعلى عكس ما جاء في الأساطير اليهودية التي تقول لا يجب لليهودي أن يؤذي يهودياً بدنياً أو يسفك دماً يهودياً.

وهكذا أصبح هناك انقسام حاد داخل إسرائيل وصفته الكاتبة الإسرائيلية "هو لامين" بأنه صراع بين المسيح والكنيست بين وجهة النظر التي تنادي بقدسيته، مصطلح اكتمال البلاد أو أرض إسرائيل الكبرى، وترى أن العصر هو عصر المسيح، ويرفع هذه القيمة على أنها قيمة أخرى، وبين النظرة التي ترى أن الجوهر الأساس هو قيام دولة يهودية ديمقراطية آمنة تقوم على سيادة القانون[2].

---

[1] - د. الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص 228.

[2] - المرجع السابق، ص 230.

ولا يخفى أنه بعد توقيع اتفاقيات أوسلو لم يكف الليكود عن الحديث عن أن هذه الاتفاقية خيانة للصهيونية، وبيع أرض إسرائيل وأنها بمنزلة انتحار قومي، الأمر الذي حدا رئيس حيبد (حبد) في فلوريدا بالولايات المتحدة للقول بأن رئيس الوزراء اسحق رابين هو بمنزلة عدو، ولذلك يحل عليه مبدأ (من يتقدم لقتلك اسبق واقتله) ويضيف الحاخام "كوريف": ((أنه لن يأسف إذا ما تم اغتيال رئيس الحكومة وأشار أن التاريخ لن يغفر له أو وزير خارجيته شمعون بيريز لأنهما أعادا شيئاً لا يخصهما، إنما يخصّ الشعب اليهودي))[1].

والجريمة التي ارتكبها "رابين" من وجهة نظر القائل، الذي اعترف بجريمة الاغتيال، هي أن رابين أراد أن يجعل من إسرائيل دولة طبيعية يمكنها العيش في سلام، وآمن مع جيرانها في القرن الحادي والعشرين، ويعتقد القائل "إيجال عامير"، أنّ الرب لم يقدر ذلك لإسرائيل، فالتخلص من جزء من إسرائيل الواردة في التوراة لا يهدر أمن إسرائيل فحسب، بل يهدد روح الأمة وعلمه وجودها، فالمصيبة لبست مصيبة أمن- وهو الخلاف بين حزب العمال والليكود- بل قضية لاهوتية[2].

وقد اتضح أن هناك علاقة وجدانية بين "عامير" والمتطرف الإسرائيلي "باروخ جولدشتاين" الذي أطلق النار على المصلين في الحرم الإبراهيمي، وقد كشف النقاب عن أن "عامير" قد استفتى بعض الحاخامات لمعرفة رأي الدين اليهودي في

---

[1] - الدار عقيبا: زعيم (حيبد) في فلوريدا: لن أكون آسفاً إذا قتل رابين، صحيفة هآرتس، 1995/10/15.

[2] - صحيفة هيرالد تريبيون الدولية 1995/11/17، في جريدة الجرائد العالمية، القاهرة 1995/11/28، ص4.

اغتيال رابين، فأفتى اثنان منهم باستحلال دم رابين، لكنه رفض أن يعطي أسماء رجلي الدين اللذين استند إليهما في تنفيذ عملية الاغتيال[1].

[1] – شريف الشوباشي: عرض وتقديم كتاب رابين اغتيال سياسي الدين والقومية والعنف في إسرائيل للكاتب الإسرائيلي امنون كابليوك، صحيفة الأهرام، 1996/8/21، ص7.

تقديرنا لمستقبل التطبيع مع إسرائيل

هذه هي صورة عن الجغرافيا – البشرية والاجتماعية، والتضاريس السياسية النفسية والعقلية للعدو الصهيوني، وهي تضاريس تؤكد أن قضاء هذا العدو وروحه وضميره الجمعي، مدجج مملوء منوع بالحقد والمقت والكراهية والعنصرية والعدوان، وأن الخط البياني لهذا الهوس يزداد يوماً بعد يوم.

والتطبيع بالنسبة للعدو هو كما قلنا التشريط أي إفراغ الإنسان العربي من محتواه وتصييره خواءً جسدياً وعقلياً ونفسياً، وهذا ما أكده "الدكتور عبد اللّه عبد الدائم" بقوله: ((إن إسرائيل الصهيونية لن يطيب لها المقام إلا إذا فتتت الثقافة العربية ومحت معالمها الأصلية تدريجياً أو أحلت محلها الثقافة القومية اليهودية التي تنادي بها الصهيونية والتي ولدت من خلالها، وآلية ذلك كسر الطوق الثقافي الذي يحول دون سيطرتها على المنطقة العربية ودون محو معالم الثقافة العربية الإسلامية التي كانت، وما تزال الحاجة المبتغاة وتعاملها بواسطة العربية))[1].

وإذا انتقلنا إلى الواقع، وتحدثنا عن الدول العربية التي أرادت أن تقوم بالتطبيع، إذا قمنا بذلك كانت مصر هي النموذج الذي يمكن الحديث عنه فيما يتعلق بنجاح التطبيع.

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: العالم ومستقبل الثقافة العربية، مجلة المستقبل العربي، عدد/222/لعام 1997، ص32.

وواقع الأمر أن مصر من أكثر بلاد العالم تلاقحاً وانفتاحاً على الثقافات الإنسانية يشهد تاريخها العريق، ومع ذلك لم ينجح التطبيع، علماً بأن إسرائيل أقامت معهداً أكاديمياً لهذه الغاية وفي هذا الصدد يمكننا أن نميز بين حقيقتين:

- ✓ نظام السلطة الذي قبل التطبيع والتزم به.
- ✓ نظام الأمة وقوامه الجماهير والمثقفين العضويين الذين رفضوه رفضاً قاطعاً باعتباره تفريطاً في الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني.

وفي الواقع إن ما يميز الثقافة العربية امتلاكها لحساسية مفرطة خاصة ضد ما هو غريب وعدائي وعنصري، ولكنها في الآن نفسه ثقافة متوهجة متفتحة شديدة التلاقح والتفاعل على صعيد ندي وحواري وتثاقفي مع الثقافات الأخرى، نجد مصداقاً في ذلك في تفتح ثقافتنا في القرون الوسطى على الثقافة اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، وكما نجد مصداق في ذلك في حوار هذه الثقافة في العصر الحديث مع الثقافة الغربية، منذ أول احتكاك معها (الطهطاوي وغيره).

لذلك فالعلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الصهيونية وتوأمها الثقافة الامبريالية لن تكون علاقة حوار بسبب العدائية والاحتواء والعنصرية والعتو والعلو الكبير للثقافة النقيض التي لن تواجه إلا برفض شديد من الثقافة العربية الإسلامية[1].

---

[1] – الحديث الذي أجرته صحيفة هاآريتس، تاريخ 1996/11/22، مع نتنياهو وتعريفه بالسلام مع العرب فإنه سلام يقوم على الردع والقوة، مجلة الدراسات الفلسطينية عدد 29، لعام 1997، ص83.

لهـذه الأسـباب، فتلـك العلاقـة هـي في حقيقتـها إحـلال displacement الثقافة العدو محل ثقافتنا، وقد نجحت إسـرائيل في طرح هـذا الجهاز المفاهيمي (التطبيع) كنجاحها المتعدد في حروبها المفاهيمية ضدنا.

وفي نظرنا إن الحروب الثقافية لا تقل أهمية عن الحـروب السياسـية والعسـكرية لأن القوة الحقيقية راهنياً للجامعات، وليس للمعسكرات باعتبار العلم مفتاح كل قدرة وفقاً للمعادلة الآتية: استشراق- معرفة/قدرة-تنفيذ.

وحقيقة الأمر أن الجهاز المفاهيمي ليس جذراً جوهرياً يسبح فوق التاريخ، بل هـو حقيقة إنسانية وليدة قوى الحياة والمجتمع.

واسـتناداً إلى مـا تقـدم فـالتطبيع normalization يتعـارض مـع معطيـات واقعنـا العربي، إذ ليس هنالك علاقة سابقة مع إسرائيل، حتى يمكن الحـديث عـن رجـوع الأمـور إلى مجراهـا الطبيعـي الأول، وعلـى المثقفين العـرب أن ينتبـهوا إلى خطـورة ذلك الجهاز المفاهيمي، وأن يتعاملوا في أدبياتهم الثقافية مـع جهـاز مفـاهيمي آخـر يتسق مـع مـوقفهم ومصـلحتهم، وهـذا الجهـاز هـو الإحـلال الـذي ترتكبـه إسـرائيل والذي يبتغي مع واقع الترحيل deportation لشعبنا في فلسطين، ولكن لماذا؟.

إن الغزو الثقافي الصهيوني هـو في حقيقتـه غـزو هيكلـي بنيـوي يتغلغـل أخطبوطيـاً إلى كامل نسيج حياتنا الفكرية والقيمية والمادية وغيرها، إنـه صـراع وجـود قبـل أن يكون صراع حدود، يكفينا أن نقدم مثلاً على ذلك ما يقوم به العدو الصهيوني من محـاولات طمـس واستئصـال لثقافـة شـعبنا في فلسـطين وتشـويه لمعالمـه الأثريـة، وتزويره للحقائق التاريخية في البرامج التعليمية.

وحسبنا أن نذكر أيضاً بما حدث لدى الشقيقة مصر على عهد السادات من تغيير المناهج التعليمية بما يتفق مع نصوص اتفاقيـة كامـب ديفيد حـول التطبيـع، هكذا

سنكتفي بموافقة من كتاب الجغرافيا المقرر للصف السادس الابتدائي، حيث حذفت من هذا الكتاب الفقرة التالية[1]:

تمكن اليهود الصهاينة بمساعدة الدول الاستعمارية من اغتصاب أرض فلسطين وتشريد معظم أهلها واستولوا على ممتلكاتهم، غير أن شعب فلسطين وسائر العرب يعملون على تحرير الأرض وإعادة الشعب الفلسطيني إلى وطنه.

والملاحظ أن حذف هذه الفقرة «وغيرها من الآيات القرآنية» ليس مجرد حذف الفقرة، وإنما حذف لحقيقة تاريخية ماضية ومستمرة، وهي العدوان الإسرائيلي الاستعماري الذي شرد الشعب العربي في فلسطين، وهو حذف لواجب نضالي مستقبلي هو العمل على تحرير الأرض، وإعادة شعبنا إلى وطنه، ومن ثم فالحذف المذكور تآمر ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

وهناك نوع آخر من الغزو الثقافي الذي تمارسه إسرائيل، ويتمثل في برامج الإذاعة والتلفزيون السياسية والاجتماعية والترفيهية، والتثقيفية، فضلاً عن الأفلام السينمائية والمسرحيات، بل والمظاهر الاستهلاكية اليومية.

لكن ما السبيل إلى مواجهة ذلك...وهل يتم عن طريق رفع برامج الإذاعة والتلفزيون والمقالات الصحفية.

لا أحد يقلل من جدوى ذلك وإن كان جوهر الموضوع يكمن في خلق ملأ ثقافي قوامه تحصين وترصين الجماهير الشعبية، وترسيخ مستواه الفكري، وذلك بآلية

---

[1] – محمود أمين العالم: الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ط2، 1988، القاهرة، دار الثقافة الجديد، ص125.

استراتيجية ثقافية تستشرف وتجيب عن كافة معطيات وتضاريس الحياة وهموم المواطن ومستقبله وشرفه البشري الإنساني[1].

إن الثقافة الصهيونية هي توأم الثقافة الامبريالية وحليفها الطبيعي الاستراتيجي في مختلف المفاهيم والعلاقات والممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع التأكيد بأن هذا الغزو لا ينفذ إلى أعماقنا عن طريق التسلل وإنما بوساطة آلية بنيوية هيكلية داخل حياتنا وبنانا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها (دود الخل منه وفيه).

فالثقافة الداخلية التي هي مستقبل الثقافة الخارجية وتمهد لها وتستبقها في واقع الحياة وتغرسها في مؤسساتنا ومكوناتنا، وهذا ما يتضح من خطاب السادات في الكنيست الإسرائيلي ودعوته الكاريكاتورية إلى لقاء الأديان الثلاث في بقعة مقدسة من سيناء، أما رموزها فهم: السادات وبيجن وكارتر، كما يتبين من كلام السادات وتوفيق الحكيم "على المتحصرين" ويقصد من ذلك الإسرائيليين، كما نجد ذلك في اقتراح الملك الحسن المدلل يجمع العبقرية اليهودية التكنولوجية مع الأموال العربية.

وبالطبع فليس هناك رد على هذه الأراجيف إلا ثقافة ترسخ القيم العقلانية والاستنارة والإبداع والخلق وروح النقد والاجتهاد والتجدد، ثقافة تحمل نبراس التحرر والعدل والتقدم الاجتماعي والقيم الإنسانية.

إن العدو الإسرائيلي سيعتمد إلى جانب جبروته العسكري إلى الجبروت الثقافي، وهذا ما أكده "شمعون بيريز" بقوله: ((إن الجبروت الحقيقي لم يعد قائماً

---

[1] – محمود أمين العالم: الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ص124.

والمعسكر أميل في الحرم الجامعي، وينبغي على السياسة أن تعيد طريق التحول في الاستراتيجية العسكرية الصرفة إلى التعاون السياسي والاقتصادي المعمق))[1].

لهذه الأسباب فـ "بيريز" يظهر خوفه من تزايد الحركة الأصولية الإسلامية، لذلك فهو يقرر أن باتت عقيمة، إذ لن يكون ثمة منتصر، هكذا يقترح للنظام الشرق أوسطي الجديد على الشكل الآتي: ((هدفنا النهائي هو خلق كتلة إقليمية من الأمم ذات سوق مشتركة وهيئات مختارة على غرار الجماعة الأوروبية، وإن الحاجة إلى هذا الإطار الإقليمي يقوم على عوامل أربعة: الاستقرار السياسي الاقتصادي الأمن القومي، إشاعة الديمقراطية)).

إذن فنحن أمام خواء مريع للهوية الثقافية، خواء يناقض الملاء الذي تفرضه الأمة العربية ككائن تاريخي جماعي له ماضيه ورسالته ومستقبله المرتجى.

والمضحك المبكي أن "شمعون بيريز" يمثل عند البعض الحلم الذهبي للقومية العربية، بتحويل هذه المنطقة إلى قوة عظمى بعد توحيدها على غرار المنطقة، يقول المذكور:

((استعادت أوروبا وضعها العالمي بعد قيام السوق المشتركة وذلك عندما بدأت القارة الأم بالعمل كقوة عظمى))، فهل هناك أشد مرارة على نفس كل قومي عربي من أن يعتبر "بيريز" التطبيع أمراً محققاً، وأن إسرائيل ستلعب دور القوة الأساسية تحويل الشرق الأوسط الجديد إلى قوة عظمى على غرار الجماعة

---

[1] – د. مسعود ظاهر: ثوابت الثقافة القومية العربية في المرحلة الراهنة، مجلة شؤون عربية، عدد/181/لعام 1995، ص176.

الأوروبية، وأن تكون إسرائيل من خلال عملية التطبيع موجهاً للسياسة الشرق أوسطية التي تطوي العرب طوعاً تحت لوائها.

كانت إسرائيل وستبقى بالنسبة إلى العرب جزءاً من النظام العالمي الذي يحتويهم، وستظل حربته الموجهة إليهم.

ويترتب على ذلك أن اعتراف العرب بها اعترافاً رسمياً، وتطبيع علاقاتهم معها سيفتح المجال أمامها لتحقيق أهدافها من الداخل، فهي ستحاول فرض هيمنتها على المنطقة العربية بكافة الوسائل والأساليب التي تتفق بالحركة الصهيونية استعمالها: الإغراءات خلق جماعات الضغط داخل الكيانات واللعب على التناقضات الداخلية العربية...إلخ[1].

وإن ممانعة إسرائيل في قيام دولة فلسطينية لا تفسير لها إلا أنها تريد قيام فاصل جغرافي وسياسي واستراتيجي يلهيها عن المضي قدماً وبسهولة في تحقيق حلمها على صورة هيمنة سياسية واقتصادية ومائية وثقافية (من النيل إلى الفرات).

إن وجود دولة فلسطين يعني بالضرورة الطبيعية، إنها ستكون المنافس الدائم لإسرائيل، كما أنه لن يسهل عليها تحقيق ما تطمح إليه من العمل المباشر داخل الجسم العربي، وهو الأمر الذي يفسر لنا مقاومتها العنيدة لإقامة دولة فلسطينية[2].

---

[1] – د. محمد عابد الجابري: آفاق المستقبل العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد/156/، لعام 1992، ص13.

[2] – المرجع السابق، ص12.

هذا القيد إن كان يقع عبئه على السياسي، فهو يقع من باب أولى على المثقف، لسبب بسيط هو أن السياسي يتعامل «حسب طبيعة عمله» مع ما هو واقع، في حين أن المثقف يعانق ما يجب أن يكون باعتباره سادن الضمير الجمعي وحارس قيم الأمة والذّب عن أساطير الأمة وأخلاقيتها ونظرتها إلى الوجود، وغير ذلك من محددات الثقافة وعناصرها.

وهكذا يتضح أن جغرافيا المثقف أوسع من جغرافيا السلطة[1]، إذ له الذاكرة والتاريخ والرموز، وهو لهذا السبب –وخلافاً للسياسي- غير قادر على التخلي عنها أو المساومة عليها، أو ترويض نفسه على ممارسة نسيان الهوية، وتزوير التاريخ تحت أي ظرف من الظروف[2].

إن الثقافة هي مستودع الهوية والذاكرة، أما السياسة فقد لا تكون أكثر من ممحاة، هذه الأندلس مثلاً: لقد خرجت الأندلس من الجغرافيا السياسية للعرب، ولكن هل خرجت من الأدب والثقافة والذاكرة.

إذن ثمة فارق عظيم بين جغرافيا السياسي وجغرافيا المثقف[3]، لقد قام حوار بين العرب واليهود في إطار التجربة التاريخية للعمران الحضاري العربي الإسلامي أو بالتحديد في إطار الحضارة الوارفة في الأندلس، وقد استمر هذا الحوار إلى ما قبل قيام الكيان الإسرائيلي، وما انقطع إلا بعد قيام هذا الكيان الذي أنجز جريمة العصر، الاقتلاع المزدوج للفلسطينيين من أرضهم ولليهود من أوطانهم وقومياتهم

---

[1] – ورقة عمل للدكتور عبد الإله بلقزيز، ص48.

[2] – المرجع السابق، ص48.

[3] – المرجع السابق، ص60.

وثقافاتهم، وعلى ذلك فالتطبيع الثقافي ليس حواراً أو تثاقفاً بمقدار اعتراف بنتائج، بل بشرعية القطيعة التي أحدثتها الصهيونية في الحوار الطبيعي الذي قام بين العرب واليهود.

ذلك أن هذا التطبيع ليس في نهاية المحصلة إلا انفتاح على كل ما هو غير إنساني، وذلك لأن اليهودي في فلسطين لا يتوضع في مكان طبيعي أي على أرضه ووطنه وبين شعبه، كما هو الحال في اليهود خارج فلسطين حتى يمكن له أن ينتج ثقافة إنسانية.

ولكن هذا اليهودي الذي هاجر إلى فلسطين لم يحمل معه إلا الأفكار الاستعمارية التي مزجها مع الفكر التلمودي ومع أسطورة الشعب المختار، وينتج عن كل هذا الخليط العجيب هذه الثقافة التي يسمونها صهيونية.

لهذه الأسباب فستبقى الحياة الثقافية بيننا وبين الصهيونية ميدان صراع طالما أن هذه الصهيونية مغتصبة لحقوقنا التاريخية، وطالما أنها تخلو من أي خطاب إنساني عالمي، ذلك أن الثقافة الإسرائيلية مجرد هامش غربي لا يقيم حواراً حقيقياً مع أحد انطلاقاً من قضية اضطهاد اليهود، والحال أننا محرومون من التعاطف مع هؤلاء، لأننا ضحاياهم، ولأنهم الجلادون[1].

ويمكن التأكيد بأن هنالك على صعيد أمتنا –رفضاً تاماً للفكر الصهيوني أجمع عليه أحد الليبراليين اعتدالاً مع القوميين والتيارات الدينية، ذلك أن هذا الفكر يقوم على إلغاء العرب ابتداءً من الفلسطينيين، واعتبارهم مجرد حواجز بشرية على ما قاله "د. كلوفيس مقصود" وإقامة مشروع صهيوني مفتوح يتجدد مرحلياً

[1] – مقال لمحمود الريحاوي، ص150.

حيث يقف آخر جندي إسرائيلي، فهل نتوقع تبعاً لذلك أن ننشر في مجتمعاتنا ثمار الفكر الصهيوني[1]، وعلى هذا الأساس فالمفهوم الصهيوني للتطبيع، إنما يضاهي الاستسلام والاختراق الثقافي، وإن كان لنا التأكيد بأنه ليس بوسع طرف أن يشن حرب استنزاف طويلة من هذا القبيل، والجبهة والحياة الثقافية لا تخضع لقرارات وإجراءات ولقاءات وحتى اتفاقيات[2].

هناك نواة للوعي العربي القومي عصية على الكسر، ولا يعرف إن كانت قوى التخلف والتبعية المحلية تضعها في الحسبان، وتفكر قبل أن تتواطأ مع المشروع الامبريالي الصهيوني، وتدخل معه في إمرة التطبيع، فالقومية العربية ظاهرة حضارية ممتدة الجذور في التاريخ تدركها الجماهير العربية بصورة غريزية، وتستشفيها من خلال منجزات حضارية أغنت كنز الحضارة الإنسانية وأضاءت ظلامات العصور الوسطى.

إننا مع الدكتور "علي عقلة عرسان" بأن مقاومة التطبيع ورفضه لا تقوم على معطيات عقلانية ومنطقية وواقعية فحسب، بل استناداً إلى معطيات الإرادة والإيمان والعواطف أيضاً، وهذا كلّه بشكل الوعي الذي تخلقه الثقافة، مما يجعلها محوراً أساسياً لمواجهة التطبيع[3].

ولقد أكد الدكتور "عرسان" بأن الثقافة هي الحصن الأخير الذي تلجا إليه الشعوب للدفاع عن نفسها وحضورها وهويتها بعد انهيار أساليب الدفاع الأخرى

---

[1] – مقال محمود الريحاوي السالف الذكر، ص149.

[2] – المرجع السابق، ص 148.

[3] – عرض لهذا الرأي وناقشه وعلق عليه د. محمد جمال طحان: مكتبة الثقافة والحصن الأول والأخير، مجلة الفكر العربي، عدد/8/، لعام 1995، ص6.

السبب بسيط هو أن الثقافة فعل استراتيجي يدافع عن مقومات الأمة، ويعجل على نهوضها، وبهذا الوصف فالصراع العربي الصهيوني صراع وجود وليس الصراع صراعاً على حدود، ويمكن تذويبه بالتدريج عبر الحوار والتسوية السلمية[1].

وعلى هذا الأساس «والكلام للدكتور عرسان» وبما أن الصراع مع الصهاينة مستمر، فالدعوة إلى ثقافة مواجهة التطبيع هي دعوة إلى تحقيق هدفنا في عروبة فلسطين، وهذا يعني رفض إسرائيل ورفض التطبيع لها.

ويتابع الدكتور عرسان «ونحن مع وجهة نظره السليمة» محدداً النتائج الآتية على التطبيع[2]:

1- ثمرة اعتراف السياسة بسقوط الحق العربي بفلسطين نتيجة لسقوط البعد القومي تحت شعار القطرية فلم يعد هناك التزام نحو قضية مشتركة أو عمل مشترك، وهذا إقرار سياسي بانهزام القومية والحرية والتقدم، حتى على صعيد الحكم[3].

2- تسليم العرب «سياسياً» بحق إسرائيل في الوجود تحت عنوان الشرق الأوسط، وهذا إقراراً بلا مشروعية للمقاومة، وإدراج ممارساتها تحت قائمة

---

[1] د. محمد جمال طحان: مكتبة الثقافة والحصن الأول والأخير، ص 6.

[2] - المرجع السابق، ص 7.

[3] - المرجع السابق، ص 7.

أفعال الإرهاب والعنف والعدوان وهذا يتضمن حكماً أخلاقياً تاريخياً ضمنياً على النضال العربي.

3- سقوط كل المبررات التي تفرض مقاطعة إسرائيل، وحيث تعتبر المقاومة إرهابياً، ويصبح فعل المعتدي شرعياً، وتتبدل معايير الخير والشر تبعاً لحكم القوة لا لقوة الحق.

4- تنتقل أهداف الحكم القطري الضيق ومعاييره إلى التعليم والأدب، مما يجعل القومية خيانة وطنية، ويترتب على ذلك أن تذوب بذور الاهتمام بالقومية والنضال العربي، وهذا يدعو إلى اللوذ بمراكز القوى الخارجية التي تحمي أقطار أو دويلات وأنظمة وشخصيات تبحث عمن يحميها لتخوض حرباً ضد الأقطار الأخرى...فالتطبيع «والكلام للدكتور عرسان» يريد أن يزيل الحواجز أمام إسرائيل، فيمكنها من التوسع الشامل بغزو العرب، وتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى، ثم إسرائيل التوراتية، والمدخل الاقتصادي هو المدخل الممكن، وهذا بدوره يؤدي إلى ما يلي[1]:

1- إلغاء كراهية العدو ومبرراتها، ويبدو الأمر وكأنه ينبغي لنا أن نشفق على إسرائيل لأننا تأخرنا في فهم مشروعية وجودها.

2- تحويل جهد العرب من العمل على التاريخ والتربية والقومية والحقوق إلى العمل إلى تشويه ذلك كله وهذا يحدث خللاً فكرياً وقيمياً في أذهان أجيالنا، ويؤدي إلى انعدام الثقة وانعدام المفاهيم فتنتج تربية مريضة وعلاقات مريضة،

[1] – د. محمد جمال طحان: مكتبة الثقافة والحصن الأول والأخير، ص 7.

وينشأ قبول بحالة العدوان، وهذا القبول يرسخ الإحساس بانعدام الكرامة ويشيع ازدواجية الوجه والقناع في حياة الناس وفي علاقاتهم.

خلق طفيلية مالية تنتشر قيمها بسرعة، وتصبح عنواناً لشرق أوسط جديد، طفيلية تقدم أنموذجاً فاسداً، يقيم الناس على أساس مريض، وهذا يشكل حزاماً أمنياً لإسرائيل، وأيضاً لإقامة منطقة منتجات سياسية، هي في حقيقتها أماكن للقمار والفساد والبغاء، تبتز فيها أموال العرب، وليس صعباً على إسرائيل ترويج أنموذج "شايلوك"، فستعيد المال ممن حصل عليه بدون تعب أو نصب.

إن التطبيع، فضلاً عن كونه تسويفاً لإسرائيل، وتسويقاً لها، عربياً «رسمياً وشعبياً» هو في النهاية نهب شامل للبنية الفردية والجمعية التي قامت عليها تربية العقود السابقة، ورفض لتلك التربية التي سعت إلى تكوين إنسان مؤمن بقدرته على استعادة حقوقه، والدعوة إلى ثقافة مواجهة ترفض التطبيع، وترفض الاعتراف بالصهاينة، وتعتمد على المثقفين بشكل شامل، وعلى الوعي للتوسع في خلق مناخ يحقق أهدافنا الاستراتيجية، ويؤكد على تركيز قيمنا في التقوى، وليس أمامنا إلا نقلة حضارية، تقنية وسلوكية وفكرية يخلق استعداد شامل لاستمرار الصراع حتى النصر[1].

وينطلق الأستاذ "معن بشور" من المشكاة نفسها التي انطلق منها الدكتور عرسان، إذ التطبيع في نظره، يرتب فيما يرتب من نتائج كارثية إلى التزام الفلسطينيين أن يعدلوا ميثاقهم الذي اجمعوا عليه لعشرات السنين، وناضلوا من أجل قوانينه على

---

[1] – د. محمد جمال طحان: مكتبة الثقافة والحصن الأول والأخير، ص 8.

امتداد قرن كامل، دون أن يكلف هذا التطبيع عناء مطالبة إسرائيل بإجراء التغييرات الضرورية في قوانينها ومواثيقها[1].

وفي كل هذا التطبيع يصبح من واجب الدول العربية إعادة النظر في مناهجها التربوية وإعادة كتابة التاريخ نفسه لأجيالها الجديدة، بل قد وصل الأمر بأحوال التطبيع إلى درجة المطالبة بحذف آيات من القرآن الكريم لأنها تسيئ إلى اليهود وإسرائيل، كما فعلت سلطات الاحتلال الإسرائيلي مع المناهج التربوية في الأراضي الفلسطينية إثر احتلالها عام/1967/فألغت كلمة جهاد في أي مكان وردت في الآيات القرآنية، ولعل عمل السلطات الإسرائيلية هو مما عملته النازية إثر دخولها فرنسا[2].

هكذا يلقي "الأستاذ بشور" أهمية الثقافة كآلية لمناهضة التطبيع، فيقول: ((الثروات تبدد وتزدهر، والمعادلات السياسية قد تتغير وتتبدل، وموازين القوى لا يمكن أن تبقى ثابتة في عالم متغير، أما ما يبقى من الأمم فهو ثقافاتها وحضاراتها، فإذا زالت الأمم نفسها، لأنها فقدت عنصر وحدتها وتماسكها الأقوى))[3].

وفي نظر الأستاذ بشور «وهو على حق» أن ما يميز مشروع التطبيع الثقافي عن غيره من مشاريع التطبيع الاقتصادي والسياسي والأمن والمائي أنه لا يحمل مشروع إحلال

---

[1] – الاستاذ معن بشور: مقالة بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، مجلة المستقبل العربي، عدد/209/، لعام 1990، ص5.

[2] – الأستاذ معن بشور: مقالة بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، ص5.

[3] – المقال السابق، ص5.

هيمنة ثقافية صهيونية على الحياة الثقافية العربية، كما هو الأمر في المشاريع الأخرى، بل هو يقوم على تدمير المقومات الذاتية للثقافة والحضارة العربية[1].

فالحركات الصهيونية تدرك استحالة تحقيق هيمنة ثقافية صهيونية على العرب لعراقة الهوية الثقافية والحضارية لأمتنا من جهة ولعدم وجود ثقافة صهيونية واحدة بالأساس، فالكيان الصهيوني هو تجميع الشتات اليهودي الآتي من كل أرجاء العالم، حيث تحمل كل جماعة يهودية معها ثقافة البلد الذي جاءت منه، إذاً «والكلام للأستاذ بشور» فالتطبيع الثقافي ليس مشروع هيمنة ثقافية، بل هو في الحقيقة مشروع تدمير وتفكيك ثقافي للمنطقة العربية، بكل ما تحمله الكلمة من معاني التناثر والفوضى والارتباك والضياع[2].

إذن فالمطلوب الإصرار العربي «في إطار بناء آفاق المستقبل» التمسك بالحق الفلسطيني في إنشاء دولة كاملة الاستقلال والسيادة، مع العمل على تحسين النفس والذات من الداخل قطرياً وقومياً.

وهذا يعني أن من حقنا بل واجبنا أن نربط بين التطبيع وبين إقامة دولة فلسطينية مستقلة، لا يعقل أن نتخلى عن (عدم الاعتراف الإسرائيلي) ونترك إسرائيل تمارس عدم الاعتراف بالحق الفلسطيني، ومن جهة أخرى فإذا ما تحقق الشرط العربي الكامل بقيام الدولة الفلسطينية، فعلى العرب بعامة والدولة الفلسطينية بخاصة العمل معاً داخل إسرائيل للجم طموحاتهم التوسعية ونزوعها الطغياني[3]، ميز ميثاق الأمم المتحدة بين حق الشعب وحق

---

[1] - الأستاذ معن بشور: مقالة بعنوان السلام والتطبيع الثقافي، ص6.

[2] - المرجع السابق، ص6.

[3] - المرجع السابق، ص 14.

الأمّة، فالحق الأول يتحدد بحق أبناء الأمة بأن يفصحوا عن إرادتهم الملزمة حول القضايا التي تواجههم دون أي قيد، وهذا هو مفهوم السيادة كفكرة أصيلة ومبتدأة وتبيع من ذاتها.

ولكن نسبية الحقائق الإنسانية تقول لنا إنه لا توجد مطلقات على صعيد الحياة البشرية لذلك كان هنالك قيود على حق الشعب وهذه القيود تبدو بأن على الشعب وهذه القيود تبدو بأن على الشعب ألا يتصرف تفريطاً في الحقوق التاريخية للأمة، لأنه إذا كان له أن يتصرف بما يمس حاضره، فلا يستطيع التصرف تصرفاً تنعكس آثاره على المستقبل أي على الأجيال المقبلة[1].

وإذا استعرنا التعبير الذي استعمله الأستاذ "محمود الريحاوي" عنواناً لبحثه، أمكننا التأكيد أن التطبيع هو ثمرة تسوية تاريخية، وليس نتيجة لأزمة حل سياسي[2]، ذلك أن التسوية السياسية إن حققت شيئاً ما فإنما سلاماً، فكيف يمكن الزعم بأنها ستؤدي حتماً إلى تطبيع لا بد أن يكون ثمرة سلام ناجز ترتضي به الأجيال، وتلمس آثاره ونتائجه[3].

وهكذا يمكن التأكيد بأن التطبيع لن يؤتي أكله «وخلافاً للنظرة السطحية للسلطة العربية» إلا إذا عالج الأسباب العميقة للصراع، وخلافاً لذلك لن تكون العلاقات

---

[1] - قريب من ذلك ورقة العمل التي قدمها د. عبد الإله بلقزيز إلى لجنة الحوار المنعقدة في المنتدى العربي، انظر مجلة المستقبل العربي، عدد/200/، لعام 1995، ص42.

[2] - مجلة النهج، خريف 1994، ص14.

[3] - المرجع السابق، ص 149.

العربية الإسرائيلية أفضل من علاقات اليونان وتركيا، والهند وباكستان على سبيل المثال.

يلقي الأستاذ "محمد سعيد فقيه" الضوء على الفرق بين الاستلاب الاقتصادي والاستلاب الثقافي على صعيد علاقتنا مع إسرائيل، ويرتب على ذلك النتائج الآتية[1]:

1- إدخال الإنتاج الثقافي عنصراً من عناصر التبادل التجاري الحر وحيثما تخضع القيم الثقافية لمعايير السوق وآلياته تفقد مضامينها الإنسانية ووظيفتها التربوية فتنحط إلى ثقافة مزيفة للوعي تستثير الغرائز البهيمية.

2- فرض مقولات الفكر الصهيوني وادعاءاته العرقية على المجتمعات العربية، وهذا يرتب على المجتمعات شطب كل ما يتعارض معها في برامج الثقافة ومناهج التعليم، هذا فضلاً عن أن احتكار إسرائيل «بحكم تفوقها التكنولوجي» ميادين الأبحاث ومراكزه المتقدمة لها ذلك أن تستحوذ على المواقع المتقدمة في إدارة الإنتاج وتسويقه وتطويره لتكرس في الواقع الملموس تفوق العنصر اليهودي، وتخلف العنصر العربي.

3- ستحمل السلع والمنتجات أنماط للسلوك وعادات استهلاكية تقوض العادات التقليدية والأذواق الشعبية، وعلى ضوء تعاظم دور الدعاية والإعلان في بلورة الحاجات والمصالح المصطنعة من بعيد بما لا يتفق مع الإنتاج الوطني والحاجات

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، مجلة الطريق، عدد/4/لعام 991، ص46.

الفسيولوجية، فإن الخطر المدمر للنفسية الاجتماعية الذي تحمله السوق المشتركة سيكون فادحاً وطويل الأمد.

وبفضل التقوى التكنولوجي سيتاح للاقتصاد الإسرائيلي الفرصة لاستقطاب الرساميل والعقول واحتكار مراكز الأبحاث المتقدمة والخبرة الثقافية المتطورة، أما قوة العمل العربية فستترك لها مجالات العمل متدنية الكفاءة، وفي مثل هذه الوضعية سوف تقصر هذه القوة البشرية حياتها العملية في التزاحم على فرص العمل وإعادة ترتيب التدريب مرات ومرات على المهن الجديدة كي تجد لها المكان في سوق العمل الرخيص وبالنتيجة تتدهور ثقافياً وفكرياً تعويضاً عن الفراغ الروحي في شحنات التعصب والكراهية وفي المخدرات والجريمة التي تنهك النفسية الإنسانية، وتعميقها عن رؤية أفق التحرر الإنساني.

وفي المجتمعات العربية ستظل محدودة فرص التنمية الثقافية «تنمية الإنسان روحياً وثقافياً» بفعل طبيعة التفاعل بين التنمية الثقافية والتنمية الاقتصادية، وبالنظر لاقتران التنمية الثقافية الحقة بنشر الفكر العلمي بين أوسع الجماهير الشعبية، من خلال الممارسة الإنتاجية، وبتأثير عدوى روح البحث والتحليل والتركيب المرتبطة مع حاجات التنمية المادية، فإن التنمية في ظروف التبعية الاقتصادية طبقاً لمنطق آليات السوق المشتركة، ولن تهيأ المناخات لإبراز المعالم الجميلة للعقل المبدع، وإذكاء وهج الاعتزاز القومي والتحرر بالانفتاح على أفق التقدم المميز بلا حدود.

حول بعض مقومات
المشروع الحضاري النهضوي العربي

يمكن القول إن أهم ما يخلق به الشيء «أي شيء» أو ما هو ضروري لخلقه، هو خلقه وعياً واستشرافاً، وهنا نسجل الثنائية الآتية: استشراف معرفة، قدرة.

فالوعي «الذي هو الاستشراف» هو النشاط الإنساني المعرفي الفذ الذي يحدد للأمة: الأهداف- الموقع، المبتدأ أو المنتهى، خطوط القدرة، الصديق والعدو، وفي النتيجة فهو البوصلة التي تحدد السمت والاتجاه، وبدون ذلك ليس إلا التعثر والتبعثر وعلى ذلك، فامتلاك أمتنا الوعي الاستراتيجي التاريخي العام والشامل هو من أولويات عوامل النهوض والانطلاق، قاصدين من هذا الوعي الاستراتيجي المطابق فكرة الأمة عن نفسها وعن موقعها من العالم والكيفية التي ترى فيها العالم الخارجي ورسالتها وقوتها وقوة الأمم الأخرى.

وهو ما يتحدد من قبل معتقداتها وارثها التاريخي الحضاري الكبير من أمجاد وإحباطات، وتقاليد التفكير والسلوك[1].

[1] – مجلة شؤون عربية، ص248، وانظر مجلة الوحدة، عدد 69 لعام 1990، ص4.

وإذا ما ألقينا نظرة سريعة إلى تاريخ أمتنا، تأكد لنا أنه لم يتحقق لهذه الأمة من إنجاز ضخم إلا وكان مقترناً بوعي تاريخي وطيد ومطابق وإنساني، والعكس هو الصحيح.

وهناك سمة أخرى لهذا الوعي المطابق، هو امتلاك أمتنا له منذ أقدم العصور، وإن كنا نؤكد أن بزوغ الإسلام على رُبى وطننا، لعب دوراً فعالاً في تحفيز هذا الوعي وتأصيله وتوظيفه وتوطيده وصوغ غاياته الإنسانية النبيلة، وهو الأمر الذي تؤكده المساجلة الذائعة الصيت التي جرت بين "المغيرة بن شعبه" سفير المسلمين، وبين "رستم" القائد الفارسي في القادسية، حيث حاول هذا القائد اجتذاب المغيرة بالمال، لكنه صعق وذهل عندما سمع مقولته المشهورة: ((لقد أصبحنا أصحاب دعوة ورسالة)) ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا أوسمنا عنوان هذا البحث بكلمة نهضة دون غيرها من الكلمات.

وحقيقة الأمر أن هذه الكلمة تقيد «سواء في اللغة العربية أم الفرنسية» استمرارية ذات حضارية يتحتم عليها المرور بمراحل الحياة والموت والانبعاث وإن اختلفت طريقة تحديد الذات وطرق انبعاثها، وبالتالي فالمجتمع الذي ينهض هو نفسه الذي ينبعث بعد موته.

وهذا المدلول للنهضة يختلف عن مدلول "التحرر الوطني" إذ أننا في الحال الأولى نفترض وجود عميق تاريخي للمجتمع الطامح للنهضة، خلافاً للحال الثانية وعلى

هذا الأساس يمكن القول إن الصين تنهض وإن فيتنام تنهض، لكننا لا نقول، مثلاً أن البرازيل تنهض[1].

وافترض وجود العمق التاريخي في حال النهضة يقتضي الإحاطة بهذا العمق ومعرفته معرفة كاملة، وهذا يتطلب قيام نظرية مؤسسة للعمق التاريخي تقرّ به على مختلف الجوانب الاجتماعية وإلا وقعنا في إحدى المبالغتين[2]:

1- التفسير العدمي الميتافيزيقي الكلي للذات التاريخية، باعتبارها فوق مستويات البنية الاجتماعية.

2- السقوط في مسلمة البنيوية Struetualisme التي ترى أن التاريخ محكوم بمبدأ القطعية المستمرة مع الماضي[3].

على هذا الأساس فإن أي مشروع انهاضي عربي، إنما يجب أن ينطلق من عمقنا التاريخي المؤسس قاصدين بالعمق المؤسس ذلك العمق الحافز لا العبء، الدافع لا القابض، وهذه هي نظرية الأصالة أو الهوية التي أجمع مفكرو أمتنا على التجذر حولها والذود عنها.

---

[1] – د. فؤاد نهرا: إشكالية النهضة العربية الجديدة، مجلة الطريق، العددان/2و 3/لعام 1997، ص5.

[2] – د. فؤاد نهرا: إشكالية النهضة العربية الجديدة، ص5.

[3] – المرجع السابق، ص5.

هذه الهوية هي ثقافة الأمة، وهي ثقافة لم تهبط من الملأ الأعلى نظرية الأستاذ "زكي الأرسوزي" ولم تكن موقوفة على الإدارة الإلهية (نظرية بعض رجال الدين في تفسير نشوء اللغة).

لقد نشأت تلك الثقافة عبر جدلية تاريخية ومخاض مرير تم خلالهما تفاعل العربي مع تموجات الحياة وتضاريسها، ومع سنن الله في الاجتماع والتاريخ والكون والحياة.

ولعل أبرز خيوط القدرة في تلك الصيرورة، هو تفاعل الإنسان العربي مع الوضع الإلهي "النص الإسلامي" والنتيجة بالضرورة هي وضع بشري لأن النص الديني مجرد معطى، في حين أن الوضع البشري ذاته وبالطبع فهذا الوليد هو الثقافة العربي الإسلامية، نقول عربية لأنها نتاج آلية الذات العربية، ونقول إسلامية لأنها وليدة معطى النص، وبالطبع فهذا لا يجعلنا ننسى مصدراً آخر للثقافة العربية، هو مصدرها الإنساني الصرف، حيث تفاعل الإنسان العربي «كمجرد إنسان» مع تموجات الحياة والطبيعة والنفس (الخبرة العربية للحياة).

وفي نظرنا إن أي تجاهل لهذه الرؤية، ليس مؤداه إلا الوقوع في العدمية والخواء والاستلاب ثم الفوت والموت، وهو ما حدث بالنسبة للعديد من الإيديولوجيا التي طرحت في وطننا العربي، والتي كان مصيرها الموت الذؤام.

على هذا الأساس تكلم المفكرون عن الوعي المطابق الذي ينطلق من طبائع الأشياء، ومن النسب المركوزة فيها "ابن خلدون"، أي عن ذلك الوعي الذي يستمع إلى روح المجال وضميره ودقات قلبه ودفعات نسغه.

هكذا يؤكد زعيم الوضعية بأن السياسة إن هي إلا تقنية الواقع وفيزيائه، كما أن علم الاجتماع ليس إلا تقنية الظواهر الاجتماعية، وهو الأمر الذي أكده "بوتول": ((بأن سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد)).

وقول فريق ثالث بأن السياسة إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي المجتمع وواقعه وظواهره.

ومن هذه المشكاة انطلق مفكرنا العربي "عبد الله العروي" مدللاً بأن مبادئ الحياة الضمنية هي أساس الدستور الشكلي[1].

وقول "موريس دوبريه": ((إذا أردت أن تلتمس السياسة فالتمسها في الإيديولوجيا، وإذا أردت أن تلتمس الإيديولوجيا فالتمسها في الدين، وإذا أردت أن تلتمس الدين فالتمسه في الفيزياء الاجتماعية)).

لقد ذهب أحد المفكرين الإيطاليين إلى قوله: ((دعني أدون أغاني الأمة، ولا يهمني ما تفعله السياسة)).

والخلاصة إننا ننطلق في أية صياغة لوعينا العربي من واقع هذه الأمة وتاريخها وفولوكلورها وتقاليدها الشعبية وموروثها الفكري ومخزونها الروحي ونظرتها إلى الحياة، وأقاصيصها الشعبية وملاحمها التاريخية وأساطيرها وأريجها الروحي، ومحوريتها الأخلاقية، وقيمها الروحية النابعة من الأديان ومن زفيرها ودموعها، فجماع هذه الأمور متواشجة متواصلة تشكل الحضارة العربية الإسلامية، والوعي

---

[1] – مع التنويه بأن مشروع العروي يقوم على التحديث الكامل ولقد أدى ذلك إلى تبعيتنا ثقافياً للغرب، انظر تقريبنا د. عبد الله عبد الدائم لكتاب أمين محمود العالم، مجلة المستقبل العربي، عدد 27، لعام 1998، ص146.

المطابق، هو الإحاطة في صياغة متوازنة بكافة هذه العناصر من خلال منظومة ونسق متواشج ومترابط وجدلي.

ولعلنا استطراداً نذكر القارئ بنشوء علم جديد هو علم State logy ومهمة هذا العلم تحديداً أهداف الدولة وغاياتها.

ويمكن القول إن أهم تلك الأهداف هو الخير المشترك الذي يحدد السلوك العام للدولة، ويقيم مشروعيتها العليا، وهذه المشروعية هي التعبير –في نهاية المطاف عن حضارة الأمة.

وفي ذلك يقول "ريمون بولان": ((الدولة حضارة بأكملها استجمعت قواها، ثم أفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات))[1].

واستناداً إلى كل ما تقدم، إذا كان هدف المشروع النهضوي الإحياء والتنوير والتثوير والتهميش الاجتماعي، وصولاً إلى الهدف الأسمى، ألا وهو دولة الوحدة، إذا كان الأمر هكذا، فالانطلاق يجب أن يصدر عن حمولة الثقافة الحضارية ألا وهي الثقافة العربي الإسلامية.

على هذا الأساس يجب التمييز بين نظام الأمة society system وبين الدولة use system of state فالنظام الأول ينطلق من الحقائق الحضارية التاريخية الاجتماعية للأمة، أما الثاني فيقوم على الرهانات السياسية.

حقيقة الأمر أن المفروض بالسلطة أن تكون إطاراً للجماعة ومركزاً بؤرياً متوتراً لإنضاج قراراتها بالتعبير عن دقات قلبها، وترمومتر يقيس حركة ضميرها، إذا كان الأمر كذلك فهذا الأمر لازم غير كافٍ إذ ليس من محتمات الضرورة والمنطقية أن

---

[1] – كتابه الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، دار طلاس، 1986، ص301.

يتطابق نظام السلطة مع نظام الأمة، يقول "ماكيفر": ((الدولة تعكس صفات الأمة في مؤسساتها ونشاطاتها، لكنها لا تجسدها، والأمة لا الدولة هي التي تملك الصفات الأساسية، والحياة العميقة الجذور التي يمتاز بها الشعب، وهي التي تبرر خصائص التوتر لدى كل شعب من هذه الشعوب التي لا نجدها عند شعب آخر، والدولة تدعى أن هذه الخصائص هي خصائصها، لكن أقصى ما يمكن أن تدعيه هو أنها تصون هذه الخصائص، لكنها لا تفعل ذلك دائماً لأنها كثيراً ما تكتبها وتشوهها، وتزيل جميع الحدود بينها وبين الجماعة.

ويتابع "ماكيفر" القول: لا يجوز مطلقاً أن يسمح للحكومة أن تفرض سيطرتها على حياة الجماعة الثقافية، كما لا يجوز أن تحتكر الحكومة المسيطرة على النظام الاقتصادي، بحيث يؤدي قيامها بوظائفها الاقتصادية إلى سيطرتها المسيطرة غير مباشرة على الحياة الثقافية))[1]، إذن هنالك نظامان، نظام الأمة أو الجماعة، ثمّ نظام الدولة، النظام الأول هو الذي يمكن أن يطلق مشروع حضاري تاريخي، لأنه محمول على تصورات الأمة ومنطقها ونظرتها إلى الحياة ودستورها الذوقي والجمالي وغير ذلك من الأمور.

هذا المشروع يرنو إلى تحقيق السلطة كجهاز عصبي يشخص المقومات الآنفة الذكر، ويعمل على انضباطها وحمايتها وتحقيقها، وهذه هي المشروعية العليا لكل سلطة.

---

[1] – روبرت م. ماكيفر: تكوين الدولة، ترجمة د. حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، 1966، 524.

إذاً فالمشروعية العليا لكل سلطة هي أن ترسم سقف المشروع الحضاري التاريخي للأمة، وتجسيده وتحقيقه ويبقى السؤال مطروحاً حول هذا المشروع، ما هي طبيعته، نطاقه، آلية عمله، مظاهره، وفي هذا الصدد نسجل النقاط الآتية:

1- المقصود من المشروع: لا حاجة للتأكيد بأن الجماعات السياسية كانت في الماضي حدثاً ذاتياً شخصياً، إذا كانت تذوب في إرادة الحاكم، وتتوقف على إرادته، لذلك فقد كانت هذه الجماعات عرضة للزوال والتقلب، ومن هنا نشأت الحاجة الملحة إلى إسناد السلطة إلى شخص دائم يقيها من هبات التغير والتبدل، هكذا نشأ الفصل بين صاحب السلطة الذي هو الشعب، وبين من يزاولها لصالح صاحبها، ونتيجة هذا الفصل نشأت الدولة كمشروع ينبع من الجماعة، ويعبر عن إرادتها، وما الحكام إلا أدوات أو أجهزة لخدمة الفكرة التي تضعها الجماعة[1].

يقول الفقيه "بوردو" في التعريف بالزعيم: ((إنني أنحني إليه إجلالاً لأنني أجد عبره مشروعاً يهمني كما يهمه، لكن يتجاوزه كما يتجاوزني))، وفي نظرنا إن الإسلام أدرك استشراقاً أهمية هذا المشروع، وهو الأمر الذي نجده في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ **آل عمران/144**.

وهذا يعني أن المشروع أخلد وأبقى من محمد ﷺ وأن موت هذا الرسول العظيم ﷺ لا يؤثر في شيء على استمراريته.

---

[1] – د. ثروت بدوي: النظام السياسي العربي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1967، ص28.

ومـن جهـة أخـرى فـالمفروض بكـل عضـو في المشـروع أن يحمـل خصائصـه ويعمـل لـه، وأن يكـون حاملـه التـاريخي والاجتمـاعي، وهـو لـذلك يمتلـك ذرة مـن السيادة، ويساهم على قدم المساواة مع غيره في تكوين الإرادة العامة، وهذا الأمر لا يتوقف على خصائص السيادة بل على ممارستها وتجسيدها وبلورتها، وفي ذلك يقول الرسول الكريم محمدﷺ: ﴿الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ﴾.

وعلى ضوء هذا الحديث، أجارت مسلمة شخصاً (الإجارة تشبه اللجوء السياسي)، فصدق الرسول ﷺ عملها قائلاً: ﴿قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ﴾.

هكذا أكد بعضهم أن العلاقة بين الحاكم والأمة هي من أهم الروافع الحضارية والآليات الدافعة، وقد شبه هؤلاء تلك العلاقة بالعلاقة بين الشرارة وبرحيل البارود.

أن يكون الحاكم مشروعاً خاصاً لذاته، هنا يذيب الجماعة في مصلحته، ويدمجها بشخصه ويستحوذ عليها بغزواته، أن يكون جهازاً في خدمة فكرة على حد تعبير الفقيه الدستوري "جورج بوردو"، في هذه الحال تكون أمام مشروع تاريخي حضاري يجسد الإرادة العامة للشعب، ثم يأتي الحاكم ليقوم بالتنفيذ، في حال المشروع الذاتي يقوم الحاكم بتفجير برميل البارود "الأمة" فتحترق الأمة، ويحترق هو نفسه، ويحترق كل شيء في الأمة وما وراءها وأمامها، في الحال الثانية تتجيش الأمة وتعبأ في قنوات منضبطة واضحة كالشمس وعندئذٍ يشتعل برميل البارود بأوليات الاشتعال الطبيعية وقوانينها فيضاء طريق الأمة وتضاء حياة الحاكم نفسه.

والخلاصة هنالك ميكانزمات وروافع متعددة للنهوض، وفي مطلع ذلك ضبط وتحديد العلاقة تحديداً دقيقاً بين الفكر والسلطة بين الفاعلية العقلانية النقدية الديمقراطية للمجتمع في مواجهة الدولة دفاعاً عنها وتعبيراً وتطويراً لها، وهذا ما يستلزم تكوين كتلة اجتماعية تاريخية قومية في مواجهة سلطة الدولة، أي إقامة سلطة الثقافة العقلانية النقدية في مواجهة ثقافة السلطة المفروضة[1].

هكذا يقودنا التداعي للحديث عن مشروع الحرية:

موت الأيديولوجيا: قلنا إن خلق أي شيء إنما يجب أن يبتدئ بخلقه وعياً، إذ الوعي هو البوصلة التي تحدد الموقع العام، المسار، المبتدأ، المنتهى، الغاية.

و"الوعي" ونحن هنا نسميه "بالإيديولوجيا" نشاط وجد منذ وجد الإنسان على هذه الحياة، بل إن مخالفة آدم لأوامر ربه إن هي إلا وعي ملتبس غير مطابق.

هكذا لا يمكننا الاعتقاد بمقولة فوكو ياما الشهيرة عن نهاية التاريخ وموت الإيديولوجيا، فالإيديولوجيا –كما يقول الدكتور "عبد الله عبد الدائم"- بناء مستمر، والتاريخ لا نهاية له، وتاريخ الأفكار والإيديولوجيا والطبيعة المثلى لحياة الإنسان هي دوماً أمامنا لا وراءنا نبنيها بناء ولا نكتشفها اكتشافاً[2].

وحقيقة الأمر لا يمكن الحديث عن موت الإيديولوجيا إلا عندما نتكلم عن موت التاريخ والحياة، وهو الأمر الذي ينطبق بصورة خاصة على أمتنا التي عليها أن تجترح أكثر من إنجاز من أجل بناء ذاتها وتحقيق وحدتها.

---

[1] – مقال الدكتور عبد الدائم عن كتاب الأستاذ محمود أمين العالم، مجلة المستقبل العربي، عدد 227، لعام 1998، ص147.

[2] – د. عبد الله عبد الدايم: مقاله الموسوم بعنوان: الفكر القومي العربي والفكر العالمي، مجلة شؤون عربية، عدد 81، لعام 1995، ص32- 34.

لقد كثر الحديث عن الدولة الوظيفية ألا وهي الدولة التي اكتمل بناها ونضجت مؤسساتها وترسخ تقسيم العمل فيها، وأصبح كل شيء واضح ومحدد، مثلها في ذلك الآلة الجيدة التي تحتاج إلا إلى حركة بسيطة من رئيس الدولة والتي يمكن أن تعمل بدونه، أما الدول التي لم يكتمل بناها وتتبلور مؤسساتها، فهنا تلعب الإدارة الإنسانية وقانون الصيرورة دوراً هاماً في تخلق وتكامل تلك الدولة، لذلك فمقولة موت الأيديولوجيا لا تصح على أمتنا، وإن كان من الضروري التركيز على أيديولوجيا الأمة، قاصدين من هذا الجهاز المفاهيمي تلك الإيديولوجيا الكبرى الأم التي تعنى بثوابت الأمة، دون تلك الإيديولوجيا الثانوية أو الفرعية التي تعبر عن وعي هذه الطبقة أو تلك أو وعي هذه النخبة أم تلك.

على هذا الأساس يمكن القول إن عملية المراجعة الشاملة والتقسيم الموضوعي تؤدي تدريجياً إلى انقطاع الإيديولوجي عن السياسي بوصفها مجموعة من العلاقات الموضوعية في إطار المجتمع، وبين الأمم والشعوب، وتوضح أن النزوع الإنساني تاريخياً للعلانية والمصارحة، يتضمن في جوهره محاولة القطيع مع الدوغمائية[1] لتأخذ العقلانية مداها في تعقيل الإنسان للكون والعالم، والمجتمع الذي يعيش فيه، وترشيده الفعل الإنساني وفق معايير العلم وتوجهات المعاصرة[2].

---

[1] - الجزمية أو الدوغمائية: هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشك.

[2] – جان ألكسان: دور الثقافة والمثقف في صياغة المشروع الحضاري العربي، مجلة شؤون عربية، عدد 77 لعام 1994، ص251.

إذاً يجب أن يكون لدينا مشروع حضاري تاريخي شامل يعبر عن ذاتيتنا الحضارية، ويمكننا من اجتراح فعل حضاري جبار بآلية وجود خطاب ثقافي إنساني عالمي.

زد على ذلك فإذا كان هذا المشروع – الوعي يشدنا برباط وحبل متين إلى استمرارية الأمة وثوابتها وأصولها، فهو يضعنا في الآن نفسه في قلب الكونية، وصميم العالم والعصر الذي نعيش فيه، ويجعلنا نعانقه، ونتعامل معه بصدق دون عزله أو استلاب أو هجنه وبعد عن الواقع، ومجافاة للموروث العالمي والشأن الإنساني الأشمل والشرط البشري الذي يعزز ويمجد كرامة الإنسان ويجهد من أجل تعليتها وسموها[1].

وحقيقة الأمر أن التغييرات السريعة التي طرأت بفعل ثورة المواصلات وثورة العلم والمعلوماتية والثورة التكنولوجية اكتسحت اليقينيات وزلزلت الثوابت لتحدث تغيرات جذرية على قيم الحياة وحقائقها حيث تم صياغة مفاهيم ومبادئ مثل مبدأ السيادة ومفهوم إقليم الدولة، ومبدأ سيادة القانون، وغير ذلك من المبادئ، هذه التعبيرات ارتقت إلى مستوى الطولوجي جعل المسكونة قرية صغيرة يحكمها فكر كوني.

وبذلك فإذا لم يصيح السمع إلى هذه التحولات فإننا سنتحول إلى مستحاثات، وتصبح ريفيين نعيش في كهف أفلاطون متعاملين مع إشعاعات الضوء الباهتة ومع الانعكاسات المزيفة[2].

---

[1] – جان ألكسان: دور الثقافة والمثقف في صياغة المشروع الحضاري العربي ص250- 251.

[2] – المرجع السابق، ص 251.

وبذلك فهذه الحقائق الكونية الجديدة، فرضت ذاتها على كافة الأطراف، وجعلت من المتعذر تجاهل الغير وعدم احترامه والتعامل بأخلاق الحوار، أو عدم الاتصال به مبدأ التواصل communication الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

وهكذا دلل المفكرون بولادة الإنسان العصري الأكثر تفتحاً وقبولاً للرأي واستماعاً لدقات قلب الغير وابتعاده عن كهوف الذات والتمترس بالسياجات الدوغمائية.

ومشروعنا النهضوي يجب أن يستهدف إدراجنا وانخراطنا في صميم العالم بحيث نحيط بكافة مبادراته ومعانقة للواقع كجمال للقيم والمعاني، ثم استشراف بالعقلانية منجزات وثورة المعلومات، الثورة العلمية، وهذا هو المشروع العقلاني والعلمي بتفرعاته المختلفة والمتنوعة والذي يمكن أن نبتنيه في الفكر المستنير المتجدد كما نبتنيه في الفكر الاشتراكي العلمي[1].

وفي هذا الصدد يرى بعضهم أن صياغة مشروع حضاري لا يمكن أن يؤتي ثماره اليانعة إلا على أساس التقنية بمعناها الآخر من حيث إنها اكتمال للميتافيزيقيا، ذلك أن الآلية بمعناها الحديث ليست مجرد تطبيق لعلوم الطبيعة..إننا لا نفهمها كذلك إلا في إطار رؤية ميتافيزيقية تفضل النظري عن العملي والمعرفة عن التطبيق، فالآلية الحديثة شكل من أشكال الممارسة، وهي حلول لممارسة جديدة،

---

[1] – انظر في تقريظ الدكتور عبد الدائم لكتاب الأستاذ محمود أمين العالم، مجلة المستقبل عدد 227، لعام 1998، ص146.

فليست ماهية الآلية تحويلاً للأداة إلى آلة بقدر ما هي قائمة في طبيعة الآلة ذاتها[1].

ذلك أننا أمة في طريق النمو وتحقيق الوحدة والخلاص من رواسب الماضي وتركته الثقيلة، وعلينا أن نجترح أكثر من ثورة، وأن نقبل التحدي من أكثر من جبهة، وسبيل ذلك ثورة ثقافية (أو بالأصح حالة ثورية عامة) عارمة تستهدف تغييراً اجتماعياً حضارياً شاملاً تنتفض به انطلاقاً من إرثنا الحضاري الكبير الخلاق، وبفعل تاريخي جبار يمكننا من امتلاك ناصية العصر والتحدث بلغته في نظرة تفاؤلية تقوم كاستجابة خلاقة ليس كرد فعل، وإنما على الأقل من خلال جدلية تجاوزية تتصل بالماضي، وتحقق استمرارية الأمة التاريخية دون النظرة الإقتلاعية الإنسلاخية التي لا تثق بالذات ولا تعتبرها منطلقاً لكل تقدم، وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن المنهج الذي يحمل خطاباً في التقدم والارتقاء.

في نظرنا إن هذا المنهج يجب أن يكون ديالكتيكياً تجاوزياً[2]، تراكمياً ارتقائياً "صيرورة تراكمية" تتأسس فيه كل مرحلة على المرحلة التي سبقتها، وتؤسس في الآن نفسه للمرحلة اللاحقة[3]، حيث «وبعيداً عن لغة الإيديولوجيا الدوغمائية

---

[1] – عبد السلام سعيد المالكي: الفكر الشمولي والفكر الكوني، مجلة الوحدة، العدد 6، لعام 991، ص7.

[2] – د. محمد عابد الجابري: مقاله الموسوم بعنوان آفاق المستقبل العربي، وهو ينتقد المفهوم القيمي للقومية وينادي بمفهوم عملي وواقعي، مجلة المستقبل العربي، عدد 156، لعام 1992، ص11.

[3] – يراجع في تفصيل ذلك د. وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، مجلة الطريق، العدد الأول، 1997، ص79، وما بعدها.

القبلية» التي لا تنفي كل مرحلة، المرحلة التي قبلها أو تنقضها عروة عروة على هذا الأساس يمكن التأكيد أن لدينا ثلاثة مشاريع أساسية للنهضة، وليس مشروعاً واحداً، وقد عبرنا عنها بأزمنة ثلاث وكان من المفروض أن تختصر هذه الأزمنة بزمن واحد لأن هذه الأزمنة الثلاثة إن هي إلا محطات لمرحلة تاريخية واحدة في حياتنا، لكن الملفت للنظر هو أن كل زمن كان ينفي الجانب الإيجابي الذي أنجزه الزمن السابق، حيث كان رفض السلبي الخاص بالزمن السابق يقترن برفض الإيجابي فيه.

هكذا لقد طال رفض المشروع القومي الاشتراكي للإقطاع والديمقراطية الرجعية، طال رفض الحريات السياسية والتعبير الفكري وحرية الرأي، كما أن رفض المشروع الإسلامي للثقافة الغربية والإنجاز الاشتراكي- القومي طال رفض العلم والمؤسسات والإنماء، والواقع التاريخي يقدم لنا حقيقة واقعية، هي أن الأزمنة الثلاثة جزء من مرحلة واحدة مستمرة وذات وجهين: وجه الاستبداد من جهة ووجه التحرر والنهوض من جهة ثانية، وبالتالي فإذا أردنا تلخيص الهداف السائدة في الأزمنة الثلاثة (المشاريع الثلاثة) أمكننا القول إنها: الحرية، العدالة، الثقافة الإنسانية.

وهذه الأهداف تصدر عن حاجة واحدة، ويجب أن تتكامل معها في إطار مشروع واحد يتجاوز الأزمنة الثلاثة إلى زمن يكون بداية لمرحلة جديدة، لا تتجزأ فيه الحرية بين بعديها الداخلي والخارجي (بين الديمقراطية السياسية في الداخل والاستقلال الناجز عن القوى الدولية الكبرى)، ولا تتجزأ فيه العدالة بين الحق في لقمة الحياة والعيش الكريم، وبين الحق بالتنفس والتنشق بالرأي والقول ولا تتجزأ فيه بين دين وعلم أو بين إسلام وإنسانية، أو بين شعائر محلية وأخلاق وقيم عالمية[1].

---

[1] – د. وجيه كوثراني: مشروعات النهوض العربي بين الأمس واليوم، ص1.

هنا نلتقط الأطراف الخيط المتين الذي نسجه الدكتور "كوثراني والأستاذ أمين محمود العالم" حول الفكر العالمي والفكر الإنساني، ثم الفكر الديني، وعدم التعارض بين هذه الأنماط الفكرية وهذا ما يقودنا بالتداعي إلى مسألة العلمانية التي يجب ألا نفهم أن موقفنا منها هو الموقف من (العدو- النموذج) الخصم التاريخي[1].

ذلك أن القضية التي يجب أن نعطيها الحل السليم هي: كيف للمسلمين أن يصبحوا جزءاً من العالم الحديث، دون أن يتنازلوا عن دينهم[2].

على هذا الأساس يمكن الالتقاء مع العلمانية في أكثر من موقع: قيمة العقل مركز الإنسان من العالم، فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، رفع المقدس عن الطبيعة، وعي الكثير من النصوص (باستثناء النص المقدس: القرآن والحديث الصحيح) الانطلاق من الإنسان كمفهوم موجعي للممارسة النظرية والعالمية والأخلاقية[3].

فعلى سبيل المثال يؤكد أن العقل في الإسلام يحكم مساحة شائعة في هذه الحياة لا سيما في حقل الحياة العلمية، قال الرسول ﷺ: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ﴾.

---

[1] – د. السيد ولد أباه: التنوير والتأصيل قراءة في أعمال حسن حنفي، مجلة المستقبل العربي، عدد 167، لعام 1993، ص122.

[2] – البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (1798- 1939)، ترجمه إلى العربية كريم عزقول، من دراسات دار النهار للنشر، 1977.

[3] – د. السيد ولد أباه: التنوير والتأصيل....، المرجع السابق، ص122.

والعقل في الإسلام لا يتقيد إلا بالماورائيات الدينية التي لا طائل من الحديث فيها، وما دون ذلك فهو الطريق القويم إلى معرفة كافة الحقائق، وهو خليفة الله، والحكمة في الإسلام هي الإصابة عن غير طريق النبوة فهي إذن توأم النبوة.

يقول "الشاطبي": ((الفقيه المجتهد فيه من النبوة، ولو لم يكن نبياً))، والخلاصة إن الأنسية الإسلامية «ولا نقول العلمانية» تجعل الإنسان يحتل دوره عالية في الوجود، حيث يتبوأ مع الله والملائكة موقعاً مركزياً، والنور الإلهي «وهو مظهر من مظاهر الأنسية» يزيد نور الإنسان نوراً على نوروبذلك فالأنسية الإسلامية «وهي أنسية مؤمنة وحسنة عقلاً وخلقاً» تلتقي مع العلمانية في الكثير من الأمور، إن كان لها سياقها الخاص وماهيتها المميزة.

وقريب من ذلك تدليل الأستاذ محمود أمين العالم باتجاه فكري ملتحم محدد تلتقي فيه الهوية الثقافية والقومية بالتراث العربي الإسلامي وبتراث الحداثة والتجديد معاً، وتلتقي فيه الأصولية بالعلمانية، ويلتقي هؤلاء جميعاً بالفكر الماركسي في أصالته لا فيما آل إليه[1].

على هذا الأساس يؤكد الأستاذ محمود أمين العالم أن الخلاف ليس بين العلمانية والإيمان، إذ يمكن أن يتعايشا ويتعاونا، وإنما الخلاف بين العلمانية والفهم الأصولي للدين، والفكر الديني المتعصب، فالعلمانية الحقيقية لا تعني رفض الدين أو القيم أو الأخلاق أو التراث أو البعد الثقافي والروحي للإنسان أو رفض الهوية الذاتية والقومية[2].

---

[1] – انظر مقال الدكتور عبد الدائم في تعليقه على كتاب الأستاذ محمود أمين العالم "الفكر العربي بين الخصوصية والكونية"، مجلة المستقبل العربي، عدد 227، لعام 1998، ص147.

[2] – مجلة المستقبل العربي، العدد 227، لعام 1997، المرجع السابق، ص148.

العلمانية ليست في الحقيقة إلا امتداداً للعقلانية في الرؤية والسلوك، وفي إطار تلمسات "الأستاذ العالم" للمشروع النهضوي يقدم تصوراته وأشواقه الروحية عن تلك القضية المائلة للدنيا والشاملة للناس والمحببة للنفس ألا وهي أمرية، وهذه التصورات هي[1]:

1- انعدام أي تصور نظري للحرية واعتبارها مجرد وسيلة إجرائية لغايات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

2- توجد لدى بعض المفكرين بعض محددات سلفية أو تراثية أو حيوية أو بنيوية أو سيكولوجية أو أبستمولوجية (معرفية)، تتداخل فيها الحرية كوسيلة بالحرية كغاية.

3- فهنالك فهم ميتافيزيقي متعالٍ لمفهوم الحرية يرتفع بها فوق الوسائل والغايات والملابسات الموضوعية العينية، مما يجعلها مغامرة معزولة في المجهول المطلق.

هكذا يؤكد الأستاذ "محمود أمين العالم" ضرورة وجود نظرية في الحرية ذات رؤية إنسانية شاملة، وتكون في الوقت نفسه استجابة للحاجات العينية المباشرة للإنسان العربي في إطار حقائق ودوافع عصرنا الراهن والدعوة إلى مثل هذه النظرية ليست دعوة إلى نظرية إيديولوجية مغلقة مطلقة نهائية، بل إلى رؤية نظرية تجمع بين الضرورات المجتمعية والقومية والإنسانية، وبين فردية الفرد الإنساني، وتجمع بين مراعاة المصالح المشتركة بين الأفراد، وبين مراعاة الفرد كقيمة في ذاته، وتجمع بين العام الخاص، وبين الحاجة الآنية والتفتح الإنساني الشامل، وتجمع بين مختلف القدرات الإبداعية على المستوى الفردي والمجتمعي والإنساني.

---

[1] -المرجع السابق، ص251.

ولذلك فالحرية لا تتحقق بسيادة حرية السوق ولا حرية الاستغلال والنهب والاحتلال واغتصاب حقوق الشعوب باسم دعاوي صهيونية أو هيمنة دولة، وكي تتحقق في الوقت نفسه نماذج سلفية ماضوية أو نماذج خلقية بيروقراطية للسلطة والتنمية، ولن تتحقق بسيادة فلسفة الفردية المطلقة، أو فلسفة الجماعية المطلقة، أو بفلسفة براغماتية عملية خالصة خالية من استهداف المصالح والحاجات الإنسانية المادية والمعنوية للإنسان الفرد والإنسان الجماعة وإشباعها[1].

4- وإشكالات النهضة في نظرنا تاريخية فهي وليدة نفق طويل مظلم ورثناه عن تراكمات العصور الوسطى، حيث وإن على قلوبنا ظلامات دامسة، لذلك فلا مجال للتخلص من هذا الموروث إلا بنهضة تنطلق من التراث يعقبها «كما حدث في أوروبا» فعل تاريخي تنويري يؤصل ويزكو ويمتد إلى كافة مقومات حياتنا الشكلية (العمران المادي للواقع- التنمية الاقتصادية) إضافة إلى العمران الحضاري الروحي والخلقي.

وحقيقة الأمر أن هاجس النهضة توطد وتوطن في نفوسنا منذ مشروع محمد علي باشا، لكن هذا الهاجس كان خلافياً.

لم تتوحد وتتضافر مسارب الحياة فيه، وتصب في دورة دموية واحدة، هذا ما قادنا إلى تفرق السبل، ومرد ذلك كله الثقافة التي توجه بوصلة حياتنا وتحدد لنا اتساق القيم وأنماط السلوك.

هكذا تعددت المناهج النهضوية، وكان هنالك المدخل الدولاني أو السلطوي، وقد اعتمدت هذا المنهج الدولة القومية الاشتراكية العدالوية، وهذا يغلب عليه الطابع

---

[1] - مجلة المستقبل العربي، عدد 227، لعام 1998، ص 151.

الاقتصادي وليس الاقتصادي الذي يعطي الأهمية للاقتصاد كقوة في التقدم، بل وفي بناء النظام الفوقي[1].

وهنالك المدخل العقائدي الضرامي النضالي، وهو المدخل الذي حملته القوى الدينية، والذي يرد إشكالاتنا إلى انخفاض التوتر الديني في النفوس، وهذا المذهب انتقائي تجزيئي ينسلب تجاه معطيات العصر وإنجازاته، وقد يقوده التطرف إلى الدوغمائية والانكفاء وفراضية العداء لكل ما هو غير إسلامي.

و**الخلاصة** يجب الأخذ بمنهج تكاملي مركب للإنهاض العربي يحيط بكافة مبادرات الإنسان العربي المادية والروحية، وتحدياته الأساسية الشاملة، وهذا ما سبق تسميته بالمنهج الذي ينجز العمران الشيئي إلى جانب العمران النفسي والروحي والأخلاقي والقيمي.

هذه النظرة المتسعة والمتكاملة تتعدد فيها المناهج وتعتمد الأوليات والنواهض والديناميات الآتية[2]: التواصل، التراكم، التكامل، فالتواصل هو التربة الذي يتحقق فيها الحوار، وتنمو فيها سعة الأفق ويتعمق من خلالها النضج.

أما التراكم فهو التقدم الشامخ، حيث يرتفع فيه البناء لبنة لبنة وتتداخل فيه التجارب تجربة تجربة، والتكامل هو تلاقي الجهود والأدوار والأفكار في لحظة أو مرحلة معينة[1].

---

[1] – انظر معن بشور: النهوض العربي من أين يبدأ، مجلة المستقبل العربي، عدد 222، لعام 1997، ص115، وما بعدها.

[2] – معن بشور: النهوض العربي من أين يبدأ، ص117.

ويستطرد هذا الطريق متحدثاً عم المشروع السياسي النهضوي لأمتنا، محدداً أولياته فيما يلي[2]:

وضوح الرؤية- البرامج- المؤسسات- التيار- الرموز- الحركة- الضمانات.

- فالرؤية الواضحة هي التي تحدد للنهوض ملامحه الكبرى وتمنحه الآفاق وتحرك فيه الكوامن.
- والبرنامج هو الذي يبلور الرؤى الاستراتيجية، ويحددها في أولويات وتفاصيل في مختلف الحياة العربية.
- والمؤسسات تعني إقامة مجتمع مدني، يضم في جوانبه مبادرة كل فرد، وبذلك يتاح لها أن تعمل بانتظام وإطراد، بحيث يسود روح المجال وروح المؤسسة وضميرها وإرادتها دون تدخل أو قسر.

أما ثلاثية (البناء – الرموز- الحركة) فيقصد منها أن تصل أنوار النهوض إلى عمق الناس العاديين بحيث تهزهم في أعماقهم وآلية ذلك ما يلي:

الضمانة المبدئية: بإعادة الاعتبار لسلطة المبدأ.

الضمانة الأخلاقية: بحيث تترسخ المحورية الأخلاقية ومظهر ذلك أن يسود الصدق مع النفس ومع الآخر، كما تسود الشجاعة والثقافية.

---

[1] - المرجع السابق، ص 118.

[2] - المرجع السابق، ص 118.

الضمانة الثالثة هي العمل الثقافي للظاهرة السياسية العربية: الذي أصبح محاصراً بدرجة عالية من السطحية والرقابة والاهتزاز، ولا يمكن الخروج منها إلا بنعجات ثقافية عميقة تفتح الأبواب لهواء التجديد والإبداع في الأفكار.

فالثقافة هي التي تثري المشروع الوطني والقومي، وتسمح له عبر القصيدة أو الأغنية أو الرواية أو اللوحة أو اللحن أن تصل إلى أعماق الناس.

والضمانة الرابعة هي ربط العمل السياسي العربي بالعلم: وذلك بأن يرتبط علم السياسة بكل العلوم الاجتماعية الأخرى من اقتصاد واجتماع وتاريخ وفلسفة وتربية.

الهوية والتراث

ما فتئ الإنسان منذ فتح عينيه على هذه الحياة بمنطلق وجوده يقض مكنوناته، يعانقه، يفهم أسراره، ويلتمس قوانينه وسننه ولن تفتأ مغامرة الروح الإنسانية صعوداً تتعرى منازل الارتقاء وعروجاً إلى مراتب التكامل والسمو ومعنيه هذه الحياة "إعطائها معنى".

ويمكن القول إن مجموع تلك المعاني التي ابتدعها الإنسان خلال مسيرته الطويلة تسمى «بالمفهوم الواسع» الثقافة، فالثقافة هي الوجه الإنساني من العالم الطبيعي، وما خلقه الإنسان وما يزال يخلقه في قلب العالم[1].

إنها أسلوب الحياة الذي ينطوي على معتقدات وعادات ومهارات، ويتضمن البواعث والأهداف التي تحث الفرد والجماعة على المشاركة في إنشاء النظم والمؤسسات المادية والروحية، كما تشمل المبادئ والقيم والمقاييس التي تقدر بموجبها تلك الأساليب والنظم[2].

هكذا تبدو أهمية الثقافة باعتبارها الجهاز العصبي والنواة النووية في حياة الإنسان، والميكانزمات والنواهض والروائع التي تدفع الحياة إلى الأمام، بل وأحياناً إلى الانكفاء، الأمر الذي حدا بعضهم لصياغة جهاز مفاهيمي هو "ثقافة الموت

---

[1] – صلاح قنصوة: المثقف المصري إزاء المشكلة الزائفة للهوية، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، العدد 10و 11 لعام 1991، ص114.

[2] – المرجع السابق، ص115.

وثقافة الحياة" تبياناً وتأكيداً لهذا الدور ولقد ضرب مثلاً عن ثقافة الموت في ذلك الاعتقاد الذي كان سائداً لدى بعض القبائل الإفريقية بأن الآلهة تميت الفرد إذا أكل من أموال رئيسها، وكلنا يتذكر «كمثل عن ثقافة الحياة» خبر الصحابي الذي رمى في معركة أحد التمرات التي كانت في يده إيماناً منه بأنها تؤخره عن نيل ثواب الجنة.

وفي اللباب والقلب من كل ثقافة توجد نواة صلبة تتولى عملية التفاعلات الأساسية لهذه الثقافة كالتجدد والنكوص ومقاومة الغزو وغير ذلك، مثلها في ذلك مثل الدور الذي تلعبه القيادة في كل منظومة من منظومات الحياة، ونحن نسمي «من باب السهولة» هذه القيادة بالذات الثقافية أو الهوية، ومما لا ريب فيه أن نحدد هذه الهوية والوعي بها واعتمادها هذا الموقف هو بداية الطريق لكل انطلاقة حيّة، كما حدث للإسلام باتخاذه الجذر الإبراهيمي للتأسيس، وكما حدث بالنسبة للانطلاقة الأوروبية التي تأسست على الجذر اليوناني، وأخيراً كما هو الأمر بالنسبة لنهضة اليابان في عهد "الميجي" التي أحيت ديانة الشنتو وللثورة الصينية الحديثة بقيادة "ماوتسي تونغ" التي استنهضت التراث الكونفوشيوسي[1].

ولقد أدركت أمتنا في نهضتها الحديثة هذا الأصل في العمران الحضاري، وهو الأمر الذي توضحه بمئات محمد علي باشا إلى أوروبا، فقد كانت عيون المذكور، ومعه عيون الطهطاوي مركزة على التحديث المدني والدنيوي والتنمية، أما في المجالات الفكرية والفلسفية أو في تصورات الكون والثقافة والقيم والأخلاقيات فقد كان الوعي بضرورة الحفاظ على مميزات حضارتنا[2]، ولكن الرياح أخذت

---

[1] - الهوية والتراث، مجموعة مؤلفين، بيروت، دار الكلمة للنشر، عام 1984، ط1، ص128.

[2] - المرجع السابق، ص40.

تهب عكس المرتجى، ورأينا سفينة حياتنا تسير في عباب الأمواج المتلاطمة دون أن تتزود بالهوية، البوصلة إلى شاطئ الأمان، فتارة تتجه إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار، وثالثة إلى الوراء، وذلك في صيغ أبعد ما تكون عن فقه المواقع والاستبصار به، وأقرب ما تكون إلى الهجرة إلى الخارج "التغريب" أو الهجرة إلى الماضي.

هكذا تحولت حياتنا إلى رايات وبيارق يحملها المتحاربون لمجرد كونها هكذا دون أن بقوا معناها ومدى ملامستها للواقع ويحول الشعب في كثير من الأحيان إلى مجرد مصفق في هذا المجتلد الروماني، وفي أحيان أخرى يقف موقف التكذيب النفسي لذاته كدرع سيكولوجي خشية مطحنة هذا الصراع، هكذا فسر واقعنا من خلال الخارج، فتارة يفسر الحاضر من خلال الماضي، وأخرى يفسر الداخل من خلال الخارج "الغير" وفي النتيجة فهنالك غياب للزمان والمكان، واغتراب في التاريخ، واغتراب في الحياة دون أن يكون هنالك تأسيس على زمانيتنا وحياتنا ومصلحتنا أو اتصال بهما ولهما، بحيث تتأسس كل فكرة على ما قبلها، وتؤسس لما بعدها في نهج تتوضع فيه كل لبنة فوق الأخرى، وترتبط كل وشيجة وعروة بأختها في تجاوز جدلي غير دوراني استرجاعي ارتدادي أو انسلاخي.

وتأسيساً على ما تقدم، فإشكاليتنا في المقام الأول تكمن في تجديد النهج والشرعة والهوية وتوجه مسارب الحياة carriers ومساراتها في اتجاه معين ينطلق من حقائقنا ويتجه إلى أهداف حياتنا.

وفي نظر الأستاذ "صلاح قنصوة" أن تلك الإشكالية والارتباك ناشئين عن عدم استعادة الهوية عن طريق إعادة رسم حدودها وتسميم معالمها، وبذلك فمشروعاتنا تراوحت بين قطبين على متصل واحد أحدهما التحديث والآخر الخصوصية، وهذا المتصل هو ما يسمى في علم النفس الاجتماعي بتغيير

الاتجاهات attitudes إزاء محاولات الواقع المتعددة، فهذا التغيير قام على موقف غير موضوعي أحاط نفسه في سياج دوغمائي مغلق[1]، وهكذا فعمل كل مفكر يبدأ من نقطة بدئية، فيجيء مشروعه مغايراً لما سبقه بمعنى أنه لا يبدأ من تراثه القريب، ولا يدمج فعله في بنيانه، لكنه ينفيه ويحاول تهميشه، وفي النهاية نجد أنفسنا إزاء دورات سرعان ما تنغلق على نفسها، دون أن تشكل خطاً متطوراً متنامياً، أو تجاوزاً جدلياً يزيح فيه اللاحق ما يعارضه من السابق، ثم يدفع ما تبناه إلى أقصى الحدود، مطوراً مؤصلاً واصلاً قاطعاً في الآن نفسه من خلال إزاحة وتبن وإضافة وانقطاع، بل العكس فنحن مع خصام كامل ونفي وهدم للخبرة الإنسانية وسقوط في أحبولة الخلق من العدم[2].

من جماع ما تقدم تظهر الحاجة ملحة لتحديد الهوية وتجذرها وما يتفرع على ذلك من موقعنا تجاه التراث كآلية وناهض للإبداع والتجديد، تجديداً يستوعب روح الماضي وقيمه من أجل بناء الحاضر استشفافاً واستشرافاً للمستقبل وقيمنا على ناصية النهج العصري وتوجيهه باتجاه العقل التاريخي الخلاق.

ما هو منهجنا في طرح هذه الإشكالية وتفسيرها ثم اقتراح الحلول المناسبة لذلك؟

في الحقيقة لقد اعتمدنا في هذا المنهج الإطارين الآتيين:

---

[1] – مقاله الموسوم بعنوان المثقف المصري، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت 1991، العددان/10 و11/ص109.

[2] – محمد بدوي: ملاحظات جدل الفكر والإيديولوجيا، مجلة الاجتهاد، المرجع السابق، ص170 و176.

1- الإطار المفهومي conceptual scheme، حيث طرحنا مجموعة من الأجهزة المفاهيمية التي تتردد في أدبياتنا السياسية والفكرية، ثم اخترنا في النهاية عنواناً لهذا البحث وسمناه "بالهوية والتراث".

2- الإطار المرجعي frame reference، ونقصد بذلك المصدر الذي يستمد منه المفكر توجيهاته النظرية في الوصف والتفسير، الذي يشكل في نهاية الأمر المنحى approach الذي بمقتضاه يضع أو يطرح المفكر مشكلته.

وهذا الإطار المرجعي دفعنا لتقديم تحليلات متعددة تناولت الهوية في أوجه مختلفة: معيارية، تاريخية، سيكولوجية، بنيوية، تطورية.

وعلى ضوء ما تقدم، فقد قمنا بتقديم البحث إلى الأقسام الآتية:

القسم الأول: وقد التمسنا الأسباب التي دعت إلى وسم البحث بهذا العنوان "الهوية والتراث" دون أي جهاز مفاهيمي آخر.

القسم الثاني: وقد أطلقنا عليه عنوان مقاربات وتصورات الهوية، أي مداخلها الفكرية والآليات الذهنية التي اعتمدت في تحليلها وحرثها وتفكيكها.

القسم الثالث: وقد تعرضنا فيه لبعض الآراء التي التمست معياراً لهويتنا ومقوماتها.

القسم الرابع: وقد أعطينا رأينا الخاص في هويتنا إضافة إلى الحامل الاجتماعي والثقافي الذي يضطلع بذلك.

لماذا الهوية والتراث

تتردد في أدبياتنا الراهنة أجهزة مفاهيمية متعددة: الهوية- التراث- الذاتية- التغريب- الخصوصية- الأصالة- التحديث- الحداثة- السلفية- التجدد الحضاري- المتصل القومي- التداخل الحضاري- النموذج العالمي- الانكماش- الانغماس- الاستجابة الخلاقة- وغير ذلك من الأجهزة.

ويمكن القول إن مثنوية الهوية/التراث- الأصالة/المعاصرة[1]، تحتلان الموقع الأساس في قاع تفكيرنا وضميرنا الراهن، لسبب بسيط هو أنهما يعانقان إشكاليتنا الكبرى: الثقافة الفكرية الاجتماعية السياسية، فهما سبب تلك الإشكالية، وفي الآن نفسه نتيجة لها.

والواضح أن الذين يتمسكون بمزدوجة الأصالة/المعاصرة يتسع ضميرهم لهموم الأمة، وتتعقد عزيمتهم حول حلّها على التماس النهج العصري والقبض على ناصيته وتوظيف إبداعاته، وتحطيم ذلك الجدار النفسي الذي يفصلنا عنه، سواء أكان ذلك بدافع من عقدة النقص والدونية، أم كان بدافع من الشعور بالاستعلاء، والرغبة في نفي الغرب ورفضه، وبالتالي فمن هذه الموقعية النفسية يتم طرح الأصالة/المعاصرة أو الاحتماء بكهوف الهوية فيما نسميه السلفية.

ومن هذا المنطلق نفسه ينتقد الأستاذ السيد ياسين طرح الموضوع على أساس مثنوية هوية/تراث، ويفضل اعتماد مثنوية أصالة/معاصرة، على أساس أن البحث في

---

[1] - فهمت الخصوصية بأنها تعني الحركية والتطور، أو أنها مفهوم لنوعية البنية الاجتماعية، في حين أن الأصالة تعني السكونية أو أنها خصوصية البنية الثقافية، انظر محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف، دار الثقافة الجديد، القاهرة، ط2، عام 1986، ص19.

الأصالة يقتضي بالضرورة الحديث عن الهوية، وبالتالي فالإشكالية الحقيقية المطروحة على الساحة هي إشكالية الأصالة والمعاصرة وفي نظر هذا الفريق الأخير، فالتقنية ليست ثقافية حضارية بقدر ما هي في المقام الأول سياسية[1].

وعلى النقيض من ذلك نرى من يعول على المفهوم الثقافي للذاتية القومية، وبذلك تصبح هذه الذاتية تقيد المدلول الثقافي أو الذاتية الثقافية، وليست الشخصية القومية، لأن كلمة الشخصية تنطبق على الإنسان، وليست على المجتمع الذي له ثقافة، وليس له شخصية، والدليل على ذلك أن الأجنبي قد يكتسب جنسية البلد دون أن يتحلى بثقافتها[2].

وفي نظرنا إن الأصالة والمعاصرة من متضمنات الهوية، والبحث فيهما لا يغني عن البحث في الهوية، وبالتالي فالحفر بآلية العقل والأنسنة والروح العلمية في طبقات الهوية يوصلنا إلى المعاصرة، خلافاً لما يقوله أدونيس بأن ماضينا عالم من الضياع الديني والسياسي والفكري، وهو مملكة من الوهم والغيب، وسبب كل ذلك ثقافتنا المحمولة في جوهرها على الدين[3].

وقريب من ذلك ما أكده الأستاذ "محمود أمين العالم" بأن الموقف من تراث الماضي هو دائماً موقف من الحاضر والمستقبل.

إنه في الحقيقة موقف واحد من التاريخ ولهذا فلا ثنائية بين الأصالة والعصرية، والقول بالثنائية بينهما هو حكم مقارن بين موقفين مختلفين، وليس تقييماً لأي موقف منهما فالذي يرفض العصرية باسم الأصالة لا يقيم ثنائية بينهما وإنما

---

[1] - مداخلته في الهوية والتراث، ص37.

[2] - مداخلة الدكتور السيد عويس: في الهوية والتراث، ص52.

[3] - مداخلة الدكتور عويس: الهوية والتراث، ص35.

يسعى لفرض الماضي على الحاضر، والذي يرفض الأصالة لاسم العصرية، لا يقيم ثنائية بينهما كذلك، وإنما يسعى لإفراغ الحاضر من بعده التاريخي[1].

وحقيقة الأمر أن الأمة كيان جمعي تاريخي مستمر عبر التخلق والتكون والتطور، لكنها تبقى محافظة على حقيقتها وجوهرها، وبالتالي فإن حديثنا «في مرحلة معينة من مراحل التاريخ» عن متضمنات تلك المرحلة يجب أن لا ينسينا القانون الآخر الذي يعبر«بآلية الهوية والذاتية» عن حقيقة الأمة، وتبقى المعاصرة مظهراً من مظاهر الأمة أو مرحلة من مراحل وجودها سلباً كان الأمر أم إيجاباً، ولهذا فإننا نفضل تسمية الهوية على المعاصرة تمكيناً وترسيخاً لمبدأ الأمة وحقيقتها وجوهرها دون أن تغلب الصفات على الذات والمرحلي على الدائم والعارض على الثابت لا سيما أن مصطلح معاصرة قد يأخذ طابعاً إيديولوجياً في حين أن تعبير الهوية يضمر مفهوماً ثقافياً حضارياً تاريخياً وحقيقة الأمر أن العيب في فكرنا «حتى القومي منه» إننا نرى في القومية العربية كياناً مجرداً يتجلى بين الحين والآخر في أرض الواقع والمرحلة، دون أن تكون الأمة سيرورة تاريخية، وهذا الغياب هو أحد مظاهر الفقر النظري وضعف الوعي التاريخي وما لم نر الأمة في تاريخها وفي كيانها كوحدة وننظر إليها نظرة شمولية فسنبقى غارقين في التفاصيل، ويبقى السائد هو الوعي التقني[2].

---

[1] – محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف، ص12.

[2] – مداخلة الفضل شلق في الحوار القومي الديني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1989، ص214 و215.

وعلى هذا الأساس فقد أصرت ألمانيا الديمقراطية على تسمية دستورها بالدستور التأسيسي، إمعاناً بوحدة الأمة، وعدم الاعتراف باللحظة الطارئة العارضة التي تمزق أوصالها.

لذلك فإن حضور الأمة كثيفاً في وجداننا وأدبياتنا وفكرنا، هو الذي يحدونا للتمسك بمصطلح الهوية تعبيراً عن هذه المسيرة الدائمة للأمة، وعن ذاتيتها القائمة في التاريخ.

مقاربات الهوية والتراث

«المناهج والتصورات وآليات البحث»

لا بد من التدليل«بادئ ذي بدء» بأن البحث في الهوية والتراث يكتسي أهمية بالغة في الأزمات الخانقة، إذ تبرز الحاجة ملحة للبحث عن الذات الحضارية، وتحدياتها، ثم معانة حدثها المجتمعي، هذا فضلاً عن أن التيارات الفكرية إن هي إلا تعبيراً عن واقع المجتمع وتاريخ أحداثه، وتفسير انكساراته وإعوجاجاته وأزماته، ثم محاولة الخروج من هذا الخانق.

وعلى هذا الأساس فإن طرحنا للموضوع ليس نطقاً فكرياً، بقدر ما هو تعبير عن هواجسنا وهمومنا، ثم رنونا بالأبصار والبصيرة والعقل لاستشفاف هذه الإشكالية، ثم استشراف حل لها، وهو الأمر الذي يحدونا لطرح التساؤلات الآتية: هل نسير عشوائياً؟؟ هل نتوقف؟ هل نجمد؟ هل نقلد؟ هل ننطلق؟ ما هي أسس وروافع ونواهض هذا الانطلاق؟.

لا مراء بأن القضية المحورية التي يجب أن تجهد عقلنا تلهب حواسنا، وتحفز روحنا، هذه القضية هي الإيمان قبل كل شيء بأننا أمة، وليس ركاماً من البشر، وإن هذه الأمة حيّة وذات تاريخ طويل في الإبداع والعطاء، وهي متفتحة على عطاء الغير، وأخيراً فهي ذات نوازع إنسانية ساهمت مساهمة فعالة في ترسيخ صروح الشأن الإنساني العام، وكنتيجة لكل ذلك فالفعل المستنير والوعي المطابق يحفزان الهمم لفهم التراث على ضوء مشكلات العصر، وذلك هو السبيل إلى التجدد الذاتي الذي هو شرط خلاص الأمة من التخلف والسحق القومي والاحتواء

الحضاري وبمعنى أوضح، فليس غاية هذا البحث أن نحمل مجهراً لتحليل قطعة من الصلصال البارد، كالثلج، وإنما هو بحث معياري تقويمي غائي، يربط بين عناصر الرباعية الآتية: استشراف معرفة، قدرة، هدف.

إذن فالهدف هو الذي يصيغ السؤال، والسؤال الهدف أو الهادف هو الذي يدفعنا للقول إننا ذو حضارة شامخة، وهو في الآن نفسه يحثنا على تلمس ديناميات هذه الحضارة والقبض على مشاعلها كأس للنهوض، وفي ذلك يقول "الدكتور أحمد خليفة" : أعتقد أن الكلمة المفتاح التي تكون دائماً في أذهاننا هي كلمة "التنمية" عندما نفكر من نحن...ما هويتنا وما قيمة تراثنا...كل هذه التساؤلات لا تطرح بالطبع لمجرد الاستمتاع بهذا التراث، أو الاستمتاع بكشف الهوية والذات، ولكن السؤال المطروح يصيح ماذا نصنع بهذه الهوية وبهذا التراث في معترك هذا العالم[1].

وبالطبع، فنحن مع "الدكتور خليفة" إذا كان المقصود من التنمية معناها الواسع الذي يشمل كل ساحة للتنمية، بحيث ينصرف إلى ساحة العمران الروحي، فإشكاليتنا في المقام الأول، هي إشكالية مشروع النهضة وليس مشروع التقنية بالمعنى الضيق والأنفع في فخ النزعة الاقتصادية التي تختزل الأمة في السوق الاقتصادي، وبالتالي فإن نقطة البدء هي أن نحدد من نحن...إي ما هي هويتنا، حتى نستطيع أن نحقق النهضة ضمن إطاره[2].

هذا ونشير إلى أن المفهوم التنموي للهوية ينطلق أحياناً من هاجس تخلفنا في مضمار الثورة العلمية والتكنولوجية، والبحث عن الحوافز للقبض على تلك الثورة،

---

[1] – الهوية والتراث، مجموعة مفكرين، بيروت، دار الكلمة للنشر، ط1، 1984، ص22.

[2] – قريب من رأينا هذا رأي الدكتور علي مختار، انظر مداخلته في الهوية والتراث، ص86.

ثم توثيقها لصالح الأمة، وهو الأمر الذي يجهر البعض بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي أتت أكلها في الدائرة العربية، كما أن ذلك قد يقود إلى موقف إيديولوجي يعطي حكماً قيمياً تفضيلياً لصالح العرب "تيار التغريب" على حساب هوية الأمة وذاتها.

وقد لا يتوانى في بعض دعاة التغريب عن تسفيه تراث الأمة بمقولة إنه ما كان بالإمكان لهذه الثورة العلمية والتكنولوجية أن تكون إسلامية.

وهم بهذه المقولة ينسون أو يتناسون أن وطننا كان المنهل العذب لارتشاف العلم وكان طلاب العلم من الغرب يقصدون المراكز العلمية في القاهرة والشام وبغداد وبخارى وسمرقند وقرطبة.

ويمكن التأكيد مع الدكتور "حسن حنفي" أن الموقف من الغرب، تحول إلى استلاب وتقليد أعمى، وبذلك فقد أنصفت النزعة التغريب بما يلي[1]:

- اعتبار الغرب النمط الأوحد لكل تقدم حضاري.
- النظر إلى الغرب كممثل للإنسانية جمعاء، بحيث تكون أوروبا الحلقة المركزية فيه.
- اعتبار الغرب المعلم الأبدي، وباقي أطراف العالم في موقع الهامش فيه.

---

[1] – د. حسن حنفي: ورقة مقدمة إلى ندوة الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجمعية الأردنية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 985، ص16.

- رد كل إبداع ذاتي لدى الشعوب إلى الغرب.
- تأثير العقلية الأوروبية على أنماط التفكير عامة، وعلى كل عقلية ناهضة.
- تحويل ثقافتنا إلى وكالات حضارية وامتداد لمذاهب غربية.
- إحساس الآخرين بالنقص أمام الغرب.
- خلق بؤر وفئات ثقافية معزولة لدى الشعوب غير الأوروبية، بحيث تكون مناصرة للغرب وجسراً لانتقاله[1]، والحقيقة أن الموقف التغريبي هو موقف انبهاري بالغير وعطالي للذات فهو عاجز عن بث روح الدينامية والحركية في الحضارات كي تقوم بعملية تفتح الزهور وعلى المباراة في جدلية تحاور معطاء.

ويرى بعض المفكرين ضرورة التمييز بين البحث في الهوية وبين البحث عن الهوية، إذ البحث الأول متحفي علمي في حين أن الثاني إيديولوجي معياري غائي.

هذا المستوى المعياري للهوية يأخذ بعين الاعتبار المضمون المعاصر لها، وهو الأمر الذي يجعل هذا التصور الغائي للهوية امتداداً منطقياً عبر التاريخ القادم، وفي إطار تصور استراتيجي للهوية الراهنة، وبذلك فالبحث في الهوية ليس بحثاً في

---

[1] – مداخلة د. صلاح قنصوه في الهوية والتراث، ص62.

النواميس، وإنما هو موقف سياسي يستنفذ المشروع القومي العربي، الذي يجعل موقفنا من التراث يقوم على أساس معايير انتقائية لبناء المستقبل[1].

وفي نظر "الأستاذ أحمد بهاء الدين" إن التغريب ليس من مستلزمات ومقترنات الهزيمة، بل من فاعليات المد القومي حيث تتوفر الثقة بالنفس والقدرة على الانتقاء[2].

ومن منطلق تاريخي قيمي ومثالي يؤكد "الدكتور عمارة" باكتمال وجود أمتنا ونضجها لجهة الخصائص والمقومات التي توجدها وتقرر هويتها والانتماء إليها، وإن هذه الأمة تمتلك من القسمات، «لكن ليس بالمعيار الأوروبي للقومية» القومية ما لم تمتلكه أية قومية أوروبية[3].

ولا ينسى بعضهم من التعامل مع الهوية وفهمها والحرث على مكوناتها من خلال الإبداع والتقليد، وليس من منظور سياسي أو حضاري أو إيديولوجي، وهكذا يصنف أصحاب هذا الاتجاه السلفيين والشيوعيين في دائرة واحدة هي دائرة التقليد، والأمر على خلافه بالنسبة للتراثين الجدد الذين لا ينطلقون من تقديس التراث، بل من كونه مادة للإبداع والانطلاق[4].

---

[1] – مداخلة د. نادر فرجاني ووليم سليمان وجلال أمين وعلي مختار في الهوية والتراث، ص69 و75.

[2] – مداخلته في الهوية والتراث، ص90.

[3] – المرجع السابق، ص 101.

[4] – مداخلة جلال أمين، الهوية والتراث، ص105.

وهنالك فريق ينفي عن الهوية والثبات وبالمقابل يجد فيها مفهوماً متغيراً ومتداخلاً بمعنى أنه من الممكن أن أجيب عن سؤال الهوية، بأني عربي ومسلم وأفريقي، وأنتمي إلى طبقة معينة[1].

وبالطبع فنحن لا نتفق مع هذا الرأي لسبب بسيط هو أن الهوية تمثل القسمات الثابتة في الأمة وتنطوي على خصائصها الهامة.

ولا يخلو الأمر من مواقف توفيقية تؤكد أن المطروح على حياتنا هو النهضة الحضارية، وإن كان الفاعل السياسي هو الغرض المباشر من ذلك.

وفي لإطار المضمون الحضاري للهوية يميز بعضهم بين الحداثة والتحديث، فالحداثة هي العمران الروحي والعقلي والنفسي والقيمي للأمة، بينما التحديث يقتصر على عمران الواقع، أما بالنسبة للتعريف بالتراث، فهو الموروث سواء أكان دينياً أم غير ديني، ثابتاً أم متغيراً[2].

ويرى فريق آخر أنه يجب النظر إلى الهوية من خلال المعاصرة وقدرتها على تقديم الحلول لأمتنا متمثلة في العقلانية، العلم الحديث، التفكير العلمي، التكنولوجيا، المشاريع الصناعية العملاقة، وبالمقابل فقد ركز بعضهم على الجوانب الإيجابية في تاريخنا وضرورة إبراز أحداثه وشخصياته ورموزه من أجل غرس شعور الانتماء للوطن والأمة وتنمية الحماس للمشروع القومي ويضرب مثلاً على ذلك في اليابان على عهد "الامبراطور الميجي"، حيث أحيت ديانة الشنتو التي تمجد العمل، ثم جسدت الولاء للوطن والأمة بقيادة رمز تقليدي مقدس هو الإمبراطور، كما أن الصين الحديثة بزعامة "ماوتسي تونغ" أحيت التراث "الكونفوشيوسي" المتغلغل في

[1] – مداخلة د. علي مختار، الهوية والتراث، ص105.

[2] – د. محمد عمارة: الهوية والتراث، ص129.

وجدان الشعب الصيني، ثم أعادت تفسيره ضمن إطار إيديولوجيا عصرية تربط الشعب بمشروعه من أجل تحقيق نهضة الصين الحديثة ويرى هؤلاء أن علينا المحافظة على لغتنا وتاريخنا ثم إبراز انتصار أبطالنا واستحياء عمارتنا وموسيقانا، كما أن علينا أن نتخلص من الكثير مما تعنيه الأمة من تراث الماضي، وبذلك فالقضية الأولى والأخيرة هي تحقيق الولاء لهوية قومية من خلال مشروع حضاري عصري يشد الوجدان ويحرك الجماهير للعمل على تحقيقه[1].

ويضرب هذا الفريق مثلاً على دور المشروع النهضوي في التماسك الاجتماعي، ويتمثل ذلك في ضعف الهجرة في مصر على عهد الرئيس جمال عبد الناصر، والعكس بالنسبة للمراحل اللاحقة.

قسمات وسمات الذات العربية

لا حاجة للتدليل بأن أية ثقافة إنما تقوم على نسق أو منظومة متكاملة، حيث يتفاعل ويتكثف كل جزء منها مع الأجزاء الأخرى تكيفاً يقوم على تبادل التأثر والتأثير، وإن إدخال أي عنصر ثقافي جديد على أنساق الثقافة يؤثر في الحال على التوازنات التي تقوم عليها تلك الأنساق[2].

وفي صلب أية ثقافة توجد عناصر تنزل منزلة النواة أو الجهاز العصبي أو العمود الفقري، هذه النواة الصلبة الأساس يطلق عليها ثقافة اللباب، وهي على الرغم الأغلب تعانق الحس الباطن في الإنسان والعلاقات والاستجابات العاطفية التي تزود الثقافة بحيويتها وتزود الفرد بدوافعه الشخصية، وتعلو ثقافة اللباب،

---

[1] – مداخلة د. علي مختار، الهوية والتراث، ص129.

[2] – د. أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، دمشق دار ألف ياء، 1997، ط1، ص58.

طبقات ثقافية أقل شأناً منها وتتعامل عادة مع السلوكيات المادية الظاهرة من الإنسان[1].

ويؤدي عامة سوء التكيف في الحال الأولى إلى خلق صراع وتمزق عاطفي دائم داخل الفرد، كما يؤدي إلى صراع بين الأفراد الذين اختاروا لأنفسهم تلك القيم المتناقضة وإن صلب أية ثقافة يتمتع في أغلب الأحيان بمناعة ضد أي ارتباك مباشر يحدثه إدخال عناصر حقيقية من الثقافة التي اكتمل تطورها[2].

والتغير في لباب الثقافة عادة ما يكون سطحياً ويتمتع بقدر كبير من الرصانة والمضادات الحيوية التي تقاوم كل دخيل أو اعتداء.

وتبسيطاً للأمر حيال تلك التعاريف بالثقافة التي تجاوزت المائتي تعريف، تطلق تسمية الهوية على تلك الثقافة الأم- النواة التي أطلقنا عليها ثقافة اللباب.

وهذه الثقافة الأخيرة عند المفكر العربي "مالك بن نبي" هي الدستور الجمالي والدستور الذوقي، والدستور الأخلاقي، والدستور المنطقي، والدستور المادي التعاملي للأمة، وهنالك مقاربة ذكية لطيفة للجرجاني ترى أن الهوية هي الحقيقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق، أو هي على حد رأي الدكتور علي عقلة عرسان البذرة التي تشتمل الجنس بذرة القمح مثلاً توحي بالفصيلة وبأشياء كثيرة تتعلق باللون والشكل والخصائص والوظيفة والثمرة...إلخ، لكنها تبقى ضمن إطار النوع، أي في دائرة النبات في الفصائل المتنوعة ومنه الشجر وبذرة الزيتون تقدم مواصفات شجرة الزيتون، وتوحي بما تشتمل عليه ثمرتها، وتنطوي على مقومات هويتها ولا تخرج عن ماهيتها بوصفها

---

[1] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص58.

[2] - المرجع السابق، ص 59.

ثباتاً، فالماهية بهذا المعنى تتضمن الهوية ولا تلغيها[1]، وقريب من ذلك تحديد "الدكتور محمد عمارة" للهوية بأنها القسمات الثابتة من العناصر الترابية، أو هي «حسب تعريف مجمع اللغة العربية» حقيقة للشيء أو حقيقة الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه من غيره، فهي أشبه ما تكون بالبصمة[2].

ونحن لسنا مع التعريف الجوهراني "تعريف الجرجاني" الماهيتي الذي يضع الهوية في المطلق فوق التاريخ، بل إن كل شيء في هذه الحياة وليد الصيرورة، والتطور والتفاعل ليس هنالك شيء ثابت إلا وجه ربك، وإن كانت الهوية الثقافية تتمتع بقدر متيقن نسبي من الثبات.

وهذه النظرة غير المطلقة حدث بعضهم لأن يطلق على الهوية تسمية "المتصل القومي" فهي بمثابة مجرى جوفي، أو تيار يتدفق، ومن ثم فالتراث ليس مخزوناً ساكناً استكانياً بقدر ما هو حدث تاريخي تحتويه الأحداث اللاحقة، وتتفاعل معه[3].

هذه السمة المتطورة للهوية لم تنس أصحاب هذا الاتجاه الحديث عن النزعة التجريبية البراغماتية في الفكر الانجلو ساكسوني، والنزعة الذاتية لدى الفرنسيين، والنزعة المثالية العقلانية عند الألمان[4].

---

[1] – علي عقلة عرسان: مقاله الموسوم بعنوان: الشخصية الثقافية العربية– الهوية والغزو، مجلة الفكر السياسي، دمشق، سنة أولى 1997، ص54.

[2] – مداخلة د. علي مختار، الهوية والتراث، ص42.

[3] – الهوية والتراث، ص42.

[4] – مداخلة الأستاذ صلاح قنصوه، الهوية والتراث، ص61.

وإذا كان تطور الثقافة يتيح لثقافات فرعية أن تنصب في الجدول العام للثقافة الأصلية، إذا كان الأمر كذلك فلا يجوز الأخذ بما هو عرضي وطارئ كالقول بثقافة فرعونية أو تراث عالمي أو ثورة تكنولوجية أو الحديث عن خطاب الوجود قبل خطاب العروبة[1]، فذلك تمييع لهويتنا الأساسية الراهنة، ألا وهي الوقوف في وجه الغزو الثقافي والقهر الذي تتعرض له من حضارة استهلاكية غازية أو من فرض إرادة سياسية أو اقتصادية أجنبية[2].

وإذا نقلنا المبدأ السابق إلى صعيد النظام العالمي فهذا لا يعني ذوبان البشرية في وحدة حضارية، ويبقى الحمى القومي هو المحور الأساس في هذا النظام[3].

وعلى ضوء ذلك فالانغماس في الغرب محاولة لإفراغ الهوية العربية من قوامها «ثقافة الصلب» والفرق واضح بين التغريب والتحديث وبين الحداثة، وبين الحضارة الدينية، وبين عمران النفس الإنسانية والمحورية الأخلاقية وبين العمران المادي.

وعلى الضفة الأخرى للقضية، يتوضع الموقف الذي يخر صماً بكماً عمياً لكل ما هو ماضٍ، فتلك نظرة داكنة تبطل مفعول الحاضر، وتعطله من كل فاعلية لإنتاج

---

[1] - المرجع السابق، ص 12.

[2] - علي حرب: غزو ثقافي أم فتوحات فكرية، فتوحات مكية، مجلة الفكر العربي، العدد 74، لعام 1993، ص78.

[3] - مداخلة الأستاذ علي مختار: الهوية والتراث، ص87.

الحاضر والمستقبل، وعلى ضوء جماع ما تقدم يمكننا بوضوح وصراحة أن نطلق عبارة...من نحن[1]؟.

فيما يلي بعض الإجابات عن ذلك :

- محمد عمارة: نحن أمة عربية واحدة.
- طارق البشري: نحن مصريون عرب أغلبيتنا أقليتنا مسيحيون شرقيون.
- السيد عويس: نحن مصريون نتكلم العربية.
- فؤاد مرسي: نحن مصريون والهوية العربية لما تكتمل.
- السيد عويس: روافد الهوية العربية: المصدر الفرعوني الفارسي اليوناني، الروماني، الديانة المسيحية، الديانة الإسلامية العربية، الثقافة المملوكية العثمانية، المصدر الغربي[2].

وفي نظر "السيد عويس" إن المصريين ما زالوا يمارسون أفعالاً كان يفعلها الأجداد الفراعنة، مثل قيام ربة البيت بنقل قرص الشمس على الكعك ثم إحياء شم النسيم وغير ذلك[3].

---

[1] – الهوية والتراث، ص109.

[2] – الهوية والتراث، ص 54.

[3] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 181.

وفي نظرنا إنه «فيما عدا تعريف الدكتور عمارة» فهذه التحديدات وصفية غامضة دينية غير تراثية مبترة اختزلت ما هو أساسي وراسخ لحساب ما هو عرضي وطارئ.

وهنالك تعريفات أخرى لوت عنق هويتنا، وقد رفعت عقيرتها لتدلل بوجود أمة سورية تقوم على وحدة ثقافية جامعة ومستمرة عبر التاريخ ورغم الغزاة الطامعين كالكاشيين والفرس والرومان وغيرهم[1].

وفي نظر هذا الفريق إن هؤلاء فرضوا إرادتهم وسيطرتهم على الإرادة السورية في أحايين متفرقة طالت حتى تجاوز مجموعها الألف عام تخلل ذلك أحداث جسام، واجهها السوريون في صمود وأصالة ثقافية دون أن تمس ثقافتهم إلا قليلاً[2].

ويتابع هذا الفريق قوله بالنسبة للفتح العربي في القرن التاسع الميلادي تمكن الخليفة الأموي من إبدال اللغة الآرامية باللغة العربية التي صارت لغة الدين والدنيا بعد أن أمر بتعريب دواوين الحكومة ومراسلاتها.

وكان من نتائج هذا الإبدال في الدين واللغة إبدال في اتجاهات سوريا بكاملها من الغرب إلى الجنوب نحو شبه الجزيرة العربية[3].

---

[1] - د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 181.

[2] - المرجع السابق، ص182.

[3] - المرجع السابق، ص183.

وعلى الرغم من انتشار اللغة العربية وفرض سيطرتها –والرأي للفريق السابق– في التعامل بين الناس وفي مؤسسات الدولة، إلا أن اللغة الآرامية حافظت على وجودها كلفة للتخاطب في كثير من المناطق والمؤسسات[1] .

هذا ويمكننا أن نسجل على القول المذكور الملاحظات الآتية :

1- لقد اعتمد الفريق المذكور منهجياً جوهرانياً غير تاريخي بدليل أنه أقر بافتقار سوريا لسيادتها وإرادتها السياسية منذ ألف سنة "والحقيقة أكثر من ذلك" ورغم ذلك بقيت متمسكة كل هذا التمسك بحيويتها الثقافية.

2- لقد ظهر الفتح العربي في علاقته مع سوريا، وكأنه من الغير هكذا تم تحول اتجاهات سوريا بسبب هذا الفتح من الغرب إلى الجنوب.

3- لقد اقتصر تأثير الفتح العربي الإسلامي في سوريا على حقل السلطة السياسية.

4- يرى الدكتور "جمال حمدان" أن هنالك فرشة سكانية حضارية واحدة انطلقت منذ زمن قديم من الجزيرة العربية متممة وجهها بلاد الشام ومصر والمغرب العربي.

ولقد تفاعلت هذه الفرشة البشرية مع معطيات الواقع الجغرافي لتولد الحضارات المتنوعة السورية والمصرية والمغربية بما في ذلك البربرية، لكن هذه المنطقة الثقافية ما فتئت تخضع للتفاعل الثقافي فيما بينها ككتلة ثقافية واحدة في إطار نواميس الخاص والعام والتنوع في إطار الوحدة[2] .

---

[1] – د. عدنان أبو عمشة: ثقافتنا في مواجهة التحديات، ص 183.

[2] – هذا الرأي للدكتور جمال حمدان في كتابه عبقرية المكان، وقد أسهب في شرح ذلك والتدليل على صحته.

وبصورة عامة فقد انتهكت سوريا وأنهكت قواها خلال هذا الزمن الطويل لفقد سيادتها[1]، حيث كانت مسرحاً للنزاع بين الوحدات السياسية الكبرى، الفرس، الرومان، المصريين، وما إن جاء الفتح العربي الإسلامي إلا وكانت سوريا مهيأ، لتقبل هذا الفتح سواء بسبب ضعفها أم بسبب الأصل الثقافي الواحد.

وبذلك تتحدد العلاقة بين الثقافات التي تسبق الفتح الإسلامي، بالثقافة العربية الإسلامية على أساس علاقة الخلية في منظومتها ونسقها، وهو الأمر الذي لا يصح معه الحديث عن تناقض وصراع تاريخي بين الفينيقية والكنعانية والفرعونية وبين العروبة[2].

ودليلنا على ذلك ما يلي:

1- لم تنقطع الهجرات البشرية من قلب الجزيرة العربية إلى سوريا والعراق خلال الحقب التاريخية المختلفة والمستمرة وهو ما نجده في المناذرة والغساسنة والصفويين، وتكشف هذا الأمر بعد الفتح العربي الإسلامي، وهنا يؤكد الدكتور رضوان السيد 75بالمائة من سكان الجزيرة العربية يعم شطر العراق وذلك حتى نهاية القرن الهجري الأول[3].

2- لقد كان العراق مركز العالم آنذاك، لذلك كان وكد الفاتحين الجدد وراثة هذا العالم وإحكام قبضتهم عليه والانطلاق منه إلى أعماق العالم القديم.

---

[1] – فاتح عبد الجبار: تأملات في الثقافة العربية، مجلة النهج، عدد 14 لعام 1998، وقد أطلق تسمية المنهج التاريخي اللا تاريخي على التمسك بالفرعونية والفينيقية وغيرها من الثقافات.

[2] – إلياس سحاب: كتابه في الالتباس الفكري بين العروبة لهوية تاريخية وبين الأيديولوجيا القومية الحديثة، مجلة الطريق، عدد 6، لعام 1997، ص29.

[3] – د. رضوان السيد: مفهوم الجماعات في الإسلام.

3- لقد أكد الدكتور "رضوان السيد" أن أسلمة سوريا لم تكتمل إلا في نهاية القرن الخامس الهجري[1].

وهذا يعني أن هنالك ذوبان طبيعي وصيرورة تاريخية اجتماعية ثقافية، وليس غزواً عسكرياً قسرياً، كما أن هذه الأسلمة تقوم على عوامل ومقومات ثقافية، وليس دينية خالصة.

4- لقد أكد "آدم ميتز" أن العرب استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يبنوا من المدن في جنوب العراق بما يزيد عما فعله الساسانيون خلال أربعة قرون[2].

5- لقد أكد "أبو عمشة" أن ثقافة اللباب تخاطب وتعانق الحس الباطن في الإنسان: قيمه، روحه، أخلاقياته، ومما لا شك فيه أن العرب المسلمين الذين انطلقوا من الجزيرة العربية ما كان لينقصهم هذا النوع من الثقافة، بل كل ما كان ينقصهم ما يمكن تسميته بالحضارة الدينية: عمران الواقع لا عمران الروح.

ودليلنا على ذلك أن الدفق الروحي لذلك الفتح لم يقتصر دوره ومفاعيله في منطقة سوريا، بل امتد إلى نطاق جغرافي كبير من هذه المسكونة، حيث استطاع هؤلاء الفاتحون أن يدقوا أبواب الصين وبوابتيه، كل ذلك بفضل الفاعل القيمي والخلاصة فالأسلمة والتعريب كوجهين لحقيقة واحدة استطاعا أن يكونا فرناً تاريخياً ثقافياً صهر الثقافة السورية بروحه الجديدة، وإن استجلاء روح الجماهير العربية في سوريا يؤكد أن هنالك حقيقة ثقافة واحدة هي الثقافة العربية

---

1 - د. رضوان السيد: مفهوم الجماعات في الإسلام.

2 - د. عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة.

الإسلامية التي هضمت كل ثقافة سابقة لها وصبت عليها عصارتها الهاضمة، حيث أصبحت جزءاً من نسيجها وبنيتها، وأن الذي يحرك روح الأمة العربية، هو تلك الهوية الثقافية، لمس قرص الشمس المنقوش على الكعك من قبل المرأة المصرية، أو عبر شم النسيم أو غير ذلك من المظاهر الثقافية المزعومة الميتة الطارئة والعارضة التي تحولت «فيما عدا المتمثل منها عربياً وإسلامياً» إلى ثقافة مستميتة تهم حفاري القبور.

وضع مسألة الهوية في إطارها السليم

نؤكد ما قاله الدكتور "محمد عمارة" بأننا امة عربية إسلامية واحدة، والعروبة قسمة من هويتنا، وهذا لا يتنافى مع أننا كنا فراعنة قبل أن نتعرب، وأن غيرنا كان غير عربي قبل أن يتعرب، والعروبة هي بالمعنى الحضاري، وليس بالمعنى الديني، وقد استوعبت المواريث الحضارية وتبقيها مبلورة هذا الكيان الجديد في الحضارة العربية الإسلامية.

ويذهب الدكتور "جمال الدين الخضور" في تأسيسه للعروبة إلى ذلك التأسيس المعرفي القائم على الحفر والتشييد والتنقيب في بنائنا الأساسي الأنثروبولوجي الثقافي المتين والذي يمتاز بالتراكم التاريخي الكمي والكيفي الذي تمتد جذوره الثقافية إلى الألف التاسع قبل الميلاد، حيث بدأت الملامح الأولى للإنتاج الاجتماعي العربي في منطقة الشرق العربي، وامتدت لاحقاً الأمم الإغريقية بالتدجين النباتي والحيواني وبناء المدن القلاعية لتظهر عبر الحضارات الجليلة في العالم والتي تشكل بمظاهرها المتعددة السومرية، بالبابلية، الآشورية، الكنعانية، الفينيقية، الفرعونية، النبطية، التدمرية، وغيرها ملامح متنوعة لثقافة واحدة، هي الحضارة العربية لتصب جميعها في التوسع الثابت لذلك التراكم في الحضارة العربية الإسلامية، ويتابع الدكتور الخضور القول: ((إن الثقافة العربية ذات

امتداد متواصل غير منقطع أو متقطع وما الانقطاعات التي يتحدث عنها البعض إلا شكلاً من أشكال التمثل الإيديولوجي والسياسي، وبالتالي لم تكن الصابئة والأحناف والحضارات النبطية والتدمرية إلا استمراراً وتواصلاً لذلك التيار الأناسي بما في ذلك المفاهيم الأولية للمسيحية قبل التغريب بها ليتواصل ذلك التيار الأناسي بامتداده المعرفي الأرقى لظهور الإسلام)).

ويتابع القول: ((لم تكن سواحل إفريقيا العربية معزولة عن المظاهر الحضارية للمشرق العربي، وتاريخ الفينيقيين وحركتهم وهجراتهم من الجزيرة العربية إلى الساحل من الخليج العربي وإقامتهم في جزيرة الديلم إلا أكبر دليل على ذلك))[1].

هذه الرؤية الاستمرارية غير المنقطعة أو المتقطعة للتاريخ العربي، وجدها عند "الياس سحاب"، فهو يؤكد أن العروبة كهوية تاريخية تكونت عبر تفاعلات عرقية وحضارية، وثقافية ودينية شديدة التنوع والخصب، وبذلك فالفينيقية والكنعانية والفرعونية والآشورية والبابلية، ليست النقيض التاريخي للعروبة، بل الارهاصات التاريخية لها التي ظلت تتفاعل على أرض هذه القلعة حتى صهرتها التفاعلات التاريخية في بوتقة العروبة[2].

وهذا يعني أن هذا الرأي المذكور يأخذ بالمذهب الارتقائي evolutionist حيث يؤكد أن ثقافة المنطقة العربية مرت بدرجات صعوداً وارتقاء حتى وصلت إلى المرقى العربي الإسلامي.

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: الثقافة العربية الراهنة، التطبيع الثقافي، رؤية شاملة، مجلة الطريق، العدد 2و 3، 1990، ص117.

[2] – مقاله الموسوم بعنوان: الالتباس الفكري بين العروبة كهوية تاريخية، وبين الايديولوجيا القومية الحديثة، مجلة الطريق، عدد6، لعام 1997، ص30.

ويؤكد العديد من المفكرين أن تاريخ لبنان جزء من التاريخ العربي وليس له سياقه الخاص "استفان الدويهي- كمال الصليبي- المطران جورج خضر"[1].

وفي نظر الأستاذ "عون الشريف قاسم" إن الإنسان العربي يمثل إنساناً متديناً عبر التاريخ، وإن الدين هو كل شيء في حياة العرب[2].

وفضلاً عن ذلك فنحن نقول بحضارة إسلامية، لكن ليس بالمعنى الديني الطائفي أو الجوهراني essentialist الذي يرصد في حضارتنا جوهراً ثابتاً من الأزل إلى الأبد، وإنما بمعنى أن الأغلبية إسلامية، والإسلام الحضاري هو هوية الأمة حتى تغير المسلمين من أبنائها، أما الإسلام العقيدي فهذا خاص بالجماعة المسلمة في هذه الأمة، وهذا معنى تمييز الفقه الإسلامي بين الوضع الإلهي بصفته علاقة مع الله، وبين الوضع البشري الذي هو احتياج المسلم من النص وتطبيقه في إحداثيات المكان والزمان، ثم تحوله إلى نسغ حياتي –حضارة يتفيأ في ظلالها كل إنسان، هذا الوضع البشري في حضانة الأمة العربية، وحاله ومناخ وقضاء يظل من ينتمي إلى الحال العربية، وهذا هو مغزى قول المطران "جورج خضر: ((هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية ونحن ننتمي إليها))[3].

---

[1] – موريس نهرا: لبنان وتيارات الفكر القومي، مجلة الطريق، عدد 6، لعام 1977، ص50.

[2] – في معركة التيار، بيروت، دار العلم، 1986، ص49، وانظر مقال الأستاذ علي نوح، العرب في صحوة إسلامية أم انتكاسة مجتمعية، مجلة المستقبل العربي، عدد6، لعام 1963، ص131.

[3] – مجلة الناقد.

وقول المفكر "أمين نخلة" : ((الإسلام إسلامان- إسلام بالدين، وإسلام باللغة والحضارة، وكأننا كلنا مسلمون حتى يكون الإسلام كلفاً بمحمد وحبّاً بلغته))[1].

على هذا الأساس يرفض الأستاذ "حسين وهبة فران" أية محاولة توفيقية بين العرب والإسلام، لأن هذه المحاولة معناها الاعتراف بثنائية لا نؤمن بها باعتبارها غير موجودة بالأصل، وفي النهاية فالمذكور يؤكد أن العروبة والإسلام لقوم واحد، والإسلام أعطى البعد النفسي الحقيقي للفعل العربي، والروح الإسلامية نشأت داخل الذات العربية لا خارجها[2].

وقريب من ذلك ما أكده العلامة السيد "محمد حسين فضل اللّه" بان العلاقة بين الإسلام والعروبة علاقة الإطار الذي يبحث عن الصورة، والإسلام كان هو الصورة عندما انطلق في الحياة العربية، ونحن نعرف أن الإطار يعطي الصورة بعض ملامحها، كما أن الصورة تعطي الإطار كثيراً من جمالاتها[3].

وفي نظرنا إن اقتران العروبة بالإسلام هو اقتران الجسد بالروح أو الإطار بالصورة، وإن قوة الإسلام قوة للعروبة، وبالمقابل فإن تلك البدعة الحشوية المضللة التي أتى بها راهنياً الغرب والحضارة بضرب الأصولية الإسلامية، إنما هي في حقيقتها الجوهرية ضرب للحال الإسلامية.

---

[1] - مداخلة الفضل شلق في الحوار القومي الديني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1989، ص 281.

[2] - مقاله الموسوم بعنوان: العروبة والإسلام علاقة توحد، مجلة دراسات عربية، عدد 12، لعام، 1990، ص18.

[3] - مقاله الموسوم بعنوان في الإسلام والعروبة، مجلة المستقبل العربي، عدد 76، لعام 1993، ص5.

وعلى هذا يؤكد الأستاذ "فهمي الهويدي" أن المسألة أبعد من التصدي للمد الإسلامي، أو حتى القضاء عليه، لكن الهدف الأبعد هو تقويض ثوابت الأمة وإلغاء وعيها الحضاري وذاكرتها التاريخية ذلك أن الإسلام ليس عقيدة فذّة، لكنه ثقافة وحضارة وهوية[1].

وفي إطار إبراز أهمية الرموز الثقافية في حياة الأمة العربية، يدلل الدكتور "محمد الذوادي" بتفرد عالم الرموز على العامل الاقتصادي وضرب مثلاً على ذلك في ظاهرة العزلتين في كندا، ثم الاستعمار الفرنسي لشعبنا في الجزائر، وفشل هذا الاستعمار أمام صخرة الرموز العربي الإسلامية.

وفي نظره أن الأمة العربية فريدة من نوعها بين الأمم بسبب ما تمتلكه من رأسمال رمزي[2].

وقريب من ذلك هذا التقسيم الذي أجراه الدكتور "محمد الشيحا" للقوميات، فقد حمل هذا التقسيم على المادي والروحي، ثم الماضي والحاضر، في النهاية فقد أعطى الأمة العربية قصب السبق في تكوينها يجمعها بين المادي والروحي، الماضي والحاضر المشدود إلى المستقبل.

وإذا اعتمدنا التعريف بالتراث الذي قدمه "مالك بن نبي" والذي هو الدستور الخلقي والذوقي والجمالي والمنطقي والعملي، إذا اعتمدنا ذلك تأكد لنا أن العربي هو كل إنسان يتفيأ بظلال هذا الوطن ويعتنق ثقافته بالمدلول الذي سبق تحديده هكذا إذا شبهنا شخصية الأمة بموشور أو شيفرة أو مصفاة تأكد لنا أن الحضارة التي بين أيدينا نشأت من خلال هذا الموشور أو المصفاة، وهذا ما يفسر لنا تمييز العمران الحضاري العربي الإسلامي من عمران الدائرة الحضارية الإسلامية

---

[1] - مجلة المجلة، العدد 847، ص8- 14، تشرين أول، 1995.

[2] - مقاله الموسوم بعنوان: الإسلام والتطبيع، مجلة المستقبل العربي، عدد 2090، 1996، ص5.

وتوضيح ذلك أن الدولة الإسلامية الأولى في المدينة قامت على حامل بشري تاريخي مادته العرب، وهؤلاء هم الذين صاغوا اجتهاداً دستور هذه الدولة[1].

وعلى ضوء الدستور العملي لروح أمتنا العربية، عاملت هذه الأمة من خلال آلية الفتح المجوس والبربر معاملة أهل الكتاب، كل ذلك تعبيراً عن روح التسامح والبعيد عن الشعوبية.

لا أحد يفكر أن العرب في الجاهلية كان لهم دستورهم الذوقي والجمالي، وأبرز مظهر له هو الشعر العربي الذي هو أحد دعاءات الحضارة العربية الإسلامية.

وفي هذا الصدد نتذكر مقولة المطران "جورج خضر" في رده على الأب سليم العوا المتضمنة: طلابنا يطالعون الأدب العربي، وأنا أجزم أنني لا أعرف تراثاً شعبياً غاب عنه الدين فما هو الحال بالنسبة للأدب العربي، إلا يريد لنا الدكتور "سليم العوا" ثقافة عربية إزاء ثقافة غربية[2].

لقد اقترنت العروبة بالإسلام[3]، منذ نشوء أول دولة للإسلام، والتي هي أول دولة للعرب قاصدين بالدولة تلك الجماعة البشرية التي أسست سلطتها حاملة المشروع التاريخي الحضاري الإنساني ذا الأنساق والتصورات والمعاني والقيم الإنسانية والنظرة الواضحة للحياة، ولتعزيز وترسيخ الشرط البشري، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ **الزخرف/44**.

---

[1] - هذا الرأي للدكتور محمد سليم العوا، انظر الحوار القومي الديني، ص281.

[2] - موريس نهرا: لبنان وتيارات الفكر القومي، مجلة الطريق، عدد 6، لعام 1997، ص56.

[3] - د. محمد عابد الجابري: مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، وهو يؤكد التداخل العضوي بين العروبة والإسلام، مجلة المستقبل العربي، عدد 207، لعام 1996، ص111.

لقد أعطى العرب لهذه الدولة التي نشأت في المدينة المنورة الحامل الاجتماعي التاريخي كما أعطوها الكثير من المصطلحات والمفاهيم والقيم والعادات[1]، ومنذئذ والعروبة مقارنة للإسلام مقارنة الروح للجسد أو الصورة للإطار.

ويرى الدكتور "رضوان السيد" أن العرب أمة تاريخية يلعب الإسلام وثقافته ورموزه دوراً كبيراً في تشكيلها التاريخي والحديث، الدليل على هذا الامتزاج بين العروبة والإسلام جماهيرية الفكرة العربية ذات الأبعاد الإسلامية، وضآلة نفوذ الأفكار العلمانية بين الجمهور، بل واقتصاد انتشارها على قلة من النخب المغتربة[2].

لقد قامت الفكرة العربية في الأصل على مجموعة من المفاهيم التاريخية والرمزية ذات الأصل الثقافي الإسلامي، فشكلت بذلك نوعاً من التواصل تحاوراً مع الرغبات العميقة للجمهور، والطابع الاستيعابي التوليفي للثقافة الإسلامية التاريخية والانتماء التاريخي العربي، وبمعنى أوضح فقد فهمه الجمهور العربي العروبة باعتبارها استمراراً للمشروع الوحدوي الإسلامي التاريخي[3].

---

[1] – د. رضوان السيد، مقاله الموسوم بعنوان الإسلام والانتماء العربي، منشور في مجلة العربي الكويتية، عدد آذار، لعام 1997، ص31.

[2] – المرجع السابق، ص34.

[3] – المرجع السابق، ص34.

وبالمقابل فقد أدى تحلو العروبة إلى إيديولوجيا عقائدية إلى افتقارها وعزلها، فواجهتها منذ السبعينيات إيديولوجيات عقائدية إسلامية تفتقر إلى استيعابية الإسلام، وغنى العروبة التاريخية[1].

وقريب من ذلك تأكيد "الأستاذ فضل" بأن العرب أمة غير قومية، قد عني بذلك أن قوة الفكرة العربية في وعي الجمهور ناجمة عن اقترانها القوي بالإسلام في التاريخ والمفاهيم ووعي الجمهور.

فهذه الأمة ليست عرقاً أو أثنية أو قوم أو قبيلة، أو تجمع قبائل، بل هي سيرورة تاريخية، إذ كانت على الدوام وفي مختلف مراحل التاريخ مجتمعاً مفتوحاً يستوعب، ويدمج في إطاره الشعوب والأقوام والقبائل المنطوية تحت لوائه، وعندما كانت تواجه إشكالية المواجهة بين الانطلاق القومي والمشروع الكوني كانت تختار هذا الأخير، حتى لو كان على حساب موقع العرب في السلطة، وهي أمة عربية لارتباطها باللغة لا بالعرق العربي أو القبائل العربية، واللغة العربية كمكون أساسي للأمة هي الدلالة على كون هذه الأمة تشكيلاً ثقافياً تاريخياً قبل كل شيء[2]، ولقد تكلم الكثيرون عن قسمات الحضارة العربي الإسلامية، وإننا نجتزئ في ذلك القسمات الآتية:

1- لا تعرف هذه الثقافة التقوقع والانطواء، بل إنها ثقافة تمتلك الثقة بالذات والنفس، وبذلك فهي متفتحة على الغير، وهذا ما شهدته جميع المراحل التاريخية

---

[1] - د. رضوان السيد، مقاله الموسوم بعنوان الإسلام والانتماء العربي، ص35.

[2] - المرجع السابق، ص35.

التي مرت على أمتنا، حيث تمثلت وهضمت الثقافات اليونانية والفارسية والهندية والرومانية، وغير ذلك.

2- كانت أعين حضارتنا تتركز على اقتباس الحضارة الشيئية المادية والعلمية، وليس العمران الروحي والقيمي والأخلاقي، وهو الأمر الذي تؤكده بعثات محمد علي باشا إلى أوروبا، حيث استهدفت هذه البعثات التحديث المدني والدنيوي والتنمية، أما في المجالات الفكرية والفلسفية وفي تصورات الكون والقيم والأخلاقيات، فقد كان هنالك وعي بضرورة الحفاظ على قسمات أمتنا في هذا الشأن.

وهذا ما يتأكد من كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للطهطاوي فقد تكلم عن الحضارة المدنية والتقدم والعمران، ودعا قومه إلى أن ينهلا من هذا المنهل، لكنه في الوقت نفسه تكلم عن الفلسفة الأوروبية بأنها تنطوي على حشوات مضللة[1].

3- وفي إطار البحث عن الهوية الثابتة، يميز الدكتور عمارة بين الدين والعقيدة والشريعة والقانون الإسلامي والفلسفة الإسلامية فالدين يتألف من عقيدة وشريعة، الشريعة نهج، أما القوانين الإسلامية، فهي وضع (بشري- فقه) لذلك يقال الله سبحانه وتعالى (شارع) وليس فقيهاً.

---

[1] - رفاعة الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص275.

هنالك إذن تمييز بين القانون والشريعة –الهوية التي هي فلسفة القانون، وليست القانون، وهذا القانون الإسلامي متغير بحكم الزمان والمكان، أما فلسفة القانون "لا ضرر ولا ضرار" فهي فلسفة القانون الإسلامي[1].

ويتابع الدكتور عمارة القول: ((في الاقتصاد والعدل الإلهي، العدل الاجتماعي الذي يتمثل في قوله: إن الإنسان ليس مالكاً بشكل مطلق، وليست الملكية محرمة عليه بشكل مطلق، وإنما الملك الحقيقي، مالك الرقبة هو الله، وما تسميه ملك الإنسان، فهي مجازية، ملكية منفعة، وطبقة اجتماعية لأن الوسيلة التي تميزنا هنا إن الإنسان ليس وحده في الكون، وليس مركز الكون كما في الحضارة الأوروبية، إنما هو خليفة الله، والله هو المالك ونحن مستخلفين في هذا الملك ومصلحة الأمة وما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن)).

هذه هي فلسفة العدل الاجتماعي، أما النظم والتنظيمات والتراث، فنحن غير ملزمين بحملها وتطبيقات السلف ليست هوية، هي تراث، وليست هوية.

4- هذه الهوية التي تقوم على قسمات الحس الديني، العدل الاجتماعي، العقلانية، الوسطية، لا بد لها من حامل اجتماعي، كتلة تاريخية، هذه الكتلة هي التحديديون الإبداعيون، العرب المسلمون، أصحاب الاستجابة الخلاقة، ليس الانكماشيون الحشويون المنكفئون الذي يخرون صماً وعمياناً على التراث كما أنهم ليسوا الانغماسيين التغريبيين الذين انسلخوا نهائياً عن مقومات هويتنا، وقريب من ذلك تحديد الدكتور عبد الله عبد الدائم لروافد ومصادر أهدافنا[2] فيما يلي:

---

[1] – مداخلته في الهوية والتراث، ص42.

[2] – مقاله الثقافة العربية الإسلامية، مجلة الاجتهاد، ص52.

التراث الإسلامي- العروبة- حركة العصر- العدل الاجتماعي- الحرية والديمقراطية والشورى- التقدم الاقتصادي والاجتماعي والعلم ومطالب التنمية الشاملة[1].

5- وعدنا على بدء، إن مشكلتنا الأساسية في التأسيس، لكن هذا التأسيس القائم على قطعة من طين حيث الاغتراب عن الواقع، وحيث الاغتراب في الآخر الآخر، بالتالي فإن إي تأسيس لا بدّ له أن يقوم على الهوية، فهو الضامن لالتفاف الجماهير العربية حوله باعتباره معبراً عن روحهم وضميرهم وجمالياتهم ونظرتهم وقصصهم الشعبية وأهازيجهم وحماسهم.

وبالطبع فالتأسيس السياسي على الهوية يتناول كافة مظاهر حياتنا بما في ذلك تأسيس السياسي على الحضاري، يقول "ريمون بولان": ((لدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها، وأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مؤسسات)).

وواضح جداً أن على السياسي أن يتأسس على الحضاري الذي هو بالنسبة لنا الحضارة العربية الإسلامية التي بنتها سواعد أمتنا خلال القرون الطويلة، وليس من المنطقي أن نهدم هذه الآيات والآلاء العظيمة لحضارتنا، ونقف معلقين في الهواء تحت زعم أن علينا أن ننغمس نهائياً في الغرب.

وإذا كان التيار الانغماسي غير قادر على التأسيس لمجتمعنا، فإن التيار الآخر النقيض تيار الانكماش يقف معه على كفة الميزان الأخرى، إن تيار الاستجابة الخلاقة الذي يستوحي روح الماضي من أجل بناء المستقبل، والذي يعتبر البرهة

---

[1] – علي وطفة: الأهداف التربوية في البلدان العربية، رؤية نقدية، مجلة المستقبل العربي، العدد 230.

الراهنة حلقة أساسية ﴿ تاريخنا، هذا التيار العقلاني المستنير هو القادر على أن يتخطى الرماد ليحافظ على اللهب المقدس لأمتنا.

إن السياسة ليست ﴿ حقيقتها إلا تقنية للواقع وفيزياءها وصياغة له، وعلى هذا الأساس حدد ابن خلدون العلاقة بين العمران المدني والسياسة كالعلاقة بين المادة والصورة، وشبه أحدهم السياسة بإبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي المجتمع، وعلى هذا الأساس يرى "بوتول" أن سوسيولوجيا اليوم (اجتماع) هي سياسة الغد، كما أن الدستور الضمني للحياة هو أساس الدستور الشكلي "عبد الله العروي".

وهكذا أصبحت الحجة البيضاء واضحة فمن اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به، ولكن قولنا لأن جوهر نسقنا أو منظومتنا الثقافية يقوم على العروبة والاسلام، ويبقى ﴿ إطار الحكم التقريري الذي يعلن راي القائل كما هو قائم وموجود.

والسؤال المطروح هو: لماذا تقوم وحدتنا الثقافية على الجذر الثقا﴿ العربي ثم الجذر الاسلامي؟، هذا هو ما سيتم بحثه ﴿ القادم من الكتاب.

نحو مشروع ثقافي إنهاضي

و مسألة ثقافة الموت وثقافة الحياة

قال أحدهم: ((لو أردت قرض الشعر لما تمكنت لأنني لم أعد أرى من ألوان الحياة إلا لوناً واحداً...ومن رأى السلاسل تمزق أجساد العبيد لم يفكر إلا في الحرية الحمراء)).

وقال "ماوتسي تونغ": ((أن يكون أحمر خير من أن يكون خبيراً المستضعفون هم عماد أمتي، والهاجس الكبير، والزخم الوّهاج، والسؤال المقلق الملح الكثيف حضوره أمتي نفسها مستضعفة وبروليتارية، ومحاولات التهميش والإقصاء والطمس لاتني تبرز مشروعاً بعد مشروع لتسحق عظامها)).

ثقافة الحرية الحمراء هي الخطوة الأولى من أجل تكسير السلاسل وزخرفة الصخرات العاتية على صدر المستضعفين في دارنا المحبوبة من أجل بلسمة العاهات والجراح التي زلزلت المواطن، حيث اهتزت بوصلة حياته، واختل توازنه، وانخلع عن محوريته وتاريخه وتراثه، وثقافة الحرية الحمراء ضرورية في جدلية أمتنا حيال محاولات التسفيه والاختراق والغزو من قبل الشعوبية المعاصرة والإمبريالية والصهيونية ومن قبل أجهزة السلطة العربية التي أريد لها أن تخون الأمانة.

لكن هل يمكن تبسيط الثقافة بالإيديولوجيا واختزالها من جانب واحد من جوانبها ألا وهو ثقافة الحرية الحمراء؟.

الثقافة في نظرنا كل ما يحيط بمبادرات الإنسان وأبعاده وخياراته وشوقه للحياة، وتصميمه على اكتناه سرار الطبيعة ومعانقته المطلق واندراجه في التاريخ وانخراطه في صميم الحياة.

على هذا الأساس تعددت الرؤى حول هذه الظاهرة، وحسبنا تحديد "مالك بن نبي" لها بأنها فلسفة الإنسان والمجتمع، أما عناصرها فهي:

الدستور الخلقي- الذوق الجمالي- المنطق العملي- الصناعة[1].

هذا ما ذهب إليه "بارسوز" بأنها مجموعة الرموز التي توجه العقل وتدفع العناصر الذاتية في الشخصية، وتسوس الأنظمة الاجتماعية، وتحكم الأفكار والمعتقدات والرموز التعبيرية والمعايير العلميّة وآليات الضبط الاجتماعي[2].

إذا انتقلنا إلى الدائرة التقيمية أمكننا القول إن الثقافة هي أساس كل بناء، والحامل الذي يقوم عليه صرح المجتمع، وإن الثقافة الحيّة أهم من النظم السّياسية والمناهج الاقتصادية والخطط الدستورية والقوالب القانونية، وإنه لا انبثاق ولا انطلاق إلا بالشخصية الحضارية للأمة.

بهذا الشرط الإنساني القائم على تصور متكامل للحياة ومنظومة متكاملة للقيم، نفهم وثبة أمتنا في صدر الإسلام، كما نفهم انطلاقة ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أحيت اليابان ثقافة الشنتو ورجعت الصين إلى الكونفوشية. ويمكن التأكيد على أن أي مشروع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي محمول على الشرط الإنساني، وأن ملحمة النهوض ومغامرة الانطلاق والعملقة والتجوهر، إنما

---

[1] -مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، القاهرة، دار الفكر،

[2] - عدنان أبو عمشة، ثقافتنا ....، المرجع السابق، ص27.

تزكو ويصلب عودها بهذا الناهض، وبالتالي فالأمم في الثقافات والجامعات قبل أن تكون بالثكنات والمدافع والتقنيات.

ما قيمة التنمية وما أدراك ما التنمية دون مشروع ثقافي، والديمقراطية ما الديمقراطية إذا لم تحمل على ثقافة ديمقراطية تكفل حرية التعبير، وإذا لم يتم الالتفاف حولها كقيمة إنسانية تسمو بالحياة وتمجدها وتفعل مسيرة التقدّم.

إن امتلاك العقول والقلوب أشد مراساً وتمرّساً ومنعة في وجه العدو من الدبابات والمدافع، بل لقد سيطرت فرنسا على الشيء الكثير من الجزائر الشقيق، ولكنها ارتدت على أعقابها أمام مملكة الروح وعملقتها، وهذا ما وجدناه في شموخ شعبنا في مصر والأردن في مواجهة التطبيع وأخطبوطه.

تاريخنا العربي حافل بتخاذل السياسة وأعطابها وعاهاتها، بالمقارنة مع الرواسي الشامخات للروح الشعبية أمام عاديات التفتيت والطمس والتهميش والإقصاء.

أية ثقافة هي التي نعتبرها رافعة لحياتنا؟؟.
الثقافة كأية ظاهرة إنسانية تخضع لما تخضع له سنن الحياة من التمدد والتقلّص، الموت والحياة، على هذا الأساس فالثقافة التي تشق عن روح أمتنا وتستشرق آفاق تطورها هي ثقافة الإبداع والعمل والإنجاز والعقلانية وترشيد الحياة وترسيخ الروح العلمية، وتجذير الشعور بالمواجهة ومقاومة التطبيع والاختراق والعدوان والغزو.
على هذا الأساس نقول لا لثقافة اليأس والتشاؤم والانتظار، ثقافة المنفعة والذيلية والسمسرة للإمبريالية، ثقافة الخواء والزمن الضائع والاستلاب والاغتراب، ثقافة الوعي المزيّف غير المطابق، المتعثر والمنخلع.

والحديث عن الثقافة يقودنا إلى تلمس جدلية ثقافة/سلطة، بل إلى إشكالية هذه المزدوجة.

وحقيقة الأمر أن الصراع سرمدي بين هاتين المقولتين، وهو ما تفترضه طبائع الأشياء، إذ الثقافة حرية والسلطة قوة، الثقافة إنتاج المعنى وإسباغه على الحياة، والسلطة هي الهيمنة على المعنى والقيمة، وهذا ما عبرت عنه أسطورة جالينوس في صورة رأس ذي وجهين، الأول يفيض بالنور، والآخر تعلوه قسمات القترة والكدرة.

لقد استطاعت مغامرة الروح الإنسانية الخالدة أن تروض السلطة فإذا هي لعبة الشطرنج التي تقوم على مبادئ العقل والمعنى لا على شحنات الغرائز، ومع ذلك فنحن في دارنا العربية لمّا نزق إلى مرحلة تأسيس السلطة، حيث تذوب في المشروع المجتمعي التاريخي، وحيث هي جهاز في خدمة فكرة ليس إلا، وحيث تصغي إلى قول الثقافة وتشترك معها في صنع القرار، وبالعكس، فالحاصل لدينا أن المشروع يذوب في إرادة السلطة، ويتوقف على نزواتها العارضة لا سيما في حقل اغتيال الثقافة وتدجينها وإخضاعها لدواعي السلطة، وفي حقل حشر المثقفين في أقفاص من ذهب وفي خطائر الصمت وفي أجهزة الإعلام والدواوين من أجل ثقافة التسويغ والتسبيح بحمد السلطان.

بيان ذلك أن الثقافة هي المقدمة الأولى للحرية، وبالمقابل فالحرية هي المقدمة الطبيعة لروح الأمة بطريق الذات الفردية والجماعية الخلاقة، إنها الكريات الحمراء، والحرية هي الكريات البيضاء، ولا معافاة للأمة بدون دمها ونسغها.

الثقافة العربية الحقة المعبرة عن شخصيتنا الحضارية هي التي تضعنا أمام وقفة دقيقة حيال جدلية العروبة والإسلام، على قاعدة الإسلام في العروبة، والعروبة في الإسلام، العروبة انتماء وإطار، والإسلام هو الروح والصورة التي تزين وتتزيّن

بالإطار، العروبة هي الغمد والإسلام هو الحسام، وكم هي معاقد العزة في تاريخنا، عندما كان الحسام الإسلامي يمتشق عن الغمد العربي من أجل العطاء والكرامة الإنسانية.

وعلى هذا فإن أية محاولة لضرب العروبة بالإسلام أو الإسلام بالعروبة، إنما هي ثقافة الخواء والاستلاب والاغتراب عن مبادئ الحياة التي صاغتها العروبة والإسلام على أرضنا، حيث يتماهى الإسلام في العروبة والعروبة في الإسلام، وحيث تعاونا على صياغة ذوقنا الجمالي وأريجنا الروحي وزفيرنا المقموع..

ومنطقنا العام وقصصنا الشعبية وحماسنا الوطني وموسوعتنا العلمية ونظرتنا إلى الوجود وتصورنا للحياة.

والتأصيل الثقافي الحي هو الذي يربط بين وحدات الزمن الثلاث، حيث الماضي (حافزاً- لا عبئاً)، الماضي (نقطة انطلاق)، أما المستقبل فهو المرتجى والهدف المنشور، ويترتب على ذلك نتيجة هامة، هي أن الثقافة عملية إبداع لا تقل، ولا يمكن لثقافة أن تثري الحياة على أساس النقل الميكانيكي الصرف.

وهذه هي جدلية الأصالة والمعاصرة، وهي جدلية تتنفس هواءها اليومي، وعيشها في دقائق حياتنا، على هذا فهناك عملية فصل ووصل ضرورية لقراءة التراث، فصل نقرأ فيه التراث «حقيقة موضوعية» وصل حيث تتم القراءة المعاصرة من أجل توظيفه «ناهضاً ورافعة» لحركة الحياة على أرضنا، دون أن نعني قراءة التراث لذاتها من أجل التراث، ومع التنويه بأن هذا التراث لا يخلو من السلبيات الداكنة والظلامية المنحدرة إلينا من العصر الوسيط، والنظر النقدي والمنهجي هو الذي يقوم بعملية الغربلة والتمحيص وفرز القمح من الذؤان.

والحديث عن الثقافة يقودنا إلى العلاقة الجدلية، بين الثقافة والتنمية، إذ الاستلاب الاقتصادي، يقودنا إلى الاستلاب الثقافي، وبالمقابل فالتنمية الحية، لا تنطلق إلا من ثقافة حيّة، كذلك فالثقافة لا تزكو وتسمو إلا بتنمية اقتصادية تحقق إشباع الحاجات العامة لكل مواطن، إضافة إلى تحقيق التراكم المعرفي الذي لا يتحقق في عصر الكومبيوتر، وهندسة العلوم، إلا بمأسسة المجتمع العربي على قاعدة قومية المعرفة، وقومية المؤسسات، وقومية السوق، وقومية المناهج التربوية والقيم التعليمية.

إننا نعيش ولا شك حالة نهضة واستثمار حضاري في الوقت الذي نطرح فيه سؤال الوجود والهوية والحداثة لا التحديث قبل أن نطرح التنمية بالمفهوم الاقتصادي الضيق، حسب رأي فلاسفة التعريب وسماسرته، وهذه النهضة لا تتم إلا بالخيار الحضاري، والشرط الإنساني بمضمونه الشامل بما في ذلك الإصلاح الديني تماماً كما حدث في أوروبا، حيث أرهص عصر التنوير والنهضة للثورة الصناعية، حيث كان إصلاح العقيدة على يد اللوثرية، هو المدخل الطبيعي ورافعة الانطلاق وديناميةالاندماج للثورة الصناعية، حيث مقولة عالم الاجتماع "فيبر" الذائع صيتها.

وبالطبع فليس المقصود من إصلاح العقيدة مسّ المقدس الإسلامي بقدر ما نقصد النعي على بعض الشوائب والحشويات وروح الجمود والتكلّس والجبرية والغيبيات والشعوذات التي علقت على تراثنا الديني والدين منهما براء.

واستطراداً فالاقتصاد هو عنوان الحضارة الشيئية، في حين أن الثقافة هي عنوان حضارة الضمير والشعوب التي لا تملك ثقافة حيّة تعتورها عقد الأمراض النفسيّة، فينخفض توترها الروحي، وتركن إلى الخنوع والتمزق والتواكل واليأس، وتضعف لديها روح المبادرة والعمل والإقدام على الحياة والشوق إلى بهجتها، هذا

فضلاً عن أن أي تأسيس اقتصادي لا يقوم على تأصيل الهوية، لا يعني إلا الاغتراب والخواء والاستلاب.

يقودنا الحديث عن الثقافة إلى سمة أساسية في ثقافة أمتنا ألا وهي بُعدها الإنساني وقدرتها على الاستيعاب والمناقشة والحوار، ومن البداهة أن امتنا هي وريثة ثقافات الحضارات القديمة لا سيما التي ترعرعت على تراب أمتنا، حيث صهرت هذه الثقافات، وصبت عليها عصارتها الهاضمة، لتنتج لنا الحضارة العربية الإسلامية، تلك الحضارة التي تمتلك مخزوناً تراثياً إنسانياً ضخماً، وتعتبر من أهم الحضارات في العالم، وهي مرشحه لأن تلعب أعظم دور في هذه المسكونة، وما صراع الحضارات الذي يطرحه الغرب حالياً، إلا صلوله دون أن تلعب هذه الحضارة دورها المنشود.

على هذه القاعدة الرصينة نفهم التعامل مع النظام العالمي الجديد، على قاعدة (دع الزهور تتفتح ولنتبار)، ليس على قاعدة المركزية الأطلنطية، مع التنويه بأن هذا النظام الجديد ليس إلا صورة جديدة للرأسمالية، في مرحلة ما بعد الحداثة، هذا النظام يفتقر إلى أدب الحوار ومقوماته، وبذلك فالقضية بيننا وبينه ليست قضية ثقافية بقدر ما هي سياسية، مع العلم بأن الخيارات الحضارية تثري الحياة الدولية، وتزيدها غناءً خلافاً لموقف النظام العالمي الذي يقتصر على المفهوم الاقتصادي الاستغلالي، وما يتصل به من أنساق قيمية، وأنماط سلوكية وحياتية رخيصة ومبتذلة وركيكة في الفن والحب وروابط الأسرة والمجتمع والدين، إنها ثقافة الكوكاكولا والجينز، التي لا ترقى إلى صعيد الشخصية القومية التي أبدعت تاريخياً روائع الحياة والارتقاء بها وتعزيزها، وهذا ما أكده المفكر القومي الراحل "عصمت سيف الدولة"، بتدليله بأن الغرب تحول على صعيد المجتمع إلى الفردية وعلى صعيد الاقتصاد إلى الرأسمالية وعلى صعيد الدين إلى العلمانية.

والمشروع الثقافي العربي، لا يمكن أن يكون محمولاً إلا على عبقرية اللغة العربية وفقاً لجدلية لغة/فكر، وليس على المشروع القائم على التفرنس والتمغرب، لما في ذلك من ارتباط وشيج بين اللغة والأمة، بين المشروع الاجتماعي والسياسي ومشروع اللغة/الفكر والثقافة العربية هي التي تحيط بكافة مبادرات وأبعاد الإنسان، العلم، الفلسفة، الدين، العلم ومملكته الأسباب، الفلسفة ومناطها الغايات، الدين ووجهته إعطاء روح وضمير المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

الثقافة العربية هي التي تحترم حق الروح وحق العقل في معانقة الطبيعة واكتشاف أسرارها بمنهج التجربة، والملاحظة والنقد ورصانة العقل وأنسنته، وهذا هو مغزى تسخير السماوات والأرض للإنسان باستخلافه لعمران الحياة.

والمشروع الثقافي العربي لا يتعارض مع الثقافات الفرعية التي تعيش في كنف وطننا إذا ما التزمت بمبدأ الأمة وحقوقها وقيمها ومصيرها على قاعدة إذا كان في الوحدة قوة فإن في التنوع قوة أخرى تزيد القوة قوة ومضاء على قاعدة التنوع في التشابه، والتشابه في التنوع، والأمر نفسه بالنسبة للإيديولوجيا إذا كانت هذه الإيديولوجيا تعانق معنى من معاني الأمة، وتبقى الأمة وقيمها وضميرها ومستقبلها معنى المعاني والمشروعية العليا التي تسوس وتحكم وتوجه كل إيديولوجيا خلافاً للطائفية والقبلية والفئوية التي تتعارض قيمها وثقافتها مع تحقيق المواطنة «كرابطة» سياسية وحقوقية وحيدة بين الفرد والدولة.

والثقافة العربية لا تترسخ وتتواطن إلا على آلية المشروع القومي واستراتيجيته العليا، وفقاً لجدلية ارتباط الوظيفة بالعضو، أي لا تترسخ إلا على أساس استراتيجية ثقافية وقيمية وتربوية، تستهدف أهداف الأمة العربية وتنمي القيم الضرورية لتحقيق هذه الأهداف، مثل حبّ العمل والإنجاز واتخاذ القرار والتفاؤل

والإقبال على الحياة، والحرص على الأموال العامة وعدم الهدر، ودفع الضرائب، وغير ذلك من القيم التي تعطي بهجة الحياة.

ويقودنا الحديث عن الثقافة العربية إلى التعريج على المثقفين قاصدين من ذلك المثقفين العضويّين المبدعين «لا القوّالين» أي صانعي الكلمة الحيّة ومهندسيها وحرّاس قيم الأمة والمتلكين لرأس المال الرمزي للأمة، وبالتالي فالثقافة ليست مسألة أكاديمية بقدر ما هي انتماء وفعل جماعي واندماج في روح الأمة والانخراط بين ظهراني جماهيرها والتعبير عن مطالبهم، وليس تعالياً على هذه الجماهير، كما تفعل النخب المغتربة التي تجيد الهرولة وتفييل الأقدام، مشيرين إلى أن الاختلاط بين المثقفين يجب أن لا يؤدي إلى الانشطار في الثقافة، وهكذا فعلى المثقفين العضويين أن يحسموا فكرياً قضايا الأمة على قاعدة الإيلاف والحشد والوعي الوطني مع التأكيد بأن حوار المثقفين مقدمة للحوار السياسي أجل، لقد تكلمنا حتى الآن عن الثقافة العامة وعلينا الآن أن نتكلم عن الثقافة الشعبية التي تمثل النسيج الحضاري لأمتنا وعمادها وقوامها ومادتها.

وإذا أمكن القول إن ثقافة المرايا والبلاط والقصر والثقافة المخملية مثلت نقطة الاختراق في تاريخنا، فإن الثقافة الشعبية هي الحصن الحصين لأمتنا والمخزون الرمزي الاحتياطي الذي يقف منيعاً ضد محاولات الاختراق والإقصاء والطمس.

لذلك فالمشروع الثقافي هو الذي يعانق حركة الجماهير ويجيش أفكارها، ويعبئ طاقاتها، ويستنفر حماستها، ويحرك كوامنها وعبقرية الثقافة الشعبية يجب أن تكون موضع اهتمام وترسيخ، لأن القيم الشعبية يجب أن تكون موضع اهتمام وترسيخ، لأن القيم الشعبية هي الفلسفة الأخلاقية والوطنية للجماهير، لا سيما أن هذه الجماهير بقيت مسكونة في العروبة والإسلام، ورفضت التحديث على

حساب التغريب، لذلك فإن تفجير برميل الثقافة الشعبية هو الأساس لكل انطلاقة سياسية واجتماعية واقتصادية.

كم هي المرات «في تاريخنا» التي سقط فيها العسكري والسياسي وبقي الشعبي بإرادته وقيمه؟.

نجد مصداق ذلك في هبّة الجماهير الشعبية في قطرنا المصري عقب نكبة حزيران عام سبعة وستين، وتصميمها على الثأر للكرامة بقيادة عبد الناصر، كما نجد مصداق ذلك في وقفة الشعب اللبناني الشقيق في قانا، وأخيراً نجد هذا المثل الحي في وقفة الباقورة من فعل الجندي الأردني الذي وعي بضميره صحيفة السوابق الإجرامية الصهيونية، فثار البركان في نفسه مدمراً كل شيء.

وعلى هذا فالتحصين السوسيولوجي الثقافي يتم من خلال العضّ بالنواجز على منطقنا الشعبي وما أنتجته روح الجماهير من أهازيج وأفراح وتقاليد وأساطير ورموز وحماس وشهامة وثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة، وغير ذلك من القيم وأساليب الحياة الشعبية.

الخلاصة أن الثقافة ماضٍ وحاضر ومستقبل وزحف يفجّر ثورة ثقافية عربية، تقوم على ثقافة الوحدة، ثقافة حرية التعبير، ثقافة الديمقراطية والمواطنة وتداول السلطة، ثقافة المحورية الأخلاقية، ثقافة الخيار الحضاري، ثقافة وترشيد المجتمع وعقلنته ومأسسته، ثقافة المجتمع المدني بحراكه واندماجه وتوحده، ثقافة حقوق الإنسان وأنسنته، ثقافة الشرارة الإلهية والقيم الروحية، ثقافة تحرير المرأة وتعلية كرامتها وذوقها باعتبارها صانعة الحياة.

تكلم أحد المفكرين عن ثقافة الموت وثقافة الحياة، وضرب مثلاً على الثقافة الأولى بتلك القيم التي كانت سائدة في إحدى القبائل المتوحّشة والتي كانت تقضي بانتحار الزوجة إذا توفي زوجها، أو التي كانت تحرم تحريماً قاطعاً، الاعتداء على

أموال رئيس القبيلة، وحدث أن اعتدى أحدهم على تلك الأموال فاعتورته الأمراض الكثيرة، والغريب في الأمر أن السلطة في بلدي على العكس من ثقافة القبيلة المتوحشة تسمح بالتغول على كل شيء، دون أن يعتورها أي إحساس أو وخزة ضمير.

ثقافة الحياة هي ثقافة ذلك الصحابي الذي لم ينتظر أن يأكل بعض التمرات، فرماها وقاتل حتى استشهد في "معركة أحد" المسألة أولاً وأخيراً في الثقافة، فالثقافة العربية الواحدة هي الطريق للوحدة، ورحم الله ساطع الحصري الذي قال: ((اضمنوا لي الثقافة أضمن لكم الوحدة)).

خيارنا الحضاري جواز سفرنا إلى العولمة

لا حاجة للتدليل بالنتائج البالغة الأهمية المترتبة على تفجير الثورة العلمية والتكنولوجية، وانعكاس ذلك على مفهوم الزمان والمكان والمنطق والسببية والسياسة والمجتمع والاقتصاد، وغير ذلك[١] .

وحقيقة الأمر أن الدولة والمجتمع والحياة، هذه المقولات، ومثلها معها من المقولات زلزلت زلزالها على يد ثورة التكنولوجيا، وأخرجت أثقالها، وقال الانسان ما لها .

نعم قال الانسان ما لها تعبيراً عن تلك الحيرة، وهذا الذهول الذي أخذ يرتسم على وجه الحياة جراء هذا الزلزال، الأمر الذي حدا "توفلر" لاستعمال **صدمة المستقبل** عنواناً لكتابه مجتمع المعلومات[٢] .

لقد تحدث المذكور عن الموجة الثالثة كوصف لمجتمع الثورة العلمية والتكنولوجية، مقابل الموجة الأولى (الزراعية)، ثم الموجة الثانية (الصناعية).

والخلاصة ان الحياة تتشقق عن تغيرات جذرية في مجتمع ثورة المعلومات الكوني، ولعل أول مظهر لهذه الولادة الجديدة نشوء الوعي الكوني الذي سيصطدم بالوعي الوطني والوعي القومي[٣] .

---

[1] – السيد ياسين: موقع الوطن العربي من الموجة الثالثة، مجلة الطريق، العدد 2، السنة 56، عام 1997، ص26.

[2] – المرجع السابق، ص21.

[3] – السيد ياسين: موقع الوطن العربي من الموجة الثالثة، ص24–28.

ولعل أبرز خصائص هذا الوعي الكوني بروز شبكات المعلومات الكونية، وتحسين وسائل تبادل المعلومات وتحويل النظام الاقتصادي من نظام ثقافي قائم على الربح إلى نظام تأليفي ذي طابع اجتماعي يسهم فيه الجميع، وهو بدوه ما يقود إلى ديمقراطية المعلومات، وظهور قيم جديدة على صعيد النسق الحقوقي مثل حق المعرفة وحق استخدام المعلومات وحماية خصوصية الانسان وغير ذلك.

هذا هو فضاء تلك الموجة الثالثة ومناطها وحضانتها، وهو فضاء يقوم على قاعدة التبادل والمشاركة والتعاون، وعلى قاعدة دع الزهور تتفتح وانتبار.

وبيان ذلك أن أية وحدة إنما تقوم على خلاف الحوار والتفاعل، وأن أي تقدم في معراج الازدهار، إنما يتوقف على قدر ما يوفر من أسباب التعاون والتفاعل ذلك أن الإيناع والإخصاب، هو نتاج تدعيم الذات وترسيخها، وكلما امتدت جذور الذات في الأرض كلما ارتقت الغصون في السماء، سواء أكانت هذه الذات جماعة قومية أم كونية، فالإنسان الأمعة عالة على الحياة، والأمر نفسه بالنسبة لأمة العطالة، وإن دراسة تاريخية متعمقة لنشأة القوميات وبواعث تلك النشأة وللمعاني الإنسانية الرائعة التي صاحت تلك النشأة في معظم الأحوال، يكشف لنا على نحو واضح كيف أن الدول المتقدمة في أوربا وأمريكا وسواها من دول العالم الثالث لم يستقيم أمرها وتكون حضارتها إلا من خلال سعي تام في سبيل الوحدة القومية[1] .

ولذلك فرطانة "فوكوياما" المدللة بفكرة واحدة تعم هذه الكونية، هذه الفكرة كارثة على الإنسانية، والسياسة الحية هي المحمولة على الرافعة الحضارية للأمة،

---

[1]– د. عبد الله عبد الدائم: القومية العربية ومستقبل النظام العالمي، مجلة شؤون عربية عدد 74، لعام 1993، ص15.

وهذا هو مغزى قول "ريمون بولان": ((الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها، وأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات)).

هكذا ظهر الحديث عن شرعية الأصول، أي عن تلك الشرعية التي تستمد قوامها من الفيزياء الاجتماعية، ومن أصول الحياة وثوابتها، أي من دستور الحياة الضمنية بما يحوي من قيم الجماعة ومنطقها ونظرتها إلى الحياة، وفي النهاية من تلك الشرعية القائمة على حضارة الأمة.

على أساس تألق فكرة الذات والقومية يمكن الحديث عن كونية وعولمة وغير ذلك من المنظومات الإنسانية التي تقوم على مبدأ الحوار والندية والمثاقفة الحية والعطاء المشترك والاحترام المتبادل وتساقى كؤوس التكامل الإنساني مترعة، والقول بغير ذلك يعني ابتسار العولمة وتحويلها إلى شمولية جديدة تشبه الشموليات التاريخية كالنازية والفاشية والستالينية.

ولا حاجة للتأكيد بأن الحضارة العربية الإسلامية هي إحدى الحضارات الست القائمة على هذه المسكونة، وهي تمتلك رأسمالاً رمزياً فذا لا يدانيه أي رأسمال، وتحتل رقعة تقع في القلب من هذا العالم، لذلك يجب أن يتاح لهذه الحضارة الحضور الكثيف في هذا العالم الجديد، بحيث تزكو وتزهو وتورق وتونع وتعطي وتتمخض عن كنوزها ولآلئها.

ومن جهة أخرى يجب أن يدرك أبناء الأمة أن انخراطهم في هذه العولمة يرتب عليهم أن يغذوا السير ويسرعوا الخطى، ويحملوا في أيديهم خطاباً إنسانياً يشرفهم، خطاباً يتكلم عن الشخص البشري، ويهجس بالمصير الإنساني المشترك والغايات الإنسانية العليا، ويعانق الهم الإنساني، كيف لا وإن عبارة "يا أيها الناس" هي أول عبارة انطلقت من تربة هذه الأمة.

ومن جهة أخرى فالفكر الاستراتيجي العربي «وباستثناء قلة من الكتابات الحية» لا يزال يعيش مرحلة ردة الفعل على الحدث دون أن يرقى إلى ذروة الفكر الاستراتيجي العالمي[1].

وفضلاً عن ذلك «والخطاب الكوني الجديد خطاب حضاري يتنافس فيه المتنافسون» فنحن لم نستطع أن نحمل خطابنا السياسي مسؤولية حضارية.

صحيح أنه كثر لدينا الحديث عن المشروع الحضاري العربي الإسلامي في مجال الفلسفة والاقتصاد والأخلاق والإنسانيات والتنمية، وعبر مئات من الكتب الجيدة، ومع ذلك لا نلمس تأثيراً لهذه الفكر في المشروع السياسي[2].

وقد يقول قائل: إنه لا بد من الوقت والجهد المثابرة والعمل التربوي الطويل النفس حتى يثمر هذا الفكر تربية وسلوكاً وسياسة، إنه قول محق من حيث المبدأ، ولكن يبقى التساؤل مطروحاً من داخل التجربة التاريخية المعاصرة، لاسيما عندما نتذكر مفكراً كمالك بن نبي، فالكثير من الأطروحات (الحضارية) التي نتنبه لها اليوم كمشكلات ملاحظة في الفكر والعمل الإسلاميين هي أطروحات سبق وبحثها وعالجها هذا المفكر في كتاباته الكثيرة، فلا أثرت في الفكر القومي السائد آنذاك وفي مشروعه السياسي رغم قرب الكاتب من الناصرية ورهانه عليها، ولا أثرت في الفكر والعمل الإسلاميين وفي المشروع السياسي وبرامجه، رغم منطلقات الكاتب الفكرية والعقائدية الإسلامية، لقد ظلَّت أفكاره النقدية حول (القضية الحضارية) في المشروع الإسلامي بل ظلت أفكاره النقدية حول القضية الحضارية

---

[1]- د. وجيه كوثراني: الشرق أوسطية والتطبيع الثقافي مع إسرائيل – البعد التاريخي وإشكالات راهنية، مجلة دراسات فلسطينية، عدد 23، لعام 1995، ص4.

[2]- د. وجيه كوثراني: افكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، مجلة المستقبل العربي عدد137، لعام 1990، ص34.

في المشروع الإسلامي خارج دائرة التداول في أوساط الفعل والقرار السياسيين، واقتصرت على قلة من النخبة[1] .

يخلص "مالك بن بني" في مقدمة الطبعة الثانية/عام 1971/، من كتابه **الفكرة الأفريقية الآسيوية** على ضوء مؤتمر باندونغ الموضوع عام 1955، أي بعد ست عشر سنة على وضع كتابه المذكور، إلى أن الفكرة الإفريقية – الآسيوية التي كان يمكن أن تنشأ عن توليف حضاري لثقافات العالم الثالث، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية، كانت تستدعي تحويل الحدث السياسي الكبير (مؤتمر باندونغ) إلى فكرة حضارية، إلا أن هذا لم يحصل كما يستنتج في العام 1971، إذ يقول: ((إن مؤتمر باندنغ سنة 1955م وبعده مؤتمر القاهرة سنة 1957م، قد جمعا فعلاً كل شروط ثورة العالم الثالث، إلا شرطاً واحداً، وهو شرط إطلاق الشرارة الفكرية لإضرامها)).

والسبب كما يقول: ((إن احتياطات قد اتخذت داخل العالم الثالث وخارجه حتى لا تنطلق هذه الشرارة، ولا شك أن هذه الاحتياطات، كمنت في سياسات الدول آنذاك المحلية والإقليمية والدولية، فانحصرت القرارات في حدود إمكانها السياسي المباشر)).

ويدلل على ذلك من خلال مثل ذي دلالة كبرى في مسار مشروعنا العربي – الإسلامي ومآل أزمته الراهنة في مجال الفكر والثقافة والإبداع، كما يقول: ((إن أحد قرارات مؤتمر القاهرة عام 1957م هو إنشاء جائزة إفريقية – آسيوية على غرار نوبل وجائزة لينين لم ير النور، والواقع يضطرنا أن نقول إن جائزة نوبل

[1]– د. وجيه كوثراني: افكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، ص35.

وزعت منذ مؤتمر القاهرة، سبع عشرة مرَّة دون أن توزع الجائزة الإفريقية – الآسيوية مرة واحدة)).

ومنذ كتب مالك بن بني هذا الكلام قبل وفاته بعامين/1973/وحتى اليوم، توزعت هذه الجائزة أيضاً سبع عشرة مرة أخرى.

إلا أنه في هذه المرة الأخيرة نالها أديب عربي مبدع هو نجيب محفوظ، والمقارنة هنا مزدوجة: كان مالك بن بني ينتظر أن يكون للإبداع الحضاري الأفريقي-الآسيوي وفي قلبه الحضارة الإسلامية، جائزته العالمية الخاصة، وهو أمل له شروطه الاستقلالية السياسية والاقتصادية والثقافية التي لم تتحقق، ولعلَّ عدم تحقق هذه الشروط خلال كل تلك الفترة الطويلة من الانتظار «منذ مؤتمرنا باندونغ وحتى الآن» أدى إلى تحقق شروط سياسية أخرى حققت بدورها المزيد من الاستتباع للمركز الحضاري الغربي.

ويضطرنا الواقع أن نقول بأسلوب مالك بن بني مرة أخرى، أننا نلنا جائزة نوبل بعد اثنين وثلاثين عاماً من تفكير مشروعنا العربي-الإسلامي (الذي كان قلب المشروع الإفريقي-الآسيوي) بجائزة خاصة به، فلا نال أحد من مبدعينا-ونجيب محفوظ في مقدمتهم- الجائزة الخاصة بحضارته أو عالمه أو وطنه، ولا نال أحد منهم كطه حسين وعباس محمود العقاد، وفي زمن الاستحقاق الفعلي، جائزة نوبل العتيدة، وعندما نال "نجيب محفوظ" الجائزة التي استحقها قبل ذلك، جاءت متأخرة عن زمن استحقاقها[1] الفعلي.

وهكذا بين غياب الجائزة الخاصة بالمشروع العربي – الإسلامي، وانتظار الاعتراف الغربي بإنجازنا الحضاري، ينكشف واقعنا انكشافاً محزناً ومأساوياً،

---

[1]- د. وجيه كوثراني: افكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، ص35.

ينكشف مزيداً من الابتعاد عن معايير باندونغ الاستقلالية والثقافية والإنسانية، ومزيداً من الاستتباع والاستقطاب إلى أحد المركزين، ويبقى همُّ مالك بن نبي في البحث عن بديل غير "نوبل" وغير "لينين"، ذا دلالة حاضرة وملحة في تمييز السمات الحضارية للمشروع العربي – الإسلامي[1].

والخلاصة أن الخروج من هذا النفق المظلم الذي يسير فيه النظام العالمي ثم بث الحيوية والمخاض فيه إنما يتم عن طريق القبول بأخلاق الحوار على حد تعبير "هارماس" في كتابه الشهير **نظرية العمل التواصلي** ذلك التواصل الذي عبرت عنه الآية الكريمة بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

هذا التواصل هو الطريق الوحيد لتعميق روح الحوار بين التجارب الإنسانية المختلفة، ولتمهيد السبيل لولادة نظام عالمي جديد.

إذن فالمشكلة أولاً وأخيراً تكمن في حضورنا الفذ الكثيف في هذا العالم، وهذا الحضور لا يؤتى أكله أو يغدق نتائجه إلا من خلال خطاب يؤسس فيه السياسي على الحضاري ويحمل على دعائمه.

ذلك أن الغرب قدم خطابه الإيديولوجي المتمفصل مع الحضاري والمتمثل في خطاب فوكوياما حول نهاية التاريخ وخطاب "هنتنجتن" حول صراعات الحضارات.

وفضلاً عن ذلك فالعدو الصهيوني قدم خطابه من خلال كتاب "شمعون بيريز" بعنوان **الشرق الأوسط الجديد**، ومن خلال كتاب "نتانياهو" الموسوم بعنوان **مكان**

[1]– د. وجيه كوثراني: افكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، ص36.

تحت الشمس ويتلخص هذان الخطابان في رطانة كاريكاتورية مفادها أن إسرائيل قوة تكنولوجية كبرى في وسط التخلف العربي، وهي في الآن نفسه واحة الديمقراطية في وسط دكتاتوريات، وأخيراً فهي قوة أمنية رادعة في وسط عدواني.

إذاً يجب على الوعي العربي أن يكون استراتيجياً كونياً ومطابقاً منطلق من آمالنا وآلامنا، ويرد على كيد الخطابات الآنفة الذكر ومثلها معها[1] من الخطابات المقنعة بالعالمية والكونية.

وإذا كان منطق طباع الأشياء في هذه الموجهة الثالثة يدعو إلى التعاون، فمنطق الإيديولوجيا شيء آخر والفكر العربي مدعو لأن يحارب في أكثر من جبهة، مثل جبهة إنجاز الوحدة، ثم جبهة محاربة المشاريع العدوانية المطروحة كمشروع الشرق الأوسط والمشروع المتوسطي وغير ذلك.

وفي هذا الصدد وعلى حد رأي الدكتور كوثراني – على عقلنا العربي السياسي أن يبحث عن شرق أوسط عربي إسلامي إفريقي أسيوي لا أن يهرول لنسج العلاقات الثقافية الثنائية مع إسرائيل من أجل أن تعطي هذه الأخيرة دور اللاعب الرئيسي والمحوري في المشروع الشرق أوسطي[2] .

ومن هذا المنظور يؤكد الدكتور كوثراني أن أمام العرب أوراقاً مجمدة منسية ونوافذ مغلقة يمكنهم لو فتحوها أن يطلوا على محيط شرق أوسطي غير إسرائيلي وغير أميركي، والتجربة التاريخية الجغرافية التي هي في أساس علم الجيوبولتيك

---

[1]– نقصد خطاب فوكوياما وهنتجتن على سبيل المثال.

[2]– د. كوثراني: الشرق أوسطية والتطبيع الثقافي مع إسرائيل، ص10.

تقدم معطيات حية قلما يستفيد منها العقل السياسي العربي، ولو من ناحية برغماتية[1].

من هذه المعطيات مثلاً الأدوار الإقليمية والعالمية الكبرى التي كان يقوم فيها تداخل وتشابك الدوائر العربية التركية – الإيرانية، وقد تجلت هذه الأدوار في قيام الدول الكبرى في المنطقة أو في تقرير السياسات والاستراتيجيات ومناطق العالم الإسلامي، قاصدين بالعالم الإسلامي من ناحية البعد الجغرافي- التاريخي، وذلك المحور الإفريقي – المتوسطي الذي سماه "مالك بن نبي" محور طنجة – جاكرتا "أيام باندونغ" وسماه الجغرافي المصري "جمال حمدان" الهلال الإسلامي، ذلك الهلال الذي يربط بأطرافه وخطوطه وطرق مواصلاته ما بين المتوسط الأوروبي والأطلس الإفريقي والشرق الأقصى الكونفوشيوسي، وهو الأمر الذي أدركه الباحث الاستراتيجي الأمريكي " هنتنجتون"، عندما أشار في سياق نظرته حول صدام الحضارات إلى العلاقة التحالفية بين الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية، وضرب مثلاً على ذلك بالعلاقة بين سوريا وإيران من جهة الصين، والصين وكوريا من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر النقاش حول خلفية هذه العلاقة التي لا تحسب أنها ذات صفة ثقافية وحضارية فحسب، فإن في تلك الإشارة تنبيها للعرب بأن النوافذ الممكنة للخروج من الدائرة الشرق أوسطية الإسرائيلية الضيقة تقع خارج الجدران الإسرائيلية[2].

---

[1]- د. كوثراني: الشرق أوسطية والتطبيع الثقافي مع إسرائيل، ص10.

[2]- المرجع السابق، ص10.

ويؤكد الدكتور كوثراني من خلال التجربة الجغرافية التاريخية العربية الحافلة بالدروس الجيوسياسية، من خلال ذلك نجد الدائرة العربية – التركية الغنية على الرغم من بعض الإشكالات كمسألة المياه إضافة إلى ذكريات الأمس القريب حول مسائل القوميات.

والأمر نفسه بالنسبة لدائرة العلاقات العربية – الإيرانية فهي أيضاً لا تقل غنى عن الدائرة السابقة، وإن كانت الثمرة الطيبة للعلاقة مع الدائرتين المذكورتين تتوقف على مدى تماسك الدائرة العربية مع نفسها[1].

خطاب باندونغ وخطاب مؤتمر القاهرة عام/1957/وخطاب "الكوثراني"، ومثله معه خطاب "ابن نبي"، هذه الخطابات، ومثلها معها من الخطابات هي رأسمالنا الرمزي وجواز مرورنا إلى الكونية، وما لم نكن مسلحين باستراتيجية كونية عالمية عليا فتصيبنا صدمة المستقبل وصدمة التاريخ وصدمة الحداثة وصدمة الحياة، وما أشد وقع هذه الصدمات شواشا وضياعاً، وخطاب الكوثراني «على أهميته» خطاب فرد وخطاب باندونغ أحاط في حينه بمبادرات الأمة ومصيرها ومستقبلها، ولكن هذا الأخير أفتقد الشرارة الفكرية، أي تلك الآلية التي تنجز المعنى وتسبغه على الحياة هدفاً ومنطقاً وتصور أو فلسفة وإبداعاً وافتقاره إلى الشرارة الفكرية التي تفجر برميل البارود، وتطلق قيم الروح، هذا الافتقار كان المقتل والمصرع.

كيف لا يكون لهذه الشرارة الدور، والثقافة هي العنصر الحاسم في أي انعطاف تاريخي، وهي روح الإنسان ولبه وماهيته وجوهره.

---

[1]– د. كوثراني: الشرق أوسطية والتطبيع الثقافي مع إسرائيل، ص10.

وإذا كان وعينا المطابق أنتج لنا باندونغ، وحدد لنا آفاق عملنا خلال الدائرة العربية والدائرة الإفريقية والدائرة الإسلامية[1]، وهو مدعو إلى ترتيب العلاقة مع الدائرة الإيرانية والدائرة التركية انطلاقاً من ثوابت التاريخ والجغرافيا والمعطيات الجيوسياسية والجيو استراتيجية، إذا كان الأمر كذلك، فإن وعينا المزيف المنتكس المتعثر والمبعثر أنتج لنا غلماناً شؤماً هم سايكس بيكو وكامب ديفيد وأوسلو، غفلاً وتغافلاً من هؤلاء العرب المتطامئين والمطمئنين للغرب وسياساته ومطامعه.

وفضلاً عن ذلك فإن وعينا الجديد يجب أن يهب من رقدته متوتراً للقبض على مبادئ باندونغ تأصيل أمتنا لعمقها في الدائرة الإسلامية والدائرة الإفريقية والدائرة الأسيوية، حيث يبزغ في هذا الفضاء الهلال الإسلامي الذي تحدث عنه "الدكتور جمال حمدان"، كل ذلك انطلاقاً من ثوابت الحياة، وعمق التاريخ ونداء المستقبل، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال عريض وكثيف هو: لماذا يجب التعويل بادئ ذي بدء على العالمثالثية.

في المقام الأول نجيب بأن هذا العالم الفسيح جزء من النظام العالمي وجدول كبير في محيطه ومعانقة العولمة إنما يكون بالتفاعل مع كافة عناصرها المكونة، بحيث أن الخطأ القاتل اعتبار النظام العالمي الجديد مرادفاً لتجربة الغرب، مهما كان دور هذا الغرب فاعلاً وكثيفاً.

هنا يسعفنا "الدكتور سليمان الديراني" في ظاهرة الانسياق وراء مرجعية الغرب، يقول المذكور: ((إذا كان الغرب يشهد بروزاً سريعاً وإقراراً مسرعاً لظاهرة ما بعد الحداثة بما هي نقد صريح لعقلانية الأنوار التي كانت وراء نشوء ظاهرة الحداثة

---

[1] - تعبير استعمله الميثاق الوطني الناصري.

عينها، فإن نسفاً صريحاً قد حصل كذلك لمقولة عالمية تسق التطور الغربي، فهل يصبح من الضرورية النظر في التجارب التحديثية الناجحة والفاشلة في العالم الثالث من زاوية ما تقدمه ما بعد الحداثة، وبالضبط من زاوية خلخلتها لمقولة التماهي مع النموذج الغربي، بما فيه من قيم عمل وأنظمة مجتمعية... وهل أصبح ضرورياً التفتيش عن القيم والمقاييس التي تعيش وقتها حالياً مجتمعات العالم الثالث))[1].

لا بد من طرح السؤال المتعلق بنتائج وتأثيرات مرحلة ما بعد الحداثة على توجيهات المجتمعات الساعية إلى تقليد الغرب بصفته ذروة الحداثة ومجسدها الأمثل، ومن زاوية الغرب نفسه، وهنالك طريقتان على الأقل لمقاربة هذا السؤال ومحاولة الإجابة عنه.

أولاً: إذا اعتبرنا أن ظاهرة ما بعد الحداثة هي نتاج اجتماعي طبيعي لمرحلة الحداثة عينها، بمعنى أن الحداثة فرضت منطقاً عالمياً لنسق التطور المجتمعي، ثم جاءت ما بعد الحداثة لتشكك بمقولة العولمة، فإن هذه الظاهرة الجديدة تشكك في مبدأ التطور المتفاوت المستويات في العالم الثالث، والمتماهي مع نسق التطور النموذجي، أي أنها تنتج طرح السؤال عن مدى إلزامية التطور في العالم الثالث وفق المراحل التي قطعها الغرب ما دام التطور الحدثوي في الغرب يحمل نفسه من التناقضات الداخلية الكامنة فيه ما يؤدي حكماً إلى مرحلة جديدة "ما بعد الحداثة"، تضرب كل النسق الحدثوي الغربي كنسق عالمي، ويظهر كم من مراحل

[1] – مقالة الموسوم بعنوان: الثقافة العالمية، الثقافة المحلية العالمثالثية وما بعد الحداثة، مجلة كتابات معاصرة، بيروت عدد 30، لعام 1997، ص25.

في هذا النسق عينه هي خاصة بالتطور الذاتي للغرب وليس ضرورياً اعتبارها مراحل أساسية في تطور كافة المجتمعات.

ثانياً: من زاوية تأثير العالم الثالث على الغرب، حيث جرى عبر المائتي سنة المنصرمة نوع التغلغل للعالم الثالث داخل العالم الأول (الهجرة – العقل – الدراسة – التبادر التجاري)[1].

هكذا يمكن القول إن أزمات الغرب الداخلية ليست كافية بذاتها لإعادة صياغة مفهوم جديد للتحديث في العالم الثالث[2].

وبلفت "الدكتور الديراني" الانتباه إلى ظاهرة اقتصادية عملاقة تشكل أنموذجاً تنموياً فذا هو بلدان جنوب شرق آسيا (كوريا الجنوبية – تايوان – هونغ كونغ – سنغافورة – ماليزيا الإسلامية).

لقد دخلت هذه الدول حديثاً الطور الصناعي مما يظهر أن التحديث الذي اعتمدته يشكل حاله من النجاح في منطقة اجتاحتها الحرب العالمية الثانية، أما الآن فقد بدأت تفتش عن أسواق جديدة وتدق أبواب الأسواق الغربية نفسها بصفتها ما ردا اقتصادياً جديداً يهدد بالزحف على أغلب مناطق العالم ما هو سر انطلاقة هذه الدول...؟؟؟.

---

[1] – المرجع السابق، ص26.

[2] – المرجع السابق، ص26.

يرد "الدكتور الديراني": ((ذلك أن الكونفوشية التي صاغت شخصية الفرد في تلك البلدان على مبادئ الاقتصاد في العيش والتوفير في الإنفاق، مراقبة الذات، العمل الجاد، التعامل الأخلاقي والقيمي)).

أجل لقد اعتمدت هذه الدول في الحداثة وليس التحديث على القيم الخاصة بالكونفوشية، وهو اعتماد نابع من ثقافتها وضميرها الوطني.

وإذا تذكرنا مقولة "فيبر" بأن إصلاح البروتستاني كان وراء الثورة الصناعية في أوروبا أدركنا مدى الدول الذي يلعبه الرأسمالي الرمزي العربي الإسلامي في مشروعنا الإنهاضي، بما يتضمنه من قيم العمل وحب العمل وبهجة الحياة وعدم الإسراف، والتفاؤل (إذا علم أحدكم أنه سيموت غداً وفي يده فسيلة فليغرسها) حديث شريف. واقتحام الحياة من أجل عمرانها:

- ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴿10﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ **الواقعة/10-11.**
- ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ **البلد/11.**
- ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **آل عمران/133.**

ولا حاجة للتطرق إلى النظرية الإصلاحية الانهاضية في الإسلام ودورها في التماسك الاجتماعي، كما لا حاجة للتأكيد بأن القيم الروحية الإسلامية تتماهى مع الضمير الجمعي الوطني، ومن المتعذر الحديث عن أية عملية تحديثية (نقول تحديثية لا حداثوية) إلا من خلال الجماهير العربية المتوترة روحياً والمسكونة في القيم الثقافية العربية والإسلامية.

وفضلاً عن ذلك «وخلافاً لكسروية وقيصرية أمريكا زعيمة النظام العالمي الجديد» فالإسلام يقدم لنا الميكانزمات والنواهض والأصول والمبادئ العالمية السامية الصالحة لأن تكون ميثاقاً يسوس هذه المسكون.

- من ذلك أصل العدل والمساواة والتقوى وأصل الإحسان، أصل الاستخلاف وعمران الكون والإيمان بالأصل المشترك للإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

- وأصل الدعوى إلى كلمة السواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ **آل عمران/64**.

- وأصل بذل السلام للعالم[1]، وأصل الخير الإنساني الشامل: «أَحَبُّ النّاسِ إِلَى اللّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنّاسِ».

- وأصل النفس البشرية "صيانة الحياة" وأصل الدين الواحد مع اختلاف الوسيلة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ **المائدة/48**.

- وأصل حقوق الإنسان وحرياته في أول إعلان لحقوق إنسان: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴿118﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ **طه/118-119**.

---

[1]- سئل الرسول ﷺ عن أفضل عمل يعمله الإنسان فأجاب: «بَذْلُ السَّلَامِ لِلعَالَمِ».

- وأصل الخيرية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء/114.

- وأصل إعمار الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/61، وأصل رفع الظلم، وأصل الإصلاح كفاية للحياة الإنسانية ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾ الأنفال/1.

- وأصل التنديد بالفساد ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا﴾ البقرة/205.

- وأصل العون ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/2.

- وأصل العزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون/8.

هكذا يمكننا الجزم بيقين بأنه لا خوف على أمتنا من الدخول في العولمة من باب عريض إذا ما وجدت صفها وحملت القرآن في يمينها والعقلانية وحب العمل في شمالها والكرامة في ضميرها.

خطاب العولمة خطاب كوني أم خطاب غزو واختراق

«ومسالة التجدد الحضاري الاسلامي»

حددنا أن العولمة إعصار أهواج هبَّ على العالم أجمع مقتلعاً الأخضر واليابس، وقد هب هذا الإعصار على أمتنا ـ متمثلاً في الغرب وخاصة أوربا ـ منذ مطلع الاستعمار الحديث، وكانت له منازلاته مع القوى الإسلامية الكبرى، ممثلة في الدولة التركية العثمانية، والدولة الصفوية الفارسية، والمماليك في مصر والمغول في آسيا الوسطى، ثم ممالك الزنج الإسلامية في غرب أفريقية، وقد انتهت هذه المنازلة التاريخية عبر ثلاثة قرون امتدت من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر[1]، وها هو لا يزال يهب، وإنما هذه المرة بقيادة أشنع هي الولايات المتحدة الأمريكية، حاملاً ـ لصفاء العيون ـ الكدر والرمال والطين.

ونحن في هذه الدراسة سنركز على رد فعلنا حيال إعصار العولمة على الجانب الثقافي الاختراقي لأمتنا.

لا ريب أن للهيمنة الثقافية كثافتها وثقلها وحضورها بسبب شراسة الإمبريالية الثقافية وهو سها وشعارها المحموم، ومع ذلك فقد اعتمدت العنوان القائم إيماناً وطيداً مني بأمتي وقدرتها على المثاقفة، ومنعتها وصمودها في الشدائد والمحن.

---

[1] – د. برهان زريق: المشروع الحضاري العربي الإسلامي، دمشق دار كنعان، 2007، ص 307.

هذه الثقافة التي تمتد بجذورها إلى آلاف السنين، تعانق أبداً شوق الحياة وكبرياء الحياة وشرف الحياة وإرادة الحياة وعناد الحياة، وما من ريح صرصر بقادرة على اقتلاعها، لأنها تتجدد أبداً ولا تُخترّقُ، وتضعف ولا تموت [1]، تُغلب ولا تركع، تُهْزَم ولا تستسلم.

ونحن لا ندل بذلك عتواً واستكباراً في الأرض، وإنما ثقة بهذه الأمة التي لا تزيدها المصائب إلا تجذراً وإلا ترسخاً.

وحقيقة الأمر أن أدبنا السياسي المعاصر، يحفل بأجهزة مفاهيمية، مثل: الغزو الثقافي، الغزو الصهيوني، الاستلاب الثقافي، الإمبريالية الثقافية، الاختراق الثقافي، المسخ الثقافي، الإبدال الثقافي، التداخل الثقافي، الاغتراب الثقافي، alienation cultural، وغير ذلك من المفاهيم.

هذه الظاهرة الثقافية ولنسمها تبسيطاً، بالعنف الثقافي أو بالعداء الثقافي - ليست غريبة على أمتنا منذ فجر حياتها، وما الشعوبية الثقافية في العصر العباسي إلا أحد مظاهر هذا الغزو، وقد خرجت أمتنا من ذلك الغزو ومثله معه، ظافرة، أشد مراساً، وأصلب مكسراً.

بيد أن هذه المسألة تأخذ مظهراً جديداً من العدو وشراسته، بسبب استشراء الرأسمالية وتغولها، بعد أن أزالت من أمامها كل معوّق، وهي تدخل راهنياً مرحلة جديدة هي مرحلة الاختراق الكامل للعالم بسبب الثروة العلمية والمعلوماتية والتكنولوجيا الفائقة، وقدرتها على تعميم إنجازاتها على المعمورة، وبسبب

---

[1] – د. شاكر مصطفى: مقال موسوم بعنوان "قراءات في الفكر القومي"، مجموعة من المؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، آذار 1994، كتاب 3، ص 102 وما بعدها.

تكنولوجيا الاتصال كما في أجهزة C W إضافة إلى المشاريع الاقتصادية الأخطبوطية الجبارة القادرة عل نقل السلوك الاجتماعي والاقتصادي إلى كل بقعة في هذه المعمورة ((لباس الجينز ومطاعم الهمبرغر))[1].

وحقيقة الأمر فعلاقتنا بالثقافة الغربية الأطلنطية ليست مثاقفة بالمعنى الفكري الصرف كما يصورها فكر الاغتراب والخواء العربي، بل المسألة تكمن في الذكريات المريرة القابعة والثاوية في أعماق ضمير أمتنا وذاكرتها التاريخية ضد هيمنة وعداء الغرب وثقافته[٢]، وليس من السهل علينا التخلص من تلك الصورة المانوية الرمادية التي تكونت من عدائية الغرب للعروبة والإسلام، ابتداء من العصر الوسيط مروراً بالحروب الصليبية، فاحتلال نابليون لمصر، فإجهاض المشروع النهضوي لمحمد علي باشا، صعوداً باحتلال المشرق والمغرب العربيين، فخطاب الوحدوي لجمال عبد الناصر، وأخيراً تصميم الولايات المتحدة والصهيونية طمس مقومات شعبنا في العراق من خلال غزوه الأخير.

والتدليل بأن الإسلام حقيقة سياسية دينية توتاليتارية في العمق والأنظمة الفكرية التي تتضمن في مبدئها الأصلي مشروع الفتح العالمي هي النازية والشيوعية والإسلام، ومن ثم فلا يمكن المساومة مع مشروع هدفه التدمير، والمسلم العادي

---

1 – د. محمد الذوادي: عالم الرموز عند الإنسان، مجلة المستقبل العربي، عدد 156 لعام 1992، ص 20.

2 – مقال الدكتور أحمد البغدادي: بعنوان في مفهوم الثقافة، مجلة عالم الفكر، المجلد 24، عدد 4، لعام 1996، ص 9

homo Islamic شخص لا يحول ولا يزول وهو يحمل مشروع التهديد في ذاته[1].

وقريب من ذلك ما أكده "ميشيل دوبريه" (رئيس وزراء فرنسا الأسبق) بأن الإسلام هو العدو الأول والمباشر للغرب، وقول "مارغريت تاتشر" (رئيسة وزراء بريطانيا السابقة) لقد بقي على الغرب أن يقضي على الإسلام بعد أن قضى على الشيوعية[2].

وفي نظر "ريمون دولان" وزير خارجية فرنسا، ومثله معه مجلة التايمز اللندنية إن العالم العربي وهم وإن ما هو أكثر منه وهماً سياسة ديغول المدلّة بأن هذا العالم هو محور سياسة المستقبل.

ولقد أقرت إدارة الرئيس الأمريكي "ريغان" مشروع قيام نظام شرق أوسطي يحلّ محلّ النظام الإقليمي العربي الراهن، كما أقر الكونغرس الأمريكي بالإجماع سنة 1983، مشروع المستشرق اليهودي الأمريكي البريطاني الأصل "برنارد لويس" القاضي بتقسيم منطقة الشرق الأوسط من جديد بما في ذلك تركيا وإيران وأفغانستان، بحيث ترسم خارطة جديدة للمنطقة، تتحول فيها كل قبيلة في الجزيرة العربية إلى دولة.

وحقيقة الأمر أن علاقتنا بالثقافة الغربية رهينة المعنى والقيمة، في حين أن المعنى في الغرب حبيس الهيمنة والمصلحة، والقضية أولاً وأخيراً محمولة على جدلية

---

1 - مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، العددان 15 و 16 لعام 1992، ص 307

2 - المرجع السابق، ص 305 – 306.

إنتاج المعنى وإنجازه، وبالتالي فبقدر ما يتغلب إنجاز المعنى في الغرب على إرادة الهيمنة بقدر ما يمكن أن تزكو علاقتنا معه، وتزهو وتؤتي أكلها وثمارها اليانعة.

ويبدو أنه من الصعب راهنياً أن نؤسس مع الغرب خطاباً حرّاً محمولاً على قاعدة صلبة ورضية من الحوار والتفاعل الثقافي، بل إن الغرب لا يزال يقدم نفسه من خلال إرادة الهيمنة والمصلحة وبواباتها وخلفياتها، وكل ما نتمناه أن يتخلّص من عقده وهرطقاته تجاهنا، علماً أن بمقدور مركبته أن تقود قاطرة العالم إلى شاطئ الله والمحبة والأنسنة، ومع مزيد الأسف فالغالب على خطاب الغرب طابعه الاقتصادي المحموم الخاضع لهيمنة الشركات متعددة الجنسيات ذات الشهوة المتكلبة السرطانية المتخصصة بامتصاص الدماء، وتقطيع الأوصال، والتغول على ثقافات الشعوب وقيمها[1].

وفي نظرنا فالمسألة أبعد من مسألة المظهر المادي الاقتصادي لحضارة الغرب، بل إن هذه المسألة تكمن في تلك الحضارة ذاتها التي انتهت فلسفياً إلى الوضعية واقتصادياً إلى الرأسمالية واجتماعياً إلى الفردية ودينياً إلى الإلحاد[٢].

زد على ذلك فهذا الغرب، لا يفتأ يطوّر وظائفه ويؤسّس نظمه ويطور حياته وقيمه على أساس المزيد من الشّره والهيمنة والابتذال الإنساني والسيطرة على مصائر الشعوب، وبالتالي فإذا ما استعرنا أسطورة جانوس اليونانية المتمثلة في رأس له وجهان، أحدهما يعلوه القَتَرُ والكآبة والظلام والآخر يطفح بالنور، إذا استعرنا ذلك فإن جانوس الغرب له وجه واحد فقط، يطفح بالدكانة والكآبة.

---

1 - كشف عن هذه الطبيعة السرطانية لتلك المؤسسات، د. عدنان شومان، اتفاقيات الجات الدولية، دمشق، دار المستقبل 1996.

2 - الياس مرقص: المذهب الجدلي والمذهب الوضعي، ط1، 1991، ص 995.

وهذا الوجه "لجانوس" الغرب يظهر جلياً في تدعيمه المركز المقترن بتفتيت الأطراف (العالم الثالث) وإلحاقها بالمركز، وما انقسام المعمورة إلى شمال وجنوب إلا مظهر لهذا التقسيم الإمبريالي [1].

كما يظهر في هاجس الإمبريالية في السيطرة على النماذج الثقافية، أي في توحيد مقاييس المعرفة وتحويلها إلى سلطة في الوقت الذي تحول فيه العالم إلى سوق دولي يرتبط كلياً بها. وهناك مظهر آخر لخطورة جانوس الغرب يتجلّى في حمأة التكنولوجيا وآثار زرعها في نظام لم ينتجها تاريخياً واجتماعياً باعتبار أن هذه التكنولوجيا هي نقطة التقاء الاجتماعي بالثقافي بالتاريخي. وأن نقلها في حقيقة الأمر نقل للحضارة الأمريكية ذات السبق في إنتاج أحدث أشكال وأدوات التنظيم المعلوماتي للمعرفة، وليس عجباً أن تكون التي تحملها العقول الالكترونية والأقمار الصناعية هي رسالة أمريكا الوحيدة إلى العالم[2].

هكذا يؤكد الأستاذ "بسام صقر" على السمة الشمولية للتكنولوجيا وبعدها عن الحياد والقوة الغاشمة لها، والإمبريالية لا تني تزج بنفسها في حمأة الصراع الدولي[3] من أجل الإمساك بتلابيب الثروات الطبيعية في العالم، ووسيلتها في ذلك، امتلاك الرأي العالم العالمي وتوجيهه نحو ذهنية القبول بالقوى كحقيقة

---

1 - انظر رأي غارودي في كتاب الإسلام- الأخلاق- السياسة، لـ د. محمد أركون، بيروت، معهد الإنماء القومي، 1990، ص 221.

2- مجلة قضايا عربية، أيار 1980، ص 218.

3- د. مدبر الويس: المثقفون العرب والمستقبل العربي، مجلة الوحدة، عدد 101، لعام 1993، ص 179.

4- قوة الإعلام والغزو المقنّع، مجلة الفكر العربي، عدد 74، لعام 1993.

تاريخية لا تقبل النقاش[4]. وهذه الحضارة الغربية القائمة على الصراع والتنافس، وفلسفة السوق أبعد ما تكون عن العطاء والتوهّج والإشعاع وأقرب ما تكون إلى المركزية والتسلّط، فهي لا تني تشنّ الحرب وتؤججها بين الشعوب، ولا تفتأ تمزق أوصال النسيج الثقافي والقاعدة الفكرية للشخصية العربية الإسلامية، وهذا ما أكده وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، بأن انهيار جدار برلين قد نقل الصراع إلى شمال وجنوب، وحول في الوقت ذاته الصراع مع العرب والمسلمين إلى إطار الساحة الثقافية[1].

وهذه الإمبريالية الثقافية لا تعدم التعويل على مقولات فكرية، إلا أنها مقولات ضبابية سرابية تجريدية، تكتسب سمة الجواهر الثابتة والمتجانسة مثل مقولة الحضارة، الإنسان، التكتيك، وغير ذلك من الأفكار العامة غير القائمة على الضبط والتحديد، وغير القابلة للتعامل معها بجلاء، والجلاء ـ كما هو معلوم ـ هو ركن القاعدة الخلقية.

وتأسيساً على ذلك، فهذا الفكر يلغي الاختلاف والأزمنة والإيديولوجيا والتاريخ والسياسة ويبقي على زمن واحد هو زمن الانفتاح والاختراق الصهيوني وصولاً إلى أنسنة الأشباح والاعتراف بإسرائيل انطلاقاً من مقولة: إذا كان العالم متجانساً فإسرائيل جزء من هذا العالم المتجانس، فهي إذن متجانسة معه، وهذا في النتيجة يسمح لإسرائيل أن تستمر في مد شرايينها وعروقها الأخطبوطية في نسيج أمتنا [٢].

---

1 – أ. عمر الحامدي: الثقافة العربية والنظام العالمي الجديد، الابعاد الحضارية للمتغيّرات الدولية، المجلة عدد 99 لعام 1992، ص 107.

2 – فيصل دراج: من انهيار الثقافة إلى ثقافة الانهيار، مجلة النهج، خريف 1994، ص 131.

وحقيقة الأمر أن الكونية التي تدعيها وتتمسك بها هذه الامبريالية، تخفي وجهاً احتوائياً عدوانياً، يطمس مقومات العالم، ويستأصل مناهجه وقيمه ويمحوها من لوح الوجود[1].

كيف يمكن الحديث عن كونية، وهذا النظام العالمي المزعوم تتحكم به طغمة أوليغارشية تفتقر إلى أي تكوين خلقي وعلمي؟ وهي تمتلك في الآن نفسه آلاف المليارات من الدولارات، وتتحكم بالسياسات الدولية وعلى رأس ذلك الولايات المتحدة الأمريكية[2].

إنها كونية تائهة تسودها عبادة العجل الذهبي، وتسرح فيها قوة المال التي حلت محل المادية التاريخية لتحطم كل تراث للإنسانية[3].

ولا حاجة للتأكيد بأن المفروض بالكونية أن تقوم على توطين القيمة الإنسانية، وتعزّيز الشخص البشري، وتوطيد المواطنة العالمية، فهل هذه الكونية تستهدف ذلك لتكون موضع الاقتداء والاحتذاء؟.

لقد فشل النظام الرأسمالي في عمومية مشروعه، أي بالتوجه إلى العالم بخطاب قائم على المساواة، فهل النظام العالمي الجديد يحمل هذا الخطاب العام المجرّد؟ وما هي أولياته وأسسه؟.

1 – د. محمد لطفي اليوسفي: الثقافة العربية في مهب التحدّيات، مجلة النهج، خريف 1994، ص114.

2– د. عبد الله عبد الدائم: مستقبل النظام العالمي، مجلة شؤون عربية، العدد 74 لعام 1993، ص9.

3 – المرجع السابق، ص 11.

لا حاجة للتدليل بأن هذا النظام علماني المحتد والمنبت، ولكن أليست العلمانية هي المسؤولة عن عدم عمومية مشروعها، لنستمع إلى هذه الشهادة الثمينة من الدكتور محمد أركون، إذا يقول: إن الجمهورية الفرنسية بازدهار الوضعية (الوضعية المتطرفة) التي أصبحت إيديولوجيا فرنسا لأجيال متعاقبة، ويجب أن لا ننسى أن ظاهرة الفتوحات الاستعمارية ازدهرت في ظل تلك الجمهورية الثالثة[١].

وليست القضية مقتصرة على الماضي فحسب، بل فالإشكالية لا تزال قائمة، والدول الغربية لا تفتأ تدعم الأنظمة القمعيّة، ويا لها من فوضى معنوية شاملة[٢] وكاسحة، تلك التي تسيطر الآن على العالم، وهي فوضى مؤلمة تشارك فيها الدول الكبرى وأجهزتها وأدواتها البيروقراطيّة المالكة لأحدث وسائل المعلوماتية، بالإضافة إلى أنظمتها المصرفيّة.

هل تتوفر الأخلاقية في هذه الكونية المطروحة؟؟ لا نظن ذلك وهذا ما يؤكده البرفسور "لوكاس" عضو اللجنة القومية للأخلاق في فرنسا، فقد أشار إلى أنه لا توجد في فرنسا أية ذروة مدنية أو علمية أو أخلاقية نسبية، هذا مع العلم أن خطاب الوحي كان قادراً على ذلك بشكل مطلق، فقد كان يحتوي على ما يمكن أن ندعوه بمديونية المعنى، وكان الناس يخضعون له بشكل عفوي، وطيبة ظاهرة، وبصورة عميقة ودائمة، أما اليوم فلم يعد ذلك ممكناً[3]، والمفترض أن هذا النظام

---

1 – د. محمد أركون: الاسلام–أوروبا– الغرب، ص211.

2 – المرجع السابق، ص 33.

3 – المرجع السابق، ص 103، وانظر مقال لوتهر باي: هل هنالك أوروبا أدبية؟ مجلة الفكر المعاصر، عدد 78، 79 لعام 1990، ص 125.

العالمي الجديد يحمل خطاباً عاماً للعالم، فهذا الخطاب يفتقر إلى الأصالة، والروحانية والجوهر، ولا يعدو ان يكون ذا سمة واحدة، تعانق بعداً واحداً في الإنسان هو البعد الاقتصادي.

وهكذا يؤكد الدكتور سمير أمين أن الفعالية الاقتصادية هي المشروعية الاجتماعية الوحيدة في النظام الرأسمالي، وهذه الفعالية هي فعالية قوانين السّوق في شكلها المبتذل[1].

لقد قصرت حياة الإنسان المعاصر على المحسوسات والمادّيات، فإذا هو في أعماقه فراغ موحش، متعطش للمعنويات التي أفلست الحضارة المادية في التعامل معها.

هذه الحضارة تشكل من وجهة نظر جيوسياسية بدايةً لانحطاط الحياة الإنسانية وانعطافاً كوبرنيكاً خطيراً سينتهي به المطاف إلى حيوانية الإنسان.

إن مركبة الغرب عاجزة عن جر قطار البشرية بطريق الله وبطريق الشرط الإنساني والأخلاقي، وبالمقابل فالطريق الذي تعبّده هو طريق مادي صرف، اختزل في أحسن أحواله الإنسان، وابتسره إلى مظهره الاقتصادي الصرف، وإذا قلنا إن الشرط البشري اختزل في الحضارة الغربية إلى البعد الاقتصادي تأكد لنا سبب فشل الحضارة في جناحها الشرقي، وهي مرشّحة بأن تُفشل، ومن باب أولى في جناحها الغربي المحمول حالياً على هذا النظام الجديد.

إن الغرب يرشح نفسه على أساس أنه كارزما العالم وقائده، ولكن الكارزما تعني العطاء والتألق والإشعاع تماماً كالتلفاز التي يتحف ما حوله بالعطاء، ونأخذ مثلاً بسيطاً كما تقدّمه هذه الكارزما لأمتنا فيما يسمى بالنظام الشرق أوسطي، فهذا النظام ليس وليد المعطيات الضمنية وثوابتها وقيمتها، بل هو تقيّؤ الغرب وصديده، فهو الابن البيولوجي المنحدر من صلب النظام

1 - د. سمير أمين: مقتضيات برنامج تحرري إنساني، مجلة النهج، ربيع 1997، ص7.

الجديد، لذلك فهو نظام وضعي صنعي غير قادر على إلغاء الهوية العربية، كونه لا يقيم بديلاً عنها في شكل انتماء ثقافي حضاري، وتبعاً لذلك فهذا النظام لن يكون إلا موزاييكا من الهويات يولد العديد من المواجهات والتحديات لا سيما بين منطق الأمة ومنطق الدولة، وبين منطق الدولة ومنطق الخصوصيات الإثنية، وأخيراً بين منطق الدولة وبين التفاعل المتوازن مع الخارج [1].

هكذا يذكرنا "الدكتور عبد الحميد غانم" بوثيقتين خطيرتين صدرتا عن المسؤولين في البنتاغون، ونشرتا في الصّحافة الأمريكية بتاريخ 1992/2/18 وفي 1992/3/9، وقد أوضحت هاتان الوثيقتان ملامح النظام العالمي الجديد، وحق الولايات المتّحدة في الاحتفاظ بالأسلحة النووية والإستراتيجية واحتكارها أو في خوض الحروب في أية بقعة من العالم، وتدمير أية ترسانة نووية أخرى بما في ذلك ترسانة أوروبا، كل ذلك من أجل التحكم في مسار التاريخ الكوني،

تأميناً لسيطرتها ولسان حالها قول الرئيس الأمريكي "روزفلت" قدرنا أمركة العالم، احملوا العصا الغليظة تتوغلوا أبداً[٢].

لقد أفاضت الوثيقتان في الحديث عن الأسلحة النووية، لكنها لم تتعرّض إلى الأسلحة النووية لدى العدو الصهيوني.

---

1 - أ. ناصيف حتي: التحولات في النظام العالمي الجديد والنتاج الفكري الجديد، مجلة المستقبل العربي، 1965.

2- مقال بعنوان الهيمنة الأمريكية في ظل النظام العالمي الجديد، مجلة الوحدة، عدد99، 1992، ص112.

وإلى جانب السلاح النووي يقف السلاح الثقافي الاقتصادي الاستهلاكي القائم على الخواء الروحي والفكري والإنساني من أجل تشويه الإنسان وتدميره من الداخل، وتسفيه قيمه، وإفراغه من مضمونه الديني والقومي، وتشكيكه في قيمه الروحية وقناعاته الوجدانية[1].

وأبعد من ذلك فالإمبريالية الثقافية لا توفر جهدها في الهيمنة حتى على الثقافة الأوروبية ولقد شعرت هذه الأخيرة بجسامة الخطر، فانبرت تضع السدود في وجه الغزو الثقافي الأمريكي، نجد مثلاً على ذلك رفض هيئة الإذاعة البريطانية إذاعة ((شارع السمسم)) الأمريكي لأنه يحمل إلى الأطفال القيم الضارة، كما عبرت السلطات الفرنسية عن قلقها لغزو الأفلام السينمائية والتلفزيونية الأمريكية، بل أن الكثيرين من الكنديين يخلطون بين الجندرمة الكندية وبين المباحث الأمريكية نتيجة إغراقهم بالمسلسلات الأمريكية[2].

إذن كيف نصف النظام العالمي بهذا الوصف، والدول الغربية الكبرى التي فصلته على قياسها غير حريصة على احترامه.

أجل لقد وقف "بوش" ليعلن أمام الكونغرس عقب نهاية حرب الخليج الثانية بأن القهر والخوف لم يعد لهما مكان في العالم، وأن عهداً جديداً من العلاقات الدولية سيسود العالم، وأن حلولاً ملائمة لكل القضايا المطروحة سوف نجد طريقها إلى

---

1 - د. مدبر الويس: المثقفون العربي والمستقبل، مجلة الوحدة، العدد 101 لعام 1993، ص17.

2 - د. عماد فوزي شعيبي: كيف نفهم النظام العالمي الجديد، مجلة الفكر العربي، عدد 78 لعام 1992 ص 27.

الوجود، وأن هيئة الأمم ومجلس الأمن سوف يستعيدان قصورهما وهيبتهما، وستراعى مبادئ العدالة الدولية[1].

هل تحقق شيء من هذا القول...؟؟ لا نعتقد ذلك، وفيما يلي على سبيل الاستدلال ببعض الأمثلة التي تكذب تلك التخرصّات.

لقد أصبح مجلس الأمن مؤسسة أمريكية إلى حد كبير، ولعل ما يؤكد ذلك قول الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون ((ونحن إذاً أردنا التدخل عسكرياً لحماية مصالحنا الحيوية فعلينا أن نحذو حذو الرئيس الأمريكي بوش في حرب الخليج، أي أن نوظف الأمم المتحدة لنا لا أن نكون أداة لها.

والحرب التجارية بين أمريكا وأوروبا الغربية التي أوشكت على الانفجار إلى أن تحقق أوربا الغربية حضورها كقوة ذات استقلال شامل بعد وحدتها، الأمر الذي يرد عليه الأمريكيون بتحالفات جديدة في الشرقين الأدنى والأقصى والخليج العربي والأماكن المؤثرة.

ولا أدل على ذلك من قول ليون بريتان مفوض التجارة الخارجية أمام البرلمان الأوربي بتاريخ 1997/3/18 [2]: إن حرباً تجارية بين أوربا والولايات المتحدة قد تعرض العلاقات السياسية بينهما للخطر ومحاولة استقطاب قوى جديدة لتصبح ذات عضوية دائمة في مجلس الأمن الدولي على أرضية ما حققته من تقدم وازدهار ونجاحات في المجال الاقتصادي مثل اليابان وألمانيا، وذلك بغية كسب

[1] - د. علي عقلة عرسان: المثقف العربي والمتغيرات، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العربي، عام 1995، ص 12.

[2] - جريدة السفير اللبنانية 1992/11/11.

قوى أخرى تكون أطراف التحالف المقبل في حال انفجار الصراع البارد أولاً، فالسّاخن أخيراً الذي أذنت للحرب العالمية الثالثة بولادته تكون ذات وجه اقتصادي ثقافي بالدرجة الأولى..

مما سبق يتضح أن النظام العالمي يقوم على فكرة المصلحة ليس إلا، وبالذات مصلحة الولايات المتحدة دون أي اعتبار لأية مصلحة لدولة أخرى، لا سيما دول الجنوب، وهذا ما يتضح من قول وزير الدفاع الأمريكي "ديك تشيني": ((لا توجد دول حليفة معادية لمصالحنا، بل إن قوى دول العالم وأكثرها إمكانات وقدرات، هي دول صديقة لنا، وليس هناك منطقة في العالم تشكل خطراً على مصالحنا ويسيطر عليها حكم معادٍ)) [1].

- سيطرة أمريكا على النفط لا سيما في الخليج العربي كله بعد إخراج العراق من السوق، ودور وتأثير الجاسوسية (C. I. A) في العالم.
- سيطرة أمريكا على سوق السلاح العالمي لا سيما بعد أن تراجعت مبيعات الدولة المنافسة لها كالاتحاد السوفيتي وغير ه وهذه السيطرة الأمريكية ظهرت بصورة خاصة في أسواق الخليج العربي[٢].

وهكذا تتحدد بؤر الصراع والقنابل الموقوتة التي يمكن أن تنفجر فتسبب على الأقل الحرب الباردة ((الاقتصادية والثقافية)) تتحد بما يلي:

---

[1] – تقريره إلى الرئيس والكونغرس الأمريكيين، شباط 1992، ترجمة العميد الركن المتقاعد نافع أيوب لبس،ص58، مركز الدراسات الفكرية، دمشق 1993.

[2] – د. علي عقلة عرسان: المرجع السابق، ص23.

احتلال منابع النفط، المسيطرة على الطاقة وعلى الأسواق التجارية لا سيما أسواق تجارة السلاح، احتكار الثقافة العالمية، والتصنيع النووي، القوة الاقتصادية الجبّارة.

وعلى سبيل المثال فقد قدر مبيع أمريكا للسعودية في صفقة واحدة ما قيمته عشرون مليار دولار أمريكي، وقد قبضت إسرائيل عمولة على هذه الصفقة مبلغ مليار دولار، هذا ما صرح به، "ديفيد ستاينر" ممثل إيباك ((لجنة الشؤون العامة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية))، حيث قال إنه حصل على المبلغ المذكور عن طريق جيمس بيكر.

لكن ما هي الصورة لدى الضفة الأخرى ((دول الجنوب))، هذه الصورة باختصار: الحاجّة، البطالة، الانفجار السكاني، المجاعات، الكوارث، المزاحمة الاقتصادية، تشديد الضغط من قبل دول الغرب على البلدان المتجهة نحو النمو، والتي لا تستطيع سداد فوائد ديونها.

إضافة إلى ذلك فهنالك كوارث اجتماعية وخلقية من انتشار الفساد والانحلال الخلقي، وتخريب البيئة عن طريق دفن النفايات النووية، والتشجيع على قطع الأشجار وانتشار المرض والجهل.

ولعل دخل الفرد أكبر مؤشر لهذه الأوضاع والكوارث، إذ أن هذا الدخل يبلغ سنوياً في دول الشمال/1700/دولاراً/، في حين أنه لا يتجاوز/340/دولاراً في الدول النامية.

ويشير تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة، إلى أن (60 بالمائة) من سكان العالم يحصلون على (5.55 بالمائة) من الدخل العالمي ولا يملكون سوى (4.84) بالمئة من التجارة العالمية، بينما يحصل خُمّسُ سكان العالم على (82.7 بالمائة) من الدخل

العالمي وعلى (81.2 بالمائة) من التجارة العالمية، ويستهلك الشمال وسكانه ربع سكان العالم (70 بالمائة) من الطاقة العالمية و (75 بالمائة) من معادنه (85 بالمائة) من أخشابه و(60 بالمائة) من غذائه [1].

هذه الصورة الداكنة الشوهاء للنظام العالمي تظهر جليّاً في ازدواجية معاييره فيما يتعلق بقضية فلسطين، وتدمير العراق ومحاصرته، ثم الضغط على الدول التي تبيع سوريا الأسلحة، وأخيراً الوقوف في وجه الباكستان فيما يتعلق بامتلاك السّلاح النووي والسماح للعرب حلفاء إسرائيل بذبح المسلمين في البوسنة [٢].

واستناداً إلى ما تقدّم يشير الدكتور سمير أمين إلى أن النظام العالمي الجديد القائم على التحكم بالسوق تحكماً مطلقاً قد أنتج في زمن قصير مزيداً من الفوضى وتفاقم التناقضات التي تجلت في احتدام ظواهر الفقر والاستقطاب على صعيد عالمي وعلى الأصعدة القطرية [3].

ويؤكد "الدكتور أمين" على ظاهرة أساسية في آلية عمل الرأسمالية هي أن الاستقطاب الذي يمثل التضاد في ثروة المراكز المتزايدة وفقر الأطراف المتفاقم، هذا الاستقطاب أخذ أيضاً في التصاعد.

أما مظاهر الاستقطاب المذكور فهي مجالات النظم المالية المعولمة والبحث التكنولوجي والحصول على الموارد الطبيعية والسيطرة على وسائل الاتصال

---

[1] – كرم الحلو: جريدة الحياة، 1993/3/28، عن تقرير الأمم المتحدة عام 1992.

[2] – د. علي عقلة عرسان: المرجع السابق، ص25.

[3] – مقالته بعنوان مقتضيات برنامج تحرري إنساني، مجلة النهج، ربيع 1957، ص10.

والإعلام وإنتاج أسلحة التدمير الشامل، وإن من شأن ذلك أن يضفي على قانون القيمة العولمة [١] قوة استقطابية متجددة وقوة مضاعفة.

ويلفت "الدكتور أمين" الانتباه إلى ناحية هامة هي عدم اندماج أسواق العمل التي ستظل متفتتة ومحبوسة في أطر الدولة السياسية القائمة [٢].

ولا حاجة للتأكيد على أن الاستلاب الاقتصادي هو لب الرأسمالية وأن إخضاع الطبقات العاملة لمقتضيات الهيمنة، يناقض ميول الإنسان من أن يصبح سيد مصيره[٣].

بعد هذه الصورة الداكنة نستطيع الانطلاق مع الدكتور "بسام طيبي" والتدليل بأنه من الخطأ القول بأن علاقتنا بالثقافة الغربية هي علاقة احتكاك، بل هي علاقة اصطدام وتحدٍ، والغرب لا يتورع أن يعمل على تحويل قيم وثقافة العالم إلى كومة من الخردة [٤].

والسياسة الإعلامية اللا امبريالية تعتمد دائماً التضليل، مثلها في ذلك مثل مدير القناة التلفزيونية الذي معدل برامجه حسب قانون العرض والطلب، وعلى ضوء مقاييس الاستماع والمشاهدة[٥].

1- د. سمير أمين: مقتضيات برنامج تحرري إنساني، ص6.

2 - المرجع السابق، ص6.

3 - المرجع السابق، ص5.

4 - د. بسام طيبي: الثقافة العربية المعاصرة على مفترق طرق، مجلة شؤون عربية، العدد 15، لعام 1992، ص 49.

5 - هذا الكلام لريجيس دوبرية، أنظر مقال د. يوسف رمضان بعنوان من أجل فهم موقع الخطاب الإعلامي الغربي، مجلة الوحدة، عدد/97/، لعام/1992/، ص129.

ويطالعنا "الدكتور كمال عبد اللطيف" بولادة جهاز مفاهيمي أخذ يتردد على صعيد الأدب السياسي ألا هو الغزو الإعلامي[1].

إذا كان "الدكتور عبد اللطيف" ينفي فكرة المؤامرة في التاريخ، إلا أنه يؤكد امتلاك الغرب لجبروت إرادة تاريخية مادية، قوامه أساطيل تتحرك بالطاقة النووية وصواريخ عابرة للقارات وأقمار اصطناعية مركبات فضائية تصل إلى القمر إضافة إلى القنابل الذرية والنووية والنيوترونية والأسلحة الجرثومية.

هنا السؤال الذي يطرح نفسه وهو: أليس الموضوع الأساسي للسياسة في عصرنا الراهن هو امتلاك القدرة على صعيد المتكون الاجتماعي وامتلاك الطاقة على صعيد المتكون الطبيعي، وإن القدرة على الصعيد الاجتماعي ذات مفهوم موسع وما الثقافية أو السلاح إلا مظاهر للقدرة وإن هيمنة السلاح تستتبع تنمية الثقافية.

ولا حاجة للتأكيد بأن الإعلام الغربي لاسيما الأمريكي مدعو لصيانة الوجدان الأمريكي بما يخدم الصهيونية وادعاءاتها ومزاعمها ومن مظاهر توظيف الإعلام الأمريكي لصالح الصهيونية دعوته إلى أفكار الحركة الصهيونية المسيحية الأصولية...

بحيث يقدر عدد محطات الإذاعة الدينية ما بين/1200 – 1400/محطة، تبث الواحدة منها حوالي/17/ساعة يومياً، وأهمية هذه الوسيلة تكمن في أن متوسط ما يقضيه تلاميذ المدارس الثانوية من الوقت أمام شاشة التلفزيون يفوق ما يقضونه في المدرسة، كما أن التلفزيون يعتبر المصدر الرئيس لوجهة نظر الأمريكيين عن العالم الخارجي.

---

1 – مقالة الموسوم بعنوان في التجديد الثقافي منشور في الثقافة والمثقف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/1992/، ص140.

وهنالك ملاحظة هامة هي أن هذا النشاط الإعلامي غير محصور في الولايات المتحدة، إذ أن القس عررون هو أحد الأوائل من رجال الكنيسة الذي تنبهوا إلى أهمية "الكنيسة المرئية" وقوة هذا التأثير، أقام ودعم القناة/12/المسماة "نجمة الأمل أو تلفزيون الشرق الأوسط" في جنوب لبنان هذه المحطة التي تبث في المنطقة التي يسيطر عليها أنطوان لحد لأجل خدمة المخططات الصهيونية[1].

وهناك ملاحظة هامة هي أن الغرب وبعد زوال الاتحاد السوفيتي وأفول الحرب الباردة، أخذ يبحث عن مجال جديد للصراع، فوجده في الصراع الحضاري، وهذا مغزى مقولة "فوكوياما" في "نهاية التاريخ" ومقولة "هنتنجتون" إن مستقبل الأحداث التاريخية سيدور حول الصراع بين الحضارة العربية الإسلامية ذات الحدود الدموية على الدوام، وبين الحضارة الغربية ذات التقاليد اليهودية والمسيحية.

وهنا سؤالاً يطرح نفسه هو: هل الإشكالية من الإسلام أم من المخططات الاستعمارية التي لا تني تركز على مناطق الشعوب الإسلامية من أجل استنزاف مواردها وخيراتها؟؟ وهل أن مقولة "فوكوياما" في جوهرها مقولة اقتصادية صرف.

ومن جهة ثانية فهذا التركيز المفتعل على صحوة الإسلامية هو في جوهرة وعمقه محاولة لضرب صحوة الحضارة العربية الإسلامية.

على هذا الأساس يؤكد "الأستاذ فهمي هويدي" أن الغرب يتخذ من الأصولية الإسلامية ذريعة لاستئصال الحال الإسلامية.

---

1 - أحمد مفلح: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، مجلة المستقبل العربي، عدد/168/، لعام/1193/، ص177.

وهنا المشكلة نفسها ينطلق الدكتور إدوار سعيد ليؤكد أن هنتنجتون يحيى بأفكاره روح الحرب الباردة، وإن كان العدو الجديد هو الإسلام والعالم الثالث لا الاتحاد السوفيتي.

وليس غريباً إذن أن ينبه "هنتنجتون" الغرب ويخدره من قصة التقاء الحضارتين الإسلامية والكونفوشية، ودعوة إلى عمل المستحيل من أجل الحيلولة دون ذلك.

ويربط الدكتور "رفعت السيد أحمد" بين الهيمنة الحضارية والمعنوية للنظام العالمي الجديد وبين إسرائيل التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الأمن القومي الأمريكي الحريص على إبقائها متفوقة ومهيمنة لتستطيع القيام بالدور التأديبي، ويلفت الانتباه إلى أهمية الاتفاقات الثقافية من أجل تحقيق هذه الغاية، كما في اتفاقية (فولبرايت) التي عقدت مع إيران وتركيا، ثم تبعتها دول أخرى لدرجة أن 12/4 من المنح الثقافية الأمريكية خصت دول الشرق الأوسط [1].

إذا كان جوهر الصراع بين دول العالم الثالث والغرب، فإن رحى هذا الصراع سيدور على أرض أمتنا باعتبارها لب هذا العالم، وما حرب الخليج الثانية إلا بداية لذلك، وهي في الوقت نفسه إنذار لكل من تسوّل له نفسه الخروج عن الطاعة الغربية [٢].

ويلفت "الدكتور إدوار سعيد" الانتباه إلى نقطة أساسية هي استحالة سيطرة واحدة على العالم حسب مقولة "هنتنجتون" و"فوكوياما" وإلى الخطورة الناجمة عن

1 – مقالة بعنوان: غزو العقل العربي، الدور الإسرائيلي الأمريكي في المنطقة، مجلة الوحدة عدد 69 لعام 1999، ص 54 ما بعدها.

2 – عمر الحامدي: الثقافة العربية والنظام العالمي الجديد، الابعاد الحضارية للمتغيرات الدولية، مجلة عدد 99 لعام 1992.

هذه الأفكار السوداء، وفي الوقت نفسه ينبغي أن تكون مشكلة المستقبل في الصراع بين الإسلام والغرب، بل إنه لمن المنطلقات الفكرية الخاطئة تلك التي تدعو إلى الصراع بين الحضارات.

هكذا نكون قد تكلمنا عن النظام (اللا نظام) العالمي الجديد، تكوينه، وظائفه، وجهته، مناطه، أهدافه وغاياته، وهي صورة تؤكد أن علاقتنا معه لا تقوم على أساس فكري حر، ومع ذلك فلا تخلو ثقافتنا من بعض الخطابات التي تؤكد أن تلك العلاقة هي علاقة مثاقفة **acculturation** لا تشوبها شائبة.

ولعلنا نجد مثالاً عن هذا الخطاب في المقال الذي خطته براعة "الأستاذ علي حرب" تحت عنوان **غزو ثقافي أم فتوحات فكرية**، حيث يتلخص هذا المقال في الفكرتين الآتيتين:

((علاقتنا مع النظام العالمي الجديد علاقة فكرية محضة، وهذا هو مغزى وسم المقال بعنوان **فتوحات** تأسيساً على كتاب الفتوحات المكية لابن عربي، وعلى اعتبار أن الفكر يحتضن في ذاته القوة التي تفتح له آفاق المسالك والطرق، كل ذلك بصورة طبيعية، ولا مجال إذن للقول بالغزو «خطاب الخصوصية الثقافية»، ذلك أن الحقيقة هي حقيقة الكائن عينه، إنها فاعلية الكينونة وكينونة الشيء هي قوته ومداه الوحدوي وقدرته على الانفتاح والتوسع والانتشار، والفكرة لحظة، لها فعلها وأثرها والأفعال الضخمة تملك الفعالية على التأثير، تبقى ملاحظة واحدة هي وجوب التمييز بين الطفل وغسيله، وبين القمح والذؤان، وبين إرادة الهيمنة وتسخيرها لنزواتها، وبين ما أنجزه العرب لصالح الانسانية والتقدم.

أما بالنسبة لأسبقية سؤال الوجود على سؤال العروبة، فنعتقد أن "الأستاذ حرب" وضع العروبة قبل الحضارة إذ ليس صحيحاً هذا السبق، بل الصحيح أن يتصدر السؤال العروبة ويسمو على كل سؤاله، إذ بمعراجه وأولياته ونواهضه وتصوره للحياة والوجود استطلع المعراج والارتقاء إلى أي مرتقى بما في ذلك اللحظة الكونية، ومن ثم فإن تحقق الذات وتعملقها وجوهرها هو الشرط اللازم الكافي للعطاء حتى على صعيد الكونية.

ذلك أن الجذور هي التي تنشئ الأوراق والأغصان والساحة المغناطيسية هي التي تحرك الإبرة، والجسم الكاسح هو الذي يجعل الرأس الكاسح، وبالعكس فالرأس في جسم كسيح سيكون بدون شك كسيح، ولا بد للجسم القوي من إقدام ثابتة تحمله، وتمكنه من القيام بمسؤولياته.

على هذا الاساس فالحركة لا بد لها من محور تدور عليه، ومبادئ الحياة الضخمة هي أساس الدستور الشكلي والسياسي هي فيزياء الواقع وتقنيته ليس إلا تماماً كما أن الفيزياء تقنيه للطبيعة.

استناداً إلى ما تقدم يؤكد "ريجيس دوبريه" أنه: ((إذا أردت أن تلتمس السياسة فالتمسها في الإيديولوجيا، إذا أردت أن تلمس الإيديولوجيا فالتمسها في الدين وإذا أردت أن تلمس الدين فالتمسه في الفيزياء الاجتماعية)).

فعلى صعيد الفلسفة تجد مقولة الواحد هو الكل وهي مقولة مضلله مقنعة تقوم على المغالطة الذهنية واللفظية.

أما على الصعيد القانوني فتجد ذلك في مقولة نظرية سيادة الأمة المدللة بأن الأمة تقوم على أفراد متجانسين ومتحدين ومتساوين، وتربطهم النظرة القومية، وهذا

التجانس يفرز من يمثل الأمة وبالطبع فهذا يقود تضليلاً إلى تصدي أي شخص للادعاء «بآلية التجانس» بتمثيل الأمة، وهكذا فقد سقطت هذه النظرية تاريخياً، وكان آخر مظهر من مظاهرها ادعاء تمثيل البروليتاريا للتاريخ الكوني وانزلاق هذا التمثيل إلى اللجنة المركزية فإلى ستالين بما في ذلك من كاريكاتورية للتمثيل وهذا ما قاد الفكر الإنساني إلى نظرية سيادة الشعب المتضمنة امتلاك كل فرد لجزء من الإرادة العامة، وعلى أساس أنه لا يمكن فرد أن يدافع عن آخر كالشخص ذاته، وعلى أساس أن الشعب الاجتماعي أساس الشعب السياسي سنداً لقوله ﷺ: ﴿لِكُلِّ ذِي مَصْلَحَةٍ مَقَالٍ﴾.

ولقد طالعنا التاريخ الإسلامي بتطبيق لنظرية سيادة الأمة متمثلاً في نظرية المال لله والحاكم أو الخليفة هو الوكيل على هذه الأموال، والقفل الذي يحرسها على عكس نظرية سيادة الشعب المتضمنة أن لكل مسلم حقاً معلوماً في مال الله، ومظهر ذلك أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب توفي ولم يكن في بيت المال درهم واحد.

والخلاصة أن الفكر الصحابي التجريدي المثالي هو الذي يتكلم فوق التاريخ والواقع، ويعانق الجواهر الثابتة، فهو كالنحلة التي تخلق من الفراغ دون أن يكون لها خلية تستند إليها، كالبنيان القائم على الطين سرعان ما ينهار بانهيار هذا الطين.

وبيان ذلك أن الأفكار الكبرى لا بد لها من فاعل إجرائي أو ذاتي، وأن تعملق الذات هو الذي يؤدي إلى تعملق الفكر، كما حدث بالنسبة للأفكار الإنسانية الكبرى كالإسلام والمسيحية والكونفوشيوسيه، فقد تحققت عياناً من خلال حضارات وقوى اجتماعية وتاريخية حاملة لها، ولم يكن أمامها إلا أن تتجسد في الفيزياء الاجتماعية التي قد تعطيها بعدا عالمياً.

والخلاصة ليس الواحد هو الكل وإنما الكل الحي هو الذي يكون محصله حيه لكل جزئيه من جزئياته والإنسانية الحيه لا تزكو وتزهو إلا من خلال مكوناتها، وفي مقدمة ذلك فاعل الأمة الذي هو أرقى شكل من أشكال الترابط والتماسك والتفاعل، وعلى أرضية الأمة وعارقتها الصلبة وعروقها المتينة وشرايينها المتصلة، يمكن أن يتم اللقاح الجيد، والأرض الخصبة هي التي تنتج نباتاً طيباً، وما خبث لا ينتج إلا نكداً.

وتجربة محمد ﷺ انطلقت من الواقع من القوم في وجهه إنسانية، وعلى العكس فتجربة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام انطلقت من الكل، لكنها لم تستطع أن تحقق ما حققته التجربة الأولى.

والأمر نفسه بالنسبة للنظام العالمي الجديد، فإننا نجد أمة واحدة هي الولايات المتحدة تتصدى لتكون النواة فيه وتطبعه وتوجهه وجهة مصالحها وجبروتها، هذه الدولة لا تني تطبق نظرية الواحد هو الكل مدللّه بشرعة عالمية مظلة ضاربة عرض الحائط الواقع القائم على أن الكل هو الذي يخلق الواحد.

صحيح أن العروبة قد تكون متضمنة في سؤال الوجود «القول للأستاذ حرب» لكل ذلك مشروط بالشرط الإنساني أولاً وبالشرط القومي ثانياً، أي بأن تكون حقوق الأمة مصونة في هذا النظام العالمي.

والشرط الثاني أن يكون سؤال الوجود انتقائياً يختار من هذا النظام أو ذاك ما هو معبر عن الحقيقة الجوهرية للإنسان كالحديقة التي تضم أزهار العالم.

وأخيراً فسؤال الوجود الحقيق انفتاحي بشرع أبوابه للجميع على الضياء واللواء دون الانكفاء إلى كهوف الذات.

والسؤال المطروح هو: هل أن الغرب يمثل سؤال الوجود، وهل يسمح لغيره أن يساهم معه بالندبة في بلورة اسم النظام العالمي الجديد.

أجل أنا أقبل فكر "أرسطو ورسل وسبينوزا" على أنه مقاربة للماهية الإنسانية، لكنني لا أقبل فكر بوش وكارتر وكلينتون على هذا الأساس، وفي الوقت نفسه لا اعتبر احتكار السلاح النووي أو الشركات المتعددة الجنسيات أو ارتكاز التكنولوجيا، لا أعتبر ذلك مشاريع لخدمة هذا الجوهر الإنساني المشترك.

لقد وضع الكاتب "أندريه فونتين" عنواناً لمقالة في وداع عام/1992/، وضع الفوضى أساساً لهذا العام وكان رجاؤه أن يمشي النظام العالمي بخطى وإن كانت وئيدة إلا أنها وكيده.

ويرد "الدكتور عبد الله عبد الدائم" مأزق النظام العالمي إلى تعدد القيم فيه وتنافرها وغموضاً وتناقضها وغيابها في كثير من مجالات العمل الإنساني، في الوقت نفسه فقد ربط هذا العجز القيمي بتراجع مبدأ المسؤولية الذي يعتبر أهم مبدأ أخلاقي في عصر التكنولوجيا.

ويعرض "الدكتور عبد الدائم" لقيادة التكنولوجيا العشوائية المتخبطة للإنسان وافتقارها إلى أي مبدأ أو هدف منضبط ومحدد.

هكذا نكون قد قدمنا موجزاً عن إشكالية هذا النظام العالمي، ويبقى سؤال آخر جدير بالطرح هو: ما هي آفاق التعامل مع هذا النظام العالمي الجديد... ما هي أولياته، مظاهره ضوابطه.

لا حاجة للتأكيد بأن هذا النظام ولد من صلب القوة وحماقتها وغشمها وعربدتها، فقد حقق الغرب انتصاره على العالم الثاني (الاتحاد السوفيتي)، ثم خاض الحرب مع قوة وليدة وشابة في العالم العربي والعالم الثالث، هي العراق الشقيق، ليس من أجل سواد عيون الكويت، وإنما دفاعاً عن مصالحه البترولية وإنذاراً تهديدياً للعالم الثالث، وفي الوقت نفسه لطمس القوة الذاتية للعرب، ثم جرهم من أنوفهم إلى طاولة المفاوضات مع إسرائيل تحت شعار السلام العالمي، وهذا ما أكده "بوش" بقوله: ((لقد حققت حرب الخليج النصر على الدول العربية الراديكالية وجرت العرب إلى مدريد كمقدمة للقضاء على الإسلام في القرن المقبل)).

هل ألغى أو عدل هذا النظام ميثاق الهيئة الدولية، وقدم مشروعاً يقوم على الشرط الإنساني والقضاء على التعاسة المادية والروحية في هذا العالم.

كيف يمكن الحديث عن هذه الحدة وذلك النظام لم يتحفنا بتلك الولادة القيمية الجديد في صورة قواعد وضابط وبرامج، ثم تأتي الدول لتلتزم بذلك في التطبيقات الفردية.

وأين تلك القواعد المسبقة من اعتداء إسرائيل على لبنان الشقيق في "قانا" وتهديد الولايات المتحدة وذيلها بريطانيا لشعبنا في العراق تحت حجة خلق استقرار في المنطقة دون أن يطلب أحد من دول المنطقة ذلك.

لهذه الأسباب «ومثلها معها من الأسباب» فهذه الولادة لا تستحق ان توصف بالحدة، ولا تعدو أن تكون إلا فوضى بعيدة كل البعد عن النظام، وعلى المثقفين العرب أن يتعاملوا في أدبياتهم مع ذلك على أساس مصطلح (الواقع الدولي الجديد) وليس النظام العالمي الجديد، أو حسب تعبير "تشسي" نظام العالم الجديد والملاحظ على

هذا النظام أنه يحاول أن يتصدى للمشاكل الدولية دون أن ينطلق من اصول أو مبادئ يلتزم بها وكان عليه أن يرسي مبادئ إنسانية عالمية كبرى ثم يتصدى لمعالجتها دون أن يخضع إلى ردود فعل آنية ظرفيه تختلف باختلاف مصالح الدول الكبرى.

إن الإنسانية ترسف في أوحال التعاسة المادية والروحية التي طغى بحراها على يد العلمانية والغرب وهذه الإنسانية في شوق عميق وحنين زائد ورنو وتشوق لمعانقة الحقيقة، وهذه الحقيقة هي وليدة معجزة وانبثاق برهة داخل الروح نتيجة اصطدامها بالواقع.

مثلاً واحداً نضربه على ذلك، في حدوث زلزال في منطقة من العالم «مسألة العراق الأخطر» هو أكبر زلزال تعمر عشناه في هذا القرن فالإسراع لنجدة المنكوبين «وليس الشعارات البراقة» هو المعيار الوحيد الذي يعلو صوته على كل صوت.

إن دين هذا النظام العالمي هو المادة والغربيون يعيدون العجل الذهبي ستة أيام في الأسبوع ثم يذهب بعضهم في اليوم السابع للصلاة، وليت تلك البرهة تنطلق من روحهم تجاه جغرافيا الجوع التي تمتد رقعتها في العالم يوماً بعد يوم.

لقد استطاع الغرب «دون شكل» أن يخلق توتراً في الحياة العقلية والمطلب منه أن يخلق هذا التوتر على صعيد مملكة الضمير والوجدان والأخلاق.

إن الغرب يقدم للعالم رؤية أحادية نابعة من واقعة ومصلحته وطروفه، ثم يفرض هذه الرؤية على العالم في صورة عقد إذعان لا يقبل النقاش.

إن أية عملية ارتقاء لا يمكن أن تتم إلا بالتعويل على الذات والتمكين منها بالتعملق والتجوهر سواء أكانت هذه الذات فردية أم جماعية.

وعلى هذا الأساس فليس صحيحاً أن مسيرة الغرب هي مسيرة التاريخ الكوني ومناطه ووجهته وأساسه، والحقيقة أن مسيرة الغرب وإن حملت بعض مظاهره الإنسانية «هي في جوهرها مسيرة التاريخ الحضاري والاجتماعي للغرب» المطلوب من هذا الغرب أن يفسح المجال لرفد هذه المسيرة بعطاء الحضارات الأخرى لخلق مشروع إنساني كوني يقوم «بآلية الحوار بين الحضارات» على أساس الشرط الإنساني والهم الإنساني والمصير الإنساني والأمن الإنساني.

على هذه الأرضية الرصينة يمكن الحديث عن رفع القطعية مع الغرب، ونسج عرى التواصل والتوشج وإزالة الشكوك والمخاوف، وفتح فضاء جديد لعمل تاريخي غير محكوم بأيديولوجيا الكفاح أو بالنعرة القومية أو بالحشوية الدينية، أو بالتصور الغربي الوحيد للحياة بل يحمل هم الصيرورة الإنسانية الكبرى من خلال عملية الحوال والمثاقفة الندوة.

وعملية الحوار هذه يجب أن تقود الإنسانية لوضع مشروع أسس استراتيجية كونية قوامها كرامة الإنسان وعزته والبحث عن غاية متعالية للوجود البشري.

وفي هذا الصدد علينا أن نسجل الملاحظات الآتية حول فلسفتنا الحضارية والتاريخية وخطابنا العربي وموقعنا من الذات والحياة، وبمعنى أخص موقفنا من هذه الكونية.

مسألة الاغتراب

يؤكد علماء الاجتماع أن للثقافة حضوراً مركزياً يتماهى مع جوهر الإنسان وكينونته، ويتفرع على ذلك نتيجة هامة هي أنه إذا ما وجدت ثقافتان على مسرح الحياة العقلية والنفسية لإنسان، فإن ثقافة واحدة هي التي تحتل الجوهر[1]، وتكون أداة التعبير عن تجاربه الروحية الكبرى، وهذا الذي يفسر لنا ظاهرة الاغتراب الثقافي، فهذه الظاهرة لا تتجذر إلا بسبب هشاشة الثقافة الأجرأ.

وعلى هذا الأساس يجب توطين وتوطيد دعائم ومقومات ثقافتنا القومية والوطنية كحل وحيد لمنظومة ظاهرة الاغتراب قاصدين بالثقافة مدلولها الموسع – lato sonsu الذي يشمل الدستور الجمالي والمنطقي ودستور الحق والدستور القيمي والدستور العملي، أي كل ما أنجزته مغامرة الروح العربية في تفاعلها مع الطبيعة والحياة والتاريخ من معان وقيم ورموز وأساطيل وقصور وتصورات وأهازيج.

هكذا فتوطين وتوطيد الرأسمال الرمزي هو الصخرة الوحيدة لإقامة سد في وجه الاغتراب، وآلية ذلك مشروع للتنمية الإنسانية مناطقة وهدفه تطوير الشخصية العربية في كافة أبعادها، وذلك بإشباع الحاجات المادية والروحية للغالبية العظمى من

---

1 – د. الذوادي: عالم الرموز عند الإنسان.

الجماهير، وتحريرها من كافة صور القهر الاجتماعي، وتطوير مواهبها وإمكاناتها في شتى الميادين المفتوحة للنشاط الإنساني[1].

لكن لماذا هذا الموقف من الاغتراب، والحضارة الغربية لها جاذبيتها، وتقود مسيرة التاريخ الإنساني، وقد أينعت ثماراً يانعة لا سيما على صعيد التوتر العقلي وفاعلية الإنجازات العلمية، وهي بمقياس فريد ما تزال تملك المبادرة في مجال الكشوف العلمية والحدوس الثقافية وبناء النماذج المعرفية.

هذا صحيح مائة بالمائة، لكن خطأ الاغتراب العربي أن ينظر إلى الغرب على أنه النمط الأوحد لكل تقدم حضاري إضافة غلى أنه يعتبر الغرب الممثل الوحيد للإنسانية جمعاء، بحيث يكون الحلقة المركزية في الحياة.

وبيان ذلك أن الغرب في نظر الاغتراب العربي المعلم الأبدي، أما باقي أطراف العالم، فيتموضعون في هامش الحياة، إضافة إلى أنهم يردون كل إبداع ذاتي لدى الشعوب غير الأوروبية إلى الغرب، بل ويفسرون ثقافتنا على أساس أنها امتداد للغرب ووكيله حضارية له تعاني عقدة النقص والدونية[2].

وفي نظرنا أنه لا يجوز في علاقتنا مع الغرب الانقياد كلياً للعواطف والدعاوي المهووسة للإيديولوجيا الكفاحية، إنما يجب نشدان الحقيقة[3]، وتغليبها على كل

---

1 - سيد سعيد: الثقافة العربية بين الوحدة والتكامل، الثقافة والمثقف، مركز دراسات الوحدة العربية، المرجع السابق، ص124.

2 - مقال السيد ولد أباه: التنوير والتأصيل، قراءة في أعالم حسن حنفي مجلة المستقبل العربي عدد 167، لعام 1990، ص128.

3 - قريب من ذلك د. سمير أمين: مقتضيات برنامج تجريبي إنساني، مجلة النهج 1997، ص7.

شيء، بمعنى أن هذه العلاقة يجب أن تحكمها الإيستمولوجيا (المعرفة) وليس الإيديولوجيا، بحيث تقوم الإيستمولوجيا بتحليل مسار الغرب لا سيما منابع فكر التنوير، تحليلاً علمياً يكشف لنا مثالب الغرب ومحاسنه والتعامل معه على هذا الأساس تعاملاً موضوعنا من خلال جدلية الحقيقة وروافعها ونواهضها وفي الوقت نفسه الابتعاد عنه قدر الإمكان عن الانفعال وردود الفعل تخلياً وتجاوزاً إلى الفعل والاستجابة الخلاقة والإبداع الحي والنقد الذاتي والموضوعي والاستقلال الفكري من خلال عملية اختيار واصطفاء لا استنساخ حرفي ونقل ميكانيكي، وإنما نصب على مجلوبات الغرب، عصارتنا الهاضمة وذاتنا الحية الفاعلة.

على هذا الاساس يؤكد "الأستاذ كمال عبد اللطيف" على جملة أسباب في مقدمتها مبدأ المغامرة الخلاقة، ثم مبدا الحرية الضامنة للفتوح الثقافية، وثالثاً مبدأ استثمار المشروع الثقافي الغربي، بحيث أن الاستثمار الخلاق لا يتم بواسطة التقليد، بل عن طريق محاوره المشروع الغربي، على قاعدة الندية، وإن كان هذا الحوار يقوم على التكافؤ، لكن التكافؤ لن يكون بمجرد استعمال الذاكرة ولن يكون بدغدغة الذات وتصور أن صورتها العتيقة والبالية قادرة على مواجهة الدينامية القوية لثقافة نهاية القرن العشرين.

وهكذا تثور ضرورة التضحية بجزء من الهوية من أجل الوجود والتسليم بأهمية الانفتاح الثقافي بل التفتح الثقافي والانفتاح التاريخي الذي يدفعنا لامتلاك أصول المعاصرة، ثم يسمح لنا ثانياً بالشكل اللامحدود والهوية لا تتوقف عن الاغتناء في الزمان، وما دام العقل مسألة كونية، فنحن نستطيع أن نحاور أوروبا محاورة الند للند عندما نتقاسم اليوم نتائج الجهود التاريخية التي استطاعت أن تنتجها وإن حواراً ثقافياً خلاقاً يسلم بتوجه كوني للثقافة دون نفي الاختلافات ويسلم بوحدة تاريخية

دون رفع التناقضات والصراعات هو أحد الطرق التي تتيح لنا إمكانية المساهمة في الإبداع الثقافي والتجديد الثقافي الذي تطمح إلى تحقيقه وامتلاكه من أجل إغناء ذاتنا التاريخية وإغناء ذات الإنسان في التاريخ[١].

إذاً من خلال الذات وفاعليتها تتم عملية الانفتاح من أجل بناء هوية متجددة باستمرار أو السفر وقريب من ذلك ما أكده "د. هشام جعيط" بقوله: (((ما هو مطلوب من الإنسانية العربية اليوم ليس بعث أنموذج للثورة العالمية بمنها موقع الصدارة في عصرنا، كما فعلت سابقاً مع الإسلام، فهذا النوع من المعجزات التاريخية لا يتكرر، كما أنه لن تتكرر النهضة الأوروبية والثورة الفرنسية، والثورة الروسية)).

إن المطلوب منها أن تجمع تجربتها وتجربة البشرية وأن تبقى كما هي وتتخذ لها جسداً حديداً... إن النهضة الحق هي إحياء لبعض اللحظات الممتازة في الماضي واندفاع نحو المجهول وتأكيد للحرية الخلاقة في الآن نفسه، وهذا يفرض علينا نسيان جزء من كياننا[٢].

وإذا كان لا محيص عن الانفتاح وليس الانفتاح المطلق وإنما التجديد المطلق، المقترن بالتخلص من عقد التخوف من الغرب واقتلاعه لنا، وفي الوقت نفسه نبذ خوف العرب الرافض مطلقاً للغرب، لا سيما ثقافته المادية بوجه خاص، وبالتالي يجب أن نبرهن للغرب أننا لا نكرهه[٣].

---

1 – الأستاذ كمال عبد اللطيف، المرجع السابق، ص147.

2 – د. هشام جعيط: الشخصية العربية الإسلامية، المصير العربي، ص133.

3 – د. عبد الله عبد الدائم: مستقبل النظام العالمي، ص143.

ولعل سبب الخوف أيضاً فقدان الثقة بالنفس أي فقدان الوسائل التي تشيد الكيان العربي القوي في بنيته الذاتية، ولعل أهم ذلك المشروع القومي النهضوي[1].

ذلك أن العالم مركب واحد ولا رجوع عن معطيات العلم، ولا نكوص عن العقلانية ولا عزله ولا اكتفاء ذاتي[2].

وأخيراً يجب أن نؤكد أن الحداثة حركة صراع تفتح مجراها بين الانكفاء والاندفاع، بين الوهن والقوة بين الطموح والانكسار وهذا يعني أنها ليست حقيقة أو لحظة بل هي قدر الثقافة العربية، وقد زج بها الصراع فشرعت في التبدل والتحول والتبدل لا يعني الإمحاء[3].

الخلاص في المشروع الوحدوي

وإذا كان خلاصنا في المشروع الحضاري الجديد فإن هذا الخلاص ولا شك يجري في ظل مناخ دولي لا يزال محكوماً بنزعة الاستعمار العسكري والاستيطاني، والاقتصادي، والسياسي والفكري والثقافي من الحضارة، وفي الوقت نفسه فهو مكبل بقوى المراوحة والعطالة والمحافظة والتقليد والاجترار[4].

إن عوائق هذا المشروع متداخلة ومتشابكة وإن كانت حلولها بادية فمن هذه العوائق أشكال التثاقل التي يعاني منها الواقع العربي والإنساني العربي في ذهنه ونفسيته

1 – د. عبد الله عبد الدائم: مستقبل النظام العالمي، ص146.

2 – مقدمة مجلة الفكر العربي، عدد/66/، لعام 1991م.

3 – د. محمد لطفي اليوسفي: الثقافة العربية في مهب التحديات، مجلة النهج، خريف عام 1194، ص143.

4 – افتتاحية مجلة الوحدة، الرباط، المغرب، عدد إبريل 1987، ط3.

وردود فعله ومرجعياته، مما يحول فكره إلى ذاكرة احتفالية وقدرته النقدية إلى امتثال نقدي، وطاقته الإبداعية إلى ضياع اجتراري، وهذا ليس على مستوى الفرد فحسب بل على مستوى المؤسسات والقوى الاجتماعية والتقليدية.

ولعل لكثر هذه العوائق خطراً هي التجزئة، ولهذا لا بد أن تكون السمة الأساسية للمشروع الحضاري الجديد الاندراج في أفق قومي وحدوي محصن ضد التبعية والدونية، وهذا لا يتحقق إلا من خلال الحكومات والمؤسسات الرسمية بل من خلال الطليعة المستنيرة من المفكرين، والفئات والهيئات التي لم يدجنها القهر والاستلاب والاستيعاب والتي تدرك مسار التاريخ الحديث وقوانينه الموضوعية.

وإذا كانت قوة العرب في الماضي في وحدتهم فإن خلافهم اليوم في مشروعهم الحضاري الجديد هو في هذه الوحدة.

لكن ما هو المقصود من هذا التعبير الفضفاض نسيان جزء من كياننا هل المقصود الإرادة أم الثقافة أم الهوية أم أي عنصر آخر...

إذا كان المقصود من الكيان الثقافي، والثقافة الميتة، فهذا قول سليم، وإن كان تقييد إرادتي بمحض إرادتي ولمحض مصلحتي من أجل اكتساب مواقع جديدة بالتفاعل الخلاق مع الغير بآلية تحديد نقطة التقاء المصالح، إذا كان الأمر كذلك فهذا أمر أسلم.

لكن إذا كان المقصود الكيان القيمي، فنعتقد أن القيم هي لب وجوهر الشخصية الفردية والجماعة وبالتالي فلا يجوز التخلي عن شيء من ذلك لأن أية عملية إبداع لا يمكن أن تتم إلا من خلال الهوية القيمية وتجذرها وجوهرتها، وبقدر ما تكون الهوية صلبة ومتعملقة بقدر ما تغني الإنسانية، وبذلك فنحن مع "الدكتور حسن حنفي" بأن

المعاصرة لا يمكن أن تتم إلا من خلال الانتظام بالتراث قاصدين التراث الحي، وقاصدين بالانفتاح أخذ أحسن ما لدى الغرب[١].

ومن جهة أخرى فنحن مع "الأستاذ هاشم الصالح" بالانفتاح للكونية بحيث تشمل أفقاً مفتوحاً باستمرار وناتجاً عن استخلاص السمات المشتركة لكافة الثقافات البشرية، وإن التحرر الحقيقي هو ذلك الجهد الخاص الذي تقوم به الذات على الذات[٢].

وعلى الرغم من أهمية هذه المناهج إلا أنها «كما يقول» لازمة غير كافية والمنهج السليم هو المنهج التكاملي الذي يحيط بكافة مبادرات الإنسان العربي وتحدياته الأساسية والشاملة، وهذا ما سبق تسميته بالمنهج الذي ينجز العمران الشيئي جنباً إلى جنب العمران النفسي والروحي والأخلاقي والقيمي.

هذه النظرة الشمولية مثلثة الشعب لدى أحد المفكرين[٣] فهي تقوم على الأوليات والنواهض والديناميات الآتية: التواصل – التراكم – التكامل.

---

1 –عبد الله عبد الدائم: مجلة شؤون عربية، عدد 82، لعام 1195، ص137.

2 – مقاله الموسع بعنوان: الفكر العربي المعاصر.

3 – مقالة الحركة الأصولية، مجلة الوحدة عدد 96، لعام 1992، ص80.

الإصلاح الديني كعنصر في المشروع النهضوي العربي

ما هو خارج عن نطاق الجدل أن الإسلام يتماهى في العروبة، وبالمقابل فالعروبة تخلقت وتمخضت ثم انطلقت من مشتل الإسلام كائناً جماعياً سويّاً.

ففي رحم الحضارة الإسلامية وحضانتها، وتحت شمسها الدافئة ثم نمو الأمة العربية، وتبلور نشؤوها، وفي الوقت نفسه، فقد كان الإسلام الدرعة التي صدت عن العروبة ضربات أعدائها، والقلعة التي صانت ذخائر تراثها وكنز ثقافتها، وبإيمان السيف الإسلامي المتشق من الغمد العربي ذر قرن الإسلام، وانتشرت رسالته في العالم، رسالة مبرأة من الظلم والاستعلاء والشعوبية.

لقد كان الإسلام مصدر القوة التي استند إليها شعبنا العربي العظيم في اجتراح تجاربه التاريخية وبناء ثقافته الإنسانية، فهكذا كان المسجد والجامعة الحضارية التي أبدعت روائع مدينتنا والحصن الذي تخرج منه جموع المناضلين في وجه أشكال الغزو والاستعمار.

ولقد حفظت أمتنا للإسلام العهد، وأوفت له الأمانة، وأدّت به الدّين، هكذا تمسكت به في أحلك الظروف تاجاً يزين هويتها ومفرقها، رافضة «خلافاً للعلمانية الكاريكاتورية في تركيا» معاندة، مقاومة أية منظومة قيمية لا تتموضع القيم الإسلامية في نواتها النووية.

لقد تبذر الإسلام «ثقة ومعانقة» وترسخ في أعماق الضمير والوجدان الجمعي العربي، وهذا ما حدا بعضهم للقول بأن الإنسان العربي متدين عبر التاريخ، كما

حدا الدكتور محمد عمارة لوصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها تنطوي في ثناياها على الإحساس العميق بوجود القوة الخالقة خلافاً للحضارة العربية التي درست العلوم حقولاً مستقلة عن تلك القوة الخالقة[1].

هذه العلاقة بالإسلام لم تكن مجرد وضع إلهي، بل امتدت لتضع دستورنا الخلقي والجمالي والذوقي والمنطقي والعملي[2].

هذا الدور الهام للإسلام «صوغاً للهوية والتراث» نجد جذوره ممتدة في الوجدان الشعبي «خلافاً للنخب المتمغربة» حيث التراث الإسلامي هو المخزون النفسي للجماهير العربية[3]، وهذا ما حدا بعضهم للحديث عن هوية متميزة بالإسلام لهذه الجماهير[4]، بله عن ثقافة عربية شعبية تتجذر، وتتمحور حول قيم الإسلام ومنطقه العام ونظرته إلى الوجود من خلال أهازيج الشعب وقصصه ورموزه وأزجاله.

---

[1] -الهوية والتراث، مجموعة مؤلفين، بيروت، دار الكلمة، عام 1984، ط1، مداخلة، د. عمارة.

[2] – مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسكاوي وعبد الصبور شاهين: دار الفكر، بيروت، ط3، 669، ص123.

[3] – د. حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة، ج1، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، ط1، 1988، ص7.

[4] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة علاقات السلطة الاجتماعية، مجلة المستقبل العربي، عدد 128، لعام 1989، ص28.

وإذا تعاملنا مع أعظم مطلب ومطمح وتعطش للروح العربية تشوقاً وتوقاً ورنواً لحياة أفضل، إذا عانقنا تلك يجلنا لمطلب الوحدة الكمالة الأولى والهاجس الأوفر والحنين الأبدي.

هكذا اكتشف الأستاذ "الفضل شلق" عن السر الكبير وراء التفاف الجماهير العربية حول عبد الناصر لأنها فهمت الوحدة امتداداً للمشروع الحضاري التاريخي الإسلامي التوأم للمشروع العمراني الحضاري العربي على هذا الأساس رفض بعضهم الكلام على مقولة التوافق بين العروبة والإسلام لسبب بسيط هو أنهما يشكلان وأقنوماً واحداً، وبذلك فليسا بحاجة إلى حلّ تلفيقي مصطنع وغريب يقتحم ويقحم الحلول على طبائع الأشياء، وإذا قيمنا ملف المشروع النقيض للعدو التاريخي – الغرب تأكد لنا أن وكد هذا المشروع أنصب على فك الارتباط بين العروبة والإسلام، هكذا أعلن "رولان دورا" وزير خارجية فرنسا الأسبق «ومعه مجلة التايمز اللندنية» أعلن أن العالم العربي وهم، وأن ما هو أكثر منه وهماً سياسة "ديغول" التي دللت على أن هذا العالم هو محور سياسة المستقبل[1].

ولسان حال هؤلاء أننا لسنا أمة ذات إرادة وضمير ووعي، تتعامل مع حقائق الحياة وتصنع ثقافة وحضارة، بل نحن مجرد قوم متعصب دينياً وعنصرياً، وأن الحياة الإسلامية على حد رأي أحد المتغربين العرب عالم من الوهم والضياع.

---

[1] – برهان الدجاني: مستقبل الصراع العربي– الإسرائيلي، مجلة المستقبل العربي، السنة 5، عدد 165، عام 1992.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد بقي الضمير الجمعي العربي متمسكاً متحلقاً حول قطبي وجودنا، العروبة والإسلام، ونحن نسمع عن تكتل علماني هش بالمقارنة مع صلابة وعمق التكتل الجماهيري الذي بقي متجذراً حول الإسلام والعروبة[1].

هكذا يتكلم المطران "جورج خضر" عن حضارة واحدة تملئ حياتنا، ألا وهي الحضارة العربية الإسلامية التي ننتمي إليها[2].

وقريب من ذلك قول المفكر "أمين نخلة": ((كأن الإسلام إسلامان واحد بالدين وواحد بالقومية واللغة، وكأنما العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداء بمحمد ﷺ وتمسكاً وكلفاً بلغته))[3].

وإذا علمنا أن الحضاري يؤسس السياسي أدركنا الدور الذي تلعبه الحضارة العربية الإسلامية في أعمق مسألة تمسّ حياتنا ألا وهي الظاهرة السياسية، وفي ذلك يقول "ريمون بولان": ((الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها العقلية، وأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات المتكاملة))[4].

والديانات الكبرى «مثلها في ذلك مثل الإسلام» ما زالت بالنسبة للشعوب النامية ذات فاعلية كبرى للتهذيب الاجتماعي والتمدن وبناء اللحم والتماسك الوطني، وإن زوال الدين من هذه الشعوب يعني زوال الأم الثقافية المرضعة، وتركها دون أية

---

[1] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة السلطة الاجتماعية، مجلة المستقبل العربي، عدد 128، لعام 1989، ص5.

[2] – مجلة الناقد، السنة 3، العدد 2، لعام 1990، ص18.

[3] – الحوار القومي الديني: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989، ص123.

[4] – كتابه الأخلاق والسياسة: ترجمة: د. العوا، دمشق، دار طلاس، 1988، ط1، ص301.

مرجعية، ودون أية أداة للتواصل والتعاون والتماهي وتبادل العواطف والتقديرات المادية والروحية[1].

ذلك أن البعد المتعالي للدين جزء من تكوين الإنسان وما زالت الشرارة الإلهية، وستبقى تفجر طاقات الإنسان من أجل الحق والشرط البشري، وتعلية الإنسان وارتقائه وسموه والقيم الروحية هي الموئل الذي لا يغضب لطاقات الإنسان وقدراته، وهذا ما عبر عنه الراحل جمال عبد الناصر بقوله: ((إن القيم الروحية النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها، وقوله أيضاً: إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان في الحياة والحرية، بل إن أساس الثواب والعقاب في الدين فرصة متكافئة لكل إنسان))[2].

هذه الأهمية للدين تبدو واضحة فيما حدث للنظم الشمولية فقد استغنت عن القيم الإنسانية، فانقادت إلى نظم البربرية الحديثة القائمة على قتل الفرد والأمة، وهكذا فلم يؤد إلغاء الدين والقيم الميتافيزيقية في الدول الاشتراكية التي تبرر الإنسان، كما كان يعتقده، ولا إلى تزايد قدراته العقلية والعلمية بعد أن تحرر من سيطرة القوى الغيبية أو الخرافية، كما كان يقال، وبعد أن زال عنه الخوف أو الرهبة من القوة الإلهية، وإنما قاد إلى العكس إلى قتل الروح والخيال والحضارة، وحول النظام السياسي إلى معسكر اعتقال كبير للجسم والروح معاً[3].

---

[1] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة علاقات السلطة الاجتماعية، ص43.

[2] – جمال عبد الناصر: الميثاق، دار القلم، دار العلم، ط1، 1971.

[3] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة السلطة الاجتماعية، ص43.

وعلى الرغم من هذه الأهمية للحضارة العربية كناهض ورافعة ودينامو لحياتنا، فقد تحولت إلى إشكالية، وهي التي اعتادت أن تحل لنا كل إشكالية.

وهكذا تمتلئ النفس أسى ومضاضة وغصة قاتلة، ونجد أكثر من مطيه سياسية تمتطي باسم الإسلام، كما ترى أكثر من نزعة عدائية لإزالته من لوح وجودنا الاجتماعي.

وهذا الخلاف لا يدور حول مسائل بسيطة تتعلق بتأويل الإسلام أو تفسيره، بل يتعدى ذلك إلى مشاكل جذرية وشاقولية وحاسمة تتناول تضاعيف حياتنا الثقافية والعقلية والاجتماعية، لتمتد إلى الاعتبار الاجتماعي الأكبر حول أنماط المجتمع والمستقبل، وهذا ما يفسر أن معاركنا النظرية والعملية تجد لها ركيزة أو مكاناً في هذا الصراع حول الإسلام، وهذه المواقف تدفعنا للقول بأن الإسلام والدين عموماً أصبح موضع خلاف وفرقة طائفية، كما تدفع للاعتقاد بأن هذا الانشغال المتزايد من حول الإسلام وبالإسلام هو التعبير عن عودة الإسلام إلى الساحة الاجتماعية[1].

هكذا يفهم كيف أن فريقاً يفهم الإسلام منبعاً ثرّاً لكل شيء، في حين يرى فريق آخر في الإسلام عالماً من الوهم والضياع.

وكنا نتمنى أن يكون الإسلام المرجعية الكبرى وكتاب الكتب وإيديولوجيا الإيديولوجيات ومرجعية المراجع التي تحتكم إليها، والقضاء الأعم الذي تتفتح في ظلاله الزهور كافة تنافساً وعطاء، وهنالك أسباب عدة لهذه المواقف الاستئصالية والطمسية للدين منها تأثير التفسير العربي التقدمي للدين بميكانيكية المركزية

[1] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة السلطة الاجتماعية، ص 85، والكلام لأدونيس.

الأوروبية Europeanism وبخاصة أفقها الماركسوي المتضمن أن الدين أفيون الشعوب[1].

لقد اختار أصحاب هذا الموقف من التراث الماركسي ما يؤكد وجهة نظر إيديولوجية لا معرفية منهجية جدلية، وإلا كيف نفسر تثمين "ماركس" للدين بقوله: ((الدين عند الكثيرين هو النظرية العامة لهذا العالم، وهو مجموعة معارفهم الموسوعية، وهو منطقهم الذي يتخذ شكلاً شعبياً، وهو موضوع اعتزازهم الروحي، وموقع حماسهم، وهو أداة قصاصهم ومنهجهم الأخلاقي، إنه أفيون الشعوب))[2].

هكذا مارس التيار الماركسوي في وطننا العربي منهج (لا تقربوا الصلاة) وقد غض الطرف عن كل ما في هذا النص الفذ الماركسي، ولم يجدوا فيه إلا عبارة (الدين أفيون الشعوب).

وحسبنا التأكيد على زيف وهشاشة التيار التغريبي الانغماسي، ذلك الوصف الذي قدمه المفكر العربي الكبير "عصمت سيف الدولة"، قال المذكور: ((وقد بدأ الاستعمار القاهر يفرض نظامه على الحياة العربية، فاستبعد الإسلام نظاماً وتركه للناس عقيدة ومناسك وأحوالاً شخصية، وأقام له حارساً باطشاً من جنده المسلمين، وترك له أن يغير ما بالناس من خلال اضطرارهم إلى الملاءمة بين حياتهم اليومية، وبين قواعد النظام المفروض، ثم إطراد تلك الملاءمة خلال زمن غير قصير ليصبح النظام تقاليد وعادات وآداباً يغذيها تيار فكري من المشايخ

---

[1] – د. برهان زريق: حول نظرية عامة تقدمية للدين، مجلة المستقبل العربي، عدد 210، لعام 1996، ص62.

[2] – رفعت السيد: الإسلام السياسي، قضايا فكرية، الكتاب الثامن، 1989، ص15.

والأساتذة والمعلمين والتلامذة وخريجي جامعات أوروبا من الموفدين وعملاء الاستعمار من المبشرين الوافدين، لتبرير استبعاد الإسلام نظاماً والاكتفاء به مناسك وعبادات، ويرشون الشعب المتخلف بأوهام التقدم الأوروبي، وهذا ما أدى إلى الشعور المستقر بالانتماء إلى الحضارة الغربية القاعدة النفسية اللازمة لنمو الولاء للنظام الفردي الليبرالي الرأسمالي على حساب الولاء للنظام الإسلامي)).

وبهذا التحديد لم تعد العلمانية دعوة ضد الدين عامة والإسلام خاصة، بل أصبحت ذات مضمون فردي ليبرالي رأسمالي، فهي نقيض للتكوين القومي الجماعي في جوهره ونقض للحضارة العربية الإسلامية في جوهرها[1].

هكذا نشأت والكلام "لـ د. سيف الدولة" طبقة التفت حول المستعمر في عزلته واستعلائه على الشعب واحتقاره للجماهير، لتؤدي بالنيابة في عزلته واستعلائه على الشعب واحتقاره للجماهير، لتؤدي بالنيابة عنه ولحسابه نقض الحضارة العربية في بناء شخصية الإنسان العربي ليسكن فيقبل، ثم يرضى بالتعايش مع الاستعمار في الوطن العربي المجزأ تبعاً لدرجات التخريب والتغريب وتأثيرهما في إضعاف هيكل شخصيته[2].

والسؤال المطروح هو: هل تخلت أمة عبر التاريخ عن قيمها وحقها في الاجتهاد والرؤية والتذوق والتفكير، ومن جهة أخرى، هل من مصلحة الحياة الإنسانية أن تتخلى أمتنا عن شخصيتها، أم عليها أن تشجعها على إثراء الحياة الدولية والإنسانية بعطائها الخاص وعبقريتها الذاتية الفذة.

---

[1] – د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، جدلية الثقافة القومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، لعام 1986، ط2، ص423.

[2] –المرجع السابق، ص 428- 429.

إننا مع "الدكتور غليون" بأنه ليس هنالك أية إمكانية كي تعبر أمة أو جماعة كلياً منظومة قيمها، وتتبنى منظومة أخرى، وحتى الإسلام لم يفعل ذلك، بل أعاد توظيف معطيات الثقافة العربية، وتوجيهها في اتجاهات جديدة[1].

من المؤسف أيضاً أن تجد على الضفة النقيض تيار الحشوية الإسلامية الانكماشية الذي يشد الإسلام على كهوف الماضي، فإذا بالإسلام –حسب التفسيرات الظلامية لهؤلاء- يصبح عبئاً على حياتنا بدل أن يكون عامل تقدم وانطلاق، يقول الراحل جمال عبد الناصر في وصف هذا التيار: ((لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية، لكن الرجعية التي أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها، أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها، لكي توقف تيار التقدم إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة، وإنما ينتج التصادم في بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية))[2].

لقد فهم هؤلاء ضرورة فرض الدين قسراً دون أن يفهموا أن أهمية الدين أن يكون خلاصة اختيار اجتماعي واستجابة لحركة الحياة والمجتمع.

ذلك أن الدين شأنه في ذلك شأن القوانين يجب أن يتوافق مع نمط ملائم للعلاقات الاجتماعية، وإن أكثر الملل صدقاً وقداسة ربما تكون مصحوبة بأوخم

---

[1] - د. برهان غليون: الإسلام وأزمة السلطة الاجتماعية، ص40.

[2] - الميثاق الوطني الذي قدمه الرئيس جمال عبد الناصر في أيار/مايو 1962.

العواقب، عندما لا ترتبط بمبادئ المجتمع، وعلى العكس فالملل الأكثر زيفاً قد تقترن بنتائج ممتازة عندما تستنبط بطريقة تجعلها مرتبطة بهذه المبادئ[1].

إذن لا للانغماس، ولا للانكماش، ونعم للاستجابة الخلاقة لقيم الدين، ثم وضعها في المكان السليم من حياتنا، وهذا لا يعني إلغاء الجدل داخل الإسلام أو حوله، فهذا أمر مستحيل، بل كل ما نبتغيه أن تتحول المواقف الاتهامية والتجزيئية والنصية إلى جدل وحوار حقيقي حول المسائل التي يطرحها الدين، ويطرحها التحديث والتقدم الحضاري.

وحقيقة الأمر أن الأزمة حول الإسلام والتقدم ليست جديدة، بل كانت تأخذ لها في كل مرحلة من حياتنا، مبدأ خاصاً ومظهراً معيناً، والمهم هو إعادة التفكير في القيم والمعاش لا توثيقها إذن فالمسألة أولاً وأخيراً إعادة موضعة الإسلام في حياتنا وترتيبه في منظومة ثقافتنا وهويتنا، وذلك بتحديد معانيه ومراميه ومضامينه، ثم إعادة تفسيرها وترتيب القيم والمبادئ التي تشكل حقيقته الكبرى، وهذا لا يحقق جدواه، إلا إذا اعترفنا بداءة للإسلام بدوره ومكانته، ثم اتحنا له أن يطمئن إلى وجوده ودوره، بل ساعدناه، وساعدنا كل فعالية أخرى أن تتفاعل وتفجر طاقاتها وإمكاناتها، لا سيما- كما قال الفقيه بوردو- أننا في حال تخلق ونشوء، وهذا يعني ضرورة إتاحة الفرصة لكل فعالية أن تحقق ذاتها وإلا بترت هذه الفعالية واستئصلت، وذلك أن من غير المعقول الحديث عن منظومة عقلية أو عقائدية، إلا إذا اطمأن الناس إلى مناطها وغايتها، ومظهر ذلك التوظيف الاجتماعي للدين،

---

[1] - نظرية الثقافة، عالم المعرفة، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة علي سيد الصادي، عدد 223، لعام 1997، ص199.

وذلك بتحديد الهداف الجديدة، وتفجير الإمكانات في المنظومة العقائدية التي تضاف إلى إمكانات أخرى موجودة أو قائمة[1].

وفي هذا الصدد علينا أن لا ننظر إلى الإسلام كحادث عارض أو موقف طارئ أو حركة سياسية أو موقف فلسفي أو إيديولوجيا مؤقتة، بل علينا أن ندرك إدراك اليقين أننا لا نستطيع الخروج من المأزق إذا أبقيت إشكاليتنا حول الدين مرتبطة وقائمة على أفكار سريعة، أو مرتبطة بدوافع وقتية سياسية، أو غير سياسية، أو إذا بقيت قائمة على المخاوف والرياء والغش والخوف من الدولة أو من رجال الدين أو من الجمهور.

إن القيم الإسلامية تتماهى مع هويتنا التاريخية وضميرنا الجمعي ولهذا يجب أن نواجه هذه الإشكالية المصيرية متجاوزين أفكارنا المجتزأة وحساسياتنا الشخصية ورؤيتنا المصلحية الضيقة التي تخفي حقيقة القضية، وآلية ذلك أن نطرح المشكلة في كليتها وكافة أبعادها، والخروج منها بموقف جذري موحد ومنطقي وصولاً إلى الإجماع الوطني الذي هو أساس لكل تقدم وانطلاق وللوصول إلى ذلك لا بدّ من طرح المسألة كمسألة معرفية أولاً، وذلك بالحفر في تربة ضميرنا الشعبي لمعرفة حقيقة هذه المعرفة حول الإسلام ودوافعها وآفاقها والرهانات المختلفة حولها ومخاطر انزلاقاتها، أو الانحراف بها، لا سيما أنه لا يمكن الوصول إلى القدرة إلا من خلال المعرفة على قاعدة وتداعيه: استشراف، معرفة، قدرة.

وتوضيح ذلك أن رؤية سليمة للأمور ووعياً مطابقاً لأساسيات الأمة ووجهتها ومستقبلها ورسالتها وموقعها في الحياة وأصدقائها وأعدائها، هذه الأمور تقتضي منا إعادة النظر في كثير من المفاهيم مثل العلم والعقل والعلمانية والمواطنة والحداثة والحضارة والحقوق والحريات العامة، وذلك بالحفر في الأعماق للوصول

---

[1] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة السلطة الاجتماعية، ص43.

إلى جذورها وفهم كنهها على ضوء مبادراتنا والإحاطة بمجمل ظروفنا دون أن نحاشي أحداً بما في ذلك الإسلاميين الذي عليهم أن يعيدوا النظر بمنظومات القيم التي صيغت على ضوء العصر الوسيط، ومن غير المعقول اعتبار هذه المفاهيم مقولات ثابتة، نخر لها ركعاً وسجداً.

على هذا الأساس يؤكد الدكتور "حسن حنفي" أزمة الثقافة العربية المعاصرة مؤكداً أن من مظاهر ذلك أننا نفكر بثقافة الانتصار، ونحن نعيش في واقع الهزيمة، نتصور العالم بعقلية خير أمة أخرجت للناس ونعيش واقع الاحتلال والقهر والتجزئة والتبعية والتخلف واللامبالاة والاغتراب، ما تتعلمه وتعلمه شيء وما تفكر فيه وتعيشه شيء آخر، وما زلنا نمارس عقائد الفرقة الناجية، ونكفر الفرق الضالة، فتمثل إيديولوجيا السلطة، ونقصي المعارضة، وما زالت برامجنا الدينية تقوم على الإلهيات والغيبيات دون الإنسانيات والمشاهدات، تدرس فقه الغنيمة وفقه العبيد وفقه الذمة وفقه النساء، وفقه العبادات، والعالم قد تغير فلا غنائم في الحرب ولا عبيد في المجتمع، ولا فرق بين مواطن وآخر في عقيدة أو بين رجل وامرأة في المواطنة...وما زالت الفرق الصوفية تناجي وتبتهل على ضفاف النيل بالسودان والأرض في حاجة إلى زراعة وشق الطرق لنقل الفواكه المتساقطة، وما زلنا في التشريع نعطي الأولوية للنص على المصلحة والمصلحة أساس التشريع في وعينا العلوم النقلية كما ورثناها دون أن نحولها إلى علوم عقلية، في حين غابت في وعينا العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية، ومن ثم غاب حتى الحس التجريبي وحتى الذهني والاستدلالي[1].

---

[1] – د. حسن حنفي: في الثقافة السياسية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1998، ص22.

إنه لأمر خطير تحويل الإسلام إلى المسألة الفلسفية المسماة ذات القرنين، أبيض أو أسود، أي التعامل مع حياتنا على أساس نمطين متعارضين هما إما الحاجات الروحية أو المادية وبالطبع فتجاوز هذه الإشكالية يكون بالتوصل إلى تسوية تجعل التعاون بين الإسلام وبين التفكير التاريخي كوسيلة لبناء الذات والشخصية العربية بدل تدميرها من خلال خلق فضاء اجتماعي عربي تتبلور فيه كل ذات ليس فقط على أساس حق كل إنسان بالأمن والوجود بل بالأمن والنمو على قاعدة دع الزهور تتفتح ولنتبار، قال تعالى: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ **المطففين/26**، علينا أن ندرك مهما كانت اعتقاداتنا المذهبية أو الفكرية أن المجتمع العربي لن يستطيع في المنظور القريب أو البعيد أن ينجح في بناء نفسه وتحقيق استقراره ضد الإسلام أو خارجه أو حتى من دولة، وبالمقابل فمن غير الممكن والمتوقع أن نقوم بهذه المهمة دون أن ننفتح على حركة الواقع والعالم، ونتعلم ونأخذ منها كل ما هو جديد ومفيد، بل من غير المتوقع أيضاً أن يستوي بناؤنا، وتترسخ أقدامنا على ما ورثنا من العلوم العربية القروسطية مولين وجوهنا عن كل ما أنجزته البشرية في هذا العصر من مكتسبات مادية ونظرية أو فكرية أو اجتماعية والقول بغير ذلك لن يؤدي إلى تدعيم الإسلام، بل دفعه إلى التراجع والتقهقر وتجميد أمور الدنيا وتدويلها إلى دين[1].

ذلك أن الموقف السليم من الدين يتحدد على أساس حسنا التاريخي العميق ونظرتنا الاستشرافية للمستقبل التي تجمع البرهات الثلاث في حياتنا على صعيد واحد لماضي حامل للحاضر، والحاضر يمهد للمستقبل، لا الماضي يتوانى له أن يغيب الحاضر ويفتت عليه، ولا الحاضر ضائع بين الماضي والمستقبل توهاناً ينسيه زمانيته ومبادراته وإحاطته بظروفه.

[1] – د. برهان غليون: الإسلام وأزمة السلطة الاجتماعية، ص45.

إن معاصرتنا لا تتحقق إلا بالمشروع الحضاري العمراني العربي، وهذا المشروع لا يبرح يمتاح الساعة تلو الأخرى الكثير من المشروع الحضاري الإسلامي، والقول بغير ذلك يعني أن الحضارة العربية الإسلامية ارتجت على نفسها في كهف الذات الباهت الظلامي، ومن هنا نذكر ما قاله الراحل عبد الناصر: ((إن الطاقات الروحية التي تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من الأديان السماوية ومن تراثها الحضاري قادرة على صنع المعجزات)).

إن الطاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح آمالها الكبرى أعظم القوى الدامغة، كما أنها تسلحها بفروع من الصبر والشجاعة تواجه بها جميع الاحتمالات وتعبر بها مختلف المصاعب والعقبات[1].

وبهذا المعنى تصبح الدائرة الإسلامية الظهير الجيو سياسي والجيو تاريخي والجيو اقتصادي للدائرة العربية، وهي من الآن نفسه المتنفس الحضاري التي تمتاح منه ما يحدد غياب حضارتنا، وينفخ فيها الجدة والعملقة والتجوهر، وهذا الارتباط بين المشروع العربي والجذر الحضاري الإسلامي التاريخي الأكبر مؤسس على التاريخ المشترك، وعلى ذاكرة جمعية مشتركة تشدنا إلى المشروع الحضاري العمراني الإسلامي العالمي، وتجعلنا نرى الأمل والرجاء والقوة في هذا المشروع.

إن الإسلام جزء من نسيج حياتنا، وبالتالي فإن أي مشروع تحديثي ينفخ بنا الروح ويجدد الدماء والنسغ في قيمنا إنما يجب أن يعانق ويتناول كافة أركان وجودنا ومقوماتنا بما في ذلك الإسلام الذي يتموضع في الجوهر من هويتنا[1].

---

[1] – جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة والميثاق، دار القلم، دار العلم، بيروت، 1970، ص223، 224.

هذه المسألة تكاد تكون موضع اتفاق لدى مفكري أمتنا في الماضي، ولدى من حمل مشاعل النهضة في الحاضر.

هكذا تكلم الدكتور "فهمي جدعان" عن خط التقدم لدى مفكري النهضة في رائعته **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث**[2].

لقد خصّ المذكور فصلاً كاملاً تكلم فيه عن الوحي في التاريخ حيث أبرز خطين تاريخيين أساسيين أولها خط الماوردي الذي تتحرك نظريته بين نقطتي الله والإنسان، الدنيا والآخرة، الدين والدنيا، الأرض والسماء، من خلال التوازن لا إفراط أو تفريط لا طغيان لأحدهما على الآخر ولا افتئات[3].

أما الخط الآخر فهو خط "الغزالي" الذي يمثل الجنوح بالحياة الدّنيا نحو الآخرة بصورة تتخطى ما تضمنته العلاقة، الوحي في أمور تلك الحياة.

يتابع الدكتور "جدعان" القول: ((لقد كان تأثير الغزالي على حياتنا لا يستهان به على الإطلاق، إذ لم يكن بإطلاق لقب حجة الإسلام أمراً عبثاً، وبالتالي فإن الثقل الذي كان له على أمور المسلمين منذ بداية القرن السادس الهجري لا بعد له أي ثقل لأي مفكر آخر، ومن جهة أخرى يستطيع المرء أن يلحظ أن فكر الغزالي عانى من انحسار وتراجع قويين لدى المفكرين المحدثين، بينما نلاحظ أن أفكار الماوردي قد لاقت صدى واسعاً جداً لدى هؤلاء المفكرين))[4].

---

[1] - فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، صنعاء، دار الحكمة، 1988، ص47.

[2] - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

[3] - فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، ص 51.

[4] - المرجع السابق، ص 51.

إذن فالفكر الإسلامي التقدمي الحديث كان يرنو باستمرار إلى إعادة التوازن لمسألة الوحي في التاريخ، تخلصاً من نظرية الغزالي الحادية القطب الإلهية المركز بشبه إطلاق.

وها هو "الدكتور حسن صعب" يحمل الهم نفسه الذي حمله "الدكتور جدعان"، وذلك في كتابه الذائع الصيت الموسوم بعنوان **تحديث العقل العربي**.

لقد خصص المذكور فصلاً تكلم فيه على التحديث القيمي، حيث أكد فيه استحالة هذا التحديث وما يتصل به من تحديث إنمائي دون التجديد الديني[1].

ولقد دلل الدكتور صعب على وجهة نظره في الإصلاح الديني لأوروبا الذي حرّر الغرب من سلطة الكنيسة مساعدة على تحويل اهتمامه من المشاكل الأخروية إلى المشاغل الدنيوية، وصور له المجد الدنيوي والصورة الشخصية كصورة من صور اختيار اللّه للإنسان[2].

والمثال الثاني الذي دلل به المذكور هو نهضة اليابان حيث حققت ثورتها الإنمائية من خلال التقاليد البوذية الخلقية التي لم تكن تقاليد لاهوتية أو كلامية[3].

لقد ربط "الدكتور صعب" تقدمنا بمراجعة هادئة للمقولات الإنسانية الحركية والإبداعية والتجارب الفكرية والتاريخية في الإسلام، وذلك بتعديل السير في طريق التحضر الحديث بدون أن نفقد ذاتنا[1].

---

[1] - د. حسن صعب: تحديث العقل العربي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1969، ص83.

[2] - المرجع السابق، ص83.

[3] - المرجع السابق، ص 84.

وفي نظر المذكور أنه ما دام الوحي في الإسلام مصدر الحقيقة فالتحديث يتطلب منا تجديد مفهومنا للكتاب وللكلمة الإلهية، ولا بدّ أن يكون هذا التجديد منهجياً لا عدوانياً، ولا بد أن تستند منهجيته إلى مبدأ ذاتي إسلامي لا إلى المبادئ المنهجية الحركية الحديثة وحدها، لا سيما أن الاجتهاد في الإسلام هو مبدأ الحركة[2].

ذلك أن الإسلام كاندفاع تاريخي جديد أو كقوة تاريخية خلاقة ارتبط بالقوة الفريدة التي حركته: قوة الكلمة الخلاقة، إذ بقي الإسلام ينمو ويتسع ويتقدم ما دامت الكلمة الإلهية كلمة خلاقة وإن إعجاز الكلمة الخلاقة هو إعجاز القرآن وإعجاز القرآن وإعجاز الإسلام الحقيقي[3].

والأمر الإلهي هو الأمر الوحيد الثابت الذي لا يتغير وكل ما عدا الله فهو متغير، وهكذا أطلق فيلسوف الحركة هيجل على القرآن تسمية الحركة[4].

في الإسلام الله واحد، والحقيقة واحدة، والروح واحدة، والإنسان واحد، والمصير واحد، ولطن طرق الإنسان والله متعددة، ومسالكه في الكون متشعبة، وبذلك يتحتم تعدد مناهج المعرفة نشداناً للحقيقة الأخيرة الواحدة[5].

---

[1] - د. حسن صعب: تحديث العقل العربي،، ص 86.

[2] - المرجع السابق، ص 86.

[3] - المرجع السابق، ص 87.

[4] - المرجع السابق، ص 88.

[5] - المرجع السابق، ص 87.

لقد فتح تعدد مناهج المعرفة وطرقها للإسلام آفاق التفاعل والتحاور مع أديان العصر الوسيط وثقافاته، ففتح له الطريق الإلهامي أفق التكاشف مع التصوف المسيحي والشرق الأفلاطوني الجديد، وفتح له الطريق العقلاني أفق التواصل مع الفلسفة اليونانية ومع الرياضيات الهندية، وفتح له طريق الملاحظة آفاق التبادل مع علوم اليونان، وفتح له طريق التذوق الجمالي أفق التفاعل مع آداب البلاد التي فتحوها.

ويطرح الدكتور "حسن حنفي" مشروعاً للتجديد الديني[1]، ويمكننا أن نعانق في هذه الرقعة الضيقة بعض الأمثلة، من ذلك قوله بان الشهادة لا تعني فقط التلفظ بعبارة (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) بل تعني الشهادة على العصر، وذلك ببيان المسافة بين نظام الواقع ومقتضى الفكر، ثم محاولة إلغاء هذه المسافة في سبيل ذلك بكل شيء حتى بالنفس، فتحقق الشهادة، وهي الشهادة العملية، ويصبح الإنسان شهيداً بعد أن كان شاهداً، فالشاهد والشهيد كلاهما موقف بشهادة، وليست الشهادتان إذاً إعلاناً لفظياً عن الألوهية والنبوة، بل الشهادة النظرية والشهادة العملية على قضايا العصر وحوادث التاريخ[2].

والتوحيد في نظر "الدكتور حسن حنفي" نوعان، توحيد قول، وتوحيد عمل، والله والأمة وجهان لشيء واحد بنص القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ **الأنبياء/92**.

---

[1] – نقصد من ذلك كتابه من العقيدة إلى الثورة، د. حسن حنفي، (خمسة أجزاء)، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 1988.

[2] – كتابه من العقيدة إلى الثورة، ص18 و30.

على هذا الأساس فالدفاع عن اللّه، ومن ثمّ فإذا تمّ الدفاع عن اللّه عند القدماء، وأقروا في قضيتهم إثباتاً للتنزيه، فإننا ندافع عن الأمة التي اعتراها التعصب، وأنهكها الضياع ونزلت عليها الهزائم وانتابها العجز وعمّها القعود.

إذا كان القدماء في دفاعهم عن التوحيد، قد فتحوا البلدان، وحرروا الوجدان البشري، فانتصروا في الفكر والشريعة، وحققوا النظر والعمل، فعلينا أن ندعو الأمة إلى الجهاد وإلى تحرير البلدان واستعادة الأرض المغتصبة عن طريق تفجير التوحيد لطاقات المسلمين وعودتهم إلى الأرض.

إذا دافع الأقدمون عن اللّه لأنه كان مظان الحظر والهجوم، فإننا ندافع اليوم على الأرض المستهدفة رفعة وثروة، فاللّه إله السموات والأرض، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، والتوحيد فتح وجهاد، تلك الفريضة الغائبة، وهذا الأصل من أصول الإسلام، بل وعقيدته الأولى باسم التوحيد، وهكذا استبحت حرمات المسلمين، واحتلت أراضيهم، ونهبت ثرواتهم، وانتهكت أعراضهم، واستبيحت نساؤهم وأطفالهم، وبالتالي فإذا كان القدماء مقدماتهم الإيمانية باسم اللّه، فعلينا أن نبدأها أيضاً باسم الأرض المحتلة في مواجهة المحتل لأراضي المسلمين[1].

وفي نظرنا إن الإسلام ينتمي أخلاقياً إلى المذهب الإرتقائي الصعودي القائم على الكدح والإمكانية والتوتر صراعاً مع الشر وتحقيقاً للخير، وهذا هو عين مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو بالنهي عملية تصحيح وإعادة الأمور إلى نصابها أو ما أطلق عليه "الدكتور دراز" جهد المدافعة ومقارعة الباطل efforteminitoire وهي في الآن نفسه عملية خلق مستمر وجهد متوتر وموار للبناء الجهد الخلاق efforteraetriee[2].

---

[1] – د. حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة، ص30.

[2] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص24.

والآيات القرآنية كثيرة حول هذا الجهد الخلاق الباني: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴿10﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الواقعة/10-11، ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آل عمران/133، ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران/114، ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ البلد/11، بل نجد لهذا المنهج الاختراقي الإنهاضي التقدمي أساساً فلسفياً في أكثر من آية من آيات القرآن، من ذلك ما يتعلق بمصلحة الاستخلاف وعمران الأرض والنضال ضد الباطل إلى أن تقوم الساعة، كل ذلك تكريم للإنسان، وتفضيله على الملائكة بسبب عمله ولأنه سيقود ملحمة التطور من خلال مقارعة الباطل.

وهذا هو عين (المصلح المئوي أو القرني) الذي سيرسله الله في نهاية كل مائة سنة ليجدد الروح لدى المسلمين.

نحن لا ننكر وجود مناهج بائسة وارتدادية وقنوطية، لكن ليس مرد ذلك الفكر الإسلامي في ذاته، بل مرد ذلك إلى الكوارث التاريخية، القتل الجماعي الذي حل بتاريخنا إضافة إلى الاستبداد والطغيان، وهكذا فنحن لا نعدم وجود تقدم كوسمولوجي (كوني) شبيه بمغامرة الروح الإنسانية لـ "هيجل"، نجد ذلك بفكرة العناية الإلهية لدى جميع الفلاسفة المسلمين[1].

ويمكن القول إن أهم من تكلم عن هذا التقدم الكوسمولوجي (الكوني) هو "أبو سليمان المنطقي السجستاني"/ت عام 371هـ/يقول المذكور: ((ولعل الدور بعد

[1] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 43.

الدور والكور بعد الكور ينشئان هذا الذي نتمناه لقوم يكونون بعدنا، فالعالم منساق إلى الكمال مشتاق إلى الجمال))[1].

والأمر نفسه بالنسبة "لجابر بن حيان" الذي آمن بتقدم روحي مستمر في عالم الإنسان الفردي أو الاجتماعي[2].

ولقد دافع "الرازي والفارابي وابن سينا ومسكويه" عن فكرة ارتقاء الإنسان من مرتب الحياة البهيمية إلى مراتب الحياة العليا القائمة على فضائل الإنسان الحكيم[3].

ويعتقد بعض الإسماعيلية أن الإنسان ملك بالقوة ويستطيع أن يصبح ملكاً بالفعل[4].

وعلينا أن لا ننسى نظرية التطور عند إخوان الصفا، وبصورة خاصة عند ابن خلدون التي هي كونية كوسمولوجية إذ أن المذكور يؤكد أن آخر آفق المعادن متصل بأول أفق النبات، وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان، وآخر أفق الحيوان متصل بأول أفق الإنسان.

وحقيقة الأمر إن الوحي هو الحقيقة المطلقة، وهذه الحقيقة ما تفتأ تتدرج في التاريخ عبر تحقيقات لا حصر لها، وتبقى هنالك قيود بين الإسلام الحقيقية

---

[1] - أورد هذا النص أبو حيان التوحيدي في المقابسات، تحقيق: محمد توفيق حسن، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1970، ص229.

[2] - د. عبد الرحمن بدوي: تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص189.

[3] - د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 45.

[4] - المرجع السابق، ص 45.

الوحي، وبين الإسلام الوحي في التاريخ، وهذه الهوة لن تعبر أبداً عبوراً كاملاً وسيظل الإنسان باستمرار متوتراً متحركاً يقترب من الحقيقة، لكنه لا يستطيع لمسها، وهذا الانبثاق للحقيقة من صدر الإنسان، هو قبس من النبوة كما قال الشاطبي: ((المجتهد فيه من النبوة، وإن لم يكن نبياً))، وهذا هو رأي الفلاسفة المسلمين الذين يرون الفيلسوف المتصل الواصل قريناً للنبي نفسه، وهو عين ما أكده المتصوفة والفلاسفة الإشراقيون وإذا انتقلنا إلى عالمنا الحديث، فقد كان هاجس الريادة والتنوير والتحرر هو هاجس رواد النهضة ابتدأً من "حسن العطار أستاذ الطهطاوي" الذي احتك بالحملة الفرنسية في مصر فذهل، واعترته الدهشة وصرخ صرخته المشهورة لا بد أن تتغير أحوالنا، ثم أعطى الراية إلى تلميذه الطهطاوي الذي رافق أول بعثة إلى باريس، حيث وعى تماماً تجربة الغرب، وأودعها في كتابه **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، ثمّ كتابه **مناهج الألباب**، حيث كان همه في هذين الكتابين إيقاظ العرب المسلمين في عقولهم ودعوتهم إلى الامتياح من الحضارة الغربية[1].

وهذه الدعوة في التجديد والنهضة نجدها عند "خير الدين التونسي"/1810- 1890/ومن التف حوله من عصبة المدرسة الحربية، وجامع الزيتونة يتقدمهم "الشيخ قبارو"، وإن كان هؤلاء ألحوا على التقدم من قبل الأصول، وليس بعملية زرع خارجية[2].

[1] – رفاعة الطهطاوي: تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، دار التقدم، شارع محمد علي بمصر، 1905، ص155.

[2] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 123.

ولا أحد ينسينا صرخة "الأفغاني" المدوية في وجه الاستعمار في زمن التناقض، زمن تحرر الأرقاء، وتعملق الأحرار[1].

والأمر نفسه بالنسبة لصرخة "عبد الله النديم" في مصر/1845-1897م/المدللة بأن الإسلام هو السبب الوحيد للتمدن[2]، ثم موقف علي مبارك/1824- 1893م/الذي أكد أنه ليس في أحكام الديانة الإسلامية ما يمنع التقدم في أي علم من العلوم الدينية أو الدنيوية[3].

أما المفكر الباكستاني "محمد إقبال" فقد افتتح قارات واسعة في التجديد الديني منها تجديد علم الكلام، حيث أكد المذكور أن المطلوب ليس العلم بالله، وإنما تجديد الصلة بالله عن طريق توفير الدافع الداخلي الذي يجعل قلب المؤمن ينتفض، ويسترد الحياة، فتنتصر على الخمول والجمود والعطالة[4].

وهذا هو عين موقف "مالك بن نبي" حين أكد أن مشكلتنا ليست بأن نبرهن على وجود الله بقدر ما نشعر بوجوده ونملأ نفوسنا به[5].

---

[1] - جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة (خاطرات في التربية والتعليم)، ص78.

[2] - عبد الله النديم: مطبعة النديم، ج2، ص111.

[3] - علي باشا مبارك: علم الدين، مطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية، 1882، ج1، ص308.

[4] - محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الاسلام، ترجمة عباس محمد، القاهرة، 1955.

[5] - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، القاهرة، 1959، ص505.

ولقد أفرزت حياتنا المعاصرة أكثر من حركة دينية نزعت التجديد ومقاومة البدع الدينية والاجتماعية وعلى رأس هذه الحركات الوهابية والسنوسية والمهدية[1].

والحديث يطول عن "الشيخ محمد عبده"/1849- 1905م/وحسبنا دعوته إلى إصلاح العقيدة في كتابه **رسالة التوحيد**، إذ بالعقيدة تبكي العيون وتصعد الزفرات وتخشع القلوب[2].

ومن أرض لبنان الشقيق ارتفعت عقيرة "حسين الجسر"/1845- 1909/بالدعوة للأخذ بمنجزات العلوم والتأكيد بأن الإسلام يحض على ذلك[3].

والخلاصة في ذلك في مصر على لسان "الشيخ طنطاوي جوهري"/1870- 1940/الذي دعا الأمة إلى أن تصنع المنشار والإبرة والقدوم، لكن على أساس تعميق الجذر الإيماني وتنمية الجانب الوجداني، ثم الربط بين العلم والإيمان[4].

أما المصلح والعالم الدمشقي "محمد جمال القاسمي"/1866- 1914/فقد دعا لتأسيس الاعتقاد على العقل الفلسفي والمنجزات العلمية، لأنه كلما ازداد المرء

---

[1] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص190.

[2] – الشيخ محمد عبده: رسالة التوحيد، ط2، دار المعارف بمصر، 1971، ص59.

[3] – – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 210 وما بعدها.

[4] – الشيخ طنطاوي جوهري: نهضة الأمة وحياتها، القاهرة، مطبعة الكوثر، 1908، ص240.

علماً بالفنون الكونية، رسخت قدمه في العلوم وليست وجدانه بالفهم، ونفذ عقله في أسرار الكون تمزقت دون روحه حجب المادة، وانجلى به الوجود الأعلى[1].

وفي نظر المفكر العراقي "أبو المعالي محمود شكري الألوسي" إن العقل والعلم يصدقان النقل ويؤيدانه[2].

ويفتح العلامة "محمد عزيز الحبابي" آفاقاً واسعة لمدلول الشهادة في الإسلام، فهي تتفتح من مدلولات علمية وانطولوجيا واجتماعية وأخلاقية وسياسية، هذا فضلاً عن أنها تجعل المسلم "أنا" شعورية ذاتية مستقلة[3].

ويدعو المفكر "عثمان أمين" إلى حركية اجتماعية تنطلق من داخل الفرد، إذ أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لكن هذه الفلسفة الجوانية توازن بين المادة والروح بين الباطن والبراني[4].

وينقلنا "رشيد رضا" إلى حقل السياسة واضعاً في رأس قائمة شروط الإصلاح شرط شورية الحكومة وعدالتها ومعاملتها الناس بالمساواة[5].

---

[1] – محمد جمال القاسمي: دلائل التوحيد، القاهرة، ط2، 1990، ص17.

[2] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 239.

[3] – محمد عزيز الحبابي: الشخصانية الإسلامية، القاهرة، 1996، دار المعارف بمصر، ص27.

[4] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 262.

[5] – الشيخ محمد رشيد رضا: الجنسية والدين الإسلامي، المنار، 2/21، ص327.

ولقد انتهى "محي الدين الخطيب" و"شكيب أرسلان" و"محمد كرد علي" إلى أن نهضة الإسلام مرتبطة بنهضة العرب[1].

ولقد قضّى مضاجع "عبد الرحمن الكواكبي" هذا الفتور العام الذي يدب في جسد المسلمين، وعزا ذلك إلى أسباب متعددة في مقدمتها الاستبداد[2].

أما المفكر السوري "عبد الحميد الزهراوي"، فقد كان كتلة ملتهبة من التوتر والاندفاع من أجل دعوة قومه للتقدم والحضارة[3].

التأمل في التاريخ والتجذر في أعماقه والالتحام به الشرط الأساسي لدى "محمد كرد علي" في معركة العصر الحديث[4].

والإسلام في نظر المفكر الوطني المغربي "علال الفاسي" حركة مستمرة للنظر والتفكر والعمل التقدمي الدائب[5].

ولقد هاجم "خالد محمد خالد" رجال الدين الإسلامي المتخلفين واعتبرهم عقبة كأداء في طريق التقدم[6].

---

[1] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص 280.

[2] – عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة (أم القرى)، ص151.

[3] – عبد الحميد الزهراوي: تربيتنا السياسية في الإرث الفكري، ص57.

[4] – محمد كرد علي: غرائب الغرب، 1963، ج2، ص325.

[5] – علال الفاسي: النقد الذاتي دور البيت، المطبعة العالمية، القاهرة، 1952.

[6] – خالد محمد خالد: من هنا نبدأ، القاهرة، 1950، ص47.

ولقد أسس "عبد الحميد بن باديس"/1889- 1940م/مدرسة فكرية كبرى للإصلاح الاجتماعي في الجزائر كأساس للإصلاح السياسي وفي الوقت نفسه فقد قدم مشروعاً سياسياً إسلامياً يقوم على ثلاثة عشر أصلاً من أصول الإسلام[1].

والإسلام عند "حسن البنا" دولة ووطن، أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة هو ثقافة وقانون، علم وقضاء، مادة وروح، كسب وغنى، جهاد ودعوة، مؤكداً أيضاً أنه ما من أحد جارى أجدادنا في التقدم العمراني[2].

والشيخ "عبد العزيز جاويش"/1876- 1929م/هو الذي طرح شعار الإسلام صالح لكل زمان ومكان[3].

ولقد أبرز عميد القانون "الدكتور عبد الرزاق السنهوري" دقة المنطق في الفقه الإسلامي ومتانته صياغته وقابليته للتطور، وأظهر أن فتح باب الاجتهاد في الفقه سيتيح لنا أن نستنبط أحكاماً جديدة لا تقل أهمية عن القوانين اللاتينية والجرمانية والقوانين الحديثة[4].

---

[1] - ابن باديس: آثار ابن باديس، ج1، ص401.

[2] - حسن البنا: رسالة التعليم، مجموعة رسائل، ص7، كتابه الإسلام دين الفطرة والحرية، مطبعة دار الهلال، ص45.

[3] - د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص356.

[4] - المرجع السابق، ص357.

وقريب من ذلك دعوة "أحمد حسين المحامي" إلى مراجعة القوانين في وطننا العربي على ضوء الشريعة الإسلامية لأن بإمكان هذه الشريعة أن تنظم أي مجال من مجالات القانون بما في ذلك القانون الدولي[1].

وفي نظر "عبد الرحمن البزاز" أن التشريع الإسلامي يجمع بين الدين والقانون والأخلاق وقواعد العدالة وفي الوقت نفسه فهو يتميز بطابعه الجماعي ثم مزجه بين الحق والواجب، الحرية والتطور[2].

ولقد برهن "عبد القادر عودة" أن التشريع الجنائي في الإسلام بتفوق على التشريع الجنائي الأجنبي[3].

ولقد أسس علال الفاسي السلطة في الإسلام وجعل قيامها على نظرية الاستخلاف، أي عمارة الأرض وإقامة العدل[4]، وهذا هو عين تأصيل "مصطفى الغلاييني" لمسألة العمران الإنساني[5].

أما "رفيق العظم"/1865- 1925/فهو أول من تكلم على نظرية التمدن والعمران من منظور إسلامي[1].

---

[1] – أنور الجندي: تنظيم الفكر الديني، ص223.

[2] – عبد الرحمن البزاز: بعض خصائص التشريع الإسلامي (من روح الإسلام)، ص114.

[3] – عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي، ط2، ج1، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1959، ص12.

[4] – علال الفاسي: النقد الذاتي، ص98.

[5] – مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، المكتبة الأهلية، بيروت، ص240.

وفي نظر "محمد فريد وجدي" إن الإسلام روح المدينة الحقيقية والناموس الأعظم للتقدم وعين أمينه النفس البشرية ونهاية ما ترمي إليه القوة العقلية، وإن كل ترقي في العالم الإنساني هو اقتراب من الإسلام المحمدي[2].

وهكذا ربط "ابن نبي" بين القيم الروحية وبين التقدم الحضاري، وبالعكس فقد رد السقوط الإنساني إلى سيادة الغرائز مؤكداً أن الحضارة مركب يقوم على المعادلة الآتية: إنسان+ تراب+وقت[3].

وفي نظر "سيد قطب" إن إنسانية الإنسان وراء كل تقدم حضاري لذلك فالتوحيد لا يعني توحيد الله أو تلك الكوكبة من المفكرين والعلماء تؤكد لنا أن الإسلام قادر على قيادة مركبة حياتنا في كافة مجالات الحياة تجدداً وانطلاقاً واندفاعاً نحو الأنسنة والشرط البشري وكرامة الإنسان وعزته، وفضلاً عن ذلك فهؤلاء قادة وسياسيون ووطنيون ومصلحون وفاعلون اجتماعيون قبل ان يكونوا مفكرين، وبذلك فلا مجال في أرض العروبة لكل من يتهاون في حق الإسلام، ويقلل من شأنه في حمل راية عزتنا وتقدمنا، وإن أية انطلاقة تستهين به إنما هي من الثوابت[4].

---

1 – رفيق العظم: البيان في التمدن وأسباب العمران، بيروت، ص240.

2 – محمد فريد وجدي: المدنية والإسلام، القاهرة، مطبعة هندية بالموسكي، ط3، ص5.

3 – مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، بيروت، دار المعارف، ط3، 1969، ص123.

4 – سيد قطب: الإسلام ومشكلات الحضارة، طبعة بيروت (دون تاريخ أو بيان لدار النشر)، ص197.

إذن فالإصلاح الديني «كأساس من أسس التقدم العربي[1]» حقيقة ساطعة كالشمس ونحن بحاجة إلى عرب يتكلمون عن لاهوت العمل ولاهوت التحرير ولاهوت النهضة ولاهوت المعاصرة ولاهوت العروبة والإسلام ولاهوت التجدد الحضاري ولاهوت العدالة، ولاهوت الشرط البشري، ولاهوت المرأة، ولاهوت المواطنة، ولاهوت حقوق الإنسان وحرياته العامة، ولاهوت الدائرة الحضارية للأمة العربية، ولاهوت مقاومة الاستعمار، ولاهوت الغزو الثقافي، ولاهوت التطبيع، ولاهوت القدس، ولاهوت فلسطين، وفي مطلع كل ذلك لاهوت الوحدة العربية، تاج الإسلام، والحامل التاريخي والاجتماعي له[2].

وحقيقة الأمر أن أية نهضة حقيقية لا يمكن لها أن تؤتي أكلها إلا باستوائها على مشروع حضاري مستقل يرتكز على الدعائم الأساسية للمجتمع التي تشكل خصوصيته، وتتصل بينابيعه وجذوره التاريخية الكبرى، فالحضارة العربية ما زالت موصولة بينابيعها الثلاثة: المسيحية الكاثوليكية في الأخلاق، القانون الروماني في الحقوق والسياسة، الثقافة الإغريقية في الفكر والفن، كذلك الحال في الهند اليابان والصين، حيث للهندوكية، والبوذية، والكونفوشيوسية دورها في مشروع كل منطقة[3].

وفي أمريكا اللاتينية صدر كتاب موسوم بعنوان **لاهوت التحرر** لأحد قساوسة البيرو هو الأب "غوستافو غوتيريز"، وفيه يعلن أن الخلاص بالتحرر من الخطيئة فقط، بل التحرر السياسي والاقتصادي، وهكذا أسس الأب المذكور تياراً نضالياً

---

[1] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص8.

[2] – فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، ص 43.

[3] – المرجع السابق، ص41 وما بعدها.

يربط الخلاص الديني بحركة تحرر الإنسان، بالإيمان والعمل السياسي بملكوت الله وبناء العالم[1].

وعلى ضوء ذلك يقول المذكور: ((إن المحبة الإنجيلية تفرض على الكنيسة الانحياز إلى جانب التحرر من جميع ضروب الاضطهاد))[2].

وقبل "غوتيريز" كتب بعض القسس عن لاهوت العمل، ولا هوت الأمل، ولاهوت التنمية، ثم توجت المسيرة بلاهوت التحرر[3].

ولقد وصف الفيلسوف الفرنسي "روجيه غارودي" هذه الدعوة في كتابه **حوار الحضارات** بأنها انقلاب لاهوتي.

وخلاصة القول ليس المطلوب منا أن لا نعيش إلا محلقين في القبة السماوية، بل أن نحدق في الواقع، ونستمع لدقات قلبه، وما يمور به تناقضات وظروف وهذا ما نسميه المعاصرة المؤسسة على الأصالة، بحيث تعالج من خلال الأصالة إفرازات العصر الحديث كالأنسنة والشرط البشري والعولمة والتكنولوجيا وثورات العلم والمعلومات وثورة العمل والديمقراطية والمحورية الأخلاقية، كل ذلك ليس بعيداً عن نفحات الدين، بل يبقى الدين هو ضمير ووجدان المجال، أما عقل المجال فهو الإنسان الذي يحمل المشروع العقلي المستنير والمسلح بالعلم والمعرفة.

إن أية عملقة وتجوهر لأمتنا لا يمكن أن تتم إلا بارتباط المشروع العمراني الحضاري العربي بالمشروع الإسلامي التاريخي الأكبر بسبب الجذر المشترك

---

[1] - فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، ص41.

[2] - المرجع السابق، ص 41.

[3] - المرجع السابق، ص 41.

التاريخي الذي يربط هذين المشروعين وبسبب استوائهما وحملهما على ضمير الشخص العربي العادي، باعتباره اللبنة الحقيقية والخيوط التي يغزل منها نسيج أمتنا، وإننا لنعتبر وعياً مطابقاً وحيّاً وفذاً التقاء جناحي الأمة، التيار القومي والتيار الديني خلال مؤتمري قمة انعقدا تحت لواء الأرضية الصلبة المشتركة.

إن أية انطلاقة ﴿ دروب النهضة والتحرر والتنوير، لا يمكن أن تتم إلا من خلال مشروع عربي نهضوي يقترن به ﴿ النواة تجديد وإصلاح المشروع، بحيث نعانق ﴿ التراث لهبة المقدس ويفجر برميل البارود لوثريون عرب، وذلك بالشرارة الإلهية إضافة إلى شرارة النور الإنساني نور على نور، نور الله، ونور الإنسان، هذا النور الذي يستوعب لغة العصر، ويحيط بمبادرات حماتنا ودقات قلب الواقع المعاصر، ويقودنا ﴿ عمل تاريخي إلى أرض التقدم والصلاح وامتلاك ناصية التاريخ.

الشريعة الإسلامية –وطن الأمة وجزء ماهيتها

«ومسألة التغريب والتخريب»

يؤكد فقهاء الشريعة الإسلامية أن اللغة العربية جزء ماهية القرآن تأسيساً وتدليلاً بدور هذه اللغة الفذة في تأصيل كنوز القرآن الكريم وقيمه ومفاهيمه، ومعانقة منطقه وتصوراته، وتلمس رهافة إحساسه وذوقه، واستشفاف جمال أسلوبه، واستكناه روعة إعجازه وعظمة بلاغته.

وهذا هو مغزى قوله ﷺ لصحابته: ﴿أَرْشَدُوا أَخَاكُمْ فَقَدْ ضَلَّ﴾، كشفاً عن أن التعريب هو الدينامو الإجرائي، والدافع الأهم للانخراط في المشروع الإسلامي، وتفضيل الارتقاء به.

وإذا كان القطب العربي ألقى بصماته على القطب الإسلامي في آلية الجدل بينهما فقد كان للقطب الإسلامي تأثيره في القطب العربي من خلال تلك الجدلية بحيث فجرت الشرارة الإلهية برميل البارود العربي، وانطلق المارد العربي منه في أضخم عمل تاريخي إنساني، وتحقيق لأول مرة على أرض أمتنا وفي مشتلها وحضانتها، تحققت حضارتنا العربية الإسلامية التي تحتل قلب هذا العالم، وتعتبر إحدى وأهم الحضارات الست على هذه المسكونة.

والأهم من ذلك فهذا التأثير الإسلامي ليس عملاً عارضاً وحدثاً طارئاً في ذمة التاريخ ومتحف الأيام، بل هو عمل الحياة الدائم والدائب الذي لا يني يحرك الضمائر والإرادات والقلوب للإبداع والعطاء وأن القبض على هذا التأثير المتبادل

وبلورته وفهم آليته وقوانينه يعني الوعي المطابق الأساسي، وبالمقابل فإن وعياً آخر مضاداً لا يمكن وصفه إلا بالوعي الزائف المبعثر والمتعثر الذي يتحرك في الخواء والفوت والموت.

وبيان ذلك أن الدين وضع إلهي أمر يتصل بالله المتعال في ذاته وبأحكامه التي وضعت لتسوس خلاص البشرية في الدارين أزلاً وأبداً، ولكن هذا الوضع المطلق إذا ما تماس وتفاعل مع الحقيقة البشرية أصبح قرينياً أي مقترناً بقوى وفاعلية الزمان والمكان النسبية عبر مجسدات وتوضعات ومن خلال عامل إجرائي فاعل، وهذا الفاعل الإجرائي له محددات وتجليات متعددة لعل في مطلعها فاعل الأمة.

فالأمة هي الفاعل الإجرائي الأمثل للتعامل مع الوضع الإلهي وبفضل ذلك الفاعل الأعظم «وباعتباره حقيقة تاريخية حية ووجوداً موضوعياً متجذراً» يستطيع الوضع الإلهي أن يتبلور في مستويات ترقى إلى مستوى العمل التاريخي الحضاري الأرفع.

صحيح أن الوضع الإلهي يحدد سير الإنسان، ويحثه على تحقيق المشروع الإنساني الأعظم، وهذا المشروع هو نتاج الإرادة والفعل الإنساني الواعي أي فعل العامل الإجرائي، وليس فعل القوى الاجتماعية الطبيعية الصامتة والتلقائية وغير الواعية، ولكن الفاعل الإجرائي لا يمكن أن ينطلق من فراغ ويتأسس على الهواء والخواء، بل لا بد له من حقيقة اجتماعية في جوهرها كي يصيغ المعطى الطبيعي إرادة ومؤسسة.

وتأسيس الصرح العقلي على الصرح الاجتماعي الطبيعي نجده جلياً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

واضح من هذه الآية الكريمة أن التأسيس للمشروع الإنساني بآلية التعارف التي هي التكامل والتعاون الإنسانيين، هذا التأسيس محمول على رافعة الشعب كحقيقة اجتماعية ومعطى طبيعي أمثل لأنه بقدر ما يكون العامل الاجتماعي أصلب كلما صلبت إرادة التأسيس الإنساني وقوى عودها ومراسها، ونحن نجد مصداق ذلك في الحضارات التاريخية الكبرى ذات السمة الإنسانية فهذه الحضارات لم تقفز فوق الحقيقة القومية، بل اعتمدت هذه الحقيقة قاعدة رصينة صلبة، ثم انطلقت منها في توجه إنساني.

ولعل أبرز من أوضح آلية هذا التأسيس "ريجيس ديبريه" في قوله إن فهم ما ينتمي إلى السياسة يجب ألتماسه لا في ذات نفسه، بل في الإيديولوجية، وفهم ما ينتمي إلى الأيديولوجيا يجب التماسه لا في الدين نفسه بل في الفيزياء الاجتماعية[1].

وإذا كان للكاثوليكية علاقة ما حميمة مع الأمة الفرنسية والإيطالية، وكان للبروتستانتية تلك العلاقة مع الولايات المتحدة أو ألمانيا أو إنجلترا، والتفسير نفسه نجده بالنسبة للهند والصين وروسيا، إذا كان الأمر كذلك فهنالك علاقة خاصة ووشيجة بين الإسلام والأمة العربية، لسبب بسيط هو أن هذا الدين لم يكن مجرد إضافة كمية إلى كيان أمتنا كما هو حاصل لدى بعض الأمم، بل إنه لعب دوراً تكوينياً ماهوياً وكيفياً في صياغة هويتها وشخصيتها وتراثها.

نحن لا ننكر أن الأمة حقيقة أشمل من الدين من جهة فهي دين وشعب وأرض وتراث وسياسة ومصلحة وغير ذلك من الفاعليات، وهي أضيق من منة لجهة عموم الخطاب وشموله.

---

[1] – Régis Debray: Critique de la raison politique, Édition , Paris , Gallimard , 1987, P 48.

وهذا القانون يسوس أمتنا العربية، مثلها في ذلك مثل أية أمة أخرى فهي حصيلة فعاليات لا حصر لها، ومن أهمها الدين الإسلامي، وإن كان هذا الدين لا يساوي مطلقاً ويتطابق حرفياً مع فعاليات أمتنا، إذ القول بذلك يعني عطالة الفاعل الإنساني في دارنا العربية إبداعاً للحياة وإنتاجها، كما أن ذلك يعني السقوط في الجبرية المطلقة للفاعل الديني.

ومع إيماننا الوطيد بذلك إلا انه يمكن التقرير بيقين أن الدين الإسلامي لعب وسيلعب دوراً هاماً في حياة أمتنا من حيث تأسيس ناموسها الأدبي ودستورها الأخلاقي وإحساسها الجماعي ومنطقها العام وهو ديوان ثقافتها وموسوعة تراثها وصائغ فلكلورها وقصصها الشعبية وصانع مفاخرها وبطولاتها ومناط عزها وكرامتها وموطن اعتزازها وفخرها، بل إن هذا الدين كان متنفس المستضعفين المقموعين وأريجهم الروحي كأمل منشود يرجى منه الخلاص الروحي، وكحصن أو درقة تصون الأمة، وتذود عنها هجمات الأعداء في الصعاب والملمات لا حاجة للتدليل بان حضارتنا العربية الإسلامية نسجت القيم الآنفة الذكر وصاغتها في منظومات متواشجة العرى وفي أنساق مترابطة يشد بعضها بعضاً، وإن كان علينا أن لا نفعل أو نتغافل عن حقيقة هامة هي أن الشريعة الإسلامية تقع في النواة النووية من هذه المنظومة والأنساق القيمية.

فالشريعة الإسلامية حقيقة تتماهى وتتحايث مع امتنا وثقافتها وهويتها ونظرتها إلى الوجود، ومن ثم فالاعتداء على هذه الشريعة هو اعتداء على الأمة وعلى روحها ووجدانها ووطنها على اعتبار أن الوطن هو روح الأمة تماماً كما الجسد هو موطن الروح.

بهذا التعليل نفسر معنى العنوان الذي وسمنا فيه هذا البحث وقلنا أن الشريعة جزء ماهية الأمة العربية ووطن روحها (نقول وطن وليس الوطن) تماماً كقولنا أن

اللغة العربية جزء ماهية القرآن، تدليلاً بالتماهي المتبادل التأثير في قطبي المزدوجة عروبة/إسلام، وللاحظة القارئ أن هذه القراءة تنطق من الأمة ومعطياتها وواقعها أي من الوعي بما هو قائم وراهني، تفكيكياً وحفراً يقوم على آلية علم الاجتماع والعمران والتاريخ، وليس انطلاقاً من فعل عقيدي إرادي يرنو«بالتفاعل مع الوضع الإلهي» لتحقيق صبوات الروح الإنسانية، فهذا الفعل الأخير مظهره الحركة والمستقبل والإيديولوجيا، وقد يكون مبعثه التجييش والتعبئة السياسية، وهو أمر خارج عن رصدنا وتأسسنا.

وهذا المذهب للأمة نجد أصداءه في أصدق تعبير على لسان المطران "جورج خضر" بقوله: ((هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها))[1].

وقول المفكر العربي "أمين نخلة": ((كأن الإسلام أسلامان واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة، وكأنما العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اعتداء وتمسكاً وكلفاً بلغته))[2].

وبيان ذلك أن الشريعة الإسلامية هي نتاج حياة أمتنا، وبالتالي وإذا ما استثنينا مساهمات الرسول ﷺ فيها، وهي أمر يدخل في إطار المقدس —فما سوى ذلك من رفعة الشريعة يدخل في إطار الوضع البشري —هي التعبير عن روح أمتنا وتخلقاتها وتحققاتها ومعراجها وتطوافها وانطلاقها التاريخي رنواً نحو الكمال الإنساني بالتفاعل والوضع الإلهي.

---

[1] – مجلة الناقد، السنة3، العدد 25 تموز، يوليو 1990، ص8.

[2] – الحوار القومي الديني، مناقشات الندوة الفكرية التي تطبعها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988، ص23.

وهذه الحقيقة البشرية للشريعة الإسلامية يجليها قول الإمام "مالك بن أنس": ((كلكم رد إلا صاحب هذا القبر))، إشارة إلى قبر الرسول الأعظم ﷺ وهذا هو معنى وقول الإمام أبي حنيفة: ((الرسول على الرأس والعين والصحابة رجال ونحن رجال)).

وهنالك سبب آخر يقرب هذه الشريعة من روح أمتنا هي أنها كانت الإحاطة والجواب على مبادرات أمتنا وعلى حركة الحياة فيها، وعلى تمتعات وتضاعيف وتضاريس واقعها، ولعل مثلاً واحداً جلياً يوضح ذلك هو عمل المدينة الذي حمل المذهب المالكي وأسس له.

وفضلاً عن ذلك فالشريعة الإسلامية في صياغتها وإحاطتها امتاحت، وأكدت بعض الأخلاقيات والسلوكيات القومية التي كانت سائدة في الجاهلية من ذلك قاعدة الدية التي استنها عبد المطلب جد الرسول والتي أكدها الرسول الكريم ﷺ، هذا فضلاً عن المعاقلة ونداء العاني اللذين قنتهما الصحيفة/الميثاق دستور أول دولة في الإسلام[1].

وإذا كان المجال لا يتسع هنا لدراسة عدم عدمية الإسلام تجاه الخير أياً كان مصدره فحسبنا الإحالة إلى بعض الكتب التي صنفت في هذا الباب، باب وراثة الإسلام لكثير من الأنظمة التي كانت سائدة في الجاهلية[2].

[1] – د. برهان زريق: الصحيفة ميثاق الرسول دستور دولة الإسلام في المدينة، دار النمير، 1996، ص355.

[2] – الشيخ خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، القاهرة سينا للنشر، ط1، 1990.

والشريعة الإسلامية، وإن كانت بشرية المنبت، فهي محاولة إنسانية ارتقائية باعتبارها حصيلة تفاعل الخطاب الإلهي مع موشور بشري فزهو أولئك الفقهاء الأصفياء الأخيار الذين صاغوا هذه الشريعة بشفافية وهاجة ومعاناة وقلق روحي وتضرع يخشى الله طمعاً وخيفة، أمثال "أبي حنيفة وابن تيمية والحسن البصري وابن حنبل وغيلان الدمشقي وابن قيم الجوزية والشاطبي" وغيرهم فهؤلاء هم أفلاذ أكباد أمتنا ومناراتها على الطريق عبر قطع الظلام، ومن ثم أو ليست الأمة في نهاية الأمر هي مفكروها وعلماؤها وأدباؤها ....فكيف إذن نتنكر لعطاء هؤلاء الأفذاذ.

على هذا الأساس نؤكد «والشريعة حصيلة تجربة إنسانية فذّة» إن الشريعة الإسلامية تدخل في إطار القرنية الدالة على صحة تفاعل الوضع الإلهي مع الوضع البشري، وهذه القرنية تضغط بثقلها وككلها ضغطاً بالغاً ليس بقدسيتها ولكن بطبيعتها الذاتية.

وإذا ما استعرنا مبادئ علم الإثبات من مجال القانون، طبقناها على قوة الشريعة أمكننا القول إن هذه القرنية ليست مطلقة، وإنما قابلة لإثبات العكس وبذلك فهي لا تستغرق كلياً إرادتنا ونقدنا، بل تسمع لـ (فينمينولوجيا[1]) الروح الإسلامية، بتحقيقات إنسانية وتمظهرات واجتهادات تغني هذه الشريعة ثراء وعطاء وفي الآن نفسه نفياً لمقولة غلق باب الاجتهاد وتوحيداً وتوطيناً للكلمة الخلاقة في القرآن التي كانت وستكون وراء كل تقدم وازدهار لأمتنا.

---

1 - الظاهراتية أو الفينومينولوجيا هي مدرسة فلسفة تعتمد على الخبرة الحدسية للظواهر كنقطة بداية (أي ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية) ثم تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها.

ونحن في هذا العدد ومن العجالة نذكر أن هيجل أسمى القرآن كتاب الحركة تدليلاً بمرونة نصوصه، هذا فضلاً عن أن فقهاء الشريعة أطلقوا على هذا العلم علم الحركة والخلافيات[1].

وبهذا التدليل يمكننا التأكيد على أن إقصاء الشريعة من دائرة حياتنا وجدلنا التاريخي العمراني، إنما هو خنق لفعالية أمتنا العربية وترسيخها للعطالة والبطالة والجمود في روحها، وهذا ما لمسناه في أوكار الفرنجة والتغريب ومحاولتها طمس أمتنا من خلال تعطيل دينامو الشريعة ورافعتها والعكس.

ذلك أن الشريعة الإسلامية هي مفتاح العمل في الإسلام، وهي المعيار الأسمى لقياس الأداء الإنساني[2].

وإن تهميشها وتطويقها وإقصاءها ونبذها لا يعني إلا الركون إلى الإسرائيليات الجديد، حسب تعبير المصلح العربي الكبير "علال الفاسي"[3]، وحسبنا التدليل بأهمية الشريعة تلك الشهادة التي لا تقدر بثمن والتي أدلى بها "الكونت ليون استروروغ" والمتضمنة أن الشرع الإسلامي يبدو إذا ما نظرنا إليه من ناحية بنيته المنطقية من أكمل الروائع التي تستثير إعجاب الباحث حتى عصرنا هذا وأنه من المتعذر أن تجد ثغرة ما في السلسلة الطويلة من القياسات التي تحتفظ بصحتها سواء من ناحية المنطق الشكلي، أم من ناحية قواعد النحو وإذا درست محتويات

---

[1] – د. حسن صعب: تحديث العقل العربي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1996، ص86، وما بعدها.

[2] – مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت 1996، السنة الثامنة، العدد 31، ص32.

[3] – علال الفاسي: الموسوم بعنوان مقاصد الشريعة ومكارمها، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1963، ص89.

هذا المصنع المنطقي، فإن بعض النظريات لا تستدعي الإعجاب فحسب، ولكنها تثير الدهشة، فقد توصل هؤلاء الشرقيون الذين عاشوا في القرن التاسع بالاستناد إلى مبادئهم الكلامية إلى النص على حقوق الإنسان بما تشتمل عليه من الحقوق المتعلقة بالحرية الفردية، وحصانة الشخصية والملكية ووصفوا السلطة العليا أو الخلافة بأنها مبنية على التعاقد، وعنوا بذلك أن عقدها قابل للإلغاء إذا لم تطبق شروطه تطبيقاً أمنياً ووضعوا قانوناً للحرب يحوي من التعاليم الإنسانية النبيلة ما يمكن لمقاتلي الحرب العالمية الأولى أن يحمروا تجاهه خجلاً، واعتمدوا مبادئ التسامح تجاه غير المسلمين لم يعتمد غربنا على ما يماثلها إلا بعد ألف عام[1].

ومع هذه السمات الذاتية للشريعة فقد كانت موضع هجوم شديد لا سيما من الغرب السياسي، وها نحن نسمع "كرومر" المعتمد البريطاني في مصر يصفها بأنها متخلفة ولا تصلح إلا لمجتمع بدائي، وهذا هو موقف "هانوتو" الفرنسي وغيره[2]، والهدف من ذلك هو طمس العروبة والإسلام من لوح الوجود حسب تعبير المصلح رشيد رضا.

وعلى خطى الغرب «غفلة أو تغافلاً» سار مغتربو أمتنا ومتفرنجوها في التنديد بالشريعة بصورة تخرج عن إطار التقييم العلمي، وتتجاوز حدود النقد والتحليل.

وعلى هذا الأساس يقرر "الدكتور فهمي جدعان" «ومثله معه الكثيرون من أمتنا» فيما يتعلق بأحد هؤلاء المتفرنجين بأن دعوى علي عبد الرزاق تؤدي إلى محو

---

[1] - مقال ألقي في جامعة لندن:

Kount Leon Ostrorog; The Ankara Reformu, Istanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi, 1937, p30.

[2] - د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص325.

شخصية الأمة وإلى إسقاط سلسلة من الأحكام الخلقية والعملية والقضائية التي تتضمنها الشريعة الإسلامية[1].

وحقيقة الأمر، فهذه الشريعة تتناول حقوق الإنسان الفردية، أي ما يعرف اليوم بالقانون الخاص، كما تتناول تنظيم الخلافة أو السلطة، أو ما يعرف اليوم بالقانون العام، وتتناول أحكام الحرب، أو ما يعرف اليوم بالقانون الدولي، فنظرتها إذن إلى القانون شاملة، لكنها ليست نظرة قانونية حقوقية صرفة، بل تستند إلى مسلمات اعتقادية ومبادئ خلقية وأحكام عقلية عملية[2].

حتى على صعيد النظرية السياسية، فهذه الشريعة تقدم لنا أعرق وأعمق أصول ومبادئ الحكم، مثل أصل الشورى، العدالة، التضامن، المساواة، وأصل الولاية العامة للأمة، وأصل حق الأمة في توليه الحاكم، وأصل حق الرقابة على الحاكم وعزله، وأصل التضامن بين الراعي والراعية، وأصل المساواة أمام القانون، وأصل صون حقوق الأفراد[3].

ويكفي التدليل بأهمية هذه الشريعة التقييم الذي قدمه مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي عام 1937، فقد أقر هذا المؤتمر قيام الشريعة على مبادئ وأصول وقيم تصلح لدفع الإنسان نحو كل ازدهار وتقدم.

---

[1] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص343.

[2] – د. حسن صعب: تحديث العقل العربي، بيروت دار العلم للملايين، ط1، 1986، ص103، وانظر د. محمد سلام مدكور: مدخل الفقه الإسلامي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964، ص15.

[3] – عبد الحميد بن باديس: آثار ابن باديس، ج1، م2، ص401.

فالمسألة الأولى والأخيرة هي الصفة الذاتية لأحكام الشريعة، وهل هي صالحة لكل زمان ومكان، حسب تأكيد المصلح العربي الكبير "عبد العزيز جاويش باشا" على أهمية تلك الميكانزمات والأصول المتعددة من ذلك مبدأ لا ضرر ولا ضرار، مبدأ سد الذرائع أو إعطاء الوسائل حكم الغايات – مبدأ الأخذ بأحكام العرف- مبدأ المصالح المرسلة- مبدأ أصل الاجتهاد- مبدأ أصل القصد في الأعمال وإقامة ما لا يشق على النفوس من تكاليف –مبدأ إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به- أصل تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض- أصل وجوب الامتثال إلى ما قاله النبي ﷺ شرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي – أصل المساواة بين المسلمين في الأحكام، وكذا بينهم وبين جميع من له ذمة وعهد- أصل أن لا تزر وازرة وزر أخرى، أصل أن جميع الزواجر حسبما يراه الإمام أو القاضي طبقاً للعرف العام أو التحكيم[1].

هذه الاعتبارات الذاتية في الشريعة حدت أمير القانون في دارنا العربية "الدكتور السنهوري" للتأكيد بأن عدداً من مبادئ الشريعة الإسلامية يعد متقدماً على الشرائع الغربية نفسها، وأن ثمة اعتبارين يوجبان التشديد على ضرورة العودة إلى هذه الشريعة: **الاعتبار الأول** علمي فني، **والاعتبار الثاني** وطني قومي، أما الاعتبار الأول، فيتمثل في رقي أحكام الشريعة وصلاحها لنهضة عالمية في الفقه والتشريع، أما الاعتبار الثاني فيتمثل بأن الواجب يفرض على مصر أن ترسم لنفسها خطة تسير عليها بحيث لا تميل إلى جانب الغرب أو تعيش مدينته، فتلبس ثوباً غير ثوبها وتقلد مدينة غير مدنيتها ولكن ترجع إلى المشرق دون أن تجافي

[1] – عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية، طبعة دار الهلال، ص45.

المدينة الغربية، وهذه الخطة تفرض رجوعاً ثقافياً قانونياً إلى الفقه الإسلامي من شأنه أن يربط الحاضر بالماضي ويوطد أركان الرابطة العربية[1].

وهذا هو رأي المفكر الكبير "عبد الرحمن البزاز"، فقد عزا تفوق الشريعة على القانون الغربي إلى مزجها القانون بالأخلاق والعدالة وإلى طابعها التضامني الجماعي إضافة إلى مزجها الحق بالواجب مع اعتمادها على أصول ثابتة يحفظ لها الاستمرار وأقرب ما تكون إلى القانون الطبيعي وقواعد العدالة، وأخيراً إلى قابليتها للتطور باعتمادها على مبدأ الأصل في الأشياء الإباحة، ومبدأ ليس في الدين من حرج، ثم اعتمادها على العرف والاستحسان والقياس[2].

والسؤال المطروح هو كيف نسمح لأنفسنا بالأخذ من هنا وهناك من الشرائع بحيث أصبح تشريعنا «كما قال الأستاذ "أحمد حسين"» أدخل التفكيك إلى كياننا- كيف نسمح بذلك ولا نأخذ تشريعاً من ذاتنا وكياننا[3].

والسؤال المطروح مرة ثانية هو، أليست القوانين «على حدّ رأي الدكتور "عبد الرحمن البزاز"» هي أقوى مظاهر حياة الأمة الاجتماعية، وهي المرايا التي تعكس حال الأمة العقلية والدينية والخلقية، وهل الشرائع الغربية التي نقتبسها شريعة واحدة، أليس الغرب يقوم على شرائع متعددة، وكل شريعة تختلف عن الأخرى، إذاً

---

[1] - الأهرام26/11/1937.

[2] - د. عبد الرحمن البزاز: بعض خصائص التشريع الإسلامي- من روح الإسلام، ط1، مطبعة العاني، بغداد 59، ص114.

[3] - د. جدعان: أسس التقدم....، المرجع السابق، ص356.

فكيف نقع في دوامة هذا الخاطر العجيب[1]، إن الحضارة التي تنشدها الإنسانية هي حضارة الإسلام- حضارة الوجدان وليس الحضارة الشيئية، وإن أي تطور في الفكر والروح الإنسانية وانطلاقها، إنما هو الاقتراب من الإسلام[2]، والمطلوب إذن حضارة تجمع بين الجسد والروح، بين الفرد والجماعة، بين الطبيعة وما وراءها، وهنا تلعب الشريعة الإسلامية دوراً كبيراً في قدرتها على صياغة دولة عصرية تؤمن بحضارة الوجدان، ولا يكفي في هذا الصدد القول بأن دين الدولة الإسلامية، ومن ثم فلا يتحقق لهذه الدولة سمتها الإسلامية إلا بإقامة مجتمع الشورى والحقوق والمحورية الأخلاقية، وإقامة المؤسسات وتحرير المرأة وإقامة العدل وتحقيق مبدأ المواطنة الكامل بين كافة أبناء الدولة، وتفجير الشرارة الإلهية في وجدان أبنائها عندئذٍ تكون الدولة منتمية إلى الإسلام.

وعلى هذا الأساس فإننا مع الدكتور "وليد سيف" بأن أية عملية تطوير لا تلحظ عمق تجذر مفاهيم الشريعة في مجتمعنا، هذه العملية محكوم عليها بالفشل[3].

وفضلاً عن ذلك فإقصاء الدين عن المجتمع أو الدولة أصل غربي يتفق-كما قال "طارديو" مع الأصول المسيحية-، وهو في الآن نفسه كاد ردة فعل على سلطة رجال الدين التي لا وجود لها في سياقنا التاريخي الاجتماعي[1].

---

[1] - د. عبد الرحمن البزاز: بعض خصائص التشريع الإسلامي، من روح الإسلام، ص86.

[2] - د. حسن صعب: تحديث العقل العربي، ص103، وانظر د. محمد سلام المدكور: مدخل للفقه الإسلامي، ص103.

[3] - علال الفاسي: النقد الذاتي دور البيت، ص99.

ولا حاجة للتدليل بان بعض أصول الشريعة إلهية، وهذا يعني أن الشريعة مؤطرة بسقوف وحدود وأهداف وغايات وصمامات أمن تحول دون جنوحها وسقوطها في أيدي الغش والهوى وقوى الظلم والطغيان.

وبالطبع فإن تطبيق هذه الشريعة يجب أن يرصد من أوسع المنظورات، وليس من منظور ضيق هو قانون العقوبات، وهو قانون قابل للتحقيق والتعليق حسب مقتضيات الظرف لا سيما أن الشريعة تفضل توبة الإثم في بعض الحالات[2].

وتأسيساً على هذا التقييم العام، فالشريعة ضمان أمثل ليس للمسلمين فحسب، وإنما لكل إنسان باعتبارها تمتلك أوليات التقدم وديناميات وفعاليات الأنسنة والتطور.

- وبسبب قيامها على أصل العدل والمساواة وأصل التقوى وأصل الإحسان وأصل عمران الأرض، وأصل الإيمان المشترك للإنسانية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ **الحجرات/13**.
- وأصل الدعوة إلى كلمة السواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ **آل عمران/64**.
- وأصل بذل السلام للعالم، وأصل الخير المشترك (أَحَبُّ النّاسِ إِلَى اللّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنّاسِ)، وأصل عصمة النفس الإنسانية (ضمان الحياة)، وأصل وحدة الدين مع اختلاف الوسيلة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ **المائدة/48**.

---

[1] – علال الفاسي: النقد الذاتي دور البيت، ص98.

[2] – مجلة الاجتهاد: المرجع السابق، ص303.

- وأصل حقوق الإنسان وحريته في أول إعلان لحقوق الإنسان ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ طه/**118**.

- وأصل مقاومة العنصرية والاستكبار والتنديد بالكسروية ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾النحل/**92**.

- وأصل الخيرية ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ النساء/**114**.

- وأصل السلطة والاستخلاف ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ هود/**6**. وأصل رفع الظلم، ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾ النساء/**76**.

- وأصل الإصلاح﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾الأنفال/**1**.

- وأصل مجادلة الفساد﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا ﴾ البقرة/**205**.

- وأصل الدعوة إلى التعاون، والإسلام يحض على التعاون بمعناه المطلق: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/**2**.

- وأصل الأنسنة (تخلقوا بأخلاق الله)، وأصل العزة والكرامة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون/**8**.

وشريعة الإسلام ترسى الحقيقة العالمية التي اتخذت من القرآن الكريم ميثاقاً دولياً في المقام الأول، وبمقتضى خصائص تشريعية من الشمول والعالمية والإنسانية[1].

وهذه العالمية تقوم على ابتلاء الأفراد والجماعات في الإرادة والعقل والأخلاق من أجل الخير، وهي مرقاة حية لإنجاز الصالح الإنساني العام المشترك: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴿10﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الواقعة/**10-11**، ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آل عمران/133، ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾البلد/**11**.

والشريعة الإسلامية لا تقيم العلاقة بين الشعوب على زعم التفوق والأفضلية، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم﴾ المائدة/**48**.

وعلى هذا التأسيس فالمسلمون مدعوون إلى عالمية مونسنة، يلعبون فيها دوراً ريادياً فعالاً امتثالاً لحقيقة التكليف الإلهي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ آل عمران/**110**.

في هذه العالمية يأخذون ويعطون، يأخذون من الإرث الحضاري الإنساني العام، ويعطون ما عندهم من ثمرات الحق والخير والتقوى والإحسان.

على هذه الأرضية الصلبة الرصينة للشريعة، وانطلاقاً من حقيقة (يا أيّها الناس)، فلا مجال في انطلاقتنا المعاصرة المنشودة لمجتمعنا الذي تأسس في

[1] – د . فتحي الدريني: خصائص التشريع الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1987، ص46.

القرون الوسطى، والذي كانت فيه ملة تسود على المجتمع[1]، كما لا مجال لخوف غير المسلمين من عقد الأمة فهذا العقد من متعلقات السياسة الشرعية (الصالح العام للمسلمين)، وليس العقيدة وقد تفرض مصلحة المسلمين العليا إقامة المواطنة الكاملة، وهنالك أصول متعددة تؤكد ذلك وحسبنا الرجوع إلى تأصيل الشيخ "راشد الغنوشي" لهذه المسألة[2].

وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق الشريعة لا يعني إقامة نظام ثيوقراطي (سلطة دينية)، بل إن المعول في ذلك إرادة الأمة، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، والمسلمون يمتحاون (يطلبون فضله) من معين القرآن (وهو معين لا ينضب)، ما يتفق مع طورهم الحضاري ونموهم التاريخي ومصلحتهم العليا استناداً إلى مبدأ السياسة الشرعية في الإسلام التي هي«حسب تعريف ابن عقيل» الأقرب إلى الصلاح والأبعد عن الفساد وإن لم يشرعه الرسول ونزل به الوحي[3].

وفي نظرنا إن الدور الذي يلعبه الدين في الدولة لا يعدو «وهو ليس بالقليل» دور القيادة الروحية الذي يقتصر على التربية والتوجيه وفي حدود الموعظة الحسنة

---

[1] – محمد سيد رصاص: ما بعد موسكو، دمشق، دار الفارابي، 1996، ص85.

[2] – الشيخ راشد الغنوشي: الحريات العامة في الدولة الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، 1993، ص357.

[3] – د. محمد عمارة: التراث في ضوء العقل، بيروت، دار الوحدة، ط1، 1998، ص242.

والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة طولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم[1].

ومن جهة أخرى فعلى غير المسلمين في ديار العرب أو غيرهم ألا يتأففوا ويتحرجوا من تطبيق مبادئ الشريعة، إذا ما تمثلت برنامجاً سياسياً وطنياً يطرح على المجتمع، ويخضع للمناقشة والإقرار من قبل الإرادة العامة للشعب وعندئذ يكون مصدرها المادي فقط الشريعة الإسلامية أما قوتها الملزمة «حسب أدبيات القانون» فتكون مشتقة من الإرادة العامة التي هي إرادة المجتمع.

والخلاصة إن الديمقراطية والإرادة العامة للشعب هي العاصم وصمام الأمن الأخير لكل تشريع، وإن كان نوع التشريع «والشريعة متفوقة في هذا المجال» يدخل في باب الملاءمة والحيوية، وليس في باب المشروعية كما هو مقرر في دائرة القانون وأدبياته.

ولكن إذا كانت عظمة الإسلام وعظمة آدابه وشرائعه وأحكامه ومبادئه فكيف تم التلاعب والضحك على كل الناس كل الوقت، بإسقاط الشريعة الإسلامية واستبدال النظم الغربية بها؟ وحقيقة الأمر أن الاستبدال تم مرتين في تاريخ أمتنا الطويل منذ الفتح الإسلامي، أولها خلال بوابة استعمارية عبر فيها الغازي المغولي التتاري حيث تم فرض نظام (الياسه) المعروف[2]، أما المرة الثانية فقد تم هذا الاستبدال في القرن التاسع عشر على يد الإنجليز في مصر ثم توسع الأمر في معظم الأقطار العربية.

[1] – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، طبعة بيروت، 972، ج3، ص285.

[2] - كتاب وضعه جنكيز خان لفرض النظام داخل الدولة المغولية وجعله كالدستور للتتار.

ولنستمع إلى شهادة المفكر القومي الكبير الدكتور "عصمت سيف الدولة" حول هذه النقطة يقول المذكور[1]: ((فإن الاحتلال الانجليزي لم يلبث أن داهم مصر عام 1882 وفرض بالقوة على الشعب المسلم نظاماً بديلاً عن نظام إسلامي كان قد عاش في ظلة ثلاثة عشر قرناً.

ويتابع القول: كان "نوبار باشا" رئيساً للوزراء، وكان أميناً على سره فرنسياً كان يعمل محامياً في الإسكندرية اسمه "مانوري"، فكلفه بأن يضع لشعب مصر قوانين جديدة، وهكذا قام المذكور بنقل مجموعة القوانين الفرنسية المسماة قانون نابليون)).

ولكن هل إن هذه المجموعة تتعارض مع النظام الإسلامي؟.
يجيب على ذلك "الدكتور سيف الدولة" بالإيجاب مشيراً على سبيل بأن قانون نابليون لا يحمي المغفلين والنظام الإسلامي يحمي ذا الغفلة المغبون أو ضحية الغش والتدليس، كذلك فقانون نابليون يحلّ الربا، والعكس بالنسبة للنظام الإسلامي.
إزاء هذا التعارض احتال المستعمرون على الشعب العربي المسلم بأن تركوا له نظامه الإسلامي في الأحوال الشخصية، وهكذا عرف الشعب العربي المسلم لأول مرة في تاريخه الطويل منذ الفتح العربي ازدواج السلطة القضائية حين عرف القضاء الأهلي والقضاء الشرعي[2]، أما على صعيد قانون العقوبات والحديث "للدكتور عصمت" فقد كان النفاق أكثر فجوراً فقد أوهموا الشعب بأن القانون المستعار من نابليون يمثل إرادة ولي الأمر، فيما هو مباح له شرعاً من تحديد عقوبات التعزيز، وهكذا أصبح الزنا مباحاً والخمر مباحاً والميسر مباحاً والكذب

[1] - د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص241، وما بعدها.

[2] - المرجع السابق، ص 343.

مباحاً في مجتمع أغلبيته من المسلمين بالرغم من أنها محرمات عليهم في النظام الإسلامي[1].

ولكن كيف يبرر الاستعمار ذلك؟.

يجيب على ذلك "الدكتور سيف الدولة" بالقول: ((لقد ارتهنوا مصر أرضاً وأذلوها شعباً، وهم يبذرون فيها بذور العلمانية ويستنبتون من أبنائها علمانيين، ولما كان من المحال مخادعة كل الناس كل الوقت، فقد كان لا بد، لكي يقبل الناس نظامهم من إقناعهم بأن الإسلام دين الله، وليس نظاماً للحياة في الوطن))[2].
ما هي نتيجة كل ذلك...التخريب والتغريب المرة أيضاً على لسان "الدكتور سيف الدولة"[3].

ولكن لماذا وكيف؟.

لأن جوهر العلمانية في مجتمع من المسلمين هو أن تستبدل بالشرائع والقواعد والآداب التي جاء بها الإسلام بشرائع وقواعد وآداب وضعية، وأنها ركن من نظام شامل متكامل للحياة الدنيا، علماني في موقفه من الدين، فردي في موقفه من المجتمع، ليبرالي في موقفه من الدولة، رأسمالي في موقفه من الاقتصاد، كان محصلة عوامل نفسية وثقافية وتاريخية وحضارية سادت أوروبا على مدى سبعة قرون[4].
وقد بدأ الاستعمار القاهر بعرض نظامه على الحياة العربية فاستبعد الإسلام نظاماً وتركه للناس عقيدة ومناسك وأحوالاً شخصية وأقام له حارساً باطشاً،

---

[1] – د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص 344.

[2] – المرجع السابق، ص 345.

[3] – المرجع السابق، ص 418.

[4] – د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص423.

وترك له أن يغير ما بالناس من خلال اضطرار الناس إلى الملاءمة بين حياتهم اليومية وبين قواعد النظام المفروض بالقوة، ثم إطراد تلك الملاءمة خلال زمان غير قصير ليصبح النظام تقاليد وعادات وآداب يغذيها تيار فكري من المشايخ والأساتذة والمعلمين والتلامذة وخريجي جامعات أوروبا من الموفدين وعملاء الاستعمار من المبشرين الوافدين، ويرشون الشعب المتخلف بأوهام التقدم الأوروبي، وإلى ذلك وغيره من مثله إلى قدر الشعور المستقر بالانتماء إلى الحضارة الغربية (يسمونه الاغتراب) هو القاعدة النفسية اللازمة لنمو الولاء للنظام الفردي الليبرالي الرأسمالي على حساب الولاء الإسلامي، وهكذا لم تعد العلمانية دعوة ضد الدين عامة أو الإسلام خاصة، بل أصبحت ذات مضمون حضاري فردي ليبرالي رأسمالي، فهي نقيض للتكوين القومي الجماعي في جوهره ونقيض للحضارة العربية في جوهرها[1].

وفي نظرنا أن ذلك ليس نقضاً لأمتنا عروة عروة[2]، وتفكيكها لبنة لبنة، بل هو أكثر من ذلك بكثير، إنه اغتيال مسموم حاقد لهذه الأمة، وإن كان المجال لا يتسع لتأكيد هذه المقولة وحسبنا ما قاله "فوكوياما" في كتابه **نهاية التاريخ**، وما أكده حالياً المؤرخ الأمريكي الكبير "هنتنجتون": ((بأن هذا العصر هو عصر صراع الحضارات، وأن الإسلام هو العقبة الكؤود الأكبر أمام الغرب)).

بل وحسبنا ما ردده "هانوتو" بأن الإسلام جذام وكساح وخطر على البشرية، نحن لا ننكر أن يجب التعاون مع الغرب ومد يد التعامل بصدق معه، ثم التفريق بين

[1] - المرجع السابق، ص 424.

[2] - قال رسول الله ﷺ: ﴿لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة﴾.

الطفل وغسيله كما يقال، وبين القمح والذؤان، كل ذلك من أجل إقامة بناء إنساني خالد تتألق فيه الزهور تفتحاً وعطاء.

ونحن لا ننكر أنه «على الصعيد الداخلي» لا يصح الحديث عن المجتمع الملي الذي تسوده ملة واحدة كان حجمها، كما لا أنكر أنه لا مجال للحديث عن الفرقة الناجية بل الحديث عن القطر العربي الناجي، أو الأمة العربية الناجية من أنياب الاستعمار والاستغلال، وحسب تعبير المفكر الكبير الدكتور حسن حنفي، اجل نحن لا نقبل السقوط في مثل هذا الوعي المزيف المبعثر المتعثر الباهت، بل إننا ندافع عن الشريعة الإسلامية، ليس من موقع عقيدي فحسب، بل من موقع الجماعة وباعتبار الشريعة نسيجاً ضاماً من نسج الأمة، ومن ثم فإن أية طعنة في الظلام كانت وستكون على الشريعة، إنما هي طعنة للأمة في ذاتها.

ومن جماع ما تقدم فالدعوة إلى تأصيل الشريعة في حياتنا والامتياح من معينها- ليس حشوية وإنما حسب الحاجة وظروف العصر وعلى أرضية وطنية- إنما يتم عبر مشروع عربي نهضوي أساسه التقدم ووجهته الإنسان وكرامته وعزته وحقوقه وحرياته العامة، ومناطه الديمقراطية ومأسسة المجتمع، وخياره الحضارة العربية الإسلامية ووجهته المحورية الأخلاقية والشرارة الإلهية والقيم الروحية النابعة من الأديان حسب التعبير الحرفي للزعيم الراحل جمال عبد الناصر.

في هذا النسيج، ومن خلال تلك المنظومة يجب أن توضع الشريعة في مكانها الطبيعي من كيان الأمة وكلؤلؤة في عقدها من أجل أن تطوق عنق الأمة العربية الخالدة وتزين مفرقها.

وفي هذا السياق إننا نتعي ليس على الحشوية الإسلامية، بل على الحشوية الإلحادية التي تستبعد الدين من مضمار التقدم وأذكر على سبيل المثال برأي

المفكر الكبير «وهو من إخوتنا المسيحيين» الأستاذ "وليام سليمان" الذي أشار إلى نقطة هامة هي أن المواطنة في الغرب نشأت في إطار استبعاد الدين، وقد حدث ذلك مع الثورة الفرنسية وفي محاولة استيعاب اليهود في المجتمع، وفي رأيه أن تلك هي الصيغة الغربية للعلمانية، في حين أن صيغتنا الوطنية والقومية يجب أن تؤسس المواطنة على حمولة الدين، كدين، ولكل مواطن، وفي كل بقعة على أرض العروبة، كلفاً واقتداءً «والكلام للأستاذ وليام سليمان» بتجربة الصحيفة التي خطتها يراعة الرسول ﷺ والتي خلقت من المسلمين واليهود أمة واحدة[1].

هذا الحس الإيماني القائم في مختلف علوم الحضارة الغربية، سواء أكانت علوم الشرع أم العقل أم علوم التجربة وعمران الأرض، وهذا الحس هو قسمة أساسية لهويتنا.

وإذا انتقلنا إلى موضوعنا الأساسي الذي هو الشريعة، قلنا قسمات مميزة وثابتة حيث نجد إلى جانب الوضع الإلهي الذي هو الدين غير القابل للاجتهاد «والذي يحمي المسلمين فقط» نجد قانون المعاملات والفقه، وهو قانون وضعي، وضعه الفقهاء في إطار الكليات الدينية، وهو موروث حضاري يخصّ الأمة بكافة فئاتها[2].

وفي إطار هذا الوضع البشري نجد فلسفة القانون التي هي النواة النووية في هذا الفقه، وهذه النواة النووية هي التي تعتبر القسمة الحضارية الثابتة في مجال القانون، وما عدا ذلك فلدينا تراث ثري من القواعد التطبيقية القرينية التي لا تصمد لتغييرات الزمان والمكان.

---

[1] - الهوية والتراث، مجموعة مؤلفين، بيروت، دار الكلمة، 1984، ص71.

[2] - هذا التعريف للدكتور عبد الرزاق السنهوري، انظر الهوية والتراث، ص41.

هكذا يحدد "الدكتور عمارة" في إطار فلسفة القانون «وعلى سبيل المثال» مبدأ لا ضرر ولا ضرار ومبدأ أن الإنسان ليس مالكاً مطلقاً أو محرماً عليه التملك مطلقاً، بل أن الملكية ذات وظيفة اجتماعية ومرتهنة بتحقيق النفع العام[1].

هكذا نؤكد أن حضارتنا لا تؤمن بتفرد الإنسان وعتوه واستكباره ومركزيته في هذا الكون، بل هو وكيل الله المستخلف في الأرض لعمارتها وهذه هي فلسفتنا في العدل الاجتماعي، في حين نجد العلمانية تعربد وتطلق للملكية كل عنان.

إذن فحضارتنا تنطوي على الكثير من النواهض والروافع والميكانزمات التي تفتقر إليها الحضارة الأوروبية، وما علينا إلا أن ننفض الغبار عن هذه اللآلئ، ونعيد إليها ألقها وأريجها في كافة مجالات حضارتنا بما في ذلك فلسفة القانون اتساقاً لذاتيتنا وتوازناً لفعالياتنا ولا حاجة للتأكيد بأن القانون القائم على الالتزام والواجب أكثر نجاعة وجدوى وحيوية من القانون القائم على الإلزام، ومن ثم فالقانون الوصفي الذي استوردنا من صيدليات الغرب لا يرقى إلى مستوى القانون الذي عاش تحت ألق شمسنا الدافئة، وتغذى من تربة أرضنا المعطاءة، ونما في حنايا ضلوعنا وحبات قلوبنا، وليس عاراً أن نوطن النفس ونوطدها على الذات والهوية، بل العار أن نخجل من أنفسنا ونقلد الآخرين فتكون كالطائر الذي نسي مشيته وعجز عن تقليد مشية الآخرين، وتلك هي الكارثة، ولكن ليت شعري ولعمري هل من مستعبر أو مدكر.

إن أية انطلاقة حضارية لأمتنا إنما تزكو وتزهو بتحديدنا الحضاري الذاتي مع الحفاظ على قسماتنا وبصماتنا الثابتة، وما هو أصيل وقار وراسخ في أعماق شخصيتنا القومية.

---

[1] - الهوية والتراث، ص44.

ولا حاجة للتأكيد بأن هذه القسمات الراسخة «في أية أمة» قد تبقى ردحاً من الزمن كامنة تغط في نوم عميق، ولكن سرعان ما تعود إلى الاستيقاظ والتفتح عندما يتاح لها ذلك، كما حدث في تركيا التي فرضت عليها العلمانية في معاهدة لوزان، وبقيت ترسف بها، وها نحن نجد عودة الحس الإسلامي المكبوت، بل لا نعدم وجود ذلك عند غلاة العلمانيين، قادة الجيش بالنسبة للمسألة القبرصية[1].

والأمر نفسه بالنسبة للجزائر فقد جهدت فرنسا لاقتلاع هويتها، ولكن هذه الهوية سرعان ما اهتزت وربت على يد "ابن باديس" وجماعة العلماء، وأنتجت عروبة وإسلاماً- كل زوج بهيج.

لقد أعلن الخديوي إسماعيل أن مصر قطعة من أوروبا متحدياً بذلك حقائق الحياة وثوابت الشخصية العربي في مصر، فهل صحت مقولته، وهل كانت سياسة التغريب والتفرنج على يده أو يد غيره أكثر من تراب على صفوان.

إن انطلاقة حية وثرة لأمتنا يجب أن تنطلق من الهوية والثقافة الذاتية، والحقيقة الجوهرية النواة التي تحمل خصائص الشجرة.

إن ما هو ثابت في شخصيتنا أننا عرب، لكن ليس بالمعنى العرقي بل الحضاري وبالمقابل فعروبتنا ذات قسمة إسلامية، ولكن ليس بالمعنى الديني الطائفي، وإنما بالمعنى الحضاري[2].

---

[1] - مداخلة الدكتور محمد عمارة في الهوية والتراث، بيروت، دار الكلمة، 1984، ص45و 46.

[2] - مداخلة الدكتور محمد عمارة في الهوية والتراث، ص 48.

إن قراءة بسيطة لحضارتنا تؤكد ما قلناه، أي تؤكد قيم الفروسية والعفة والحياة وهذه قيم عربية، والقسمة الإسلامية لهذه الهوية واضحة وجلية، وحسبنا «كمثل واحد» نجده في البحث العلمي.

نقرأ العلوم الغربية فلا تشعر في ثناياها أي وجود للقوة الخالقة لهذا العالم، لكن أقرأ ذلك في حضارتنا تجد رائحة التدين تفوح من تضاعيف هذه العلوم نجد ذلك عند "ابن خلدون وابن سينا وابن حزم" وغيرهم، ودون الإخلال بالحقيقة العلمية وماهيتها الذاتية.

لقد استغلق على "ابن سينا" «الذي يعتبر من أكبر الملاحدة في نظر رينان» كتاب **ما بعد الطبيعة** "لأرسطو"، لكنه تناول كتاب "الفارابي"، وسرعان ما ترك أوراقه وقلمه وهب ليتصدق على الفقراء[1].

[1] - المرجع السابق، ص 43.

خواطر حول المشروع العمراني الحضاري العربي

يتعامل علم الاجتماع مع جهاز مفاهيمي هو "التفتح" ويقصد بذلك فاعلية الأفكار الفذة وقدرتها على التحقيق في الحياة وإنجاز ما صدفها في الواقع.

وبطبيعة الحال، فهذا التفتح لا يتم بصورة انزلاقية ميكانيكية بل لا بد له من أداة تنقل الفكرة من حال الوجود بالقوة إلى حال الوجود بالفعل.

ما ميثاق هذه الآلية التحليلية على صعيد واقعنا، وهل إن أمتنا في حال وجود بالقوة "كينونة ونمو" وتحتاج إلى تفجيره ونقله إلى حيز الوجود بالفعل، أم أننا في حال العمالة والعقم المتجرد من أي أثر للقوة والعطاء.

قبل الإجابة عن ذلك لا بد من التدليل بمسلمة أولية، هي أن التاريخ لا يدوم على الخطأ، فهو دائماً حركة في الاتجاه الصحيح، ولا يستطيع أحد أن يقول له تمحلاً وتعسفاً في هذا الاتجاه أو ذاك.

هل يعني ذلك أن الخطأ فينا وليس في التاريخ، لأن التاريخ مجرد إطار يرنو دائماً إلى الصورة التي تكسبه النضارة الزهو والبهاء، وهذه الصورة هي إرادة الحياة وبهجة الحياة والتوق إلى الحياة وصياغة الحياة وامتلاك ناصية الحياة كيفما تنزل بصرك وبصيرك تجد هنا أزمة، وهناك أزمة وإشكالية في كل شيء في المشاريع والمرجعيات على المجتمع والسياسة في العمل والتعليم، في الفكر والواقع في التخطيط والتنفيذ في الإرادة والقلب والضمير.

ما سر ذلك؟ وهل العامة في وجودنا بالقوة أم في وجودنا بالفعل؟ أي في الفاعل الإجرائي، فاعل الممارسة وصحوة إدراكنا للواقع وإحاطتنا العقلية بمقتضيات الزمان والمكان.

إن أمتنا بيقين من الأمم التي يصحّ وصفها "بالأمة ذات الدور" التاريخي والعمراني، فهي من حيث الكينونة والوجود بالقوة تمثل أنموذجاً فذاً من التنوع والتكامل والأصح القول "التنوع التكامل" سواء فيما يتعلق بالفاعل الجغرافي «موقعاً وموضعاً» وتفاعل مصادر الثروة والإمكانات البشرية والتراث الحي هذه الأمة «بتجاربها التاريخية الفذة» تمثلت جهاز حساسية تدرك فيه مصادر الخطر والعداء، كما تمثلت «تمرساً وحنكة» جهاز مناعة صلب يسبب الأخطار والنكبات، فهي تأكل «عند الضرورة» الحصى وتسف التراب وتؤمن بأن الجنة تحت ضربات السيوف، وقد ورثت عن عروبتها المروءة، وعن رسالتها التقوى والأمر بالمعروف، ولا شيء يفت في عضدها ويوهن شجاعتها، إذا ما أحسنت أمتنا في سيف الإسلام من غمد العروبة، ومن ثم فليس طوبى وخيال إن أكدنا «بثقة وثبات» أن تلك الماهية لابد أن تتجلى في سماء أمة اختارها الله لتكون أمة المواقف المجللة بالمتاعب والصدمات، وقد واجهت الأخطار والنكبات وكانت في كل محنة تخرج أشدّ صلابة وأمنع تكسراً.

ما الحل للتحقق في عالم الوجود بالفعل انطلاقاً من عالم الوجود بالقوة؟.
كثيرة هي الأجوبة والروافع والديناميات، وإن كانت الخطوة الأولى «في سرنا» هي التمترس بالجذر الذاتي التاريخي العمراني الكبير، الذي ينبثق من رحم هذا العالم الموضوعي لأمتنا ومعطياته ودقات قلبه.
نحن بحاجة إلى الإحساس المتهوم بالصدمة والهم المتأجج بالهاجس والمعاناة والقلق المتوثب بالسؤال الملح والتفكير الثقيل العميق بمحاسبة النفس والحافز إلى

الحفر المعرفي العميق في طبقات الواقع مجهرياً، بما هو في ذاته، وبمبدأ عما في ذاتنا وعواطفنا وشتاتنا وتمزقنا وأيديولوجياتنا.

نحن بحاجة إلى مواجهة الذات وخلق ما هو رمادي في الذات وبحاجة أيضاً إلى أن تمارس عليها وفيها، نقداً أصيلاً وجذرياً ونجري عليها حساباً مرهقاً للوقوف بدقة على النفائس والنفائس، وتحديد أسس الإبداع والتقدم والاندماج إلى الأمام.

هكذا يجب التوجه إلى قوى النهوض والارتقاء والفوز سواء أأطلقنا عليها تسمية الكتلة التاريخية أم قوى التغيير أم العمال والفلاحين أم المثقفين العضويين، فهذا الزحف الشعبي الديمقراطي القومي الكاسح المعزز بالتحالف الشعبي الديمقراطي الوطني القطري، هو القوة التاريخية والصاروخ الحضاري الفذ المؤهل للاضطلاع بالعمل التاريخي العمراني الكبير لأمتنا، وهو في الآن نفسه الجنة التي تلجم مزالق الثورات والشكيمة التي تهذب وتصقل النزعات العسكرية والنسبية، استعلاء على الشعب واستبداداً وانفكاكاً عن طموحاته.

لقد ماج واقعنا العربي وجاء في هذا القرن متسماً عن كثير من العطاء والتضحيات والنضال، لكن المتناقلين ركزوا الجهود على العمل السياسي، وعلى بناء الدولة، وعلى خيار التنمية الاقتصادية والتحديث لا الحداثة معتمدين في ذلك على نظرة اقتصادية سطحية، وعلى خطاب تبشيري مثالي يتصف بالنظر والممارسة والنقد التصوري المنهجي والاستراتيجي والحضاري والروح العلمية والتحليل والعقلانية والرصد التجريبي لمكونات الواقع مغيباً عن اهتماماته محرماً على نفسه أموراً من صميم التقدم كالسلطة والدين والجنس وغافلاً عن التمييز بين السياسات الطرفية والعمل القومي الأوسع والأهم مقللاً في الآن نفسه من أهمية الشرط البشري والنزعات العميقة الجذور في الوجود الإنساني كالحرية والمساواة والعدل

والأمن وكرامة الذات وهيمنة وعلوية الحياة وتوطين وتوطيد المحورية الأخلاقية والقيم الروحية الرقيقة والثابتة من الأديان على صعيد الدولة والمجتمع والثورة، وعلى مستوى النظرية والتطبيق وبهذا التجديد والضبط، فهذه الأنسبة تستهدف تفتح كل إنسان عربي وتنطلق من زحمة وحقيقة، ولكنها في الآن نفسه تسمو عليه وتتجاوزه، حتى لو كان زعيم الأمة وقائدها، وهو ما يتضح من قول المفكر الفرنسي "بوردو": ((أنني أنحني إليه إعجاباً، لأنني أرى عبره مشروعاً يهمه كما يهمني لكن يتجاوزه كما يتجاوزني)).

هكذا على ضوء فلسفة المشروع يقتصر دور السلطة على كونها جهازاً في خدمة فكرة تنبع من قيم الأمة ومصالحها، وتعبر عن روحها وإرادتها العامة وأمنها الجماعي.

وبهذا المعنى يمكن القول أن المشروع النهضوي العربي هو ثمرة جدلية الانتماء والولاء.

- انتماء كمعطى اجتماعي وصيرورة حياة، بحيث يتطابق الشعب السياسي مع الشعب الاجتماعي وبحيث ينطلق المشروع من الإنسان العالمي.
- مهما كان موقعه الاجتماعي والفكري –من أجل اختيار الأصلح لقيادة المشروع.
- أما الولاء فهو الانتساب إلى المشروع العمراني الحضاري العربي الإسلامي باعتباره ثمرة المنطق العام للأمة وذوب ذوقها وإحساسها العام، وتظهر تصورها للوجود ومناط فخرها وحسّاسها وزئيرها وأريجها الروحي وأقاصيصها ودستورها الخلقي والروحي والقيمي.

وهذه استراتيجية الحضارة للمشروع يجب أن لا تكون من وضع قائد أو باحث أو مفسر أو رجل السلطة، بل هي ثمرة حركة الشعب العربي بكامله ويعبئ قواه في عمل حضاري خلاق، وهذا ما أكده "ريمون دو بولان" بقوله: ((الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها، ثمّ أفسحت عن نفسها في مؤسسة أو هيئات)).

وعلى هذا المشروع أن يرقى إلى مستوى التحديات التي تواجه الأمة: التحدي الفردي والبحث العلمي – التحدي الديمقراطي- التحدي التربوي- تحدي التخلف- تحدي حقوق الإنسان وحرياته العامة- تحدي الإبداع والخلق والتجدد الحضاري.

وفي نظرنا إن النهوض لا ينفك «بصفته ولادة جديدة» عن التقدم لا ينفك عن البعد القومي والبعد القومي لا ينفك عن النهوض الإسلامي، والنهوض الإسلامي لا ينفك عن نهوض العالم الثالث- دول الجنوب التي نطق بروحها مؤتمر باندونغ، وهذا تون كل دائرة قلب الدائرة التي فيها قبلها وأساس الدائرة التي بعدها وتكون العروبة هي النواة النووية لكل روح وقلب.

وإذا أضفينا على هذا المشروع القسمة العروبية، فالوحدة لبه وروحه ونواته وبؤرته المركزية وجهازه العصبي والمناخ الملائم لكل فرد أو قوة أو قدرة أو مشروع أن ينفتح وينمو ويزدهر مثمراً يانعاً، حتى الديمقراطية نفسها تسبح في ظل النظرة اتحاداً كسيحاً وقلقاً لإرادات ومصالح مغتربة لا تبلور التوازنات القومية وتعبر عن منطلقاتها وآمالها، الوحدة وسيلة وفي الآن نفسه غاية، إنها ضرورة بقاء وأمن وفاعلية تطور وتقدم وفوز، لذلك يجب أن نعانق العمل لعمل استراتيجي وليس كموقف عابر أو طارئ، وعلى كل مشروع فطري أن يكون له سياقه القومي حتى يضمن شفاءه من عقدة الذات.

وبيان ذلك أن الإقليمية هي النفس التاريخي لوجودنا الطبيعي والنسب المركوزة في حياتنا وبذلك فهي عاهة مستديمة ومأزق وخلل بنيوي وعضوي عميق يعبر عن أقصى درجات الفوت والموت الحضاري والخلل السياسي والاجتماعي، وهي بذلك «وبحق» المصدر القلق ومصدر يبرز كافة إشكالياتنا الاجتماعية وستبقى هذه الآلة والبنيوية والكينونية مصدر القلق ومصدر إنجاز التفاعل والتناقضات المختلفة وعلى رأس ذلك المسألة الأمنية القومية العامة، ثم القصور عن مواجهة التحديات العصرية الكبرى، تحدي الشتات الاجتماعي- الثورة العلمية ثورة المعلومات الكونية- ثورة التكنولوجيا- الثورة الديمقراطية- الثورة الاجتماعية الحضارية...إلخ.

وهذا المشروع الوحدوي لا يجوز أن يكون انفعالياً (إيديولوجيا القومية العرفينية) وإنما ثمرة اقتطاف الهوية التاريخية، والتعبير عن معطياتها الأصلية، واستحضاراً للعناصر الموضوعية في هذه الهوية وصدوراً عن جذرها التاريخي الكبير، جذر العروبة والإسلام، ورنواً واستشرافاً لغد مرتقب مرتجى هو المعاصرة والحداثة الحيّة القائمة على الشأن الإنساني العام.

وبهذا المعنى فهذا المشروع إنجاز مستقبلي، وليس تشخيصاً لمعطى أو لامتداد تاريخي مستعاد ومكرر، بل هو خيار وعمل إرادي تحرري إنساني يستيقظ من تاريخ الأمة فكرة التقدم والأخلاق، ثم يستصبر ويحيي في تراثنا العقلانية وقيم العمل والجهد هو يزكي التعاون والتكامل الاجتماعي ويطلق القيم الروحية النابعة من الأديان والمحورية الأخلاقية والشرارة الإلهية التي تفجر قوى وطاقات الوجدان والضمير، وينمي الإحساس بمحاسبة النفس وباختصار فالعروبة اجتهاد ووحي وولاء.

وإذا قلنا وأكدنا أن المشروع الإنهاضي للأمة، ويقوم على الهوية الحضارية، فهو يتأبى التمييز عن نظام فكري وإيديولوجي أو وعي ضيق يقدر ما يجلي توزع ومبادئ التحرر والحرية والشورى والديمقراطية والتنمية والعدالة ويعانق قلب المشروع التحديثي وقوفاً على أرضيته الصلبة والرصينة، بحيث تنجز الأمة صورة عن نفسها وعن موقفها وخصومها وأصدقائها ورسالتها في الحياة وقوتها بين الأمم، وهذا يعني أن الوعي الاستراتيجي يتطلب إدراك مقتضيات التطور التاريخي والتسلح بالنظرة الموضوعية للذات: ماضيها وحاضرها واستيعاب المناخ الجيو سياسي الكامل ودينامية النظام العالمي الأشمل.

وهذه الصورة التي تكونها عن الذات لا تنسينا الصورة التائهة التي صورناها عن الغرب والتي تقوم على عقد أوهان "فرضية رافلي" وشروطه مركزية الغرب وهيمنته، كما يجب أن لا ننسى أن الغرب لا يفتأ بقوة صورة حياتنا وفلسفة حضارتنا ونظريته إلى الحياة والمستقبل.

وبطبيعة الحال فلا عمل أو مشروع قومي دون نظرية قومية فهذه النظرية هي البوصلة التي تسدد الخطى وتضيء الطريق وتقبل المسار وغياب هذه البوصلة لا يعني إلا العشوائية والتخبط في المسار دون هدى.

والنظرية القومية كما هو معلوم تأسيس للعمل محمول على تأسيس للنظر، وبهذا المعنى فهذا النظر العام الكلي العضوي، يحكم الجزئيات والمضامين والمفاعل ويؤسس للمناهج والطرق والأساليب، بحيث تنطلق المشاريع العملية والمخططات والبرامج والصيغ وتؤسس على المناهج والأفكار والفهم والمبادئ الكبرى، وعلى ضوء ما تقدم وتأسيساً عليه فإننا نجد أنفسنا حيال أكثر من مفصل أو مشروع عملي أو صحوة: الصحوة الثقافية- صحوة الهوية- صحوة الأصالة والمعاصرة- صحوة المجتمع المدني- صحوة النظرية السياسية والدولة- صحوة الإصلاح الديني- الصحوة المؤسساتية- صحوة السلوك وغير ذلك من الصحوات والرضيات والهزات.

المشاريع العملية للنهوض العربي

وهذه المشاريع متعددة، وإن كنا نجتزئها ونختصرها في الآتي:

الصحوة الثقافية

إذا استثنينا عوامل الطبيعة، فكل ما يتحرك في الكون الاجتماعي وإنما يتم بفعل الرافعة الثقافية، إذ الثقافة مساوية للإنسان، فهي جوهره وماهيته، والوجه الآخر لذاتيته، بها تميز عن الحيوان وعلى حاملها حقق مغامرته الروحية الكبرى في التاريخ وأنجز معنى الحياة وقيمها وشرفها وعلويتها (مبدأ معنية الحياة أي إعطاؤها قيمة ومعنى).

تأسيساً على ما تقدم، فقد طالعتنا أدبيات علم الاجتماع بجهاز مفاهيمي هو "ثقافة الموت وثقافة الحياة" ونقصد من ذلك، تلك الثقافة الميتة الدكناء الرمادية الباهتة التي تقود إلى الانحسار والانحطاط، ومقابل الثقافة الحيّة التي تطلق وتفجر طاقات الإنسان نحو الازدهار والتقدم، والمثال الحي على الثقافة الأخيرة ذلك الصحابي «في معركة أحد» الذي لم يعطي نفسه فرصة أكل بعض الثمرات التي في يده، بل اندفع يقاتل حتى استشهد بفعل دافعه الثقافي الإيماني وبهذا التحديد، فنحن لا نقر "فوكو" على مقولته المدللة بأنّ المسألة ليست في تغيير وعلى الناس، وما يحملون داخل رؤوسهم، بل المسألة الأساسية في تغيير النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، لا نؤيده لسبب بسيط هو أن النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هي في المقام الأول مشروعات ثقافية وتبدو أهمية الثقافة بالنسبة لأمتنا العربية بسبب الدور الذي لعبته هذا الفاعل في

حياتها وتاريخها، فقد بقي العرب يشعرون عبر تاريخهم المرير بوجودهم وحدودهم بفعل اللغة والثقافة والأدب وغير ذلك، بل يمكن التأكيد أن الثقافة هي القلعة الحصينة التي لا تحول ولا تزول حيث تساقطت أكثر من قلعة، لكن الثقافة هي أرقى أشكال المقاومة وبالتالي فليس هناك مقاومة مستمرة ما لم تبدد خطاها ثقافة مقاومة، زد على ذلك فالثقافة تلعب دوراً مركزياً في نظرية الوحدة إذ لا يمكننا تصور وحدة إلا من خلال المركز الرئيسي الذي تلعبه الثقافة، والثقافة كانت ولا تزال النواة البنيوية في الحياة العربية وفي النظرية القومية كما أن ارتباط المفهوم التراثي الثقافي للوحدة أو للعروبة يسقط حجة التحديث المنطلق من ضابط ومقال.

ويمكن التأكيد أن هذا المفهوم الثقافي للعروبة يشكل جوهر أمتنا منذ أن حدد الرسول ﷺ فكرته، حيث أكد أن العروبة ليست ممن ولدت من أب أو أم عربية، ولكن فيمن تكلم العربية، ثم قوله: ﴿الْوَلَاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ﴾.

وبطبيعة الحال، فالحديث عن الثقافة يستدعي الحديث عن اللغة العربية باعتبارها رمز الوحدة ورابطة الأمة وقاعدة الثقافة ومستقرها وديوان قيم الأمة ومستودع أفكارها، وبذلك فإن مشروعها ثقافي، إنما يجب أن يستهدف صيانة لغتنا في بعض الأقطار العربية، ونحو نفوذ وهيمنة هذا الفتح اللغوي من خلال حاجز منيع هو مبدأ عروبة الفكر واللسان والهوية والأدب والجماليات، وغير ذلك من مظاهر الثقافة لقد ابتدأت الحياة تدب في عروق أمتنا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وقد تواكب ذلك مع نهوض الصين وروسيا واليابان، وكانت الفجوة الحضارية بين أمتنا وهذه الدول ضيقة، ولكننا نجد هذه الفجوة تتسع شيئاً فشيئاً، وهنا يصحّ التساؤل عن هذا التناقل وتلك العطالة في عروق أمتنا مقارنة

بتلك الدول، الأمر الذي يجعلنا نؤكد بأن سبب فشل مشاريعنا النهضوية المتعددة، فمرده القصور الثقافي في هذه المشاريع، وهكذا يمكن القول إن إشكاليتنا الوحيدة في المقام الأول هي إشكالية ثقافية.

إن ثقافتنا تشكل نسقاً واسعاً تتعايش داخله وبشكل تقادمي شبكة من النزعات والاتجاهات التي يعوزها الائتلاف ويسودها اختلاف، فهنالك الثقافة الكلاسيكية التي تمجد الماضي، وتجد فيه الصورة النموذجية التي يجب أن تحتذى، وهناك الثقافة العربية الحديثة التي تعيش في ضياع شبه تام لأن زمنها الثقافي بعيد كل البعد عن ذاتية الفكر العربي وخصوصيته الحضارية والثقافية، وهذا ما يؤدي إلى الافتقار إلى هوية ثقافية مطابقة إلى التخبط في الحال (السوسيو ثقافية).

ذلك أن غياب تصور واضح راسخ للهوية الثقافية ينطوي على غياب تصور واضح للفكرة القومية، وفي الوقت نفسه يؤدي إلى غياب صورة الأمر الواقع وتجذرها في الوعي الجمعي والضمير العام، وهذا ما يقود بالضرورة إلى البلبلة الفكرية والتخبط الذي نعيشه بسبب غياب هذه البوصلة الهادية الموجهة، ويرتبط بهذا التخبط غياب تحديدنا صورة حيّة لذات الأمة ولصورة العالم، وهذا ما جعلنا نفهم صورة الغرب بشكل مغلوط على حساب هويتنا، وكان الأحرى بنا أن نتعامل مع الغرب بصورة نقدية وحوارية وندية ومع التنويه بأنه لا يمكن أن يكون هنالك أي إبداع ثقافي إلا من خلال استقلال الهوية الثقافية ورصانتها وجلائها واستقلالها إن جوهر استجابتنا الخلاقة تكمن في تجدد حضاري مستمر يوازن بدقة «في عملية وصل وفصل مستمرين» بين اللحظات الثلاث: الحاضر مؤسس على الماضي وينجز المستقبل في سياق تراثنا الحضاري الكبير مع معانقة التراث الإنساني الشامل.

صحوة الهوية

مما لا ريب فيه أنه لا يمكن الحديث عن مشروع دون هوية وبالتالي إذا افترضنا أن لهذا المشروع دستوره الأخلاقي والجمالي والمنطقي والعملي حسب تعبير "مالك بن نبي"، فالهوية هي روح، روح[1] هذه الدساتير أو هي جذر القلب، ولب الروح، والشيء الذي ينزل منزلة النواة النووية في حياة الأمة.

فالهوية تعني الذات أو الجوهر[2]، فبينما أن هذه اللفظة تستعمل للدلالة على الجوهر "هو ما لا يندرج في الحدوث، ولا تدخل فيه التغييرات الزمنية والعرضية والماهية[3].

وفي هذا الصدد يؤكد المعجم النقدي لعلم الاجتماع المقولة الآتية: يميل كل مجتمع إلى تشكيل كل ثقافي فريد يمكن لمجتمعات متشابهة في درجة تصورها الاقتصادي أن تكون مختلفة عن بعضها بقوة من ناحية الثقافة[1].

---

[1] – د. حيدر إبراهيم: العولمة وجدل الهوية الثقافية، مقال ص102، منشور في مجلة عالم الفكر، العدد الثاني لعام 1999.

[2] – المعجم الوجيز، مجتمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية 1997، ص222.

[3] د. حيدر إبراهيم: العولمة وجدل الهوية الثقافية، ص104.

هل لنا هوية ؟ وما هي هذه الهوية ؟

لقد ذكرنا سابقاً أن إشكاليتنا الأولى منذ بداية عصر النهضة هي إشكالية ثقافية، وبذلك فمشكلة العروبة أولاً مع نفسها لأنها أخفقت في تقديم نفسها كهوية، والمطلوب أن تحسم «في المقام الأول» هذه الإشكالية التي تعتبر الألف باء في إنجازها التاريخي، وحجر الأساس في بنائها الروحي والحضاري.

ولا بدّ من التذكير بأن أية محاولة في تحديد الهوية ستكون فاشلة ما لم تعتمد آلية الحرث والفهم، وهذه الآلية هي حسبما قال "عمانويل كانت" «معرفة ذاته وليس لذاتنا» وحقيقة الأمر أننا اعتمدنا في معانقة الهوية منهج فهم الشيء لذاتنا، وكان ذلك على يد الإيديولوجيا، وليس على يد المعرفة والعلم، وبالتالي فقد قامت الإيديولوجيا العربية بمهمات كسر وتمحل وابتار لفهم ظاهرة الهوية طارحة منهج الشيء لذاته، قاصدين من هذا المنهج الحريف في أعماق طبقات الشعب العربي، وفهم خوالجه ونوازعه ودقات قلبه، وهكذا «والهوية مفروض بها أن تنتج هوية ثقافية» فقد كان الحصاد سياسات هشّة لأنها اعتمدت هويات غير مطابقة، وبالمقابل فالمطلوب طرح بإصرار سؤال هوية الأمة بمغامرة إشعاعية في بناء مستقبلها وازدهارها.

ما هي أسس الهوية العربية ؟

في نظرنا إن هذه الهوية هي العروبة ذات القسمة الإسلامية، فما المقصود من ذلك...ولماذا هذا التحديد؟.

لأن الأمة العربية من أعرق الأمم التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وخلال هذا الزمن الطويل، وتحت بصماتها على جبين الزمان، وكان لها مقاييسها

[1] – ر.بودون و ف .بوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم جواد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1986، ص22.

ونظرتها إلى الوجود والكون والمجتمع والطبيعة مثل ذلك حدث قبل بزوغ فجر الإسلام، وإذا كان الإسلام يتمثل عطاء وإثراء للعروبة، فإن نهر العروبة العظيم استرفد جداول أخرى أهمها الجذر الإنساني من خلال روح العروبة وشخصيتها وذاتيتها، والمثال الحي على ذلك يبدو جلياً في الأدب العربي الذي يبقى معبراً عن قرائح العرب وذوب أفئدتهم ونبل أحاسيسهم وأريجهم وروحهم وبهجة حياتهم.

ومع ذلك فالمغامرة الاجتماعية الكبرى للروح العربية تمت في بوتقة الإسلام، والمناخ العام والقضاء الصحي له، ومن نسيج العروبة وخيوط الإسلام كان هذا الميثاق العظيم والحبل المتين الذي يُعد العربي إلى أخيه العربي، وبالمقابل فإن مبدأ التخبط الذي اعتور سياساتنا كان مرده عدم معانقة والتعامل مع الشيء ذاته، ومع ما هو فيه، وإقحام عناصر عليه ليست منه وغريبة عنه.

وبطبيعة الحال، فالعروبة هنا بالمعنى والمضمون الثقافي لا العرقي، أما مفهوم الإسلام، فلا يقصد منه هوية دينية أو عقائد إيمانية إنما جذر تاريخي، وبذلك فالعمران العربي الإسلامي هو المشروعية العليا التي فعلوا على كل مشروعية، وتؤسس لكل بنيان، وبذلك فلا يجوز اختزال ثقافتنا بالدين وتعطيل القيمة الذاتية للفرد أو الأمة في ابتكارهما وعطائهما، وبالمقابل فلا يجوز أن نطوي شراع الدين من سفينة الأمة، ونحرمها من عطائه، بحيث يأخذ مكانه الطبيعي المناسب في سمفونية الأمة دون زيادة أو نقصان.

ويترتب على ذلك نتيجة هامة هي أنه لا خوف على العروبة من الإسلام، وكما لا يمكن ضرب أو مواجهة أحدهما بالآخر وبالعكس إذاً كيف يمكن جلب الحقيقة بذاتها أو الذات بالذات، وبالتالي فظاهرة التعارض هذه لم تبرز إلا في حالات الانحسار واحتلال التوازن المجتمعي، وذلك كمسألة سياسية إيديولوجية لا حضارية، وفضلاً عن ذلك فالربط بين العروبة والإسلام ليس على المستوى

الثقافي فحسب، وإنما على الصعيد السيوسيولوجي، فهذا الربط يكون نسيج ضميرنا وعقلنا ووجداننا والعروق التي تدب في جسدنا، فهو إذن منجز أو نتاج أو مفهوم تاريخي اجتماعي حياتي، وليس مفهوماً ميتافيزيقياً خارج التاريخ بل العروبة ولاء وصيرورة غير عشوائية، وإنما تتحرك في إطار ثوابت المشروعية العليا للإسلام والعروبة.

هذا وقولنا إن الهوية تقوم على ميثاق غليظ فتائله من العروبة والإسلام، هذا القول ليس تقريراً فحسب للشيء بذاته كما سبق توضيحه، بل يجب أن يكون حكم قيمة، وفعلاً إرادياً غائياً هدفياً تحدده الإرادة الإنسانية المدججة بالإيمان المعبأة المستنفرة من أجل تحقيق ذلك، ومن ثم فإن فشل السياسات على أرضنا لأنها لم تتأصل في بيئة العمران العربي الإسلامي، بل سقطت في كهوف الانكماش أو الانغماس في غربة التغريب.

ويترتب على ذلك نتيجة هامة هي أن العروبة ولاء قائم على التماثل والمساواة والمواطنة الكاملة، والكل فيها سواء في شرف الحقوق والمسؤولية.

ومن جهة أخرى فالقسمة الإسلامية الثقافية للعروبة الحضارية ترتب النتائج الآتية:

- إننا أمة غير قومية وغير عرقية أو إثنية أو شوفونية قوامها الاستعلاء والكبر، بل أمة ذات رسالة للعالمين تستمد نبلها وشرفها من القيم الرفيعة السامية للإسلام المتفاعل مع روح العروبة.
- قد تأخذ القومية، معنى يجعل من المصالح والأهداف والارتباطات القومية مكانة تعلو على المبادئ، فهي «بهذا المنظور» تشكل معياراً لقياس

درجة الظلم والعدل، وبالتالي فنحن هنا أمام معيار إيديولوجي قد يتعارض مع الإنسانيات والعروبة منه براء.

- الإسلام عقيدة وتسامي حياة وحضارة أو هو نظرية اجتماعية لا صفة الوطنية والتطور الاجتماعي (الإسلام الحضاري) ومن ثم فمن نظرياته الاجتماعية والسياسية ومن عمرانه يمكننا أن نحتاج الشيء الكثير، مثل عمران حفظ النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال، وكرامة الإنسان، ونظرية الاستخلاف، ونظرية السواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ آل عمران/**64**، نظرية المساواة ﴿ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ﴾، ونظرية الخيرية ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء/**114**، ونظرية العدل ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ المائدة/**2**، ونظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من النظريات الحضارية العمرانية الكبرى التي تمتلئ بها منظومة القيم الإسلامية.

وهذه الراسيات الشامخات من القيم يجب أن تشكل نسيج حياة المجتمع المدني والدولة وروحها وضميرها.

وحسب طبائع الأشياء، فالوظيفة تستدعي الجهاز «العضوorgan المناسب للاضطلاع بحيويتها والأصح الحديث عن الوظيفة» العضو بسبب عدم الانفصال بينهما إلا في الحالات العرفية، وهذا ما ينطبق على العمران الحضاري العربي الإسلامي، الذي عبر عن ذاته بصدق في مطلع هذا القرن فقد طالعنا بتيار واحد

هو التيار القومي الديني كما نلاحظه على يد "ابن باديس وعبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا والأفغاني وعلال الفاسي" وغيرهم من رواد النهضة.

ضرورة توثيق العلاقة مع شعوب الدائرة الإسلامية فهي المحطة العالمية الأولى التي تنطلق منها قاطرة العروبة والظهير الأمني الأعظم والعمق الحيوي الفذ لتطورنا الاقتصادي والاجتماعي، وأخيراً فهذه الدائرة هي السماء العليا التي يتحرك بها فكر العروبة وفجرها، وبالطبع فالتعامل مع هذه الدائرة يجب أن يكون على أساس صيغ حضارية وصيغ للتطور التاريخي والمجتمعي والأخلاقي والمصلحي، وليس على أساس ثيولوجي صرف، وبالتالي فالهوية منجز تاريخي وفعل قائم في التاريخ ولا يمكن اعتبار حضارتنا هذه جوهراً يسبح فوق الحياة والمجتمع والتاريخ، ويتحلل من روابط الواقع والزمان والمكان.

وهذا الإطار الإنساني الحضاري لأمتنا يجعلنا ننقب عن قيم العقل والعمل والتضامن وتكافؤ الفرص والعدل والمساواة وحب المعرفة وإرادة التقدم والتطور والتغير، وفضيلة الحوار، وهذا ما يتطلب التعويل على التنمية الإنسانية واعتبارها أساس التنمية الاقتصادية وأساس ذلك تمام نظام تربوي أصيل يوطد قيم الأمة ويوطن مثلها ومنظومات سلكها ونظريتها إلى الحياة.

ذلك أن حضارتنا هي حضارة الروح والوجدان وبالتالي فإن تفعيل قيم هذه الحضارة وعلى صعيد الاقتصاد يعد خطانا ويسرع حركة الحياة في عروقنا، ومن ثم فالتجذر الحضاري العربي لا يقوم على حضارة السوق كما هو مطروح في الكوكبة الجديدة، وإنما على حضارة الأخلاق وحضارة الروح وبالتالي حضارة السوق، وبمعنى أوضح فإن ثقافتنا يجب أن تكون ثقافة الروح وثقافة العقل وثقافة الأخلاق وثقافة الدين جنباً إلى جنب مع ثقافة الاقتصاد وثقافة المصلحة قاصدين

هنا من المصلحة، كل فعل اجتماعي أي الحاجات المادية والروحية والنفسية والعقلية للمواطنة.

وبناءً على ما تقدم فيجب أن تكون لنا صحوتان، صحوة العقل التي تمدنا بالمعرفة اللازمة لما حولنا، ثمّ الصحوة الفكرية الثقافية الحضارية وهي صحوة المثال والقيمة.

صحوة المعاصرة والأصالة

كيف يجب أن نحيا؟ وما هو سبيلنا إلى التقدم والفلاح؟ وامتلاك ناصية التاريخ والفوز في الحياة؟

أسئلة طرحت على الفكر الإنساني، وقد تعددت الإجابة عن ذلك:

- ✓ الإنسان هو المقدمة المنطقية للتاريخ.
- ✓ أهمية الوقائعية وشهادة الواقع.
- ✓ رجل الحرية هو الفيلسوف الحقيقي.

لقد طرح رواد النهضة العربية هذه الأسئلة، وكانت الإشكالية الحقيقية التي راودت أفكارهم وهي كيف نتقدم، وكيف يمكن اللحاق بالغرب؟ هل إن هذا اللحاق يخرجنا من أزمتنا الحضارية؟ هل سبيلنا إلى ذلك إلغاء تراثنا من العهد؟ هل نبتدئ من الصفر؟ هل ننطلق من الماضي أم نخلل رواسيه؟ هل نقلد كلياً الغرب؟

هذه الأسئلة، ومثلها معها فجرت ثنائيات متعددة، من ذلك ثنائية الأصالة والمعاصرة.

وحقيقة الأمر، فقد كان لاتصالنا بالغرب خضات ورضات وشحنات نفسية **متعددة الألوان:**

الزلزال- التغول –الحداثة- القلق- التساؤل الكبير- الهاجس والمعاناة- ولقد **تعددت الاستجابات:**

الانغماس الكلي في الغرب، واعتباره أساساً ومرجعية في كل شيء، والتسليم له بالمركزية والهيمنة دون أن يخلو من بهرج واستكانة والشعور بعقدة النقص.

اللحاق بالغرب بأوليات الماضي أو أسسه ومناهجه.

الانتفاخ بعقدة الذات انتفاخاً يقود إلى استعادة الماضي واستصحابه وتكراره والإيمان بعلويته في كل شيء (تيار الانكماش).

الاستجابة الخلاقة للغرب وقوفاً على قاعدة صلبة رصينة هي الثقة بالذات، واعتزاز بها، والإيمان بقدرتها على الخلق والإبداع، إيماناً جدلياً بمفاعل مع معطيات الغرب بعد أن يصب عليها عصراتها الهاضمة، ويصفيها من شوائبها بمنطقه وبوتقته الخاصة.

وفي الحقيقة إن التقليد ومحاكاة الآخر لا معنى لها سوى العطالة الحضارية أي التخلي عن قدرة الذات في وظيفتها الاجتماعية الحضارية، وفي النهاية، فذلك لا يتيح إلا مجتمعات مشوهة، وفي الوقت نفسه فإن توثيق الذات والتقليد الانفعالي لا يقل فوتاً أو موتاً من الانجرار والانكباب على عتبات الغرب، ولا شيء يتربص بهذا الموقف سوى تغييب الواقع لهاثاً وراء أوضاع الماضي والافتقار إلى آلية فهمه وفهم أبعاده.

ولا ريب أن امتلاك شفافية الوعي التاريخي، واجتراح الأمور الجليلة، إنما يقتضي فقد دروب الماضي واستحضار العناصر الموضوعية القائمة في الذات، كما يقضي

فقه الرواسي الشامخات من قيمنا العقلية والإيرانية والخلقية، كل ذلك كروافع وديناميات لفهم الحاضر انطلاقاً باتجاه المستقبل والقبض عليه وامتلاك ناصيته.

فالتاريخ هو الذاكرة، وإن فقدان الإنسان لذاكرته فقدانه لوعيه وذاته ووضوح إرادته واعتباره الحي النابض، وبذلك فمن المستحيل إقامة القطيعة بين التاريخ والمجتمع وهناك ترابط عضوي جدلي –في إطار الأمة- بين حركة أنجزت وأخرى تنجز الحاضر كجسر لحركة ستنجز المستقبل، كل ذلك محمول على آلية المراجعة وليس التراجع.

فالوعي التاريخي الخلاق المبدع ليس وعياً بالنصوص فحسب، وإنما هو حركة شعب بأسره استجمع قواه وفجّر حاجاته الوجدانية والعقلية والإرادية مقتحماً الصعاب متوثباً بالروح للوصول إلى هدف منشود مرتجى، إنه حركة أنوار، وروح الأنوار وجوهر الأنوار القائمة على إعطاء الأولوية للإنسان والروح والعدل والقيمة والحرية، والأمر إذن لا يقف عند الثورة الإيديولوجية ومبادئها العدوانية للحياة، كما لا يقف على النصوص الجافة والمستحاثات التي انتقلت إلينا من أنفاق الماضي.

لقد افتقدنا توازننا الاجتماعي والتاريخي، وكنا مشدودين للماضي ودوائره ومرجعياته فاعلياته أكثر من فهمنا للحاضر ومعرفتنا لدروبه وتعقيداته، علينا أن نفهم الحاضر على أنه قيم روحية وخيار خلاق ولهب مقدس وليس رماداً تذروه الرياح.

علينا أن نحول الفكر إلى واقع والفلسفة إلى رسالة والقيم إلى نزعة وطنية وقومية.

علينـا أن نتأسـس مـن الـداخل دون أن ننسـى اسـتيطان الخـارج وتخـارج الـداخل، قاصـدين مـن ذلـك أن يتأسـس الخـارج علـى الـداخل، وأن يكـون للـداخل الرصين بعده في الخارج.

لقد تنـازل المشـروع القـومي عـن أمـور كثيرة وفي مقدمتها خطـاب النهضـة، حيـث تحول من خطاب أنوار إلى خطاب أيديولوجي تعـوزه الشـرارة الحضـارية والفكريـة والثقافية.

وأول مـا هـو مطلـوب في صـحوتنا الثقافيـة اسـتقلالنا الثقـافي وهـذا الاسـتقلال لا يعني مواجهة الغير وإعلان الحرب عليه، بل يعني قبل كل شيء مواجهة أوهام الأنـا والذات، ومظهر ذلك استئصال ثقافة التواكل والطاعة وحرفية التفسير والتهميش والتـدمير والتخـدير والتضـليل والتفريـق والابتـذال والإذعـان والـتكفير والاغـتراب وتبرير اللامعقول وثقافة الفتنة وثقافة الأزمة والثقافة الرمادية الانتظارية وثقافـة الجهل والخرافة والركود والاستنفاع.

ولعل المدخل إلى ذلك عدم الخلط بين القرارات الإيديولوجية السياسية والقرارات المعرفية الثقافية وذلك بتحويل الثقافة إلى جهاز من أجهـزة الدعايـة الزاعقـة وإلى رطانة أيديولوجية، أو دعوة أمبريقية مسطحة، وهنا نذكر بمقولة "عمانويل كانـت" المدللة بضرورة التمييز بين معرفة الشيء في ذاته ومعرفته لذاتنا يجب الفصل بين سلطة المعرفة والسلطة السياسية التي تدجن المثقفين وتستأجر ألسنتهم لتضـعهم في خطائرها، ولتتخذ منهم بوقاً وميلشيات فكرية، بـل تعتبر رسالة العلم مجـرد إمداد الدولة بجيش الموظفين، ويدخل في هذا الباب الثقافة الإعلامية التي تـدجن المـواطن بإشـاعة الثقافـة الاسـتهلاكية، كمـا يـدخل في ذلـك ثقافـة الاغـتراب والانغماس وثقافة الانكماش التي تختزل الوعي الإنساني بالثقافة الدينيـة المغلقة،

وأخيراً يدخل بذلك ثقافة السلام في زمن الحرب وثقافة التطبيع وتبرير الغزو الثقافي.

الثقافة المنشودة المبتغاة هي ثقافة الانطلاق والحركة والتقدم الثقافة الحية المبدعة الكلية الشمولية الواعية المدركة بمقتضيات الزمان والمكان، الثقافة القلقة المثقلة بالهجوم والمصانعة والثقافة النقدية المحاورة الندية.

وهذا القلق يجب أن يكون من النوع الذي لا يدعونا إلى الخوف وإلى الهامات والرعب، بل يجب أن يحرك فينا الجهد المبدع الخلاق effort creative إضافة إلى جهد المدافعة effort eliminator مدافعة وتحطيم كل عوامل الضعف والاستكانة وهذه الثقافة الحية المبدعة المحركة يجب أن تثبت أقدامها على تربة العمران الحضاري العربي الإسلامي، وتجهد لإعلاء بناء العمران وتطويره وإغنائه من داخله، وهذا يستتبع بناء بيداغوجيا (فنّ تربية الأولاد وتعليمهم وطرق التدريس) قيمية تحتض المنظومة لأمتنا ومخزونها الروحي مؤصلة المحورية الخلقية والقيم الروحية النابعة من الأديان إضافة إلى الثقافات الوطنية ويتفرع على ذلك ضرورة ترسيخ مبدأ ديمقراطية الثقافة وتوطيد منظومات العلم والمعايير والمدركات المعرفية والارتقاء النوعي بالثقافة وبنوعية الاتصال الجماهيري الثقافي وشحذ الوعي العام.

ولا شك أن ديمقراطية المعرفة لا تتحقق إلا بالاستجابة لمقتضيات المكان والموقع والبيئة للتعددية الثقافية أو ما يسمونها بالثقافة الفرعية شريطة أن تحترم هذه الثقافة والهوية الثقافية العامة للأمة وأن تقدم معطياتها وإنجازاتها من خلال هذه الهوية وعلى قاعدة إذا كان في الوحدة قوة فإن في التنوع قوة أخرى تضاف إلى القوة الأولى.

وكما قلنا سابقاً فعلى مشروعنا الثقافي أن يفجر الثقافة التكنولوجية التي تدخلنا عالم المعلوماتية الكونية، وتتيح لنا المشاركة في حقول البحث العلمي العالمي شريطة ألا تدخلنا في خطاب التقنيات والوصفات الجاهزة المتعثرة والمبعثرة والمتحللة في كل هدف كلي شامل غائي محمول على إستراتيجية كبرى وعريضة لقومية المعرفة وللبحث عما هو مشترك في الأمة، وإرادة الحوار ضمن رحابها من أجل صهر النزعات المتعددة معها في خطة عمل مشتركة تؤدي إلى التوحيد والتقارب وبدء الإرث والخبر العام وعلى هذا المشروع أن يميز بين الثوابت والمتغيرات كمحصلة لفحص واقعنا مخصباً مجهرياً نتلمس مكوناته وعناصره وأبعاده، كما عليه أن يقوم بالدراسات المستقبلة "علم المستقبل" ليستشف ويستشرق آفاق جديدة، كل ذلك في قلب المعاصرة.

والثقافة العربية المرتجاة يجب أن تقتلع الحصون الثقافية الداكنة وتهدم التركة الثقافية ثقافة المحرمات وثقافة القوالب والمحيطات التي تتأبى كل مناقشة، وتخطر كل استيعاب وفهم لا سيما مسائل الجنس والدولة والدين.

وبطبيعة الحال يجب ربط الثقافة بمرجعياتها الطبيعية والواقعية والمثالية: مرجعية الأمة- مرجعية الدولة- مرجعية الوطن.

وعلى هذا المشروع أن يؤسس الحقل الديني ويسير طبيعته سيراً دقيقاً، ويضعه في موقعيته الطبيعية دون إفراط أو تفريط أو تمديد أو تقليص، بحيث توطد دعائمه بما يتفق مع دوره واستقلاله وبحيث تعالج مسألة الانفصال بين المعرفة والأخلاق.

ويستتبع الشرط السابق ضرورة تأسيس الحقل التربوي على كافة الصعد، بحيث أن هذه التربية تحمل المشروع الحضاري والسياسي للأمة دون أن تنتكس وتهبط إلى درك أولجه الثقافة ودولتها ولا حاجة للتأكيد بأن التنوير الثقافي هو الوجه

الآخر والمتمم للتحديث المجتمعي الشامل، ولا سبيل لأحدهما دون الآخر، وبذلك فالثقافة يجب أن تقوم على تحديث الواقع بروح الفهم والنقد والرؤية الشاملة، وتوطيد روح المسؤولية والعمل على هذه الثقافة أن تحمل لواء النضال «ضد كافة أشكال القهر» في الثقافة وضد أشكال الحروب الثقافية التي تُشن على أمتنا في كافة مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبالمقابل عليها أن توطن وتوطد شمولية الثقافة وشعبيتها وجماهيرتها باعتبارها ذلك الحصن المنيع ضد كل غزو ثقافي، وهذا الأمر لا يتأتى إلا بالحرية، إذ لا ثقافة دون حرية.

وهذه الفاعلية الضخمة للثقافة على صعيد العمل الوطني والقومي لا تؤتي ثمارها يانعة إلا إذا سادت روح النقد وروح الاختلاف والتنوع والمراجعة والتسامح والرؤية التاريخية الكلية والمتفتحة، والرؤية العقلية، وتجنب الأحكام المطلقة، وإعطاء الأولوية للقومي أو مشروع ثقافي فطري دون أن يعني ذلك مصادرة القومي لما هو وطني، يضاف إلى كل ذلك ضرورة تفجير روح التساؤل لا سيما فيما يتعلق بضرورة تكوين صورة للأمة عن ذاتها تمتلئ بها نصوص الدين الحنيف.

الديمقراطية[1]

يرى بعضهم أن مجرد طرح الديمقراطية بقوة في مجتمع ما فهذا الطرح يشكل انقلاباً تاريخياً.

هل تبدو أهمية الديمقراطية الحرّة؟ الأمر الذي يمكن قوله عن هذا المبدأ السياسي الاجتماعي أسمى المبادرات الإنسانية، وحقيقة الأمر أن المستقبل للجماعة البشرية التي ترعى السلطات الآتية:

- ✓ **سلطة المجتمع**: الأرض- الاقتصاد- الإنتاج.
- ✓ **سلطة أفكار الأمة وقيمها ومبادئها.**
- ✓ **سلطة الدولة**: الحرية –السيادة.
- ✓ **سلطة المعرفة.**

هي إطار الجماعة وجهازها العصبي ونواتها النووية ومستودع إرادتها والثورة التي تبدع قرارات العظمة في حياتها وازدهارها ومن خلال هذا الإطار تستطيع الجماعة أن تنمي فاعليات التضامن والتكافل بين أفرادها، وتفعّل فرص الانصهار والتماثل، وبدون هذه البوتقة تتفكك الجماعة، ويتبعثر تماسكها، ويتصدع بناؤها وهذه الأهمية الكبرى للديمقراطية الحرّة تجعل أية عملية يقظة وتطور في أمتنا

---

[1] – الديمقراطية المحض قد تقود إلى هضم حقوق الأقلية ولكن الديمقراطية الحرّة هي التي تحقق الحريّة وسلطة الأغلبية وحقوق الأقليات.

غير كاملة ما لم تستهل بضبط آلية السلطة وتحديد اختصاصها، وأسلوب ممارستها وطبيعة العلاقة مع بعضها، ثم علاقتها مع المجتمع والأفراد، وأخيراً أسلوب تقلدها وإسنادها، وهذا الأمر لا يتحقق إلا إذا كانت السلطة جهازاً في خدمة فكرة، هذه الفكرة، هي فكرة الحق التي تضعها الجماعة في وثيقتها الدستورية.

هذا التأسيس للسلطة يبعدها عن الهزات والتقلبات، ويبعدها عن سمتها الذاتية لتصبح نابعة من أعماق الجماعة وظروفها ومصلحتها، كما يجعل انتقالها وتداولها بمنأى عن الهزات والتغالب، وفي الوقت نفسه محكومة بآلية تهذيبية وعقلية ومرشدة، وفي الصدد يشبه الفقيه الكبير "هوريو" العقل التاريخي بلعبة شطرنج كتب على أحجارها ما يلي: سلطة – حرية – أمة.

فهذه الصورة الإنسانية لفعاليات الأمة تجد مظهرها الأمثل في الديمقراطية الحرّة، فهي توافق وانسجام وتنظيم من النوع الممتاز، وهو الأمر الذي حدا بعضهم لتعريف الديمقراطية بأنها عقد قوامه الرهان على تساند الإرادات وانصهار المصالح والفعاليات في متحدات وإيلافات اجتماعية مشتركة.

وهكذا يتجاوز هذا التعريف المظهر الشكلي للديمقراطية الحرّة ليتغلغل في المجتمع والقوى الفاعلة فيه وانصهار إرادات هذه القوى في متحدات وأهداف تحقق «بتوازن دقيق» مصالح الجميع في عملية دينامية تراعي تطور المجتمع، وتؤكد أن انسجام المجتمع تجده في قواه الفاعلة، وليس في النصوص القانونية الشكلية والجامدة، على هذا الأساس فالأصح التعريف بالديمقراطية الحرّة على أنها أسلوب للحياة يعكس بدقة المجتمع وقواه الفاعلة لكنه يعبر عن اتساق آخر هو العلاقة بين السلطة والمجتمع لذلك فحقوق الأفراد ركن هام في قلب المفهوم

الديمقراطي الحر، وهذا ما حدا النظم الأوروبية خلاف تسمية الديمقراطية الحرّة كحاجز سميك في وجه الأغلبية من أن تتغول على حقوق الأقلية أو الأفراد.

وعلى ضوء ذلك يترتب على نظرية الديمقراطية العربية أن تراعي حقوق الأقليات والثقافات الفرعية، وذلك بصوتها وحمايتها وإعطائها حقّها في التعبير عن ثقافتها من خلال برامج وأهداف تناقشها الإرادة العامة وتصب في أهدافها وبرامجها الثقافية الكليّة، وبمعنى أوضح فعلى الديمقراطية العربية أن تؤسس على نظرية سيادة الشعب بحيث يمتلك كل عربي «مهما كان انتماؤه وموقفه في المجتمع» جزء من الإرادة العامة أي يعني ضرورة أن يتطابق الشعب السياسي مع الشعب الاجتماعي والديمقراطية العربية الحرّة أداة لتحقيق المشروع التاريخي للأمة ألا وهي الوحدة.

هكذا يجب أن يقوم التآلف الديمقراطي في الوطن العربي بين القوى التاريخية الفاعلة التي تؤمن بوحدة الأمة ومستقبلها وحقوق أفرادها وحقّها في امتلاك تراثها وثروتها، بالطبع فهذا التآلف له مظهران:

- التحالف الشعبي الديمقراطي الوطني على صعيد القطر.
- التحالف بين القوى الشعبية القومية على صعيد الأمة.

وهذه الديمقراطية لا تتحقق إلا بنشر الوعي الثقافي في الأمة بحيث تتحول الثقافة إلى مادة تربوية وإلى رأي عام كاسح، هذا فضلاً عن أن ذلك مشروط بديمقراطية الثقافة وبثقافة الديمقراطية، أي الثقافة التي تكسر الوعي بهذه الظاهرة.

زد على ذلك فالديمقراطية الحرّة لا تنمو وتؤتي أكلها إلا إذا توفرت وتحصنت بكرامة المواطن المقررة بحقوقه الاجتماعية وبامتلاكه نصيباً من ثروة الأمة أي من عطاء تضامني يكفل له العيش الكريم.

والمجتمع المفتوح هو العمق الاستراتيجي للديمقراطية الحرّة، حيث تتحرك مسارات القدرة «بفعل حرية العمل وحرية الانتاج وحرية التجارة» في كافة الاتجاهات دون حواجز فئوية أو طائفية تصد الفرد عن الارتقاء بجهده إلى كافة مراتب الوجود الاجتماعي وللديمقراطية الحرّة بعدها المؤسسي، وهذا يبرز في توفر الأحزاب التي تعبئ الأفراد وتهذبهم وتستنفرهم، باتجاه أهداف الأمة وقيمها في الحرية والوحدة والعدالة.

وبطبيعة الحال فالديمقراطية الحرّة لا تزدهر في مجتمع فئوي قسري قاصدين ذلك المدلول الموسع الذي يشمل العشيرة والقبيلة وبذلك يجب تذويب الثقافات المناهضة للديمقراطية والتي تخلق الشقوق والصدوع في جسد الأمة، كتلك الثقافات الانفكاكية والثقافات المركزية المتمثلة في سلطة الحاكم الذي يحتكر الرأسمال الرمزي الثقافي والاجتماعي والسياسي للأمة، ويذيب مصالحها، وبالمقابل يجب إيقاظ القيم العقلية وقيم الحوار والنقد والنقد الذاتي والقيم التي تؤمن بالآخر وبفضيلة هويته ووجوده وحقوقه وضرورة الاعتراف به وتأمين كافة الوسائل لتعبيره عن مصالحه، يضاف إلى ذلك قيمة الأمر المعروف والنهي عن المنكر تلك القيمة الثاوية في أعماق ضميرنا الجمعي وفي قاع عقلنا العام.

والديمقراطية الحرّة كما هو معلوم فلسفة وأسلوب للحياة، وبذلك فهي تمتلك بعداً إنسانياً، وهذا ما يجعلنا «بآليتها» تمد أقنية التواصل والتواهج والتواشج والتلاحم مع الغير قاصدين بذلك علاقة الأمة بغيرها من الأمم في إطار الشأن الإنساني العام والتراث البشري الخالد، وفي بوتقة التواصل الخلاق الحر الندى على قاعدة: ((دع الزهور تتفتح ولنتبار)).

وعلى أساس المبدأ الإسلامي الخالد : فليتنافس المتنافسون، وهو الأمر الذي يربط أمتنا بالحركة النقدية التحررية القائمة على التأويل والاجتهاد والاستنباط، بحيث لا ترى الأشياء كما يراها الآخرون بل نراها بأعيننا وضميرنا وانطلاقاً من إرادتنا ومصلحتنا .

إرساء فلسفة المجتمع المدني

عرف "ماركس" المجتمع المدني بأنّه مسرح التاريخ وقاطرته والبؤرة المركزية فيه، واللحظة الإيجابية والفعالة في التطور[1]، وعرّفه "لابيار" بأنّه مجتمع كلي تعبيراً عن وحدته رغم تنوعه الشديد، وأنّه يقوم على قيمة العمل والقانون والمسؤولية.

وقريب من ذلك ما أكّده "ماكيفر" بأن المجتمع المذكور مفتوح، بحيث إن مسار القدرة وشرايينها وعروقها تمتد في كافة أقطاره وأرجائه، وباستطاعة أي فرد أن يرقى إلى أعلى عليين دون أن تعيقه دعاوى الطائفية أو الفئة أو القبيلة.

في هذا الجسم الاجتماعي نجد علاقات وروابط ثرّة وغنية تختلف في شكلها وأغراضها ودرجة تطورها، فمنها ما يقوم على سمة أو مقولة عامة general ومجردة abstract محمولة على روابط العقل والأخلاق والعمل والمصلحة والقانون والنقابة والمؤسسة والنادي، منها ما يقوم على علاقات الجوار والحي والقرابة والأسرة، وإن كان –تبعاً لدرجة تطور هذا المجتمع- حجر الزاوية في هذا المجتمع للقانون لا للقرابة، وبمعنى أوضح فهذا المجتمع المدني هو النقيض

[1] – كريم أبو حلاوة: إعادة الاعتبار لمفهوم المجتمع المدني، مجلة الفكر، العدد الثالث، لعام 1999، ص9.

التاريخي المتطور للمجتمع القرابي والأهلي، ذلك المجتمع المؤسس والمحمول على الروابط الأهلية والقبلية وغير ذلك، بحيث تسمو هذه الروابط الأخيرة على كل اعتبار، في حين أن المجتمع المدني يقوم على فكرة المواطنة باعتبارها وصفاً وتحديداً قانونياً، أي علاقة الفرد بالدولة في المقام الأول، يعزز هذا المعيار مقاييس قيمية أخرى كالعمل والمساواة والحرية والإنتاج والإبداع، وهذه هي الإقلاعات والأشرعة التي تحرك المجتمع والروافع التي تسمو وتتطور وتتوطن به.

ويميز علم الاجتماع بين قوتين في الحياة، قوة الحركة والإبداع والإنتاج والمبادأة initiative والتغيير، وقوة الاتساق والاستقرار، القوة الأولى هي قوة المدني، يوازي هذه القوة قوة الاستقرار والامتثال، متمثلة في الأعراف والقوانين والعادات والدين والأخلاق.

والمجتمع السليم هو الذي يقوم بعملية موازنة مستمرة بين قوى الاستقرار وقوى الإبداع.

وبيان ذلك أن المجتمع المدني هو الذي يبدع الدستور الخلقي الجمالي والفكري والمنطقي والعملي للأمة " القول لمالك بن نبي" وهو الذي يسوغ موسوعتها القيمية وفولكلورها وأدبها وأقاصيصها وأريجها الروحي ومناط حماستها وتصورها للحياة والوجود، وإن كانت السلطة تدعي كثيراً أنها التي تخلق ذلك وبطبيعة الحال، فهذا المجتمع لا يتمكن من الإبداع إلا إذا كان حرّاً، هكذا يمضي المجتمع المذكور في العمليات التراكمية المختلفة منتجاً المؤسسات الدمج والانصهار، وإن كان ذلك لا يعني خلوه من الصراع، بل العكس، فهو يحمل مختلف أشكاله، لكنه يقوي تلك الحركة ويروضها، ويصفها- بالعقل والتهذيب وبالعمل القانوني- في مسارب تفضي إلى أشكال جديدة من التطور.

وعلى هذا الأساس، فلا يجوز حرمان ذلك المجتمع من صياغات تجارب الحياة ومد عروق القوة والنسج الضامة على كافة المستويات بما في ذلك الدولة باعتبارها إطار الامتثال لحركة المجتمع أو الصياغة القانونية للقوى الفاعلة في المجتمع بحيث إن الدولة لا تعبر إلا عن توازن تجد أساسه في المجتمع وحركته وتطوره وحياته، والقول بغير ذلك لا يعني إلا قسر المجتمع وأسره وصبه في قوالب، وثقل فاعليته إلى السلطة، بحيث تتحكم في بنيته الكليّة وخلاياه ومفاصله "الانرباط المفصلي".

وتأسيساً على ما تقدم فحرية المجتمع المدني مرتبطة بنظام القدرة قاصدين بنظام القدرة امتلاك الطاقة على صعيد المكون الاجتماعي.

ذلك أن الفكرة قدرة والروابط الاجتماعية السليمة قدرة، ونظام المؤسسات قدرة والفن قدرة والمعرفة قدرة، وكل ما يموج في المجتمع قدرة، ومن ثم فالقضاء على حرية المجتمع المدني وإبداعه ليس في النتيجة إلا خنق نظام القدرة وفرض الجمود والتحجير الاجتماعي، وفي النهاية تكريس الفوت والموت والاضمحلال، ومع التحفظ بأن حرية المجتمع المدني لا يعني الحرية المنغلقة عن مؤسسات الضبط، والقول بغير ذلك يعني انفجاره من الداخل.

الصحوة السياسية

لا حاجة للتأكيد بأن المشروع السياسي يشكل العمود الفقري لأي مشروع قومي نهضوي مرتجى ومؤمل.

فالسياسة هي المكوك الذي ينسج للجماعة ما هو مشترك أو هو البلاط والاسمنت الذي يجمع اللبنات والعروق والشرايين التي تقيم الدورة الدموية للحياة، وبدون السياسة لا تعدو الأمة إلا أن تكون مزقاً وأشلاء مفككة مبعثرة.

والسياسة ليست عملية جمع من أجل الجمع والتوحيد، بل هي تنجز القيمي الحضاري والثقافي، وغير ذلك من فاعليات الحياة، وهذا هو مبدأ التوزيع القيمي للسلطة الذي دلل به علماء السياسة وفقهاء القانون الدولي، وهكذا برز الجهاز المفاهيمي authoritative allocation of values الذي أناط بالسلطة السياسية مهمة إنجاز القيمية.

فالديمقراطية مثلاً أو الحرية أو المساواة لم تعد طوبى، بل أصبحت قيمة وواقع حياتي تلتف حوله البرامج السياسية لتصونه وترصنه وتحميه.

لكن ماذا نقصد من قولنا إن مهمة ما هو سياسي إنجاز ما هو مشترك بين أبناء الجماعة؟.

أجل ذكرنا سابقاً أن المجتمع المدني هو مجتمع الحريات والمبادرات الفردية تستجيب للظروف حلفاً وإنتاجاً وإبداعاً، وبمعنى أوضح المجتمع المدني هو قيمة الحركة وتفعيلها وصنعها.

ولقد ذكرنا أيضاً أن قوة الحركة يجب أن تتوازن مع قوة أخرى هي قوة الاستقرار، ومن هذا التوازن الدقيق بين الحركة والاستقرار تتكون جامعة الحرية التي هي في جوهرها انتظام وليس عبثاً وشواشاً.

وليس غلواً القول إن المتكونين الطبيعي والاجتماعي يقومان على هذه الجامعة، فالحرية تبقى فوضى إذا لم تتموضع في سكون، والسكون حالة آسنة إذا لم يمنح بين الحين والآخر جرعات من الحركة.

فالسلطة هي التي تنتج قوة الامتثال ضبطاً وصقلاً وتهذيباً للحرية على هذا الأساس شبه الفقيه "هوريو" العمل التاريخي الفذ بلعبة شطرنج تقوم على جامعة الحرية والنظام "الحرية والسلطة" يضاف إلى ذلك فاعل الأمة، القطب الثالث في اللعبة التاريخية وأبعد من ذلك فالسياسة لوحة فنية كلاسيكية، حيث تتفاعل الألوان وتتسق وتتفاعل.

والخلاصة أن مهمة السلطة السياسية ترتيب الوسط الاجتماعي المنسجم على النحو الذي يحقق مصلحة الفرد في جماعة معينة:

"Une amenagement harmonieux des rapports social dans une certains eallectirite".

وهي حسب تعبير teitgen تنتمي إلى حالة السلم الداخلي للجماعة أو إلى تلك القوة التي تقوم بالتهذيب والمواءمة[1].

---

[1] – د. محمد عصفور: مذكرات في الضبط الإداري، جامعة القاهرة، كلية الحقوق، الدراسات العليا، 1997، ص5 و67.

وإذا كانت جامعة النظام تحقق السكينة والعدالة، فهي مدعوة لتحقيق ركيزة ثالثة هي التقدم[1].

وإذا كانت السياسة تنجز القيمة والتقدم والأمن والعدل والسكينة، فهي تنجز ما هو أهم من ذلك، تنجز المدنية التي هي غاية الاجتماع الإنساني، وهذا هو مغزى التطابق بين الهوية السياسية والهوية الحضارية، ومغزى قول "ريمون بولان": ((الدولة في حقيقتها حضارة استجمعت قواها، وأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات))[2].

وهذا هو أيضاً مغزى قول "بوردو" بأن السلطة جهاز في خدمة فكرة وكي تتمكن السلطة من إنجاز الحيز المشترك الذي هو الأمن والعدل والسكينة والتقدم والقيمية، يجب أن تكون سلطة المجتمع وليست سلطة الدولة أو دولة السلطة.

وتجدر الملاحظة إلى أن المشروع العربي كثيراً ما يولي اهتمامه بنظرية الأمة لا الدولة بحيث تتحول على يديه الفكرة القيمية إلى فكرة سياسية، دون أن توصل في وجدان الشعب على هذا الأساس، أي على أساس النظرية السياسية مثل: الديمقراطية- المجتمع المدني- المؤسسة العامة- السلطة- الحرية- الثروة القومية، وغير ذلك من الأمور.

---

[1] – د. نعيم عطية: النظرية العامة للحريات الفردية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة.

[2] – ريمون بولان: الأخلاق السياسية، ترجمة د. عادل العوا، دار طلاس، دمشق، 1986، ص301.

الصحوة العقلية الإدراكية

إذا صحّ قولنا إن الإنسان هو المدخل العام للتاريخ، وهو المقدمة الكبرى لأي تقدم وازدهار، فالأصح الحديث عن صحوة عامة للإنسان العربي وتنميته كليته في كافة قواه وجوارحه وقدراته، ضمن إطار تربوي هادف يوطن في ضمير المواطن إرادة التغيير والتنفيذ والالتزام والصدق والوعي بالذات والعقيدة، والحرية والكرامة، والقدرة على مواكبة التطور والصراحة والجهد الإبداعي والتغيير الجذري، وفوق كل ذلك انبثاق روح حضارية بالمعنى الجدلي من خلال المعاناة والنضال.

ومع أهمية هذه الأمور إلا أننا «حرباً مع بعض المنظرين» نجد بسبب ضيق المجال ضرورة الحديث عن الصحوة "العقلية الإدراكية" قاصدين من هذه الصحوة الانتقال الإدراكي السياسي للمواطن من حال التفكير الشخصي التسلطي الجامد الأناني إلى رحاب التفكير العصري المراع المترع بالحيوية والشك والجرح والنقد والإبداع والمعاناة.

وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور "عبد المنعم المشاط" أن العقل والإدراك العربيين يعانيان من الاغتراب الذي يأتي من ذلك التناقض بين الواقع المعاش من ناحية، والإدراك العقلي الغائي من ناحية أخرى، وسبيل علاج ظاهرة الاغتراب المرضية هذه تطوير وتعديل وتغيير الواقع بصورة تتوافق مع الإدراك العقلي الناجم عن الاحتكاك العربي بالعصر الحديث ومظاهره العصرية[1].

[1] – مقاله الموسوم بعنوان: الوطن العربي بين التكامل القومي ودعاوى التجزئة.

إن عدم التوافق بين الإدراك والواقع قد يقضي على ما بقي من استقرار سياسي وذلك لتزايد الميل إلى التمرد والرغبة في التغيير ولو بالأساليب الثورية، كما أن عدم التوافق يدفع إلى تبني حججاً عقلية قد لا تكون مستند إلى أسس منطقية كالاتجاهات الانعزالية ودعاوى التوافق مع مصادر التهديد، وذلك نكاية في الواقع المعاش.

ولا شك أن المسؤولية في إطلاق هذا البعد من الصحوة القومية تقع على عاتق النظم السياسية من ناحية والمفكرين من ناحية أخرى، فالنظم العربية يمكن أن تأخذ المبادرة من أجل تقريب الواقع السياسي إلى الإدراك العقلي للمواطنين، والمفكرون أيضاً عليهم من ناحية أخرى ضبط الإدراك، وتجسير الفجوة بين الحاكم والمواطنين[1].

إن دعاوي التجزئة والتشرذم هي ردة فعل لعدم التوافق بين الإدراك والواقع، وهي تعبير عن فشل المدافعين عنها والمروجين لها في إحداث التوافق المطلوب[2].

---

[1] – د. سعد الدين إبراهيم: تجسير الفجوة بين المفكرين وصانعي القرارات في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 64، 1984.

[2] – د. عبد المنعم المشاط: التربية والسياسة، تأصيل العلاقة بين عمليتين سياستين، شؤون اجتماعية، العدد 32، السنة 8، شتاء 1991، ص27.

ونقصد من ذلك ضرورة الاتساق بين الإدراك العقلي للمواطن وسلوكه، أي بين ما يعتقد، وما يفعله ولعل أول ذلك التضارب يكمن في مسألة الانتماء والولاء، فقد يكون المرء وطنياً قومياً في إدراكه لكنه قبلي في سلوكه[1]، كما قد يكون المرء وطنياً قومياً في إدراكه قومياً في سلوكه، وقد يدعو إلى احترام حقوق الإنسان، لكنه أول من يخرقها ويعتدي عليها، وقد يؤمن بالحرية، لكنه يهدرها سلوكياً وعملياً، وأخيراً فقد يؤمن بقيمة المساواة بيد أن سلوكه يتسم بالتمييز والفوقية، هذا التناقض يقيد الحركة الاجتماعية للفرد لأنه يفقده الثقة في الآخرين وفي النظام السياسي بكامله، ويضعف ولاءه للجماعة السياسية وللكيان الذي ينتمي إليه، ولا شك أن تحقيق هذا التوافق بين الإدراك والسلوك يقع على عاتق النظم السياسية العربية، التي عليها أن تضع برامج التنشئة السياسية التي تخلق المواطنين الأصحاء عقلياً وسلوكياً[2].

---

[1] – المرجع السابق، ص27.

[2] – د. عبد المنعم المشاط: التربية والسياسة، تأصيل العلاقة بين عمليتين سياستين، ص115.

الصحوة المؤسسية

ويقصد من ذلك إعادة الثقة في المؤسسات عامة:

المؤسسات القومية – المؤسسات دون القومية[1]، المؤسسات الوطنية، وعلى رأسها مؤسسة الحكم، وأخيراً مؤسسات الإدارة ونقصد أيضاً من الصحوة المؤسسية ليس إيقاظ وتفعيل المؤسسات السابقة، قيامها بدورها الفعال.

وأخيراً نقصد من الصحوة المؤسساتية ربط كل وظيفة function بعضو أو جهاز أو مؤسسة، على اعتبار أن الوظيفة لا تزدهر إلا بقيام مؤسسة خاصة بها، بحيث تنبع المؤسسة من الوظيفة دون أن تكون مقحمة عليها من الخارج.

[1] – ويقصد من ذلك المؤسسات التي عبرت عن التجمعات الإقليمية العربية.

الوحدة

لقد وضعنا الوحدة في الترتيب الأخير لهذه الدراسة على اعتبار أن الوحدة هي النتاج الذي يزين مفرق أي نشاط أو جهد أو سلوك، وبمعنى أوضح فالوحدة هي الحاضنة الكبرى الأم أو المشتل الأرفع الذي يحتضن أية ظاهرة، بحيث أن أية فعالية عربية لا تؤتي أكلها ما لم تتوطد في تربة الوحدة وتستلهم روحها وبهذا الوصف فالوحدة غاية ووسيلة وضرورة ومستقبل وكمال وتقدم وقوة، وليست فحسب حنين إلى الماضي والتمسك بإرث الأجداد، بل يجب أن يرسخ معناها وقيمها على أساس أنها خيار إرادي غائي هادف واع برنامجي إيديولوجي، قاصدين ومحدودين الإيديولوجيا بأنها إيديولوجيا الأمة وليس إيديولوجيا الحرب أو ذلك الفريق أو ذاك.

ومع ذلك فهذا المشروع – الولاء لا يلغي فكرة الانتماء كفكرة اجتماعية وليدة الصيرورة التاريخية، وفاعل الاجتماع العربي الطويل والممتد في جذوره إلى أعماق الماضي السحيق.

وإذا كانت العناصر التاريخية للوحدة تتجلى في الثقافة واللغة والذاكرة التاريخية والدين، وغير ذلك من عوامل الترابط القومي، فهذا الأمر لا ينسينا المفهوم الاقتصادي المصلحي للعروبة، بل إن مفهوم الوحدة في ماهيته وجوهره ينطوي في ذاته على المصلحة إذا اعتبرنا أن المصلحة هي كل حاجة مادية أو فكرية أو خلقية أو نفسية تقدم إلى الفرد، بل كل عمل اجتماعي جاد ومشروع لسبب بسيط هو أن الوحدة والوحدة وحدها القادرة على تأمين المصلحة المشروعة للمواطن.

هذه الأهمية المرتجاة للوحدة يحدونا –كمجتمع مدني أو كسلطة سياسية أو كنخب سياسية وجماهير عريضة– أن نتعامل مع الوحدة بوصفها مفهوماً استراتيجياً، وليس مفهوماً عرضياً أو طارئاً قائماً على نزوات هذا الحاكم أو تلك الفئة، ولا سيما إذا أدركنا أن النقيض التاريخي للوحدة «وهي القطرية» تشكل أعلى درجات التراجع والقهقري لأنها كيان مأزوم خلق مريض ممتلئ بالعاهات وعاجز عن إنجاز المشروع الأمني أو الثقافي أو الاقتصادي أو أي مشروع آخر، وبالتالي فالوحدة هي الإدارة على تحديات العصر وعلى نقلنا بأمان إلى عالم الكونية المعاصرة، وما لم نطرح قومية العلم القومية التكنولوجية، قومية الثورة المعلوماتية، قومية ثورة الاتصال، وغير ذلك من الثورات ما لم تطرح ذلك فستبقى ما دون العصر وستصدمنا الحداثة يوماً بعد يوم.

وإذا قلنا إن الوحدة مشروع يقوم على الولاء لا الانتماء اتضح لنا أن الوحدة تقوم على التوحد لا التوحيد، وهذا ما يستتبع سقوط أي مفهوم عسكري قسري عنفي يعقوبي للوحدة باعتبار أن الوحدة كما التطور، وهذا يعني أن الوحدة مفهوم أو ظاهرة فوق عضوية، فهي موجودة في كل مكان، وفي ضمير أي فرد، وليس في هذا المكان أو غيره.

ويترتب على ذلك أن تحقيق هذه الوحدة لا يتم دفعة واحدة بل هو مجهود مديد وئيد، ولكنه أكيد.

وتأسيساً على ما ذكرنا فالوحدة عمل الصيرورة قاصدين بالصيرورة التخلق الذي يعطي جدواه اليومي، وبالطبع برؤية واعية ومستقبلية، مشروع هدفي غائي مخطط ومبرمج ومحصن برؤية واعية ومستقبلية، وهذا المعنى التوحيدي لتحقيق الوحدة يعني بث شبكات التواصل والتماسك في جسم الأمة لا سيما إقامة البرامج

الاقتصادية المتكاملة وذات التأثير المضاعف من أجل خلق القاعدة المادية والتحتية للمجتمع.

ودولة الوحدة باعتبارها الإطار القانوني لتشخيص الأمة لا يمكن أن يكون إلا دولة المجتمع والشعب لا دولة السلطة وهذا يعني تأكيد سمتها الشعبية ومردودها الشعبي بحيث يتجلى دور الشعب في تأسيسها وبلورة فعالياتها وحماية وجودها وحقوقها، وبذلك لا يمكن حصر العمل الوحدوي بالقوميين العرب، بل يجب أن تتوسع أكنافها لتضم كافة القوى الفاعلة في المجتمع العربي.

وهذا المدلول الشعبي يستتبع تحويل مفهوم الوحدة بآلية التربية إلى فكرة اجتماعية – ثقافية تمتلكها الجماهير التي يجب أن تربى وتؤسس على اعتناق الوحدة.

وهذا يعني أن الوحدة ترتبط جذرياً بفكرة المواطن بحيث يمنح شرف الولاء للأمة إلى كل من يعيش على تربة الوطن العربي، وأخيراً فالوحدة هي المشروع المدني الكبير الذي يصد عنا الحوائج الكثيرة التي تتربص بالقطرية الدوائر، حيث تقف هذه القطرية معصوبة العينين مكتفة الأيادي حيال ذلك فضلاً عن أن الوحدة هي الأداة لتحقيق كونية الإنسان العربي، وهي بذلك تتفق مع أبعاده النفسية ومع أبعاد الأمة وذاكرتها التاريخية، لا سيما أن أمتنا نشأت وتكاملت في الكونية (حمل الأمة العربية لرسالة الإسلام).

وبهذا المعنى فالوحدة هي الجُنّة التي تحمينا في عالم الكونية من التفكك لا سيما أن هذه العولمة هي مشروع تفكيكي في المقام الأول وعلى رأس ذلك التفكك الثقافي وطمس سمات الهوية.

ونحن مع الدكتور "حسن حنفي" الذي اتحفنا بتحليل جديد لفكرة الفرقة الناجية فهذه الفرقة هي السفينة التي تقل الأمة بكافة مقوماتها والنجاة لهذه السفينة وليس لهذه الفئة أو تلك، وهذا التفسير القومي للفرقة الناجية يجعلنا نؤكد مع الدكتور حنفي على ضرورة توظيف المدلول الديني لفكرة "الكبيرة" في الإسلام، بحيث إن أي مساس بقيم الوحدة، إنما يعتبر من الكبائر الدينية لا سيما أن الإسلام هو دين التوحيد بنوعيه الديني والقومي، وهو الأمر الذي حدا القرآن الكريم للربط بين عبادة الله وبين الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ **الأنبياء/92**.

وأخيراً فليس صحيحاً ما يقوله بعضهم بأن الوحدة لم تعد مفهوماً إجرائياً، بل هي مفهوم قيد الثورة الصناعية.

وحقيقة الأمر أن الوحدة هي الكفيلة في صيانة تراثنا ونظريتنا إلى الوجود وحياتنا لا سيما في عصر الكونية الذي بدل الهويات ويقضي الثقافات.

السيرة الذاتية

الدكتور برهان خليل زريق

ولد في محافظة اللاذقية – قضاء الحفة– قرية الجنكيل (القادسية حالياً)، 1933.

المؤهلات العلمية:

- الثانوية العامة الفرع العلمي – ثانوية البنين(جول جمال) اللاذقية عام 1951.
- إجازة في الآداب – قسم اللغة العربية وعلومها – جامعة دمشق عام 1958.
- إجازة في الحقوق – جامعة حلب عام 1965.
- ماجستير في القانون الإداري من كلية الحقوق جامعة القاهرة عام 1970.
- دكتوراه في الحقوق – جامعة المنصورة عام 1984.

العمل المهني:

- التدريس في ثانويات محافظة اللاذقية عامي 1952–1953.
- العمل في المديرية العامة للتبغ والتنباك حتى عام 1975.
- العمل في مهنة المحاماة من بداية عام 1976 حتى آذار 2007.

النشاط المجتمعي:

- عضو في الاتحاد الاشتراكي فرع سوريا حتى عام 1975.
- عضو نقابة المحامين حتى عام 2007.
- عضو المؤتمر القومي العربي حتى وفاته 2015.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات أبرزها ندوة الوقف التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام 2002.

✓ تم الاستعانة بخدمات محرك البحث Google لتدقيق وتصويب أسماء المراجع والمؤلفين، وبعض محتويات هذا المؤَلف بسبب رحيل الكاتب قبل النشر، فالشكر كل الشكر للقائمين على هذا المحرك للخدمات الجليلة التي تقدم للإنسانية.

محتوى الكتاب

النهج المعاصر "المعاصرة" 5

"مسألة تجددنا الحضاري وموقعنا من حضارة الغرب" 5

المشروع النقيض 17

الجذور التاريخية لعداء العالم الغربي لأمتنا 25

بعض نماذج الخطاب الغربي عن الوحدة العربية 31

الغزو الثقافي في محيط الثقافة العربية الاسلامية 39

فصل تمهيدي: في الظاهرة الثقافية 43

المطلب الأول: التعريف بالثقافة وتحديد ماهيتها ووظيفتها الذاتية 45

المطلب الثاني: التغيير الثقافي 57

التكامل الثقافي 59

الانتشار الثقافي 69

الأمن الثقافي 105

التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني 127

نظرة موجزة عن تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي والديني في إسرائيل 157

تقديرنا لمستقبل التطبيع مع إسرائيل 173

حول بعض مقومات المشروع الحضاري النهضوي العربي 191

الهوية والتراث 213
لماذا الهوية والتراث 219
مقاربات الهوية والتراث"المناهج والتصورات وآليات البحث" 223
نحو مشروع ثقافي إنهاضي و مسألة ثقافة الموت وثقافة الحياة 251
خيارنا الحضاري جواز سفرنا إلى العولمة 263
خطاب العولمة خطاب كوني أم خطاب غزو واختراق 279
مسألة الاغتراب 309
الإصلاح الديني كعنصر في المشروع النهضوي العربي 317
الشريعة الإسلامية –وطن الأمة وجزء ماهيتها"ومسألة التغريب والتخريب" . 349
خواطر حول المشروع العمراني الحضاري العربي 375
المشاريع العملية للنهوض العربي 383
صحوة الهوية 387
الديمقراطية 401
إرساء فلسفة المجتمع المدني 407
الوحدة 417